التسهيل لعلوم التنزيل

للإمام محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي
(ت ٧٤١ هجرية)

تحقيق

أ. د. محمد بن سيدي محمد مولاي

الجزء الثالث

دار الضياء
للنشر والتوزيع

التسهيل لعلوم التنزيل

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت - حولي
ص ب : ١٣٤٦ حولي
الرمز البريدي : ٣٢٠١٤
تلفاكس : ٢٦٥٨١٨٠ (٠٩٦٥+)
نقال : ٩٣٩٦٤٨٠ (٠٩٦٥+)

دار الضياء للطباعة والنشر

حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه وبأي شكل من الأشكال أو نسخه أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه، وكذلك لا يسمح بالاقتباس منه أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

الموزعون المعتمدون

* الكويت:

. دار الضياء للنشر والتوزيع . حولي

تليفاكس: ٢٦٥٨١٨٠ . نقال: ٩٣٩٦٤٨٠

* السعودية:

. دار المنهاج للنشر والتوزيع . جدة.

هاتف: ٦٣١١٧١٠ فاكس: ٦٣٢٠٣٩٢

. دار التدمرية للنشر والتوزيع . الرياض.

هاتف: ٤٩٢٥١٩٢ فاكس: ٤٩٣٧١٣٠

. المكتبة المكية . مكة المكرمة.

هاتف: ٥٣٤٠٨٢٢ فاكس: ٥٣٦٦٢٩٩٠

. مكتبة العبيكان . جميع فروعها في المملكة

هاتف: ٩٢٠٠٢٠٠٢٠٩

* مصر:

المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة ٩ درب الأتراك .

خلف الأزهر الشريف . تلفاكس: ٥١٢٠٨٤٧

* الأردن:

. دار الرازي . عمان . العبدلي . تلفاكس: ٤٦٤٦١١٦

* سوريا:

. دار الفجر . دمشق . حلبوني

هاتف: ٢٢٢٨٣١٦ فاكس: ٢٤٥٣١٩٣

. دار الكلم الطيب . دمشق . حلبوني

هاتف: ٢٤٥١٢٢٦ فاكس: ٢٢٢٧٦٠٢

* لبنان:

. دار إحياء التراث العربي . بيروت

هاتف: ٥٤٤٤٤٠ . ٥٤٠٠٠٠ . فاكس ٨٥٠٧١٧

. شركة التمام . بيروت . كورنيش المزرعة

هاتف: ١٧٠٧٠٣٩

. شركة دار البشائر الإسلامية . بيروت . لبنان

هاتف: ٧٠٢٨٥٧ . فاكس: ٧٠٤٩٦٣

* مملكة البحرين

. المحرق - جمعية الإمام مالك بن أنس

هاتف: ١٧٣٣٤٣٥٠ . فاكس: ١٧٣٢٤٣٦٠

* جمهورية اليمن:

. مكتبة تريم الحديثة . تريم

هاتف: ٤١٧١٣٠ فاكس: ٤١٨١٣٠

* الإمارات العربية المتحدة:

. دار الفقيه . أبو ظبي

هاتف: ٦٦٧٨٩٢٠ فاكس: ٦٦٧٨٩٢١

. مكتبة الفقيه . أبو ظبي تلفاكس: ٦٣٩١٥٠٢

. مكتبة الحرمين للنشر والتوزيع . دبي

هاتف: ٢٧٣١٩٧٩ . ٤ . فاكس: ٢٧٣١٩٦٩ . ٤

* موريتانيا:

شركة الكتب الإسلامية في موريتانيا .

نواكشوط - هاتف: ٠٠٢٢٢٢٥٢٥٣٤٦١

البريد الإلكتروني: Dar_aldheyaa@yahoo.com
www.Daraldheya.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝

﴿ صٓ ﴾ تكلمنا على حروف الهجاء في البقرة ويختص بهذا أنه قال فيه معناه صدق محمد، وقيل: هو حرف من اسم الله الصمد، أو صادق الوعد أو صانع المصنوعات .

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ هذا قسم جوابه محذوف تقديره: إن القرآن من عند الله وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لصادق وشبه ذلك، وقيل: جوابه في قوله صلى الله عليه وسلم إذ هو بمعنى صدق محمد، وقيل: جوابه إن كل إلا كذب الرسل وهذا بعيد، وقيل: جوابه إن ذلك لحق تخاصم أهل النار وهذا أبعد، ومعنى ذي الذكر ذي الشرف والذكر بمعنى الموعظة أو ذكر الله وما يحتاج إليه من الشريعة .

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ الذين كفروا يعني قريشا وبل للإضراب عن كلام محذوف وهو جواب القسم أي إن كفرهم ليس ببرهان بل هو بسبب العزة والشقاق، والعزة هي: التكبر والشقاق: العداوة وقصد المخالفة، وتنكيرهما للدلالة على شدتهما وتفاخم الكفار فيهما.

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ إخبار يتضمن تهديدا لقريش .

﴿ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ المعنى أن القرون الذين هلكوا دعـوا واسـتغاثوا حين لم ينفعهم ذلك، ولات بمعنى: ليس، وهـي لا النافيـة زيـدت عليهـا علامة التأنيـث، كمـا زيـدت في ربـت وثمـت، ولا تـدخل لات إلا علـى زمان، واسمها مضمر وحين مناص خبرها والتقدير ليس الحين الذي دعـوا فيه حين مناص، والمناص: المفر والنجاة من قولك ناص ينوص إذا فر .

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ الضمير لقريش والمنذر سـيدنا محمـد صـلى الله عليه وسلم أي استبعدوا أن يبعث الله رسولا منهم ويحتمل أن يريـد مـن قبيلتهم أو يريد من البشر مثلهم .

﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ كان الأصل وقالوا ولكن وضع الظاهر موضع المضمر قصدا لوصفهم بالكفر.

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ هذا إنكار منـهم للتوحيـد وسـبب نـزول هـذه الآية: أن قريشا اجتمعوا وقالوا لأبي طالب: كف ابن أخيك عنا فإنـه يعيـب ديننا ويذم آلهتنا ويسفه أحلامنا، فكلمه أبو طالب في ذلك فقـال صـلى الله عليه وسلم: إنما أريد منهم كلمة واحدة يملكون بها العجم وتدين لهـم بهـا العرب، فقالوا: نعم وعشر كلمات معها، فقال: قولوا لا إله إلا الله، فقاموا وأنكروا ذلك وقالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا .

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا ﴾ انطلاق الملإ عبارة عن خـروجهم عـن أبي طالب، وقيل: عبارة عن تفرقتهم في طرق مكـة وإشـاعتهم للكفـر وأن امشوا معناه يقول بعضهم لبعض امـشوا واصـبروا علـى عبـادة آلهـتكم ولا تطيعوا محمدا فيما يدعوا إليه من عبادة الله وحده .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ هذا أيضا مما حكى الله من كلام قريش وفي معناه وجهان:

أحدهما: أن الإشارة إلى الإسلام والتوحيد أي إن هذا التوحيد شيء يراد منا الانقياد إليه.

والآخر: أن الإشارة إلى الشرك والصبر على آلهتهم أي إن هذا لشيء ينبغي أن يراد ويتمسك به أو أن هذا شيء يريده الله منا لما قضى علينا به والأول أرجح لأن الإشارة فيما بعد ذلك إليه فيكون الكلام على نسق واحد.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ هذا أيضا مما حكى الله عنهم من كلامهم أي ما سمعنا بالتوحيد في الملة الآخرة والمراد بالملة الآخرة ملة النصارى لأنها بعد ملة موسى وغيره وهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد وقيل: المراد ملة قريش أي ما سمعنا بهذا في الملة التي أدركنا عليها آباءنا وقيل: المراد الملة المنتظرة إذ كانوا يسمعون من الأحبار والكهان أن رسولا يبعث يكون آخر الأنبياء .

﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ هذا أيضا مما حكي من كلامهم والإشارة إلى التوحيد والإسلام ومعنى الاختلاق الكذب .

﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ الهمزة للإنكار والمعنى أنهم أنكروا أن يخص الله محمدا صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه دونهم .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ هذا رد عليهم والمعنى أنهم ليست لهم حجة ولا برهان بل هم في شك من معرفة الله وتوحيده فلذلك كفروا، ويحتمل أن يريد بالذكر القرآن .

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ هذا وعيد لهم وتهديد والمعنى أنهم إنما حملهم على الكفر كونهم لم يذوقوا العذاب فإذا ذاقوه زال عنهم الشك وأذعنوا للحق .

* * * *

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ هذا رد عليهم فيما أنكروا من اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة، والمعنى أنهم ليس عندهم خزائن رحمة الله حتى يعطوا النبوة من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا بل يعطيها الله لمن يشاء ثم وصف نفسه بالعزيز الوهاب لأن العزيز يفعل ما يشاء والوهاب ينعم على من يشاء فلا حجة لهم فيما أنكروا .

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هذا أيضا رد عليهم والمعنى: أم لهم الملك فيتصرفون فيه كيف شاؤوا بل مالك الملك يفعل في ملكه ما يشاء وأم الأولى منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار وأما أم الثانية فيحتمل أن تكون كذلك أو تكون عاطفة معادلة لما قبلها .

﴿ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ هذا تعجيز لهم وتهكم بهم ومعنى يرتقوا يصعدوا والأسباب هنا السلالم والطرق وشبه ذلك مما يوصل به إلى العلو، وقيل: هي أبواب السماء والمعنى إن كان لهم ملك السموات والأرض فليصعدوا إلى العرش ويدبروا الملك .

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ هذا وعيد بهزيمتهم في القتال وقد هزموا يوم بدر وغيره وما هنالك صفة لجند وفيها معنى التحقير لهم والإشارة بهنالك إلى حيث وصفوا أنفسهم من الكفر والاستهزاء، وقيل: الإشارة إلى الارتقاء في الأسباب وهذا بعيد، وقيل: الإشارة إلى موضع بدر ومن الأحزاب معناه من جملة الأحزاب الذين تعصبوا للباطل فهلكوا.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس: كانت له أوتاد وخشب يلعب بها وعليها، وقيل: كانت له أوتاد يسمرها في الناس لقتلهم، وقيل: أراد المباني العظام الثابتة ورجحه ابن عطية، وقال الزمخشري: إن ذلك استعارة في ثبات الملك كقول القائل[1]:

.... في ظل ملك ثابت الأوتاد

﴿وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾ قد ذكر.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ينظر هنا بمعنى ينتظر وهؤلاء يعني قريشا والصيحة الواحدة النفخة في الصور وهي نفخة الصعق، وقيل: الصيحة عبارة عما أصابهم من قتل وشدائد، والأول أظهر، وقد روي تفسيرها بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم[2].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: ما لها رجوع أي لا يرجعون بعدها إلى الدنيا وهو على هذا مشتق من الإفاقة.

---

(١) هذا عجز بيت للأسود بن يعفر وصدره:(ولقد غنوا فيها بأعظم عيشة...) انظر الكشاف ٤/٧٣.

(٢) انظر المحرر الوجيز ٤/٤٩٥ والدر المنثور للسيوطي ٥/٥٥٨.

الثاني: ما لها من ترداد أي إنما هي واحدة لا ثانية لها.

الثالث: ما لها من تأخير ولا توقف مقدار فواق ناقة، وهي ما بين حلبتي اللبن، وهذا القول الثالث إنما يجري على قراءة فواق بالضم لأن فواق الناقة بالضم والقولان الأولان على الفتح والضم .

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ القط في اللغة له معنيان:

أحدهما: الكتاب.

والآخر: النصيب، وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: نصيبنا من الخير أي دعوا أن يعجله الله لهم في الدنيا.

والآخر: نصيبهم من العذاب فهو كقولهم أمطر علينا حجارة من السماء.

الثالث: صحائف أعمالنا .

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ الأيد: القوة، وكان داود جمع قوة البدن والقوة في الدين والملك والجنود، والأواب: الرجاع إلى الله.

فإن قيل: ما المناسبة بين أمر الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على أقوال الكفار وبين أمره له بذكر داود؟ فالجواب عندي: أن ذكر داوود ومن بعده من الأنبياء في هذه السورة فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعد له بالنصر وتفريج الكرب وإعانة له على ما أمر به من الصبر، وذلك أن الله ذكر ما أنعم به على داوود من تسخير الطير والجبال وشدة ملكه وإعطائه الحكمة وفصل الخطاب ثم الخاتمة له في الآخرة بالزلفى وحسن المآب، فكأنه يقول: يا محمد كما أنعمنا على داوود بهذه النعم

كذلك ننعم عليك، فاصبر ولا تحزن على ما يقولـون، ثم ذكـر مـا أعطـى سليمان من الملك العظيم وتسخير الريح والجن والخاتمة بـالزلفى وحـسن المآب، ثم ذكر من ذكر بعد ذلك من الأنبياء والمقصد ذكر الإنعـام علـيهم لتقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وأيضا فإن داوود وسليمان وأيـوب أصابتهم شدائد ثم فرجها الله عنهم وأعقبـها بـالخير العظـيم، فـأمر سـيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بذكرهم ليعلمه أنه يفرج عنه ما يلقى مـن إذايـة قومه ويعقبها بالنصر والظهور عليهم فالمناسبة في ذلك ظـاهرة، وقـال ابـن عطية: المعنى اذكر داوود ذا الأيدي في الدين فتأس بـه وتأيـد كمـا تأيـد، وأجاب الزمخشري عن السؤال فإنه قال: كأن الله قال لنبيـه صـلى الله عليـه وسلم اصبر على ما يقولون، وعظم أمر المعصية في أعين الكفار بذكر قصة داوود، وذلك أنه نبي كريم عنـد الله ثم زل زلـة فوبخـه الله عليهـا فاسـتغفر وأناب، فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم، وهذا الجـواب لا يخفـى مـا فيه من سوء الأدب مع داوود عليه السلام حيـث جعلـه مثـالا يهـدد الله بـه الكفار، وصرح بأنه زل وأن الله وبخه على زلته، ومعاذ الله من ذكر الأنبيـاء بمثل هذا.

﴿ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴾ يعني وقت الإشراق وهو حين تـشرق الـشمس أي تـضيء ويصفر شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها .

﴿ مَحۡشُورَةً ﴾ أي مجموعة .

﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي كل مسبح لأجل تـسبيح داوود، ويحتمـل أن يكـون أواب هنا بمعنى رجاع أي ليرجع إلى أمره .

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: يعني النبـوة، وقيـل: العلـم والفهـم، وقيـل: الزبور.

﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال ابن عباس: هو فصل القضاء بين النـاس بـالحق، وقال علي بن أبي طالب: هو إيجاب اليمين على المدعى عليه والبينـة علـى المدعي، وقيل: أراد قول أما بعد فإنه أول مـن قالهـا، وقـال الزمخـشري: معنى فصل الخطاب البين من الكلام الذي يفهمـه مـن يخاطـب بـه، وهـذا المعنى اختاره ابن عطية وجعله من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾.

* * * *

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ۝ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ۝ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝﴾

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ جاءت هذه القصة بلفظ الاستفهام تنبيها للمخاطب ودلالة على أنها من الأخبار العجيبة التي ينبغي أن يلقي البال لها والخصم يقع على الواحد والاثنين والجماعة كقولك عدل وزور، واتفق الناس على أن هؤلاء الخصم كانوا ملائكة، وروي أنهما جبريل وميكائيل بعثهما الله ليضرب بهما المثل لداوود في نازلة وقع هو في مثلها فأفتى بفتيا هي واقعة عليه في نازلته ولما شعر وفهم المراد أناب واستغفر، وسنذكر القصة بعد هذا، ومعنى تسوروا المحراب علوا على سوره ودخلوه، والمحراب الموضع الأرفع من القصر، أو المسجد وهو موضع التعبد، ويحتمل أن يكون المتسور المحراب اثنين فقط لأن نفس الخصومة إنما كانت بين اثنين فقط فتجيء الضمائر في تسوروا ودخلوا وفزع منهم على وجه التجوز، والعبارة عن الاثنين بلفظ الجماعة وذلك جائز على مذهب من يرى أن أقل الجمع اثنان، ويحتمل أنه جاء مع كل واحد من الخصمين جماعة فيقع على جميعهم خصم وتجيء الضمائر المجموعة حقيقة وعلى هذا عول الزمخشري .

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ العامل في إذ هنا تسوروا، وقيل: هي بدل من الأولى، وأما إذ الأولى فالعامل فيها أتاك أو تسوروا ورد الزمخشري ذلك وقال: إن العامل فيها محذوف تقديره هل أتاك نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا وإنما فزع داوود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن ودخلوا من غير الباب، وقيل: إن ذلك كان ليلا .

﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تقديره: نحن خصمان ومعنى بغى: تعدى .

﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تجر علينا في الحكم يقال أشط الحاكم إذا جار وقرئ في الشاذ لا تشطط بفتح التاء أي لا تبعد عن الحق يقال شط إذا بعد.

﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي وسط الطريق ويعني القصد والحق الواضح .

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ هذه حكاية كلام أحد الخصمين والأخوة هنا أخوة الدين، والنعجة في اللغة تقع على أنثى بقر الوحش وعلى أنثى الضأن، وهي هنا عبارة عن المرأة، ومعنى أكفلنيها أملكها لي وأصله اجعلها في كفالتي، وقيل: اجعلها كفلي أي نصيبي، ومعنى عزني في الخطاب أي غلبني في الكلام والمحاورة يقال عز فلان فلانا إذا غلبه. وهذا الكلام تمثيل للقصة التي وقع داوود فيها، وقد اختلف الناس فيها وأكثروا القول فيها قديما وحديثا، حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "من حدث بما يقول هؤلاء القصاص في أمر داوود عليه السلام جلدته حدين لما ارتكب من حرمة من رفع الله محله"[١].

ونحن نذكر من ذلك ما هو أشهر وأقرب إلى تنزيه داوود عليه السلام.

---

(١) انظر المحرر الوجيز ٤/٤٩٩ .

روي[1] أن أهل زمان داوود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأة فيتزوجها إذا أعجبته وكانت لهم عادة في ذلك لا ينكرونها وقد جاء عن الأنصار في أول الإسلام شيء من ذلك فاتفق أن وقعت عين داوود على امرأة رجل فأعجبته فسأله النزول عنها ففعل وتزوجها داوود عليه السلام فولد له منها سليمان عليه السلام وكان لداوود تسع وتسعون امرأة فبعث الله إليه ملائكة مثالا لقصته فقال أحدهما إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة إشارة إلى التسع والتسعين امرأة التي كانت لداوود ولي نعجة واحدة إشارة إلى أن ذلك الرجل لم تكن له إلا تلك المرأة الواحدة فقال: أكفلنيها إشارة إلى سؤال داود من الرجل النزول عن امرأته فأجابه داوود عليه السلام بقوله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه فقامت الحجة عليه بذلك فتبسم الملكان عند ذلك وذهبا ولم يرهما فشعر داوود أن ذلك عتاب من الله له على ما وقع فيه .

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ولا تقتضي هذه القصة على هذه الرواية أن داوود عليه السلام وقع فيما لا يجوز شرعا وإنما عوتب على أمر جائز كان ينبغي له أن يتنزه عنه لعلو مرتبته ومتانة دينه، فإنه قد يعاتب الفضلاء على ما لا يعاتب عليه غيرهم، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وأيضا فإنه كان له تسع وتسعون امرأة فكان غنيا عن هذه المرأة فوقع العتاب على الاستكثار من النساء وإن كان جائزا، وروي هذا الخبر على وجه آخر وهو أن داوود انفرد يوما في محرابه للتعبد فدخل عليه طائر من كوة فوقع بين يديه فأعجبه فمد يده ليأخذه فطار على الكوة فصعد داوود ليأخذه فرأى من الكوة امرأة تغتسل عريانة فأعجبته ثم انصرف فسأل عنها فأخبر أنها امرأة

(١) رواه ابن عباس بلفظ قريب من هذا اللفظ، أخرجه الطبري الحديث رقم: (٢٩٨٥٣) .

رجل من جنده وأنه خرج للجهاد مع الجند فكتب داوود إلى أمير تلك الحرب أن يقدم ذلك الرجل يقاتل عند التابوت وهو موضع قل ما تخلص أحد منه فقدم ذلك الرجل فقاتل حتى قتل شهيدا فتزوج داوود امرأته[1] فعوتب على تعريضه ذلك الرجل للقتل وتزوجه امرأته بعده مع أنه كان له تسع وتسعون امرأة سواها، وقيل: إن داوود هم بذلك كله ولم يفعله وإنما وقعت المعاتبة على همه بذلك، وروي أن السبب فيما جرى له مثل ذلك أنه أعجب بعلمه وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف الفتنة على نفسه ففتن بتلك القصة، وروي أيضا أن السبب في ذلك أنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب والتزم أن يبتلى كما ابتلوا فابتلاه الله بما جرى له في تلك القصة.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ سؤال مصدر مضاف إلى المفعول وإنما تعدى بإلى لأنه تضمن معنى الإضافة كأنه قال بسؤال نعجتك مضافة أو مضمومة إلى نعاجه، فإن قيل: كيف قال له داوود لقد ظلمك قبل أن يثبت عنده ذلك؟ فالجواب: أنه روي أن الآخر اعترف بذلك وحذف ذكر اعترافه اختصارا، ويحتمل أن يكون قوله لقد ظلمك على تقدير صحة قوله وقد قيل: إن قوله لأحد الخصمين لقد ظلمك قبل أن يسمع حجة الآخر كانت خطيئته التي استغفر منها وأناب.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الخلطاء هم الشركاء في الأموال ولكن الخلطة أعم من الشركة، ألا ترى أن الخلطة في المواشي ليست

---

(١) هذه القصة لا تصح، ولو أن ابن جزي التزم بالمنهج الذي ذكر في مقدمته لما أورد مثل هذه القصة الواهية المأخوذة من الإسرائيليات والتي لا تليق بمقام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهو متبع طريق من سبقه بذكر هذه القصص المختلقة وحسبنا الله ونعم الوكيل.

بشركة في رقابها، وقصد داود بهذا الكلام الوعظ للخصم الذي بقي والتسلية بالتأسي للخصم الذي بقي عليه .

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ما زائدة للتأكيد .

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ظن هنا بمعنى شعر بالأمر، وقيل: بمعنى أيقن وفتناه معناه اختبرناه .

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ معنى خر ألقى بنفسه إلى الأرض وإنما حقيقة ذلك في السجود، فقيل: إن الركوع هنا بمعنى السجود، وقيل: خر من ركوعه ساجدا بعد أن ركع ومعنى أناب تاب وروي أنه بقي ساجدا أربعين يوما يبكي حتى نبت البقل من دموعه وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك خلافا للشافعي إلا أنه اختلف في مذهب مالك هل يسجد عند قوله: ﴿وَأَنَابَ﴾ أو عند قوله: ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ .

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ الزلفى القربة والمكانة الرفيعة والمآب المرجع في الآخرة .

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقديره: قال الله يا داوود، وخلافة داوود بالنبوة والملك، قال ابن عطية: لا يقال خليفة الله إلا لنبي، وأما الملوك والخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، وقول الناس فيهم خليفة الله تجوز .

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي عبثا بل خلقهما الله بالحق للاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما .

﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ المعنى أن الكفار لما أنكروا الحشر والجزاء كانت خلقة السموات والأرض عندهم باطلا بغير الحكمة فإن الحكمة في ذلك إنما تظهر في الجزاء الأخروي .

* * * *

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ
ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ
عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ
مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ
وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ
عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم هنا استفهامية يراد بها الإنكار أي أن الله لا يجعل المؤمنين والمتقين كالمفسدين والفجار بل يجازي كل واحد بعمله لتظهر حكمة الله في الجزاء ففي ذلك استدلال على الحشر والجزاء وفيه أيضا وعد ووعيد .

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ الصافنات جمع صافن، وهو الفرس الذي يرفع إحدى رجليه أو يديه ويقف على طرف الأخرى، وقيل: الصافن هو الذي يسوي يديه، والصفن علامة على فراهة الفرس، والجياد السريعة الجري، واختلف الناس في قصص هذه الآية، فقال الجمهور: إن سليمان عليه السلام عرضت عليه خيل كان ورثها عن أبيه، وقيل: أخرجتها له الشياطين من البحر وكانت ذوات أجنحة وكانت ألف فرس، وقيل: أكثر، فتشاغل بالنظر إليها حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العشي العصر فأسف لذلك وقال: ردوا علي الخيل وطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف حتى عقرها لما كانت سبب فوات الصلاة ولم يترك منها إلا اليسير فأبدله الله أسرع منها وهي الريح.

وأنكر بعض العلماء هذه الرواية وقال: تفويت الصلاة ذنب لا يفعله سليمان، وعقر الخيل لغير فائدة لا يجوز، فكيف يفعله سليمان عليه السلام وأي ذنب للخيل في تفويت الصلاة، فقال بعضهم: إنما عقرها ليأكلها الناس وكان زمانهم زمان مجاعة فعقرها تقربا إلى الله، وقال بعضهم: لم تفته الصلاة ولا عقر الخيل بل كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار إليهم فأزالوها حتى دخلت اصطبلاتها فلما فرغ من صلاته قال: ردوها علي فطفق يمسح عليها بيده كرامة لها ومحبة، وقيل: إن المسح عليها كان وسما في سوقها وأعناقها بوسم حبس في سبيل الله .

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ معنى هذا يختلف على حسب الاختلاف في القصة فأما الذين قالوا إن سليمان عقر الخيل لما اشتغل بها حتى فاتته الصلاة فاختلفوا في هذا على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الخير هنا يراد به الخيل وزعموا أن الخيل يقال لها خير وأحببت بمعنى آثرت أو بمعنى فعل يتعدى بعن كأنه قال آثرت حب الخيل فشغلني عن ذكر ربي.

والآخر: أن الخير هنا يراد به المال لأن الخيل وغيرها مال فهو كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ أي مالا.

والثالث: أن المفعول محذوف وحب الخير مصدر والتقدير أحببت هذه الخيل مثل حب الخير فشغلني عن ذكر ربي وأما الذين قالوا إنه كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار بإزالتها فالمعنى أنه قال إني أحببت حب الخير الذي عند الله في الآخرة بسبب ذكر ربي، وشغلني ذلك عن النظر إلى الخيل .

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ الضمير للشمس وإن لم يتقدم ذكرها ولكنها تفهم من سياق الكلام وذكر العشي يقتضيها والمعنى حتى غابت الشمس، وقيل إن الضمير للخيل ومعنى توارت بالحجاب دخلت اصطبلاتها والأول أشهر وأظهر .

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ أي قال سليمان ردوا الخيل علي .

﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ السوق: جمع ساق يعني سوق الخيل وأعناقها أي جعل يمسحها مسحا، وهذا المسح يختلف على حسب الاختلاف المتقدم هل هو قطعها وعقرها أو مسحها باليد محبة لها أو وسمها للتحبيس.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ تفسير هذه الآية يختلف على حسب الاختلاف في قصتها وفي ذلك أربعة أقوال:

الأول: أن سليمان كان له خاتم ملكه وكان فيه اسم الله فكان ينزعه إذا دخل الخلاء توقيرا لاسم الله تعالى، فنزعه يوما ودفعه إلى جارية فتمثل لها جني في صورة سليمان وطلب منها الخاتم فدفعته له، روي أن اسمه صخر فقعد على كرسي سليمان يأمر وينهى والناس يظنون أنه سليمان وخرج سليمان فارا بنفسه فأصابه الجوع فطلب حوتا ففتح بطنه فوجد فيه خاتمه وكان الجني قد رماه في البحر فلبس سليمان الخاتم وعاد إلى ملكه ففتنة سليمان على هذا هي ما جرى له من سلب ملكه، والجسد الذي ألقى على كرسيه هو الجني الذي قعد عليه وسماه جسدا لأنه تصور في صورة إنسان ومعنى أناب رجع إلى الله بالاستغفار والدعاء أو رجع إلى ملكه.

والقول الثاني: أن سليمان كان له امرأة يحبها وكان أبوها ملكا كافرا قد قتله سليمان، فسألته أن يضع لها صورة أبيها فأطاعها في ذلك فكانت تسجد للصورة ويسجد معها جواريها وصار صنما معبودا في داره وسليمان لا يعلم حتى مضت أربعون يوما فلما علم به كسره، فالفتنة على هذا عمل الصورة والجسد هو الصورة.

والقول الثالث: أن سليمان كان له ولد وكان يحبه حبا شديدا فقالت الجن إن عاش هذا الولد ورث ملك أبيه فبقينا في السخرة أبدا فلم يشعر إلا وولده ميت على كرسيه فالفتنة على هذا حبه الولد والجسد هو الولد لما مات وسمي جسدا لأنه جسد بلا روح.

القول الرابع: أنه قال لأطوفن الليلة على مائة امرأة تأتي كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فلم تحمل إلا واحدة جاءت بشق إنسان فالفتنة على هذا كونه لم يقل إن شاء الله والجسد هو شق الإنسان الذي ولد له .

فأما القول الأول: فضعيف من طريق النقل مع أنه يبعد ما ذكر فيه من سلب ملك سليمان وتسليط الشياطين عليه، وأما القول الثاني: فضعيف أيضا مع أنه يبعد أنه يعبد صنم في بيت نبي أو يأمر نبي بعمل صنم، وأما القول الثالث: فضعيف أيضا، وأما القول الرابع: فقد روي في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] لكنه لم يذكر في الحديث أن ذلك تفسير الآية .

(١) البخاري الحديث رقم: ٢٨١٩ ومسلم الحديث رقم ١٦٥٤.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ قدم الاستغفار على طلب الملك لأن أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا فقدم الأولى والأهم، فإن قيل:لأي شيء قال لا ينبغي لأحد من بعدي وظاهر هذا طلب الانفراد به حتى قال فيه الحجاج إنه كان حسودا؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه إنما قال ذلك لئلا يجري عليه مثل ما جرى من أخذ الجني لملكه فقصد أن لا يسلب ملكه عنه في حياته ويصير إلى غيره.

والآخر: أنه طلب ذلك ليكون معجزة ودلالة على نبوته .

﴿ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴾ معنى رخاء لينة طيبة، وقيل: طائعة له وقد ذكرنا الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿عَاصِفَةٗ﴾ في الأنبياء.

﴿حَيۡثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث قصد وأراد .

﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴾ الشياطين معطوف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين أي سخرنا له الريح والشياطين من يبني منهم ومن يغوص في البحر .

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾ أي آخرين من الجن موثقين في القيود والأغلال.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ الإشارة إلى الملك الذي أعطاه الله له، والمعنى: أن الله قال له أعط من شئت وامنع من شئت، وقيل: المعنى امنن على من شئت من الجن بالإطلاق من القيود، وأمسك من شئت منهم في القيود، والأول أحسن وهو قول ابن عباس .

﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أنه لا يحاسب في الآخرة على ما فعل.

والآخر: بغير تضييق عليك في الملك.

والثالث: بغير حساب ولا عدد بل خارج عن الحصر .

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ قد ذكر في قصة داوود .

* * * *

وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ
بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا
فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ
ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ
لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ
كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾
هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا
بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ قد ذكرنا قصة أيوب عليه السلام في الأنبياء، والنصب يقال بضم النون وإسكان الصاد وبفتح النون وإسكان الصاد وبضم النون والصاد وبفتحهما ومعناه واحد، وهو المشقة، فإن قيل: لم نسب ما أصابه من البلاء إلى الشيطان؟ فالجواب من أربعة أوجه:

أحدها: أن سبب ذلك كان من الشيطان، فإنه روي أنه دخل على بعض الملوك فرأى منكرا فلم يغيره، وقيل: إنه كانت له شاة فذبحها وطبخها وكان له جار جائع فلم يعط جاره منها شيئا.

والثاني: أنه أراد ما وسوس له الشيطان في مرضه من الجزع وكراهة البلاء فدعا إلى الله أن يدفع عنه وسوسة الشيطان بذلك.

والثالث: أنه روي أن الله سلط الشيطان عليه ليفتنه فأهلك ماله فصبر، وأهلك أولاده فصبر، وأصابه الجذام والمرض الشديد فصبر، فنسب ذلك إلى الشيطان لتسليط الشيطان عليه.

والرابع: روي أن الشيطان لقي امرأته فقال لها: قولي لزوجك إن سجد لي سجدة أذهبت ما به من المرض، فذكرت المرأة ذلك لأيوب فقال لها: ذلك عدو الله الشيطان، وحينئذ دعا.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ التقدير قلنا له اركض برجلك فضرب الأرض برجله فنبعت له عين ماء صافية باردة فشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده واغتسل منها فذهب ما كان في ظاهر جسده، وروي أنه ركض الأرض مرتين فنبع له عينان فشرب من أحدهما واغتسل من الأخرى.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ ذكر في الأنبياء.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ الضغث: القبضة من القضبان، وكان أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط إذا برئ من مرضه، وكان سبب ذلك ما ذكرته له من لقاء الشيطان وقوله لها إن سجد لي زوجك أذهبت ما به من المرض فأمره أن يأخذ ضغثا فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة فيبر في يمينه، وقد ورد مثل هذا عن نبينا صلى الله عليه وسلم في حد رجل زنى وكان مريضا فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذق نخلة فيه شماريخ مائة فضرب به ضربة واحدة، ذكر ذلك أبو داوود[1] والنسائي وأخذ به بعض العلماء ولم يأخذ به مالك ولا أصحابه.

---

(١) أبو داود الحديث رقم ٤٤٧٢ باب في إقامة الحد على المريض.

﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ الأيدي: جمع يد، وذلك عبارة عن قوتهم في الأعمال الصالحات، وإنما عبر عن ذلك بالأيدي لأن الأعمال أكثر ما تعمل بالأيدي، وأما الأبصار فعبارة عن قوة فهمهم وكثرة علمهم من قولك أبصر الرجل إذا تبينت له الأمور، وقيل: الأيدي جمع يد بمعنى النعمة ومعناه أولوا النعم التي أسداها الله إليهم من النبوة والفضيلة وهذا ضعيف لأن اليد بمعنى النعمة أكثر ما يجمع على أيادي، وقرأ ابن مسعود أولوا الأيد بغير ياء فيحتمل أن تكون الأيدي محذوفة الياء أو يكون الأيد بمعنى القوة كقوله: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ معنى أخلصناهم جعلناهم خالصين لنا أو أخلصناهم دون غيرهم، وخالصة صفة حذف موصوفها تقديره بخصلة خالصة وأما الباء في قوله بخالصة فإن كان أخلصناهم بمعنى جعلناهم خالصين فالباء سببية للتعليل، وإن كان أخلصناهم بمعنى خصصناهم فالباء لتعدية الفعل، وقرأ نافع بإضافة خالصة إلى ذكرى من غير تنوين وقرأ غيره بالتنوين على أن تكون ذكرى بدلا من خالصة على وجه البيان والتفسير لها والدار يحتمل أن يريد به الآخرة أو الدنيا فإن أراد به الآخرة ففي المعنى ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ذكرى الدار يعني به ذكرهم للآخرة وجهنم فيها.

والآخر: أن معناه تذكيرهم للناس بالآخرة وترغيبهم للناس فيها عند الله.

والثالث: أن معناه ثواب الآخرة أي أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة والأول أظهر، وإن أراد بالدار الدنيا فالمعنى حسن الثناء والذكر الجميل في الدنيا كقوله: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ .

﴿ ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خير بتشديد الياء أو خير المخفف من خير كميت مخفف من ميت.

﴿ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ ذكر في الأنبياء .

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ الإشارة إلى ما تقدم في هذه السورة من ذكر الأنبياء، وقيل:الإشارة إلى القرآن بجملته، والأول أظهر، وكأن قوله هذا ذكر ختام للكلام المتقدم ثم شرع بعده في كلام آخر كما يتم المؤلف بابا ثم يقول فهذا باب ثم يشرع في آخر .

﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ذكر في الصافات .

﴿أَتْرَابٌ ﴾ يعني أسنانهن سواء يقال فلان ترب فلان إذا كان مثله في السن، وقيل يعني: أن أسنانهن وأسنان أزواجهن سواء .

﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ أي ماله من فناء ولا انقضاء .

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ تقديره الأمر هذا لما تم ذكر أهل الجنة ختمه بقوله هذا ثم ابتدأ وصف أهل النار ويعني بالطاغين الكفار .

﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ هذا مبتدأ وخبره حميم فليذوقوه اعتراف بينهما والحميم الماء الحار والغساق قرئ بتخفيف السين وتشديدها وهو صديد أهل النار، وقيل: ما يسيل من عيونهم، وقيل: هو عذاب لا يعلمه إلا الله .

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ آخر معطوف على حميم وغساق تقديره وعذاب آخر، قيل: يعني الزمهرير، ومعنى من شكله من مثله ونوعه أي من

مثل العذاب المذكور وأزواج معناه أصناف وهو صفة للحميم والغساق، والعذاب الآخر، والمعنى أنها أصناف من العذاب، وقال ابن عطية: آخر مبتدأ واختلف في خبره فقيل تقديره ولهم عذاب آخر، وقيل: أزواج مبتدأ ومن شكله خبر أزواج والجملة خبر آخر، وقيل: أزواج خبر لآخر ومن شكله في موضع الصفة، وقرئ أخر بالجمع وهو أليق أن يكون أزواج خبره لأنه جمع مثله .

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ الفوج: الجماعة من الناس، والمقتحم: الداخل في زحام وشدة، وهذا من كلام خزنة النار خاطبوا به رؤساء الكفار الذين دخلوا النار أولا ثم دخل بعدهم أتباعهم وهو الفوج المشار إليه، وقيل: هو كلام أهل النار بعضهم لبعض والأول أظهر .

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي لا يلقون رحبا ولا خيرا وهو دعاء من كلام رؤساء الكفار أي لا مرحبا بالفوج الذين هم أتباع لهم .

* * * *

قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ
عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ
زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ
الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ
عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ
سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ
﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾

﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ هذا حكاية كلام الأتباع للرؤساء لما قالوا لهم لا مرحبا بهم أجابوهم بقولهم بل أنتم لا مرحبا بكم .

﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ ﴾ هذا أيضا من كلام الأتباع خطابا للرؤساء وهو تعليل لقولهم بل أنتم لا مرحبا بكم، والضمير في قدمتموه للعذاب ومعنى قدمتموه أوجبتموه لنا بما قدمتم في الدنيا من إغوائنا وأمركم لنا بالكفر .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ هذا أيضا من كلام الأتباع دعوا إلى الله تعالى أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ والضعف زيادة المثل .

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ الضمير في قالوا لرؤساء الكفار، وقيل: للطاغين والرجال هم ضعفاء المؤمنين، وقيل: إن القائلين

لذلك أبو جهل لعنه الله، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة وأمثالهم، وأن الرجال المذكورين هم: عمار، وبلال، وصهيب، وأمثالهم، واللفظ أعم من ذلك والمعنى أنهم قالوا في جهنم ما لنا لا نرى في النار رجالا كنا في الدنيا نعدهم من الأشرار .

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ قرئ أتخذناهم بهمزة قطع ومعناها توبيخ أنفسهم على اتخاذهم المؤمنين سخريا، وقرئ بألف وصل على أن يكون الجملة صفة لرجال وقرئ سخريا بضم السين من التسخير بمعنى الخدمة، وبالكسر بمعنى الاستهزاء .

﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ هذا يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون معادلا لقولهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا ﴾ والمعنى ما لنا لا نراهم في جهنم فهم ليسوا فيها، أم هم فيها ولكن زاغت عنهم أبصارنا ومعنى زاغت عنهم مالت فلم نرهم .

الثاني: أن يكون معادلا لقولهم أتخذناهم سخريا والمعنى أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم أبصارنا في الدنيا، ومعنى زاغت الأبصار: مالت عن النظر إليهم احتقارا لهم.

الثالث: أن تكون أم منقطعة بمعنى بل والهمزة، فلا تعادل شيئا مما قبلها .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من حكاية أقوال أهل النار ثم فسره بقوله:﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ وإعراب تخاصم بدل من حق أو خبر مبتدأ مضمر.

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴾ النبأ الخبر ويعني به ما تضمنته الشريعة من التوحيد والرسالة والدار الآخرة، وقيل: هو القرآن، وقيل: هو يوم القيامة، والأول أعم وأرجح .

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ المـلأ الأعلـى: هـم الملائكـة، ومقصد الآية الاحتجاج على نبوة محمد صـلى الله عليـه وسـلم لأنـه أخـبر بأمور لم يكن يعلمها قبـل ذلـك، والـضمير في يختـصمون للمـلإ الأعلـى واختصامهم هو في قصة آدم حين قـال لهـم: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن، وفي الحديث: " أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقال: يا محمد فـيم يختـصم المـلأ الأعلـى، فقال لا أدري: قال في الكفارات وهي إسباغ الوضوء علـى المكـاره وكثـرة الخطـا إلى المـساجد"[1] الحـديث بطولـه، وقيـل: الـضمير في يختـصمون للكفار، أي يختـصمون في المـلإ الأعلـى فيقـول بعـضهم: هـم بنـات الله ويقولون آخرون: هم آلهة تعبد، وهذا بعيد.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ إذ بـدل مـن إذ يختـصمون وقـد ذكرنا في البقرة معنى سجود الملائكة لآدم، ومعنى كفر إبليس، وذكرنا في الحجر معنى قوله تعالى: ﴿ مِن رُّوحِي ﴾.

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ الضمير في قال لله عز وجل، و بيدي من المتشابه الذي ينبغي الإيمان بـه وتـسليم علـم حقيقتـه إلى الله، وقال المتأولون: هو عبارة عن القدرة، وقال القاضي أبو بكـر بـن الطيـب: إن اليد والعين والوجه صفات زائدة على الصفات المتقررة، قال ابن عطية: وهذا قول مرغوب عنه، وحكى الزمخشري أن معنى خلقت بيـدي خلقـت بغير واسطة.

---

(١) الترمذي الحديث رقم ٣٢٣٣ والمسند ٥/٢٤٣.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ دخلت همزة الاستفهام على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل وأم هنا معادلة والمعنى أستكبرت الآن أم كنت قديما ممن يعلو ويستكبر وهذا على جهة التوبيخ له.

﴿ رَجِيمٌ ﴾ أي لعين مطرود .

* * * *

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ
نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ يعني القيامة، وقد تقدم الكلام على ذلك في الحجر.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الباء للقسم أقسم إبليس بعزة الله أن يغوي بني آدم.

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الضمير في قال هنا لله تعالى، والحق الأول مقسم به وهو منصوب بفعل مضمر كقولك الله لأفعلن وجوابه لأملأن جهنم وقرئ بالرفع وهو مبتدأ أو خبر مبتدإ مضمر تقديره: الحق يميني، وأما الحق الثاني فهو مفعول بأقول وقوله والحق أقول جملة اعتراض بين القسم وجوابه على وجه التأكيد للقسم.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي الذين يتصنعون ويتحيلون بما ليسوا من أهله.

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ هذا وعيد أي لتعلمن صدق خبره بعد حين والحين يوم القيامة أو موتهم أو ظهور الإسلام يوم بدر وغيره.

* * * *

سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تنزيل مبتدأ وخبره من الله أو خبر ابتداء مضمر تقديره هذا تنزيل ومن الله على هذا الوجه يتعلق بتنزيل أو يكون خبرا بعد خبر أو خبر مبتدإ آخر محذوف والكتاب هنا القرآن أو السورة واختار ابن عطية أن يراد به جنس الكتب المنزلة وأما الكتاب الثاني فهو القرآن باتفاق .

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون معناه متضمنا الحق.

والثاني: أن يكون معناه بالاستحقاق والوجوب .

﴿ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي لا يكون فيه شرك أكبر ولا أصغر وهو الرياء.

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ قيل: معناه من حقه ومن واجبه أن يكون له الدين الخالص، ويحتمل أن يكون معناه إن الدين الخالص هو دين الله وهو الإسلام الذي شرعه لعباده ولا يقبل غيره، ومعنى الخالص الصافي من

شوائب الشرك، وقال قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إلـه إلا الله، وقـال الحسن: هو الإسلام وهذا أرجح لعمومه .

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يريد بالأولياء الشركاء المعبـودين، ويحتمل أن يريد بالذين اتخذوا الكفار العابدين لهم أو الـشركاء المعبـودين والأول أظهر لأنه يحتاج على الثاني إلى حذف الـضمير العائـد علـى الـذين تقديره الذين اتخذوهم ويكون ضمير الفاعـل في اتخـذوا عائـدا علـى غـير مذكور وارتفاع الذين على الوجهين بالابتداء وخبره إما قولـه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أو المحذوف المقدر قبل قوله ما نعبدهم لأن تقـديره: يقولـون مـا نعبدهم والأول أرجح لأن المعنى به أكمل .

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ هذه الجملة في موضع معمول قـول محذوف والقول في موضع الحال أو في موضع بدل من صلة الذين، وقـرأ ابن مسعود قالوا ما نعبدهم بإظهار القول أي يقول الكفـار مـا نعبـد هـؤلاء الآلهة إلا ليقربونا إلى الله ويشفعوا لنا عنده ويعني بذلك الكفار الذين عبدوا الملائكة، أو الذين عبدوا الأصنام، أو الذين عبدوا عيـسى أو عزيـرا، فـإن جميعهم قالوا هذه المقالة ومعنى زلفى قربى فهو مصدر من يقربونا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ إشـارة إلى كـذبهم في قـولهم ليقربونا إلى الله، وقوله لا يهدي في تأويله وجهان:

أحدهما: لا يهديه في حال كفره.

والثاني: أن ذلك مختص بمن قضى عليه بالموت على الكفر، أعاذنا الله من ذلك، وهذا تأويل: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والكافرين حيثما وقع.

﴿ لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ الولد يكون على وجهين:

أحدهما: بالولادة الحقيقية وهذا محال على الله تعالى لا يجوز في العقل.

والثاني: التبني بمعنى الاختصاص والتقريب كما يتخذ الإنسان ولد غيره ولدا لإفراط محبته له، وهذا ممتنع على الله بإخبار الشرع فإن قوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ يعم نفي الوجهين فمعنى الآية على ما أشار إليه ابن عطية: لو أراد الله أن يتخذ ولدا على وجه التبني لاصطفى لذلك مما يخلق من موجوداته ومخلوقاته، ولكنه لم يرد ذلك ولا فعله، وقال الزمخشري: معناه لو أراد الله اتخاذ الولد لامتنع ذلك، ولكنه يصطفي من عباده من يشاء على وجه الاختصاص والتقريب لا على وجه اتخاذه ولدا فاصطفى الملائكة وشرفهم بالتقريب فحسب الكفار أنهم أولاده ثم زادوا على ذلك أن جعلوهم إناثا فأفرطوا في الكفر والكذب على الله وملائكته.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ نزه تعالى نفسه من اتخاذ الولد ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه، ولا جنس له لأنه واحد، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى فكيف يكون شريكا له؟ ثم أتبع ذلك بما ذكره من خلقة السموات والأرض وما بينهما ليدل على وحدانيته وقدرته وعظمته .

﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ التكوير: اللف والللي، ومنه كور العمامة التي يلتوي بعضها على بعض وهو هنا استعارة، ومعناه على ما قال ابن عطية:

يعيد من هذا على هذا فكان الذي يطيل من النهار أو الليل يـصير منـه علـى الآخر جزءا فيستره وكأن الذي يقصر يـدخل في الـذي يطـول فيـستتر فيـه، ويحتمل أن يكون المعنى أن كل واحد منهما يغلب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في ستره له بثوب يلف على الآخر .

﴿ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة .

* * * *

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ
فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ
وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ
ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا
يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام .

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء خلقها من ضلع آدم، فإن قيل: كيف عطف قوله ثم جعل على خلقكم بثم التي تقتضي الترتيب والمهلة، ولا شك أن خلقة حواء كانت قبل خلقة بني آدم؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو المختار أن العطف إنما هو على معنى قوله واحدة لا على خلقكم كأنه قال خلقكم من نفس كانت واحدة ثم خلق منها زوجها بعد وحدتها.

الثاني: أن ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الوجود.

الثالث: أنه يعني بقوله خلقكم إخراج بني آدم من صلب أبيهم كالذر وذلك كله كان قبل خلقه حواء .

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ يعني المذكورة في الأنعام من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، وسماها

أزواجا لأن الذكر زوج الأنثى والأنثى زوج الذكر، وأما أنزل ففيه ثلاثة أوجه:

الأول: أن الله خلق أول هذه الأزواج في السماء ثم أنزلها.

الثاني: أن معنى أنزل قضى وقسم فالإنزال عبارة عن نزول أمره وقضائه.

الثالث: أنه أنزل المطر الذي ينبت به النبات فتعيش منه هذه الأنعام فعبر بإنزالها عن إنزال أرزاقها وهذا بعيد .

﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يعني أن الإنسان يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن يتم خلقه ثم ينفخ فيه الروح .

﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ هي: البطن والرحم والمشيمة، وقيل: صلب الأب والرحم والمشيمة والأول أرجح لقوله: في بطون أمهاتكم ، ولم يذكر الصلب .

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ أي لا يضره كفركم .

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ تأول الأشعرية هذه الآية على وجهين:

أحدهما: أن الرضا بمعنى الإرادة ويعني بعباده من قضى الله له بالإيمان والوفاة عليه فهو كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

والآخر: أن الرضا غير الإرادة والعباد على هذا على العموم أي لا يرضى الكفر لأحد من البشر، وإن كان قد أراد أن يقع من بعضهم فهو لم يرضه دينا ولا شرعا وأراده وقوعا ووجودا، وأما المعتزلة فإن الرضا عندهم بمعنى الإرادة والعباد على العموم جريا على قاعدتهم في القدر وأفعال العباد .

﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ هذا عموم والشكر الحقيقي يتضمن الإيمان.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ ذكر في الإسراء .

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ الآية يراد بالإنسان هنا الكافر بدليل قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ والقصد بهذه الآية عتاب وإقامة حجة فالعتاب على الكفر وترك دعاء الله وإقامة الحجة على الإنسان بدعائه إلى الله في الشدائد، فإن قيل: لم قال هنا وإذا مس بالواو، وقال بعدها فإذا مس بالفاء؟ فالجواب: أن الذي بالفاء مسبب عن قوله: ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فجاء بفاء السببية، قاله الزمخشري وهو بعيد .

﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ خوله: أعطاه، والنعمة هنا يحتمل أن يريد بها كشف الضر المذكور أو أي نعمة كانت .

﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ يحتمل أن تكون ما مصدرية أي نسي دعاءه، أو تكون بمعنى الذي والمراد بها الله تعالى .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ بتخفيف الميم على إدخال همزة الاستفهام على من وقيل هي همزة النداء والأول أظهر، وقرئ بتشديدها على إدخال أم على من ومن مبتدأ وخبره محذوف وهو المعادل للاستفهام تقديره أم من هو قانت كغيره وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو ما ذكر قبله وما ذكر بعده من قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ والقنوت هنا بمعنى الطاعة والصلاة بالليل وآناء الليل ساعاته .

* * * *

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ
إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ
دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ
عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ
﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة ومعناها التأنيس لهم والتنشيط على الهجرة .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ يحتمل أن يتعلق في هذه الدنيا بأحسنوا والمعنى الذين أحسنوا في الدنيا لهم حسنة في الآخرة أو يتعلق بحسنة والحسنة على هذا حسن الحال والعافية في الدنيا والأول أرجح .

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ يراد بها البلاد المجاورة للأرض التي هاجروا منها، والمقصود من ذلك الحض على الهجرة .

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن الصابر يوفى أجره ولا يحاسب على أعماله فهو من الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

والثاني: أن أجر الصابرين بغير حصر بل أكثر من أن يحصر بعدد أو وزن وهذا قول الجمهور .

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ اللام هنا يجوز أن تكون زائدة أو للتعليل ويكون المفعول على هذا محذوف، فإن قيل: كيف عطف أمرت على أمرت والمعنى واحد؟ فالجواب: أن الأول أمر بالعبادة والإخلاص، والثاني أمر بالسبق إلى الإسلام فهما معنيان اثنان، وكذلك قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ ليس تكرارا لقوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ لأن الأول إخبار بأنه مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بأنه يفعل العبادة وقدم اسم الله تعالى للحصر واختصاص العبادة به وحده .

﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ هذا تهديد ومبالغة في الخذلان والتخلية لهم على ما هم عليه .

﴿ ظُلَلٌ﴾ جمع ظلة بالضم وهو ما غشي من فوق كالسقف، فقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ بين، وأما ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ فسماه ظلة لأنه سقف لمن تحتهم، فإن جهنم طبقات، وقيل: سماه ظلة لأنه يلتهب ويصعد من أسفلهم إلى فوقهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ قيل: إنها نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد، وسعيد، وطلحة، والزبير، إذ دعاهم أبو بكر الصديق إلى الإيمان فآمنوا، وقيل: نزلت في أبي ذر، وسلمان، وهذا ضعيف: لأن سلمان إنما أسلم بالمدينة والآية مكية، والأظهر أنها عامة والطاغوت كل ما عبد من دون الله، وقيل: الشياطين .

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ قيل: يستمعون القول على العموم فيتبعـون القـرآن لأنـه أحـسن الكـلام، وقيـل: يـستمعون القـرآن فيتبعـون بأعمالهم أحسنه من العفو الذي هو أحسن من الانتصار وشبه ذلـك وقيـل: هو الذي يستمع حديثا فيه حسن وقبيح فيتحدث بالحسن ويكف عما سواه، وهذا قول ابن عباس وهو الأظهـر، وقـال ابـن عطيـة: هـو عـام في جميـع الأقوال والقصد الثناء على هؤلاء ببصائر ونظر سديد يفرقون بـه بـين الحـق والباطل، وبين الصواب والخطإ فيتبعون الأحسن من ذلك وقال الزمخشري مثل هذا المعنى.

* * * *

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أن يكون الكلام جملة واحدة تقديره أفمن حق عليه كلمة العذاب أأنت تنقذه؟ فموضع من في النار موضع المضمر والهمزة في قوله أفأنت هي الهمزة التي في قوله أفمن وهي همزة الإنكار كررت للتأكيد.

والثاني: أن يكون التقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب تتأسف عليه فحذف الخبر ثم استأنف قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ وعلى هذا يوقف على العذاب، والأول أرجح لعدم الإضمار.

﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ معنى سلكه: أدخله وأجراه، والينابيع جمع ينبوع وهو العين، وفي هذا دليل على أن ماء العيون من المطر.

﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أي أصنافه كالقمح والأرز والفول وغير ذلك وقيل: ألوانه الخضرة والحمرة وشبه ذلك وفي الوجهين دليل على الفاعل المختار، ورد على أهل الطبائع .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ تقديره أفمن شرح الله صدره كالقاسي قلبه، وروي: أن الذي شرح الله صدره للإسلام: علي بن أبي طالب، وحمزة، والمراد بالقاسية قلوبهم: أبو لهب، وأولاده، واللفظ أعم من ذلك .

﴿ مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ قال الزمخشري: من هنا سببية أي قلوبهم قاسية من أجل ذكر الله وهذا المعنى بعيد، ويحتمل عندي أن يكون قاسية تضمن معنى خالية فلذلك تعدى بمن والمعنى أن قلوبهم خالية من ذكر الله .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ يعني القرآن .

﴿ كِتَٰبًا ﴾ بدل من أحسن أو حال منه .

﴿ مُّتَشَٰبِهًا ﴾ معناه هنا أنه يشبه بعضه بعضا في الفصاحة والنطق بالحق، وأنه ليس فيه تناقض ولا اختلاف .

﴿ مَّثَانِيَ ﴾ جمع مثان أي تثنى فيه القصص وتكرر ويحتمل أن يكون مشتقا من الثناء لأنه يثنى فيه على الله، فإن قيل: مثاني جمع فكيف وصف به المفرد؟ فالجواب: أن القرآن ينقسم فيه إلى سور وآيات كثيرة فهو جمع بهذا الاعتبار، ويجوز أن يكون كقولهم برمة أعشار، وثوب أخلاق، أو يكون تمييزا من متشابها كقولك حسن شمائل .

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ إن قيل: كيف تعدى تلين بإلى؟ فالجواب: أنه تضمن معنى فعل تعدى بإلى كأنه قال تميل أو تسكن أو

تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، فإن قيل: لم ذكرت الجلود أولا وحدها، ثم ذكرت القلوب بعد ذلك معها؟ فالجواب: أنه لما قال أولا تقشعر ذكر الجلود وحدها لأن القشعريرة من وصف الجلود لا من وصف غيرها ولما قال ثانيا: ﴿تَلِينُ﴾ ذكر الجلود والقلوب لأن اللين توصف به الجلود والقلوب، أما لين القلوب فهو ضد قسوتها، وأما لين الجلود فهو ضد قشعريرتها، فاقشعرت أولا من الخوف ثم لانت بالرجاء.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى القرآن أو إلى الخشية واقشعرار الجلود.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ الخبر محذوف كما تقدم في نظائره تقديره: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن من العذاب ومعنى يتقي يلقى النار بوجهه ليكفها عن نفسه، وذلك أن الإنسان إذا لقي شيئا من المخاوف استقبله بيديه، وأيدي هؤلاء مغلولة فاتقوا النار بوجوههم.

﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي ذوقوا جزاء ما كنتم تكسبون من الكفر والعصيان.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال أو بفعل مضمر على المدح.

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي ليس فيه تضاد ولا اختلاف ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، وقيل: معناه غير مخلوق، وقيل: غير ذي لحن، فإن قيل: لم قال غير ذي عوج ولم يقل غير معوج؟ فالجواب: أن قوله غير ذي عوج أبلغ في نفي العوج عنه كأنه قال ليس فيه شيء من العوج أصلا.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ
تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى
عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ
وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا
لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ
ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

﴿ رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ أي متنازعون متظالمون، وقيل: متشاجرون، وأصله من قولك رجل شكس إذا كان ضيق الصدر، والمعنى: ضرب هذا المثل لبيان حال من يشرك بالله ومن يوحده فشبه المشرك بمملوك بين جماعة من الشركاء يتنازعون فيه والمملوك بينهم في أسوإ حال، وشبه من يوحد الله بمملوك لرجل واحد فمعنى قوله: ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي خالصا له وقرئ سلما بغير ألف والمعنى واحد .

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ في هذا وعد للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفار فإنهم إذا ماتوا جميعا وصاروا إلى الله فاز من كان على الحق وهلك من كان على الباطل، وفيه أيضا إخبار بأنه صلى الله عليه وسلم سيموت لئلا يختلف الناس في موته كما اختلفت الأمم في غيره، وقد جاء أنه لما

مات صلى الله عليه وسلم أنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه موته حتى احتج عليه أبو بكر الصديق بهذه الآية فرجع إليها .

﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قيل: يعني الاختصام في الدماء، وقيل: في الحقوق، والأظهر أنه اختصام النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار في تكذيبهم له فيكون من تمام ما قبله، ويحتمل أن يكون على العموم في اختصام الخلائق فيما بينهم من المظالم وغيرها .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ المعنى لا أحد أظلم ممن كذب على الله ويريد بالكذب على الله هنا ما نسبوا له من الشركاء والأولاد .

﴿ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ أي كذب بالإسلام والشريعة .

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ قيل: الذي جاء بالصدق النبي صلى الله عليه وسلم، والذي صدق به أبو بكر، وقيل: الذي جاء بالصدق جبريل والذيَ صدق به محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: الذي جاء بالصدق الأنبياء، والذي صدق به المؤمنون، واختار ابن عطية أن يكون على العموم، وجعل الذي للجنس كأنه قال: الفريق الذي لأنه في مقابلة من كذب على الله وكذب بالصدق والمراد به العموم .

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ تقوية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم وإزالة للخوف الذي كان الكفار يخوفونه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ الآية احتجاج على التوحيد ورد على المشركين .

﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية رد على المشركين وبرهان على الوحدانية، وروي: أن سببها أن المشركين خوفوا رسول الله صلى الله عليه

وسلم من آلهتم فنزلت الآية مبينة أنهم لا يقدرون علـى شـيء، فـإن قيـل: كيف قال كاشفات وممسكات بالتأنيث؟ فـالجواب: أنهـا لا تعقـل فعاملـها معاملة المؤنث، وأيضا ففي تأنيثها تحقير لها وتهكم بمن عبدها .

* * * *

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديد ومسالمة منسوخة بالسيف .

﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ ذكر في أول السورة .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ هذه الآية اعتبار، ومعناها: أن الله يتوفى النفوس على وجهين:

أحدها: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت.

والآخر: وفاة النوم لأن النائم كالميت في كونه لا يبصر ولا يسمع، ومنه قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ وتقديرها ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها .

﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ أي يمسك الأنفس التي قضى عليها بالموت الحقيقي ومعنى إمساكها أنه لا يردها إلى الدنيا .

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يرسل الأنفس النائمة وإرسالها هو ردها إلى الدنيا، والأجل المسمى هو أجل الموت الحقيقي وقد تكلم الناس في النفس والروح وأكثروا القول في ذلك بالظن دون تحقيق، والصحيح أن هذا مما استأثر الله بعلمه لقوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ أم هنا بمعنى بل وهمزة الإنكار، والشفعاء هم الأصنام وغيرها لقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ ﴾ دخلت همزة الاستفهام على واو الحال تقديره يشفعون وهم لا يملكون شيئا ولا يعقلون .

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ أي هو مالكها فلا يشفع أحد إليه إلا بإذنه وفي هذا رد على الكفار في قولهم إن الأصنام تشفع لهم .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ الآية معناها أن الكفار يكرهون توحيد الله ويحبون الإشراك به ومعنى اشمأزت انقبضت من شدة الكراهة، وروي أن هذه الآية نزلت حين قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النجم فألقى الشيطان في أمنيته حسبما ذكرنا في الحج فاستبشر الكفار بما ألقى الشيطان من تعظيم اللات والعزى فلما أذهب الله ما ألقى الشيطان استكبروا واشمأزوا .

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة خلاف ما كانوا يظنون لأنهم كانوا يظنون ظنونا كاذبة، وقال الزمخشري: المراد بذلك تعظيم العذاب الذي يصيبهم أي ظهر لهم من عذاب الله ما لم يكن

في حسابهم فهو كقوله في الوعـد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وقيل: معناها عملـوا أعمـالا حـسبوها حسنات فـإذا هـي سـيئات، وقـال الحسن: ويل لأهل الرياء من هذه الآيـة، وهـذا علـى أنهـا في المـسلمين، والظاهر أنها في الكفار.

* * * *

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ معنى حاق: حل ونزل، وقال ابن عطية وغيره: إن هذا على حذف مضاف تقديره حاق بهم جزاء ما كانوا به يستهزءون ويحتمل أن يكون الكلام دون حذف وهو أحسن ومعناه حاق بهم العذاب الذي كانوا به يستهزؤون لأنهم كانوا في الدنيا يستهزؤون إذا خوفوا بعذاب الله ويقولون متى هذا الوعد .

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: وهو الأظهر أن يريد على علم مني بالمكاسب والمنافع.

والآخر: على علم الله باستحقاقي لذلك وإنما هنا تحتمل وجهين:

أحدهما: وهو الأظهر، أن تكون ما كافة وعلى علم في موضع الحال.

والآخر: أن تكون ما اسم إن وعلى علم خبرها وإنما قال أوتيته بالضمير المذكر وهو عائد على النعمة للحمل على المعنى .

﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ رد على الذي قال إنما أوتيته على علم .

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني قارون وغيره .

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ﴾ قال علي بن أبي طالب وابن مسعود: هذه أرجى آية في القرآن، وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية"[1]. واختلف في سببها، فقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا يغفر له ما وقع فيه من قتل حمزة، وقيل: نزلت في قوم آمنوا ولم يهاجروا ففتنوا فافتتنوا ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم، وهذا قول عمر بن الخطاب، وقد كتب بها إلى هشام بن العاص، لما جرى له ذلك، وقيل: نزلت في قوم من أهل الجاهلية قالوا ما ينفعنا الإسلام وقد زنينا وقتلنا النفوس فنزلت الآية فيهم ومعناها مع ذلك على العموم في جميع الناس إلى يوم القيامة على تفصيل نذكره وذلك أن الذين أسرفوا على أنفسهم إن أراد بهم الكفار فقد اجتمعت الأمة على أنهم إذا أسلموا غفر لهم كفرهم وجميع ذنوبهم لقوله صلى الله عليه وسلم:" الإسلام يجب ما قبله". وأنهم إن ماتوا على الكفر فإن الله لا يغفر لهم بل يخلدهم في النار وإن أراد به العصاة من المسلمين فإن العاصي إذا تاب غفر الله له ذنوبه وإن لم يتب فهو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فالمغفرة المذكورة في هذه الآية يحتمل أن يريد بها المغفرة للكفار إذا أسلموا، أو للعصاة إذا تابوا، أو للعصاة وإن لم يتوبوا إذا تفضل الله عليهم بالمغفرة، والظاهر أنها نزلت في الكفار وأن المغفرة المذكورة هي لهم إذا أسلموا، والدليل على أنها في الكفار ما ذكر بعدها إلى قوله قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين.

---

(١) قال ابن كثير: وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها". ابن كثير ٤/٥٥ .

وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ يعني اتبعوا القرآن وليس المعنى أن بعض القرآن أحسن من بعض، لأنه حسن كله إنما المعنى أن يتبعوا بأعمالهم ما فيه من الأوامر ويجتنبوا ما فيه من النواهي، فالتفضيل الذي يقتضيه أحسن إنما هو في الاتباع، وقيل: يعني اتبعوا الناسخ دون المنسوخ وهذا بعيد .

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ﴾ في موضع مفعول من أجله تقديره كراهة أن تقول نفس، وإنما ذكر النفس لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفوس الكفار.

﴿ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ أي في حق الله، وقيل: في أمر الله وأصله من الجنب بمعنى الجانب ثم استعير لهذا المعنى .

﴿ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ أي المستهزئين .

﴿ بَلَىٰ ﴾ جواب للنفس التي حكى كلامها ولا يجاوب ببلى إلا النفي وهي هنا جواب لقوله: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ لأنه في

معنى النفي لأن لو حرف امتناع وتقرير الجواب بل قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل وإنزاله الكتب، وقال ابن عطية هي جواب لقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ فإن معناه يقتضي أن العمر يتسع للنظر فقيل له: بلى على وجه الرد عليه والأول أليق بسياق الكلام لأن قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي﴾ تفسير لما تضمنته بلى .

﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ يحتمل أن يريد سواد اللون حقيقة، أو يكون عبارة عن شدة الكرب .

﴿ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أصله من الفوز والتقدير بسبب فوزهم، وقيل: معناه بحسناتهم ، وقيل: بفضائلهم .

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي قائم بتدبير كل شيء .

﴿ مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح، وقيل: خزائن واحدها مقليد، وقيل: إقليد، وقيل: لا واحد لها من لفظها وأصلها كلمة فارسية، وقال عثمان بن عفان: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقاليد السموات والأرض، فقال: هي لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

فإن صح هذا الحديث فمعناه أن من قال هذه الكلمات صادقا مخلصا نال الخيرات والبركات من السموات والأرض، لأن هذه الكلمات توصل إلى ذلك فكأنها مفاتيح له .

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، قال الزمخشري: إنها متصلة بقوله: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وما بينهما من الكلام اعتراض .

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ
أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا
قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ
بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن
فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ
رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ
ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ ﴾ منصوب بأعبد .

﴿ تَأْمُرُوٓنِّىٓ ﴾ حذفت إحدى النونين تخفيفا، وقرئ بنونين على الأصل، وقرئ بإدغام إحدى النونين في الأخرى .

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ دليل على إحباط عمل المرتد مطلقا خلافا للشافعي في قوله لا يحبط عمله إلا إذا مات على الكفر، فإن قيل: الموحى إليهم جماعة والخطاب بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ لواحد؟ فالجواب: أن المعنى: أنه أوحي إلى كل واحد منهم على حدته، فإن قيل: كيف خوطب الأنبياء بذلك وهم معصومون من الشرك؟ فالجواب: أن ذلك على وجه الفرض والتقدير، أي لو وقع منهم شرك لحبطت أعمالهم لكنهم لا يقع منهم شرك بسبب العصمة، ويحتمل أن يكون المراد غيرهم وخوطبوا هم ليدل المعنى على غيرهم بطريق الأولى.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه، ولا وصفوه بما يجب له، ولا نزهوه عما لا يليق به، والضمير في قدروا لقريش، وقيل: لليهود .

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ المقصود بهذا تعظيم جلال الله والرد على الكفار الذين ما قدروا الله حق قدره، ثم اختلف الناس فيها كاختلافهم في غيرها من المشكلات فقالت المتأولة: إن القبضة واليمين عبارة عن القدرة، وقال ابن الطيب: إنها صفة زائدة على صفات الذات، وأما السلف الصالح فسلموا علم ذلك إلى الله ورأوا أن هذا من المتشابه الذي لا يعلم علم حقيقته إلا الله، وقد قال ابن عباس ما معناه: إن الأرض في قبضته والسموات مطويات كل ذلك بيمينه، وقال ابن عمر ما معناه: إن الأرض في قبضة اليد الواحدة والسموات مطويات باليمين الأخرى لأن كلتا يديه يمين .

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وهذه النفخة نفخة الصعق وهو الموت وقد قيل إن قبلها نفخة الفزع، ولم تذكر في هذه الآية .

﴿ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ قيل: يعني جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت ثم يميتهم الله بعد ذلك، وقيل: استثناء الأنبياء، وقيل: الشهداء .

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ هي نفخة القيام .

﴿قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ قيل: إنه من النظر، وقيل: من الانتظار أي ينتظرون ما يفعل بهم .

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ يعني صحائف الأعمال، وإنما وحدها لأنه أراد الجنس، وقيل: هو اللوح المحفوظ.

﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ليشهدوا على قومهم .

﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ يحتمل أن يكون جمع شاهد، أو جمع شهيد في سبيل الله، والأول أرجح؛ لأن فيه للوعيد معنى؛ ولأنه أليق بذكر الأنبياء الشاهدين، والمراد على هذا أمة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم يشهدون على الناس، وقيل: يعني الملائكة الحفظة .

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم ﴾ الضمير لجميع الخلق .

﴿ زُمَرًا﴾ في الموضعين جمع زمرة وهي الجماعة من الناس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أول زمرة يدخلون الجنة وجوههم على مثل القمر ليلة البدر والزمرة الثانية على مثل أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل"(١).

﴿خَزَنَتُهَآ ﴾ جمع خازن حيث وقع .

﴿ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ يعني القضاء السابق بعذابهم .

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٣٣٢٧) ومسلم الحديث رقم: (٥٠٦٣) والترمذي الحديث رقم: (٢٤٥٧).

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ إنما قال في الجنة وفتحت أبوابها بالواو، وقال في النار فتحت بغير واو؛ لأن أبواب الجنة كانت مفتحة قبل مجيء أهلها والمعنى حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتوحة، فالواو واو الحال وجواب إذا على هذا محذوف، وأما أبواب النار فإنها فتحت حين جاؤوها فوقع قوله فتحت جواب الشرط فكأنه بغير واو، وقال الكوفيون: الواو في أبواب الجنة واو الثمانية؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، وقيل: الواو زائدة وفتحت هو الجواب.

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يعني أرض الجنة، والوراثة هنا استعارة كأنهم ورثوا موضع من لم يدخل الجنة.

﴿نَتَبَوَّأُ﴾ أي ننزل من الجنة حيث نشاء ونتخذه مسكنا.

﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي محدقين به دائرين حوله.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ الضمير لجميع الخلق كالموضع الأول ويحتمل هنا أن يكون للملائكة والقضاء بينهم توفية أجورهم على حسب منازلهم.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون القائل لذلك الملائكة، أو جميع الخلق، أو أهل الجنة، لقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾

﴿حمٓ﴾ تقدم الكلام على حروف الهجاء، وتختص حم بأن معناها: حم الأمر، أي قضي، وقال ابن عباس: ألر، وحم ، و ن هي حروف الرحمن.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ : ذكر في الزمر .

﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي ذي الفضل والإنعام ، وقيل: الطول الغنى والسعة.

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ جعل لا يغررك بمعنى لا يحزنك ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفار.

﴿وَٱلْأَحْزَابُ﴾ يراد بهم عاد وثمود وغيرهم .

﴿ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي ليقتلوه.

﴿ لِيُدْحِضُوا۟﴾ أي ليبطلوا به الحق.

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ
وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ
شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا
وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ
وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن
مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ
وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ
ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي
يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ
مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي وجب قضاؤه

﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ عطف على الذين يحملون.

﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ إن قيل: ما فائدة قوله ويؤمنون به ومعلوم أن حملة العرش ومن حوله يؤمنون بالله؟ فالجواب: أن ذلك إظهار لفضيلة الإيمان وشرفه، قال ذلك الزمخشري، وقال: إن فيه فائدة أخرى وهي: أن معرفة حملة العرش بالله تعالى من طريق النظر والاستدلال كسائر الخلق لا بالرؤية، وهذه نزعته إلى مذهب المعتزلة في استحالة رؤية الله.

﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ أصل الكلام وسعت رحمتك وعلمك كل شيءٍ فالسعة، في المعنى مسندة إلى الرحمة والعلم، وإنما أسندتا إلى الله تعالى في اللفظ لقصد المبالغة في وصف الله تعالى بهما كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء.

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ يحتمل أن يكون المعنى قهم السيئات نفسها بحيث لا يفعلونها، أو يكون المعنى قهم جزاء السيئات فلا تؤاخذهم بها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ المقت: البغض الذي يوجبه ذنب أو عيب، وهذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار فإنهم إذا دخلوها مقتوا أنفسهم أي مقت بعضهم بعضا، ويحتمل أن يمقت كل واحد منهم نفسه فتناديهم الملائكة وتقول لهم مقت الله لكم في الدنيا على كفركم أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم فقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى الفاعل وحذف المفعول لدلالة مفعول مقتكم عليه وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ ظرف العامل فيه مقت الله عاما من طريق المعنى، ويمتنع أن يعمل فيه من طريق قوانين النحو لأن مقت الله مصدر فلا يجوز أن يفصل بينه وبين بعض صلته فيحتاج أن يقدر للظرف عامل وعلى هذا أجاز بعضهم الوقف على قوله أنفسكم والابتداء بالظرف وهذا ضعيف لأن المراعى المعنى، وقد جعل الزمخشري مقت الله عاما في الظرف ولم يعتبر الفصل(١).

﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ هذه الآية كقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ فالموتة الأولى عبارة عن كونهم عدما أو كونهم في الأصلاب أو في الأرحام، والموتة الثانية الموت المعروف، والحياة الأولى حياة الدنيا والحياة الثانية حياة البعث في القيامة، وقيل: الحياة الأولى حياة الدنيا والثانية الحياة في القبر، والموتة الأولى الموت المعروف، والموتة الثانية بعد حياة القبر، وهذا قول فاسد لأنه لابد من

---

(١) الكشاف ٤١٧/٣ .

الحياة للبعث فتجيء الحياة ثلاث مرات، فإن قيل: كيف اتصال قولهم أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين بما قبله؟ فالجواب: أنهم كانوا في الدنيا يكفرون بالبعث فلما دخلوا النار مقتوا أنفسهم على ذلك فأقروا به حينئذ ليرضوا الله بإقرارهم حينئذ فقولهم أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين إقرار بالبعث على أكمل الوجوه طمعا منهم أن يخرجوا عن المقت الذي مقتهم الله إذ كانوا يدعون إلى الإسلام فيكفرون.

﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ الفاء هنا رابطة معناها التسبب، فإن قيل: كيف يكون قولهم أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين سببا لاعترافهم بالذنوب؛ فالجواب: أنهم كانوا كافرين بالبعث فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم علموا أن الله قادر على البعث فاعترفوا بذنوبهم وهي إنكار البعث وما أوجب لهم إنكاره من المعاصي فإن من لم يؤمن بالآخرة لا يبالي بالوقوع في المعاصي.

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾ الباء سببية للتعليل والإشارة بذلكم يحتمل أن تكون للعذاب الذي هم فيه أو إلى مقت الله لهم أو مقتهم لأنفسهم والأحسن أن تكون إشارة إلى ما يقتضيه سياق الكلام وذلك أنهم لما قالوا فهل إلى خروج من سبيل كأنهم قيل لهم، لا سبيل إلى الخروج فالإشارة بقوله ذلكم إلى عدم خروجهم من النار.

﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني العلامات الدالة عليه من مخلوقاته ومعجزات رسله.

﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ يعني المطر.

* * * *

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ
(١٥) يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (١٦) ٱلْيَوْمَ
تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ
ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ
خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (١٩) وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٢٠) ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ يحتمل أن يكون المعنى مرتفع الدرجات فيكون بمعنى العالي أو رافع درجات عباده في الجنة وفي الدنيا.

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ ﴾ يعني الوحي.

﴿ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ يحتمل أن يريد الأمر الذي هو واحد الأمور، أو الأمر بالخبر فعلى الأول تكون من للتبعيض أو لابتداء الغاية وعلى الثاني تكون لابتداء الغاية أو بمعنى الباء.

﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يعني يوم القيامة وسمى بذلك لأن الخلائق يلتقون فيه، وقيل: لأنه يلتقي فيه أهل السموات والأرض، وقيل: لأنه يلتقي الخلق مع ربهم، والفاعل في ينذر ضمير يعود على من يشاء أو على الروح أو على الله.

﴿ لِمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ هذا من كلام الله تعالى تقريرا للخلق يوم القيامة فيجيبونه ويقولون لله الواحد القهار، وقيل: بل هو الذي يجيب نفسه لأن الخلق يسكتون هيبة له، وقيل: إن القائل لمن الملك اليوم ملك.

﴿ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾ يعني القيامة ومعناه القريبة.

﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ معناه أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر فيحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازاً عبر به عن شدة الخوف والحناجر جمع حنجرة وهي الحلق.

﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ أي محزونين حزنا شديدا كقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ وقيل: معناه يكظمون حزنهم أي يطمعون أن يخفوه والحال تغلبهم وانتصابه على الحال من أصحاب القلوب لأن معناه قلوب الناس أو من المفعول في أنذرهم أو من القلوب وجمعها جمع المذكر لما وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٍ﴾ أي صديق مشفق.

﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ يحتمل أن يكون نفي الشفاعة وطاعة الشفيع أو نفي طاعة الشفيع خاصة كقولك ما جاءني رجل صالح فنفيت الصلاح وإن كان قد جاءك رجل غير صالح والأول أحسن لأن الكفار ليس لهم من يشفع فيهم.

﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ أي استراق النظر، والخائنة مصدر بمعنى الخيانة أو وصف للنظرة وهذا الكلام متصل بما تقدم من ذكر الله واعتراض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله لينذر يوم التلاق.

﴿ وَسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ حجة ظاهرة وهي المعجزات.

فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ
وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ
بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن
رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ
فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا
سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ
قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ
قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

﴿ قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ هذا القتل غير القتل الذي كانوا يقتلون أولا قبل ميلاد موسى.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ المعنى أنه لا يبالي بدعاء موسى لربه ولا يخاف من ذلك إن قتله ويظهر من قوله ذروني أنه كان في الناس من ينازعه في قتل موسى وذلك يدل على أن فرعون كان قد اضطرب أمره بظهور معجزات موسى .

﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ يعني فساد أحوالهم في الدنيا وقرئ وأن يظهر بالواو وبأو ويظهر بفتح الياء ورفع الفساد على الفاعلية وبضم الياء ونصب الفساد على المفعولية.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي ﴾ الآية لما سمع موسى ما هم به فرعون من قتله استعاذ بالله فعصمه الله منه، وقال من كل متكبر ليشمل فرعون وغيره وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل: اسم هذا الرجل حبيب، وقيل: حزقيل، وقيل: شمعون بالشين المعجمة، وروي: أن هذا الرجل المؤمن كان ابن عم فرعون فقوله من آل فرعون صفة للمؤمن، وقيل: كان من بني إسرائيل فقوله من آل فرعون على هذا يتعلق بقوله يكتم إيمانه والأول أرجح لأنه لا يحتاج فيه إلى تقديم وتأخير ولقوله: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ ﴾ لأن هذا كلام قريب شفيق ولأن بني إسرائيل حينئذ كانوا أذلاء بحيث لا يتكلم أحد منهم بمثل هذا الكلام و ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ في موضع المفعول من أجله تقديره أتقتلونه من أجل أن يقول ربي الله.

﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي إن كان موسى كاذبا في دعوى الرسالة فلا يضركم كذبه فلأي شيء تقتلونه.

فإن قيل: كيف قال وإن يك كاذبا بعد أن كان قد آمن به؟ فالجواب: أنه لم يقل ذلك على وجه التكذيب له وإنما قاله على وجه الفرض والتقدير وقصد بذلك المحاجة لقومه، فقسم أمر موسى إلى قسمين ليقيم عليهم الحجة في ترك قتله على كل وجه من القسمين.

﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ قيل: إن بعض هنا بمعنى كل وذلك بعيد وإنما قال بعض ولم يقل كل مع أن الذي يصيبهم هو كل ما يعدهم ليلاطفهم في الكلام ويبعد عن التعصب لموسى ويظهر النصيحة لفرعون وقومه فيرتجي إجابتهم للحق.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ ﴾ هو المؤمن المذكور أولا، وقيل: هو موسى عليه السلام وهذا بعيد وإنما توهموا ذلك لأنه صرح هنا بالإيمان وكان كلام المؤمن أولا غير صريح بل كان فيه تورية وملاطفة لقومه إذ كان يكتم إيمانه والجواب: أنه كتم إيمانه أول الأمر ثم صرح به بعد ذلك وجاهرهم مجاهرة ظاهرة لما وثق بالله حسبما حكى الله من كلامه إلى قوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يعني يوم القيامة وسمى بذلك لأن المنادي ينادي الناس وذلك قوله: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ﴾ وقيل: لأن بعضهم ينادي بعضا أي ينادي أهل الجنة: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ وينادي أهل النار: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾.

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي منطلقين إلى النار، وقيل: هاربين من النار.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ قيل: هو يوسف بن يعقوب، وقيل: هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب، والبينات التي جاء بها يوسف لم تعين لنا، واختلف: هل أدركه فرعون موسى أو فرعون آخر قبله؟ لأن كل من ملك مصر يقال له فرعون.

﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ كلامهم هذا لا يدل على أنهم مؤمنون برسالة يوسف وإنما مرادهم لم يأت أحد يدعي الرسالة بعد يوسف قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: إنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته.

ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى
صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ
كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ
إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ
وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ بدل من مسرف مرتاب وإنما جاز إبدال الجمع من المفرد لأنه في معنى الجمع كأنه قال كل مسرف.

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ فاعل كبر مصدر يجادلون، وقال الزمخشري: الفاعل ضمير من هو مسرف.

﴿ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ الأسباب هنا الطرق، وقيل: الأبواب، وكررها للتفخيم وللبيان.

﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بالرفع عطف على أبلغ وبالنصب بإضمار أن في جواب لعل لأن الترجي غير واجب فهو كالتمني في انتصاب جوابه، ولا نقول إن لعل أشربت معنى ليت كما قال بعض النحاة.

﴿ تَبَابٍ ﴾ أي خسران.

﴿ مَتَـٰعٌ ﴾ أي يتمتع به قليلا، فإن قيل: لم كرر المؤمن نداء قومه مرارا؟ فالجواب: أن ذلك لقصد التنبيه لهم وإظهار الملاطفة والنصيحة. فإن قيـل: لم جاء بالواو في قوله ويا قوم في الثالث دون الثاني؟ فـالجواب: أن الثـاني بيان للأول وتفسير فلم يصح عطفه عليه بخلاف الثالث فإنه كلام آخر فصح عطفه عليه.

❁ ❁ ❁ ❁

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ
﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ
وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ
إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ
سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ
ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾

﴿ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي ليس لي علم بربوبيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وإذا لم يكن إلها لم يصح علم ربوبيته.

﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي لابد ولا شك.

﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ ﴾ قال ابن عطية: ليس له قدر ولا حق يجب أن يدعي إليه كأنه قال أتدعونني إلى عبادة ما لا خطر له في الدنيا ولا في الآخرة، ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليس له دعوة قائمة أي لا يدعي أحد إلى عبادته.

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ دليل على أن من فوض أمره إلى الله عز وجل كان الله معه.

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ النار بدل من سوء العذاب أو مبتدأ أو خبر مبتدإ مضمر وعرضهم عليها من حين موتهم إلى يوم القيامة وذلك مدة البرزخ بدليل قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ واستدل أهل السنة بذلك على صحة ما ورد من عذاب القبر، وروي أن أرواحهم في أجواف طيور سود تروح بهم وتغدو إلى النار.

﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ قيل: معناه في كل غدوة وعشية من أيام الدنيا، وقيل: المعنى على تقدير ما بين الغدوة والعشية لأن الآخرة لا غدوة فيها ولا عشية.

﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ إن قيل: هلا قال الذين في النار لخزنتها فلم صرح باسمها؟ فالجواب: أن في ذكر جهنم تهويلا ليس في ذكر الضمير.

﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ يحتمل أن يكون من كلام خزنة جهنم فيكون متصلا بقوله فادعوا، أو يكون من كلام الله تعالى استئنافا.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ قيل: إن هذا خاص فيمن أظهره الله على الكفار وليس بعام لأن من الأنبياء من قتله قومه كزكرياء ويحيى، والصحيح أنه عام والجواب عما ذكروه: أن زكريا ويحيى لم يكونا من الرسل إنما كانا من الأنبياء الذين ليسوا بمرسلين وإنما ضمن الله نصر الرسل خاصة لا نصر الأنبياء كلهم .

﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعني يوم القيامة والأشهاد جمع شاهد أو شهيد، ويحتمل أن يكون بمعنى الحضور أو الشهادة على الناس أو الشهادة في سبيل الله والأظهر أنه بمعنى الشهادة على الناس لقوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾.

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾
فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ
وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى
صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ
﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا
ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ
وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ
﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يحتمل أنهم لا يعتذرون، أو يعتذرون ولكن لا تنفعهم معذرتهم والأول أرجح لقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فنفى الاعتذار والانتفاع به.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني وعده لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالنصر والظهور على أعدائه الكفار.

﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ قيل: العشي صلاة العصر والإبكار صلاة الصبح، وقيل: العشي بعد العصر إلى الغروب والإبكار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يعني كفار قريش.

﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾ أي تكبر وتعاظم يمنعهم من أن يتبعوك أو ينقادوا إليك وقيل كبرهم أنهم أرادوا النبوة لأنفسهم ورأوا أنهم أحق بها والأول أظهر لأن إرادتهم النبوة لأنفسهم حسد والأول هو الكبر.

﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي لا يبلغون ما يقتضيه كبرهم من الظهور عليك ومن نيل النبوة.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ أي استعذ من شرهم لأنهم أعداء لك واستعذ من مثل حالهم في الكبر والحسد واستعذ بالله في جميع أمورك على الإطلاق.

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ الخلق هنا مصدر مضاف إلى المفعول والمراد به الاستدلال على البعث لأن الإله الذي خلق السموات والأرض على كبرها قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها، وقيل: المراد توبيخ الكفار المتكبرين، كأنه قال خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس فما بال هؤلاء يتكبرون على خالقهم وهم من أصغر مخلوقاته وأحقرهم، والأول أرجح لوروده في مواضع من القرآن لأنه قال بعده إن الساعة لآتية لا ريب فيها فقدم الدليل ثم ذكر المدلول.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ الدعاء هنا هو الطلب والرغبة وهذا وعد مقيد بالمشيئة وهي موافقة القدر لمن أراد أن يستجيب له، وقيل: ادعوني هنا بمعنى اعبدوني بدليل قوله بعده إن الذين يستكبرون عن عبادتي وقوله صلى الله عليه وسلم:" الدعاء هو العبادة" [1]. ثم تلا الآية، وأستجب

---

(١) أبو داود الحديث رقم: (١٢٦٤) والترمذي الحديث رقم: (٢٨٩٥) وابن ماجه الحديث رقم: (٣٨١٨) والمسند الحديث رقم: (١٧٦٢٩).

لكم على هذا القول بمعنى أغفر لكم أو أعطيكم أجوركم والأول أظهر ويكون قوله ويستكبرون عن عبادتي بمعنى يستكبرون عن الرغبة إلي كما قال صلى الله عليه وسلم:" من لم يسأل الله يغضب عليه"[1]. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: " الدعاء هو العبادة ". فمعناه أن الدعاء والرغبة إلى الله هي العبادة لأن الدعاء يظهر فيه افتقار العبد وتضرعه إلى الله.

﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين.

﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ذكر في يونس.

* * * *

(١) رواه الترمذي الحديث رقم: (٣٢٩٥).

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ
ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ
مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى
يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ
فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟
ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا
كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني المستلذات لأنه إذا جاء ذكر الطيبات في معرض الإنعام فيراد به المستلذات وإذا جاء في معرض التحليل والتحريم فيراد به الحلال والحرام .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هذا متصل بما قبله قال ذلك ابن عطية والزمخشري وتقديره: ادعوه مخلصين قائلين الحمد لله رب العالمين ولذلك قال ابن عباس: من قال لا إله إلا الله فليقل الحمد لله رب العالمين ويحتمل أن يكون الحمد لله استئنافا .

﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أراد الجنس ولـذلك أفـرد لفظـه مـع أن الخطـاب لجماعة .

﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ ذكر الأشـد في سـورة يوسـف عليـه الـسلام واللام تتعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا وكـذلك لتكونـوا وأمـا لتبلغوا أجلا مسمى فمتعلق بمحذوف آخر تقديره فعـل ذلـك بكـم لتبلغـوا أجلا مسمى وهو الموت أو يوم القيامة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ يعني كفار قريش، وقيل: هم أهـل الأهـواء كالقدرية وغيرهم وهذا مردود بقولـه الـذين كـذبوا بالكتـاب إلا إن جعلتـه منقطعا عما قبله وذلك بعيد .

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾ العامل في إذ يعلمون وجعل الظـرف الماضـي من الموضع المستقبل لتحقق الأمر .

﴿ يُسْحَبُونَ فِى ٱلْحَمِيمِ ﴾ أي يجرون والحميم الماء الشديد الحرارة .

﴿ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ هذا من قولك سجرت التنور إذا ملأته بالنار، فالمعنى أنهم يدخلون فيها كما يدخل الحطب في التنور ولذلك قال مجاهد في تفسيره: توقد بهم النار.

﴿ تَمْرَحُونَ ﴾ من المرح وهو الأشر والبطر، وقيل: الفخر والخيلاء .

﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ إن قيل: قياس النظم أن يقـول بـئس مـدخل الكافرين لأنه تقدم قبله ادخلوا، فالجواب: أن الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثوى.

* * * *

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا
كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ
﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى
عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أصل إما نرينك إن نريك ودخلت ما الزائدة بعد إن الشرطية وجواب الشرط محذوف تقديره إن أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب قرت عينك بذلك وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا يرجعون فننتقم منهم أشد الانتقام .

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن الله تعالى بعث ثمانية آلاف رسول، وفي حديث آخر: أربعة آلاف، وفي حديث أبي ذر: إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا منهم الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر فذكر الله بعضهم في القرآن فهم الذين قص عليه ولم يذكر سائرهم فهم الذين لم يقصص عليه .

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال الزمخشري: أمر الله القيامة، وقال ابن عطية: المعنى إذا أراد الله إرسال رسول قضي ذلك، ويحتمل أن يريد

بأمر الله إهلاك المكذبين للرسل لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هنالك في الموضعين يراد به الوقت والزمان وأصله ظرف مكـان ثم وضـع موضـع الزمان .

﴿ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ هي: الإبل والبقر والضأن والمعز فقولـه: ﴿لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا﴾ يعني الإبل.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني اللحوم والمنافع منها: اللـبن والـصوف وغـير ذلك.

﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً﴾ يعني قطع المسافة البعيدة وحمـل الأثقـال علـى الإبل وتحملون يريد الركوب عليها وإنما كرره بعد قوله لتركبـوا منـها لأنـه أراد الركوب الأول المتعارف في القرى والبلدان، وبالحمل عليهـا الأسـفار البعيدة قاله ابن عطية .

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذا عموم بعـد مـا قـدم مـن الآيـات المخـصوصة ولذلك وبخهم بقوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ .

﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الضمير يعود علـى الأمـم المكـذبين وفي تفسير علمهم وجوه:

أحدها: أنه ما كانوا يعتدون من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون.

والثاني: أنه علمهم بمنافع الدنيا ووجوه كسبها.

والثالث: أنه علـم الفلاسـفة الـذين يحتقـرون علـوم الـشرائع، وقيـل: الضمير يعود على الرسل أي فرحوا بما أعطاهم الله من العلم بالله وشـرائعه

أو بما عندهم من العلم بأن الله ينصرهم على من يكذبهم، وأما الضمير في: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ فيعود على الكفار باتفاق ولذلك ترجح أن يكون الضمير في فرحوا يعود عليهم ليتسق الكلام .

﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ انتصب على المصدرية والله سبحانه أعلم .

❁ ❁ ❁ ❁

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾
بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ
وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ
أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ
ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ
سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾

﴿فُصِّلَتۡ﴾ أي بينت وقيل: قطعت إلى سور وآيات.

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب بفعل مضمر على التخصيص، أو حال أو مصدر.

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ معناه يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل إذا نظروا فيها وذلك هو العلم الذي يوجب التكليف، وقيل: معناه يعلمون الحق والإيمان فالأول عام وهذا خاص والأول أولى لقوله: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ لأن الإعراض ليس من صفة المؤمنين وقيل: يعلمون لسان العرب فيفهمون القرآن إذ هو بلغتهم وقوله لقوم يتعلق بتنزيل أو فصلت والأحسن أن يكون صفة لكتاب.

﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي لا يقبلون ولا يطيعون وعبر عن ذلك بعدم السماع على وجه المبالغة.

﴿فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ جمع كن وهو الغطاء.

﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ عبارة عن بعدهم عن الإسلام.

﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ قيل: معناه اعمل على دينك إننا عاملون على ديننا، فهي متاركة، وقيل: اعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك فهو تهديد.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هي زكاة المال وإنما خصها بالذكر لصعوبتها على الناس ولأنها من أركان الإسلام، وقيل: يعني بالزكاة التوحيد وهذا بعيد وإنما حمله على ذلك لأن الآيات مكية لم تفرض الزكاة إلا بالمدينة، والجواب: أن المراد الفقه في طاعة الله مطلقا وقد كانت مأمورا بها بمكة.

﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع من قولك مننت الحبل إذا قطعته، وقيل: غير منقوص قيل: غير محصور، وقيل: لا يمن عليهم به لأن المن يكدر الإحسان.

﴿أَندَادًا﴾ أي أمثالا وأشباها من الأصنام وغيرها.

﴿رَوَٰسِىَ﴾ يعني الجبال.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أكثر خيرها.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي أرزاق أهلها ومعاشهم، وقيل: يعني أقوات الأرض من المعادن وغيرها من الأشياء التي بها قوام الأرض والأول أظهر.

﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يريد أن الأربعة كملت باليومين الأولين فخلق الأرض في يومين وجعل فيها ما ذكر في يومين فتلك أربعة أيام وخلق السموات في يومين فتلك ستة أيام حسبما ذكر في مواضع كثيرة ولو كانت هذه الأربعة

الأيام زيادة على اليومين المذكورين قبلها لكانت الجملة ثمانية أيام بخلاف ما ذكر في المواضع الكثيرة.

﴿سَوَآءً﴾ بالنصب مصدر تقديره استوت استواء قاله الزمخشري، وقال ابن عطية: انتصب على الحال.

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قيل: معناه لمن سأل عن أمرها، وقيل: معناه للطالبين لها ويعني بالطلب على هذا حاجة الخلق إليها وحرف الجر يتعلق بمحذوف على القول الأول تقديره يبين ذلك لمن سأل عنه ويتعلق بقدر على القول الثاني.

* * * *

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾
فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ
وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ
وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ
رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى
ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي قصد إليها ويقتضي هذا الترتيب أن الأرض خلقت قبل السماء، فإن قيل: كيف الجمع بين ذلك وبين قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ ؟ فالجواب: أنها خلقت قبل السماء ثم دحيت بعد ذلك.

﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ روى: أنه كان العرش على الماء فأخرج إليه من الماء دخان فارتفع فوق الماء فأيبس الماء فصار أرضا ثم خلق السموات من الدخان المرتفع.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ هذه عبارة عن لزوم طاعتهما كما يقول الملك لمن تحت يده افعل كذا شئت أو أبيت أي لابد لك من فعله، وقيل: تقديره: ائتيا طوعا وإلا أتيتما كرها، ومعنى هذا الإتيان تصويرهما على الكيفية التي أرادها الله وقوله لهما ائتيا مجاز وهو عبارة عن تكوينه لهما

وكذلك قولهما: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ عبارة عن أنهما لم يمتنعا عليه حين أراد تكوينهما، وقيل: بل ذلك حقيقة وأنطق الله الأرض والسماء بقولهما أتينا طائعين وإنما جمع طائعين جمع العقلاء لوصفهما بأوصاف العقلاء.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي صنعهن والضمير للسموات السبع وانتصابها على التمييز تفسيرا للضمير وأعاد عليها ضمير الجماعة المؤنثة لأنها لا تعقل فهو كقولك الجذوع انكسرت وجمعهما جمع المذكر العاقل في قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾ لأنه وصفهما بالطوع وهو فعل العقلاء فعاملهما معاملتهم فهو كقولك: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ وأعاد ضمير التثنية في قوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ لأنه جعل الأرض فرقة والسماء أخرى.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي أوحى إلي سكانها من الملائكة وإليها هي نفسها ما شاء من الأمور التي بها قوامها وصلاحها وأضاف الأمر إليها لأنه فيها.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ يعني الشمس والقمر والنجوم وهي زينة للسماء الدنيا سواء كانت فيها أو فيما فوقها من السموات.

﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره وحفظناها حفظا ويجوز أن يكون مفعولا من أجله على المعنى كأنه قال: وخلقنا المصابيح زينة وحفظا.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ الضمير لقريش.

﴿صَٰعِقَةً﴾ يعني واقعة واحدة شديدة وهي مستعارة من صاعقة النار، وقرئ صعقة بإسكان العين وهي الواقعة من قولك صعق الرجل.

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ معنى ما بين الأيدي المتقدم ومعنى ما خلف المتأخر، فمعنى الآية أن الرسل جاؤوهم في الزمان المتقدم واتصلت نذارتهم إلى زمان عاد وثمود حتى قامت عليهم الحجة بذلك من بين أيديهم، ثم جاءتهم رسل آخرون عند اكتمال أعمارهم فذلك من خلفهم قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: معناه أتوهم من كل جانب فهو عبارة عن اجتهادهم في التبليغ إليهم، وقيل: أخبروهم بما أصاب من قبلهم فذلك ما بين أيديهم وأنذروهم ما يجرى عليهم في الزمان المستقبل وفي الآخرة فذلك من خلفهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أن حرف عبارة وتفسير أو مصدرية على تقدير بأن لا تعبدوا إلا الله.

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ ليس فيه اعتراف الكفار بالرسالة وإنما معناه بما أرسلتم على قولكم ودعواكم، وفيه تهكم.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قيل: إنه من الصر وهو شدة البرد، فمعناه باردة وقيل: إنه من قولك صرصر إذا صوت فمعناه لها صوت هائل.

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ معناه من النحس وهو ضد السعد، وقيل: شديدة البرد، وقيل: متتابعة، والأول أرجح، وروي: أنها كانت آخر شوال من الأربعاء وقرئ نحسات بإسكان الحاء وكسرها، فأما الكسر فهو جمع نحس وهو صفة، وأما الإسكان فتخفيف من الكسر على وزن فعل أو وصف بالمصدر.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أي بينا لهم فهو بمعنى البيان لا بمعنى الإرشاد.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يدفعون بعنف.

﴿وَجُلُودُهُم﴾ يعني الجلود المعروفة، وقيل: هو كناية عن الفروج والأول أظهر.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآيات يحتمل أن تكون من كلام الجلود، أو من كلام الله تعالى، أو الملائكة وفي معناه وجهان:

أحدهما: لم تقدروا أن تستتروا من سمعكم وأبصاركم وجلودكم لأنها ملازمة لكم فلم يمكنكم احتراس من ذلك فشهدت عليكم.

والآخر: لم تتحفظوا من شهادة سمعكم وأبصاركم وجلودكم لأنكم لم تبالوا بشهادتها ولم تظنوا أنها تشهد عليكم، وإنما استترتم لأنكم ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وهذا أرجح لا تساق ما بعده معه، ولما جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: اجتمع ثلاثة نفر قرشيان

وثقفي قليل فقه قلوبهم كثير شحم بطونهم، فتحدثوا بحديث فقال أحدهم: أترى الله يسمع ما قلنا؟ فقال الآخر: إنه يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا، فقال الآخر: إن كان يسمع منا شيئا فإنه يسمعه كله فنزلت الآية[1].

﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي أهلككم من الردى بمعنى الهلاك.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ هو من العتب بمعنى الرضا أي إن طلبوا العتبى ليس فيهم من يعطاها

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ أي يسرنا لهم قرناء سوء من الشياطين وغواة الإنس.

﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما بين أيديهم ما تقدم من أعمالهم وما خلفهم ما هم عازمون عليه أو ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة والتكذيب بها.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي سبق عليهم القضاء بعذابهم.

﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي في جملة أمم، وقيل: في بمعنى مع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ روي أن قائل هذه المقالة أبو جهل بن هشام لعنه الله.

﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ المعنى لا تسمعوا إليه وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات وإنشاد الشعر وشبه ذلك حتى لا يسمعه أحد، وقيل: معناه قعوا فيه وعيبوه.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٤٨١٦) ومسلم الحديث رقم: (٤٩٧٩) والترمذي الحديث رقم: (٣١٧١) والمسند الحديث رقم: (٣٤٣٢).

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾

﴿أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ يقولون هذا إذا دخلوا جهنم فقولهم مستقبل ذكر بلفظ الماضي لتحققه ومعنى اللذين أضلانا كل من أغوانا من الجن والإنس، وقيل: المراد ولد آدم الذي سن القتل وإبليس الذي أمر بالكفر والعصيان وهذا باطل لأن ولد آدم مؤمن عاص وإنما طلب هؤلاء من أضلهم بالكفر.

﴿تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي في أسفل طبقة من النار.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه استقاموا على قولهم: ربنا الله فصح إيمانهم ودام توحيدهم وقال عمر بن الخطاب: المعنى: استقاموا على الطاعة وترك المعاصي وقول عمر أكمل وأحوط وقول أبي بكر أرجح لما روى أنس أن رسول صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال قد قالها قوم ثم كفروا فمن مات عليها فهو ممن استقام وقال

بعض الصوفية: معنى استقاموا أعرضوا عما سوى الله وهـذه حالـة الكمـال على أن اللفظ لا يقتضيه.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني عند الموت.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ الضمير للآخرة.

﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تطلبون.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد أحسن أقولا منه ويـدخل في ذلك كل من دعا إلى عبادة الله أو طاعتـه علـى العمـوم، وقيـل: المـراد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: المؤذنون، وهذا بعيد لأنها مكية وإنما شرع الأذان بالمدينة، ولكن المؤذنون يدخلون في العموم.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ الضمير يعود على الخلق الجميـل الـذي يتـضمنه قولـه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي حظ من العقل والفضل، وقيل: حـظ عظـيم في الجنة.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ إن شـرطية دخلـت عليهـا مـا الزائـدة ونـزغ الـشيطان وساوسه وأمره بالسوء.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير يعود على الليـل و النـهار والـشمس والقمـر لأن جماعة مالا يعقل كجماعة المؤنث أو كالواحـدة المؤنثـة، وقيـل: إنمـا يعود على الشمس والقمر وجمعهما لأن الاثنين جمع وهذا بعيد.

فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ
ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى
ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ الملائكة.

﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي لا يملون.

﴿ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ عبارة عن قلة النبات.

﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ ذكر في الحج.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ تمثيل واحتجاج على صحة البعث.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يطعنون عليها وهذا الإلحاد هو بالتكذيب، وقيل: باللغو فيه حسبما تقدم في السورة.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ الآية قيل: إن المراد بالذي يلقى في النار أبو جهل، وبالذي يأتي آمنا عثمان بن عفان، وقيل: عمار بن ياسر، واللفظ أعم من ذلك.

﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ تهديد لا إباحة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ الذكر هنا القرآن باتفاق، وخبر إن محذوف تقديره ضلوا أو هلكوا، وقيل: خبرها أولئك ينادون من مكان بعيد وذلك بعيد.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي كريم على الله، وقيل منيع من الشيطان.

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي ليس فيما تقدمه ما يبطله ولا يأتي بعده ما يبطله، والمراد على الجملة أنه لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: ما يقول الله لك من الوحي والشرائع إلا مثل ما قال للرسل من قبلك.

والآخر: ما يقول لك الكفار من التكذيب والأذى إلا مثل ما قالت الأمم المتقدمون لرسلهم فالمراد على هذا تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بالتأسي، والمراد على القول الأول أنه عليه الصلاة والسلام أتى بما جاءت به الرسل فلا تنكر رسالته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يحتمل أن يكون مستأنفا أو يكون هو المقول في الآية المتقدمة وذلك على القول الأول، وأما على القول الثاني فهو مستأنف منقطع مما قبله.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ الأعجمي الذي لا يفصح ولا يبين كلامه سواء كان من العرب أو من العجم، والعجمي الذي ليس

من العرب فصيحا كان أو غير فصيح ونزلت الآية بسبب طعن قريش في القرآن، فالمعنى: أنه لو كان أعجميا لطعنوا فيه وقالوا هلا كان مبينا فظهر أنهم يطعنون فيه على أي وجه كان.

﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ هذا من تمام كلامهم والهمزة للإنكار والمعنى أنه لو كان القرآن أعجميا لقالوا: قرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي، وقيل: إنما طعنوا فيه لما فيه من الكلمات العجمية: كسجين، وإستبرق فقالوا قرآن أعجمي وعربي أي مختلط من كلام العرب والعجم وهذا يجري على قراءة أعجمي بفتح العين.

﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٌ﴾ عبارة عن إعراضهم عن القرآن فكأنهم صم لا يسمعون وكذلك: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ عبارة عن قلة فهمهم له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ﴾ فيه قولان:

أحدهما: عبارة عن قلة فهمهم فشبههم بمن ينادى من مكان بعيد فهو لا يسمع الصوت ولا يفقه ما يقال.

والثاني: أنه حقيقة في يوم القيامة أي ينادون من مكان بعيد ليسمعوا أهل الموقف توبيخهم، والأول أليق بالكنايات التي قبلها.

* * * *

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القدر.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم زمان وقوعها فإذا سئل أحد عن ذلك قال الله هو الذي يعلمها. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ جمع كم بكسر الكاف وهو غلاف الثمرة قبل ظهورها.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ العامل في يوم محذوف والمراد به يوم القيامة والضمير للمشركين وقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ توبيخ لهم، وأضاف الشركاء إلى نفسه على زعم المشركين كأنه قال: الشركاء الذين جعلتم لي.

﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ المعنى أنهم قالوا أعلمناك ما منا من يشهد اليوم بأن لك شريكا لأنهم كفروا يوم القيامة بشركائهم.

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي ضل عنهم شركاؤهم بمعنى أنهم لا يرونهم حينئذ فما على هذا موصولة أو ضل عنهم قولهم الذي كانوا يقولون من الشرك فما على هذا مصدرية.

﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين والمحيص المهرب أي علموا أنهم لا مهرب لهم من العذاب، وقيل: يوقف على ظنوا ويكون ما لهم استئنافا وذلك ضعيف.

﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أي لا يمل من الدعاء بالمال والعافية وشبه ذلك، ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة، وقيل: في غيره من الكفار واللفظ أعم من ذلك.

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ أي هذا حقي الواجب لي وليس تفضلا من الله ولا يقول هذا إلا كافر ويدل على ذلك قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ معناه إن بعثت تكون لي الجنة وهذا تخرص وتكبر، وروي: أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ ذكر في الإسراء.

﴿دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير وذكر الله هذه الأخلاق على وجه الذم لها.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الآية معناها أخبروني إن كان القرآن من عند الله ثم كفرتم به ألستم في شقاق بعيد فوضع قوله من أضل موضع الخطاب لهم.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الضمير لقريش وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الآيات في الآفاق هي فتح الأقطار للمسلمين، والآيات في أنفسهم هي فتح مكة فجميع ذلك وَعْد للمسلمين بالظهور وتهديد للكفار واحتجاج عليهم بظهور الحق وخمول الباطل.

والثاني: أن الآيات في الآفاق هي ما أصاب الأمم المتقدمة من الهلاك وفي أنفسهم يوم بدر.

الثالث: أن الآيات في الآفاق هي خلق السماء وما فيها من العبر والآيات وفي أنفسهم خلقه بني آدم وهذا ضعيف لأنه قال سنريهم بسين الاستقبال وقد كانت السموات وخلقة بني آدم مرئية والأول هو الراجح.

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضمير للقرآن أو للإسلام.

﴿مُّحِيطٌۢ﴾ أي محيط بعلمه وقدرته وسلطانه

* * * *

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ﴾ الكلام فيه كسائر حروف الهجاء حسبما تقدم في سورة البقرة، وقد حكى الطبري: أن رجلا سأل ابن عباس عن حم عسق فأعرض عنه فقال حذيفة إنما كرهها ابن عباس لأنها نزلت في رجل من أهل بيته اسمه عبد الله يبني مدينة على نهر من أنهار المشرق ثم يخسف الله بها في آخر الزمان، والرجل على هذا أبو جعفر المنصور، والمدينة بغداد، وقد ورد في الحديث أنها يخسف بها.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ الكاف نعت لمصدر محذوف والإشارة بذلك إلى ما تضمنه القرآن أو السورة، وقيل: الإشارة لقوله حم عسق فإن الله أنزل هذه الأحرف بعينها في كل كتاب أنزله وفي صحة هذا نظر.

﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ اسم الله فاعل بيوحي وأما على قراءة يوحى بالفتح فهو فاعل بفعل مضمر دل عليه يوحى كأن قائلا قال من الذي أوحى فقيل: الله.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ أي يتشققن من خوف الله وعظيم جلاله وقيل: من قول الكفار اتخذ الله ولدا فهي كالآية التي في مريم، قال ابن عطية: وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود لأن الله تعالى لا يوصف به.

﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ الضمير للسموات والمعنى يتشققن من أعلاهن وذلك مبالغة في التهويل، وقيل: الضمير للأرضين وهذا بعيد وقيل: الضمير للكفار كأنه قال من فوق الجماعات الكافرة التي من أجل أقوالها تكاد السموات يتفطرن وهذا أيضا بعيد.

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عموم يراد به الخصوص لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض فهي كقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقيل: إن يستغفرون للذين آمنوا نسخ هذه الآية وهذا باطل لأن النسخ لا يدخل في الأخبار، ويحتمل أن يريد بالاستغفار طلب الحلم عن أهل الأرض مؤمنهم وكافرهم ومعناه الإمهال لهم وأن لا يعاجلوا بالعقوبة فيكون عاما، فإن قيل: ما وجه اتصال قوله والملائكة يسبحون الآية بما قبلها؟ فالجواب: أنا إن فسرنا تفطر السموات بأنه من عظمة الله فإنه يكون تسبيح الملائكة أيضا تعظيما له فينتظم الكلام، وإن فسرنا تفطرها بأنه من كفر بني آدم فيكون تسبيح الملائكة تنزيها لله تعالى عن كفر بني آدم وعن أقوالهم القبيحة.

* * * *

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ
فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى
رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ
يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ
مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢ ۞ شَرَعَ
لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ
أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ والمراد أهلها ولذلك عطف عليه من حولها يعني من الناس.

﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يعني يوم القيامة وسمي بذلك لأن الخلائق يجتمعون فيه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أم منقطعة والأولياء هنا المعبودون من دون الله.

﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما اختلفتم فيه أنتم والكفار من أمر الدين فحكمه إلى الله بأن يعاقب المبطل ويثيب المحق، أو ما اختلفتم فيه من الخصومات فتحاكموا فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني الإناث.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ يحتمل أن يريد الإناث أو الأصناف.

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ معنى يذرؤكم: يخلقكم نسلا بعد نسل وقرنا بعد قرن، وقيل:يكثركم والضمير المجرور يعود على الجعل الذي يتضمنه قوله جعل لكم وهذا كما تقول كلمت زيداً كلاما أكرمته فيه، وقيل: الضمير للتزويج الذي دل عليه قوله: ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ وقال الزمخشري: تقديره يذرؤكم في هذا التدبير وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجا والضمير في يذرؤكم خطاب للناس والأنعام غلب فيه العقلاء على غيرهم، فإن قيل: لم قال يذرؤكم فيه وهلا قال يذرؤكم به؟ فالجواب: أن هذا التدبير جعل كالمنبع والمعدن للبث والتكثير قاله الزمخشري .[1]

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ تنزيه لله تعالى عن مشابهة المخلوقين، قال كثير من الناس: الكاف زائدة للتأكيد والمعنى ليس مثله شيء، وقال الطبري وغيره: ليست بزائدة ولكن وضع مثله موضع هو والمعنى: ليس كهو شيء قال الزمخشري: وهذا كما تقول: مثلك لا يبخل، والمراد: أنت لا تبخل فنفي البخل عن مثله والمراد نفيه عن ذاته.

﴿مَقَالِيدُ﴾ قد ذكر.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ اتفق دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع جميع الأنبياء في أصول الاعتقادات وذلك هو المراد هنا ولذلك فسره بقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ يعني إقامة الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبالدار الآخرة، وأما الأحكام الفروعية فاختلفت فيها الشرائع فليست تراد هنا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٢ .

﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ يحتمل أن تكون أن في موضع نصب بدلا من قوله ما وصى أو في موضع خفض بدلا من به، أو في موضع رفع على خبر ابتداء مضمر أو تكون مفسرة لا موضع لها من الإعراب.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي صعب الإسلام على المشركين.

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ الضمير في إليه يعود على الله تعالى، وقيل: على الدين.

* * * *

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ يعني أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ﴾ يعني القضاء السابق بأن لا يفصل بينهم في الدنيا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني المعاصرين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى، وقيل: يعني العرب والكتاب على هذا القرآن.

﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ الضمير للكتاب أو للدين أو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ أي إلى ذلك الذي شرع الله فادع الناس فاللام بمعنى إلى والإشارة بذلك إلى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أو إلى قوله: ﴿مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ وقيل: إن اللام بمعنى أجل والإشارة إلى التفرق والاختلاف أي لأجل ما حدث من التفرق ادع إلى الله وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ معطوفا، وعلى الأول يكون مستأنفا فيوقف على فادع واستقم.

﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي دم على ما أمرت به من عبادة الله وطاعته وتبليغ رسالته.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الضمير للكفار وأهواؤهم ما كانوا يحبون من الكفر والباطل كله.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قيل: يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه، ويحتمل أن يريد العدل في دعائهم إلى دين الإسلام أي أمرت أن أحملكم على الحق.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة فإن الحق قد ظهر وأنتم تعاندون.

﴿وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي يجادلون المؤمنين في دين الإسلام ويعني كفار قريش، وقيل: اليهود.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ الضمير يعود على الله أي من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه، وقيل: يعود على الدين، وقيل: على محمد صلى الله عليه وسلم والأول أظهر وأحسن.

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي زاهقة باطلة.

﴿أَنزَلَ الْكِتَٰبَ﴾ يعني جنس الكتاب.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالواجب أو متضمنا الحق.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني العدل، ومعنى إنزال العدل إنزال الأمر به في الكتب المنزلة، وقيل: يعني الميزان المعروف، فإن قيل: ما وجه اتصال ذكر الكتاب والميزان بذكر الساعة؟ فالجواب: أن الساعة

يوم الجزاء والحساب فكأنه قال: اعدلوا وافعلوا الصواب قبل اليوم الذي تحاسبون فيه على أعمالكم.

﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ جاء قريب بالتذكير لأن تأنيث الساعة غير حقيقي، ولأن المراد به وقت الساعة.

* * * *

يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ أي يطلبون تعجيلها استهزاء بها وتعجيزا للمؤمنين.

﴿يُمَارُونَ﴾ أي يجادلون ويخالفون.

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني الرزق الزائد على المضمون لكل حيوان في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي ما تقوم به الحياة فإن هذا على العموم لكل حيوان طول عمره والزائد خاص بمن شاء الله.

﴿حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ عبارة عن العمل لها وكذلك حرث الدنيا وهو مستعار من حرث الأرض لأن الحراث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل.

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ عبارة عن تضعيف الثواب.

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي نؤته منها ما قدر له لأن كل أحد لا بد أن يصل إلى ما قسم له.

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ هذا للكفار أو لمن كان يريد الدنيا خاصة ولا رغبة له في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ أم منقطعة للإنكار والتوبيخ، والشركاء الأصنام وغيرها، وقيل: الشياطين.

﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ الضمير في شرعوا للشركاء وفي لهم للكفار، وقيل: بالعكس والأول أظهر ولم يأذن بمعنى لم يأمر، والمراد بما شرعوا من البواطل في الاعتقادات وفي الأعمال كالبحيرة والوصيلة وغير ذلك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي لولا القضاء السابق بأن لا يقضى بينهم في الدنيا لقضى بينهم فيها.

﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ يعني في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ تقديره يبشر به وحذف الجار والمجرور.

﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: أن القربى بمعنى القرابة وفي بمعنى من أجل، والمعنى لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوني لأجل القرابة التي بيني وبينكم فالمقصد على هذا استعطاف قريش ولم يكن فيهم بطن إلا وبينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم قرابة.

الثاني: أن القربى بمعنى الأقارب أو ذوي القربى والمعنى إلا أن تودوا أقاربي وتحفظوني فيهم والمقصد على هذا وصية بأهل البيت.

الثالث: أن القربى قرابة الناس بعضهم من بعض، والمعنى أن تودوا أقاربكم والمقصود على هذا وصية بصلة الأرحام.

الرابع: أن القربى التقرب إلى الله، والمعنى إلا أن تتقربوا إلى الله بطاعته والاستثناء على القول الثالث والرابع منقطع وأما على الأول والثاني فيحتمل الانقطاع لأن المودة ليست بأجر، ويحتمل الاتصال على المجاز كأنه قال: لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فجعل المودة كالأجر.

﴿يَقْتَرِفْ﴾ أي يكتسب.

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ يعني مضاعفة الثواب.

* * * *

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ
بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ
الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا
يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾
وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم منقطعة للإنكار والتوبيخ.

﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فالمقصد بهذا قولان:

أحدهما: أنه رد على الكفار في قولهم أفترى على الله كذبا أي لو افتريت على الله كذبا لختم على قلبك ولكنك لم تفتر على الله كذبا فقد هداك وسددك.

والآخر: أن المراد إن يشإ الله يختم على قلبك بالصبر على أقوال الكفار وتحمل أذاهم.

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ هذا فعل مستأنف غير معطوف على ما قبله لأن الذي قبله مجزوم وهذا مرفوع فيوقف على ما قبله ويبدأ به وفي المراد به وجهان:

أحدهما: أنه من تمام ما قبله أي لو افتريت على الله كذبا لختم على قلبك ومحا الباطل الذي كنت تفتريه لو افتريت.

والآخر: أنه وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يمحو الله الباطل وهو الكفر ويحق الحق وهو الإسلام.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ عن هنا بمعنى من وكأنه قال التوبة الصادرة عن عباده، وقبول التوبة على ثلاثة أوجه:

أحدها: التوبة من الكفر فهي مقبولة قطعا.

والثاني: التوبة من مظالم العباد فهي غير مقبولة حتى ترد المظالم أو يستحل منها.

والثالث: التوبة من المعاصي التي بين العبد وبين الله فالصحيح أنها مقبولة بدليل هذه الآية، وقيل: إنها في المشيئة.

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ العفو مع التوبة على حسب ما ذكرنا وأما العفو دون التوبة فهو على أربعة أقسام:

الأول: العفو عن الكفر وهو لا يكون أصلا.

والثاني: العفو عن مظالم العباد وهو كذلك.

والثالث: العفو عن الذنوب الصغائر إذا اجتنبت الكبائر وهو حاصل باتفاق.

الرابع: العفو عن الكبائر، فمذهب أهل السنة في المشيئة ومذهب المعتزلة أنها لا تغفر إلا بالتوبة.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معنى يستجيب يجيب والذين آمنوا مفعول والفاعل ضمير يعود على الله تعالى أي يجيبهم فيما يطلبون منه، وقال الزمخشري: أي أصله يستجيب للذين آمنوا فحذف اللام.

والثاني: أن معناه يجيب والذين آمنوا فاعل أي يستجيب المؤمنون لربهم باتباع دينه.

والثالث: أن معناه يطلب المؤمنون الإجابة من ربهم، واستفعل على هذا على بابه من الطلب والأول أرجح لدلالة قوله ويزيدهم من فضله ولأنه قول ابن عباس ومعاذ بن جبل.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يزيدهم ما لا يطلبون زيادة على الاستجابة فيما طلبوا وهذه الزيادة روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها الشفاعة والرضوان.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بغى بعضهم على بعض وطغوا لأن الغنى يوجب الطغيان، وقال بعض الصحابة: فينا نزلت لأنا نظرنا إلى أموال الكفار فتمنيناها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ قيل لعمر رضي الله عنه: اشتد القحط وقنط الناس. فقال: الآن يمطرون، وأخذ ذلك من هذه الآية، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "اشتدي أزمة تنفرجي"[1].

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ قيل: يعني المطر فهو تكرار للمعنى الأول بلفظ آخر وقيل: يعني الشمس، وقيل: بالعموم.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ لا إشكال لأن الدواب في الأرض وأما في السماء فقيل: يعني الملائكة، وقيل: يمكن أن تكون في السماء دواب لا

---

(١) كنز العمال الحديث رقم ٨٦٥٦ الجامع الكبير للسيوطي ١/٣٧٥٥.

نعلمها نحن، وقيل: المعنى أنه بث في أحدهما فذكر الاثنين كما تقول في بني فلان كذا وإنما هو في بعضهم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ يريد جمع الخلق في الحشر يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ المعنى أن المصائب التي تصيب الناس في أنفسهم وأموالهم إنما هي بسبب الذنوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفوا الله عنه أكثر "[1]. وقرئ بما كسبت بغير فاء على أن يكون ما أصابكم بمعنى الذي وقرئ بالفاء على أن يكون ما أصابكم شرطا.

﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ قد ذكر.

* * * *

(١) قال البيهقي في شعب الإيمان الحديث رقم ٩٤٧٥ قال قتادة:" ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: لا يصيب ابن ادم... الحديث". وانظر الجامع الكبير للسيوطي الحديث رقم (١٩٦٧).

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ
يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ
إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ جمع علم وهو الجبل.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ الضمير في يظللن للجواري وفي ظهره للبحر أي لو أراد الله أن يسكن الرياح لبقيت السفن واقفة على ظهر البحر فالمقصود تعديد النعمة في إرسال الرياح أو تهديد بإسكانه.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ عطف على يسكن الريح ومعنى يوبقهن يهلكهن بالغرق من شدة الرياح العاصفة والضمير فيه للسفن وفي كسبوا لركابها من الناس والمعنى أنه لو شاء لأغرقها بذنوب الناس.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي يعلمون أنه لا مهرب لهم من الله وقرئ يعلم بالرفع على الاستئناف وبالنصب واختلف في إعرابه على قولين:

أحدهما: أنه نصب بإضمار أن بعد الواو لما وقعت بعد الشرط والجزاء لأنه غير واجب وأنكر ذلك الزمخشري، وقال: إنه شاذ فلا ينبغي أن يحمل القرآن عليه.

والثاني: قول الزمخشري إنه معطوف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم، قال ونحوه من المعطوف على التعليل المحذوف في القرآن كثير ومنه قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ذكرنا الكبائر في النساء، وقيل: كبائر الإثم هو الشرك، والفواحش: هي الزنا واللفظ أعم من ذلك.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ قيل: يعني الأنصار لأنهم استجابوا لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ويظهر لي أن هذه الآية إشارة إلى ذكر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لأنه بدأ أولا بصفات أبي بكر الصديق، ثم صفات عمر بن الخطاب، ثم صفات عثمان بن عفان، ثم صفات علي بن أبي طالب، فكونه جمع هذه الصفات ورتبها على هذا الترتيب يدل على أنه قصد بها من اتصف بذلك.

فأما صفات أبي بكر فقوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وإنما جعلناها صفة أبي بكر وإن كان جميعهم متصفا بها لأن أبا بكر كانت له فيها مزية لم تكن لغيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجحهم". وقال صلى الله عليه وسلم : " أنا مدينة الإيمان وأبو بكر بابها ". وقال أبو بكر: لو كشف الغطاء لما ازددت إلا يقينا. والتوكل إنما يقوى بقوة الإيمان.

أما صفات عمر فقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ لأن ذلك هو التقوى، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أنا مدينة التقوى وعمر بابها". وقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ نزلت في عمر.

وأما صفات عثمان فقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ لأن عثمان لما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان تبعه وبادر إلى الإسلام وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ لأن عثمان كان كثير الصلاة بالليل وفيه نزلت: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ الآية، وروي أنه كان يحيي الليل بركعة يقرأ فيها القرآن كله، وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لأن عثمان ولي الخلافة بالشورى، وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ لأن عثمان كان كثير النفقة في سبيل الله ويكفيك أنه جهز جيش العسرة.

وأما صفة علي فقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنه لما قاتلته الفئة الباغية قاتلها انتصاراً للحق وانظر كيف سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم المقاتلين لعلي الفئة الباغية حسبما ورد في الحديث الصحيح أنه قال لعمار بن ياسر:" تقتلك الفئة الباغية"[1]. فذلك هو البغي الذي أصابه.

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ إشارة إلى فعل الحسن بن علي حين بايع معاوية وأسقط حق نفسه ليصلح أحوال المسلمين ويحقن دماءهم

---

(١) في البخاري (تقتله) البخاري الحديث رقم: (٤٤٧) المسند الحديث (١١٤٢٩).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحسن: "إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[(١)].

وقوله: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ إشارة إلى انتصار الحسين بعد موت الحسن وطلبه للخلافة وانتصاره من بني أمية.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ إشارة إلى بني أمية فإنهم استطالوا على الناس كما جاء في الحديث عنهم: " أنهم جعلوا عباد الله خولا ومال الله دولا" ويكفيك من ظلمهم أنهم كانوا يلعنون علي بن أبي طالب على منابرهم.

* * * *

(١) البخاري الحديث رقم: (٢٧٠٤) وأبو داوود الحديث رقم (٣٧٣٩) والترمذي الحديث رقم: (٣٧٠٦).

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ الآية إشارة إلى صبر أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم على ما نالهم من الضر والذل طول مدة بني أمية.

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ سمى العقوبة باسم الذنب وجعلها مثلها تحرزا من الزيادة عليها.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا يدل على أن العفو عن الظلمة أفضل من الانتصار لأنه ضمن الأجر في العفو وذكر الانتصار بلفظ الإباحة في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ وقيل: إن الانتصار أفضل والأول أصح فإن قيل: كيف ذكر الانتصار في صفات المدح في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ والمباح لا مدح فيه ولا ذم؟ فالجواب: من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن المباح قد يمدح لأنه قيام بحق لا بباطل.

والثاني: أن مدح الانتصار لكونه كان بعد الظلم تحرزا ممن بدأ بالظلم فكأن المدح إنما هو بترك الابتداء بالظلم.

والثالث: إن كانت الإشارة بذلك إلى علي بن أبي طالب حسبما ذكرنا فانتصاره محمود لأن قتال أهل البغي واجب لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾.

﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ أي على النار.

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ عبارة عن الذل والكآبة ومن الذل يتعلق بخاشعين.

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه عبارة عن الذل لأن نظر الذليل بمهابة واستكانة.

والآخر: أنهم يحشرون عميا فلا ينظرون بأبصارهم وإنما ينظرون بقلوبهم واستبعد هذا ابن عطية والزمخشري والظرف يحتمل أن يريد به العين أو يكون مصدرا.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يتعلق بقال أو بخسروا.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الذين آمنوا أو مستأنفا من كلام الله تعالى. ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ ذكر في الروم.

﴿مِّن نَّكِيرٖ﴾ أي إنكار يعني لا تنكرون أعمالكم.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ قدم الإناث اعتناء بهن وتأنيسا لمن وهبهن له، قال واثلة بن الأسقع: من يمن المرأة تبكيرها بأنثى قبل الذكر لأن الله بدأ

بالإناث.وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في الأنبياء عليهم السلام فشعيب ولوط كان لهما إناث دون ذكور وإبراهيم كان له ذكور دون إناث ومحمد صلى الله عليه وسلم جمع الإناث والذكور ويحيى كان عقيما والظاهر أنها على العموم في جميع الناس إذ كل واحد منهم لا يخلو عن قسم من هذه الأقسام الأربعة التي ذكر وفي الآية من أدوات البيان التقسيم.

* * * *

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الآية بين الله تعالى فيها كلامه لعباده وجعله على ثلاثة أوجه:

أحدها: الوحي المذكور أولا وهو الذي يكون بإلهام أو منام.

والآخر: أن يسمعه كلامه من وراء حجاب.

الثالث: الوحي بواسطة الملك وهو قوله أو يرسل رسولا يعني ملكا فيوحي بإذنه ما يشاء إلى النبي، وهذا خاص بالأنبياء، والثاني خاص بموسى وبمحمد صلى الله عليه وسلم إذ كلمه الله ليلة الإسراء، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء كثيرا وقد يكون لسائر الخلق ومنه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ ومنه: منامات الناس.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ قرئ يرسل ويوحي بالرفع على تقدير أو هو يرسل وبالنصب عطفا على وحيا لأن تقديره أن يوحي عطف على أن المقدرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الروح هنا القرآن والمعنى مثل هذا الوحي وهو بإرسال ملك.

﴿إِلَيْكَ﴾ القرآن، والأمر هنا يحتمل أن يكون واحد الأمور أو يكون من الأمر بالشيء.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ المقصد بهذا شيئان:

أحدهما: تعداد النعمة عليه صلى الله عليه وسلم بأن علمه الله ما لم يكن يعلم.

والآخر: احتجاج على نبوته لكونه أتى بما لم يكن يعلمه ولا تعلمه من أحد، فإن قيل: أما كونه لم يكن يدري الكتاب فلا إشكال فيه، وأما الإيمان ففيه إشكال لأن الأنبياء مؤمنون بالله قبل مبعثهم؟

فالجواب: أن الإيمان يحتوي على معارف كثيرة، وإنما كمل له معرفتها بعد بعثه وقد كان مؤمنا بالله قبل ذلك، فالإيمان هنا يعني به كمال المعرفة وهي التي حصلت له بالنبوة.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ الضمير للقرآن.

* * * *

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠

﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ يعني القرآن والمبين يحتمل أن يكون بمعنى البين أو المبين لغيره.

﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أم الكتاب اللوح المحفوظ والمعنى أن القرآن وصف في اللوح بأنه علي حكيم، وقيل: المعنى أن القرآن نسخ بجملته في اللوح المحفوظ ومنه كان جبريل ينقله فوصفه الله بأنه علي حكيم لكونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، والأول أظهر وأشهر.

﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا ﴾ الهمزة للإنكار والمعنى أنمسك عنكم الذكر، ونضرب من قولك: أضربت عن كذا إذا تركته، والذكر يراد به القرآن أو التذكير والوعظ وصفحا فيه وجهان:

أحدهما: أنه بمعنى الإعراض تقول صفحت عنه إذا أعرضت عنه فكأنه قال أنترك تذكيركم إعراضا عنكم، وإعراب صفحا على هذا مصدر من المعنى أو مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال.

والآخر: أن يكون بمعنى العفو والغفران فكأنه يقول أنمسك عنكم الذكر

عفوا عنكم وغفرانا لذنوبكم، وإعراب صفحا على هذا مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال.

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قرئ بكسر الهمزة على الشرط والجواب في الكلام الذي قبله وقرئ بالفتح على أنه مفعول من أجله.

﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ الضمير لقريش وهم المخاطبون بقوله أن كنتم قوما مسرفين، فإن قيل: كيف قال: إن كنتم على الشرط بحرف إن التي معناها الشك ومعلوم أنهم كانوا مسرفين ؟ فالجواب: أن في ذلك إشارة إلى توبيخهم على الإسراف وتجهيلهم في ارتكابه فكأنه شيء لا يقع من عاقل فلذلك وضع حرف التوقع في موضع الواقع.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي تقدم في القرآن ذكر حال الأولين وكيفية إهلاكهم لما كفروا.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآية احتجاج على قريش لأنهم كانوا يعترفون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض وكانوا مع اعترافهم بذلك يعبدون غيره ومقتضى جوابهم أن يقولوا خلقهن الله فلما ذكر هذا المعنى جاءت العبارة عن الله بالعزيز العليم لأن اعترافهم بأنه خلق السموات والأرض يقتضي أن يعترفوا بأنه عزيز عليم وأما قوله الذي جعل لكم فهو من كلام الله لا من كلامهم.

﴿مَهْدًا﴾ أي فراشا على وجه التشبيه.

﴿سُبُلًا﴾ أي طرقا تمشون فيها.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ
الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾
وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ
اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾

﴿مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار ووزن معلوم، وقيل: معناه بقضاء.

﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تمثيل للخروج من القبور بخروج النبات من الأرض.

﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ يعني أصناف الحيوان والنبات وغير ذلك.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ الضمير يعود على ما تركبون.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ يحتمل أن يكون هذا الذكر بالقلب أو باللسان، ويحتمل أن يريد النعمة في تسخير هذا المركوب أو النعمة على الإطلاق وكان بعض السلف إذا ركب دابة يقول الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ثم يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين وغالبين.

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ اعتراف بالحشر، فإن قيل: ما مناسبة هذا للركوب؟ فالجواب: أن راكب السفينة أو الدابة متعرض للهلاك بما يخاف

من غرق السفينة أو سقوطه عن الدابة فأمر بذكر الحشر ليكون مستعدا للموت الذي قد يعرض له، وقيل: يذكر عند الركوب ركوب الجنازة.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ الضمير في جعلوا لكفار العرب وفي لـه لله تعالى وهذا الكلام متصل بقوله ولئن سألتهم الآية، والمعنى أنهم جعلوا الملائكة بنات الله فكأنهم جعلوا جزءا من عباده نصيبا له وحظا دون سائر عباده، وقال الزمخشري: معناه أنهم جعلوا الملائكة جزءا منه، وقال بعض اللغويين: الجزء في اللغة: الإناث، واستشهد على ذلك ببيت شعر، قال الزمخشري: وذلك كذب على اللغة والبيت موضوع[1].

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ أم للإنكار والرد على الذين قالوا إن الملائكة بنات الله ومعنى أصفاكم خصكم أي كيف يتخذ لنفسه البنات وهن أدنى وأصفاكم بالبنين وهم أعلا.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ أي إذا بشر بالأنثى وقد ذكر هذا المعنى في النحل والمراد أنهم يكرهون البنات فكيف ينسبونها إلى الله تعالى عن قولهم.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ ﴾ المراد بمن ينشأ في الحلية النساء والحلية هي الحلي من الذهب والفضة وشبه ذلك، ومعنى ينشأ فيها يكبر وينبت في استعمالها وقرئ ينشأ بضم الياء وتشديد الشين بمعنى يربى فيها والمقصد الرد على الذين قالوا الملائكة بنات الله كأنه قال: أجعلتم لله من ينشأ في

---

(١) البيت هو:

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجبت قد تجزئ الحرة المذكارُ أحياناً

وانظر الكشاف ٣/٤٨١.

الحلية وذلك صفة النقص ثم أتبعها بصفة نقص أخرى وهي قوله وهو في الخصام غير مبين يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبين حجتها لنقص عقلها وقل ما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني فكيف ينسب لله من يتصف بهذه النقائص، وإعراب ينشأ مفعول بفعل مضمر تقديره أجعلتم لله من ينشأ أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره أو من ينشأ في الحلية خصصتم به الله.

* * * *

وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ الضمير في جعلوا لكفار العرب فحكى عنهم ثلاثة أقوال شنيعة:

أحدها: أنهم نسبوا إلى الله الولد.

والآخر: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين.

والثالث: أنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثا وقرئ عند الرحمن بالنون والمراد به قرب الملائكة وتشريفهم كقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وقرئ عباد بالباء جمع عبد والمراد به أيضا الاختصاص والتشريف.

﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ هذا رد على العرب في قولهم إن الملائكة إناثا والمعنى هم لم يشهدوا خلق الملائكة فكيف يقولون ما ليس لهم به علم.

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي تكتب شهادتهم التي شهدوا بها على الملائكة ويسئلون عنها يوم القيامة.

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ الضمير في قالوا للكفار وفي عبدناهم للملائكة وقال ابن عطية: للأصنام والأول أظهر وأشهر والمعنى احتجاج احتج به الذين عبدوا الملائكة وذلك أنهم قالوا: لو أراد الله أن لا نعبدهم ما عبدناهم فكونه يمهلنا وينعم علينا دليل على أنه يرضى عبادتنا لهم ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني أن قولهم بلا دليل وحجة وإنما هو تخرص منهم.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن وهذا أيضا رد عليهم لكونهم ليس لهم كتاب يحتجون به.

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي على دين وطريقة والمعنى أنهم ليس لهم حجة وإنما هم مقلدو آبائهم.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية، المعنى كما اتبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة اتبع كل من كان قبلهم من الكفار آباءهم بغير حجة بل بطريق التقليد المذموم.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾ هذا رد على الذين اتبعوا آباءهم والمعنى قل لهم أتتبعونهم ولو جئتكم بدين أهدى من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم وقرىء قال أو لو جئتكم والفاعل ضمير يعود على النذير المتقدم وأما قراءة قل بالأمر فهو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يقول ذلك لقريش وقيل: هو للنذير المتقدم أمره الله أن يقول ذلك لقومه والأول أظهر، وعلى هذا تكون هذه الجملة اعتراضا بين قصة المتقدمين فإن قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ حكاية عن الكفار المتقدمين وكذلك قوله فانتقمنا منهم يعني من المتقدمين.

﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ أي بريء وبراء في الأصل مصدر ثم استعمل صفة ولذلك استوى فيه الواحد والإثنان والجماعة كعدل وشبهه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يحتمل أن يكون استثناء منقطعا وذلك إن كانوا لا يعبدون الله، أو يكون متصلا إن كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره وإعرابه على هذا بدل مما تعبدون فهو في موضع خفض أو منصوب على الاستثناء فهو في موضع نصب.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ قال هنا سيهدين وقال مرة أخرى فهو يهدين ليدل على أن الهداية في الحال والاستقبال.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ ضمير الفاعل في جعلها يعود على إبراهيم عليه السلام، وقيل: على الله تعالى والأول أظهر والضمير المنقول يعود على الكلمة التي قالها وهي: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ومعناها التوحيد ولذلك قيل يعود على الإسلام لقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ وقيل: يعود على لا إله إلا الله والمعنى متقارب، أي جعل إبراهيم تلك الكلمة ثابتة في ذريته لعل من أشرك منهم يرجع إلى التوحيد، والعقب: هو الولد وولد الولد ما تناسلا أبدا.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ الإشارة بهؤلاء إلى قريش وهذا الكلام متصل بما قبله لأن قريشا من عقب إبراهيم عليه السلام.

فالمعنى لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم بل متعتهم بالنعم والعافية فلم يشكروا عليها واشتغلوا بها عن عبادة الله.

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ
قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً
لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ
أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ
عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ
لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ
فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي
أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ الضمير في قالوا لقريش والقريتان مكة والطائف ومن القريتين معناها من إحدى القريتين كقولك يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان أي من أحدهما، وقيل: معناه على رجل من رجلين من القريتين فالرجل الذي من مكة الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة بن ربيعة، والرجل الذي من الطائف عروة بن مسعود، وقيل:حبيب بن عمير ومعنى الآية أن قريشا استبعدوا نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم واقترحوا أن ينزل على أحد هؤلاء وصفوه بالعظمة يريدون الرئاسة في قومه وكثرة ماله فرد الله عليهم بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ يعني أن الله يخص بالنبوة من يشاء من عباده على ما تقتضيه حكمته وإرادته وليس ذلك بتدبير المخلوقين ولا بإرادتهم ثم أوضح ذلك بقوله: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي كما قسمنا المعايش

في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية وإذا كنا لم نمهل الحظوظ الفانية الحقيرة فأولى وأحرى أن لا نمهل الحظوظ الشريفة الباقية.

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ وهو من التسخير في الخدمة أي رفعنا بعضهم فوق بعض ليخدم بعضهم بعضا.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هذا تحقير للدنيا والمراد برحمة ربك هنا النبوة، وقيل:الجنة .

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية تحقير أيضا للدنيا ومعناها لولا أن يكفر الناس كلهم لجعلنا للكفار سقفا من فضة وذلك لهوان الدنيا على الله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها جرعة ماء ".

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ المعارج: الأدراج والسلالم، ومعنى يظهرون يرتفعون ومنه: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ والسرر جمع سرير والزخرف الذهب وقيل: أثاث البيت من الستور والنمارق وشبه ذلك، وقيل: هو التزويق والنقش وشبه ذلك من التزيين كقوله:﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ يعش من قولك عشى الرجل إذا أظلم بصره والمراد به هنا ظلمة القلب والبصيرة، وقال الزمخشري: يعشى بفتح الشين إذا حصلت الآفة في عينيه، ويعشو بضم الشين إذا نظر نظرة الأعشى وليس به آفة، فالفرق بينهما كالفرق بين قولك عمى وتعامى فمعنى القراءة بالضم يتجاهل ويجحد مع معرفته بالحق والظاهر أن ذلك

عبارة عن الغفلة وإهمال النظر وذكر الرحمن، وقال الزمخشري: يريد به القرآن وقال ابن عطية يريد به ما ذكر الله به عباده من المواعظ فالمصدر مضاف إلى الفاعل ويحتمل عندي أن يريد ذكر العبد لله ومعنى الآية أن من غفل عن ذكر الله يسر الله له شيطانا يكون له قرينا فتلك عقوبة على الغفلة عن الذكر بتسليط الشيطان كما أن من داوم على الذكر تباعد عنه الشيطان.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الضمير في إنهم للشياطين وضمير المفعول في يصدونهم لمن يعش عن ذكر الرحمن وجمع الضميرين لأن المراد به جمع.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ قرئ جاءنا بضمير الاثنين وهما من يعش وشيطانه، وقرئ بغير ألف على أنه ضمير واحد وهو من يعش والضمير في قال لمن يعش، وقيل: للشيطان.

﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ فيه قولان:

أحدهما:أنه يعني المشرق والمغرب وغلب أحدهما في التشبيه كما قيل القمران.

والآخر: أنه يعني المشرقين والمغربين وحذف المغربين لدلالة المشرقين عليه.

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ هذا كلام يقال للكفار في الآخرة ومعناه أنهم لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل الذي أصابه والفاعل في ينفعكم قوله: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ وإذ

ظلمتم تعليل معناه بسبب ظلمكم، وقيل: الفاعل مضمر وهو التبري الذي يقتضيه قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ وأنكم على هذا تعليل والأول أرجح.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد بالصم والعمي الكفار إذ كانوا لا يعقلون براهين الإسلام.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ إما مركبة من إن الشرطية وما الزائدة ومقصد الآية وعيد للكفار والمعنى إن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم فإنا سننتقم منهم بعد وفاتك وإن أخرنا وفاتك إلى حين الانتقام منهم فإنا عليهم مقتدرون وهذا الانتقام يحتمل أن يريد به قتلهم يوم بدر وفتح مكة وشبه ذلك من الانتقام في الدنيا أو يريد به عذاب الآخرة، وقيل: إن الضمير في منهم منتقمون للمسلمين وأن معنى ذلك أن الله قضى أن ينتقم منهم بالفتن والشدائد وأنه أكرم نبيه عليه السلام بأن توفاه قبل أن يرى الانتقام من أمته والأول أشهر وأظهر.

* * * *

وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الضمير في إنه للقرآن أو للإسلام، والذكر هنا بمعنى الشرف، وقوم النبي صلى الله عليه وسلم هم قريش وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة ويكفيك أن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها وصارت منهم الخلافة والملك، وورد عن ابن عباس: أنه لما نزلت هذه الآية علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمر بعده لقريش، ويحتمل أن يريد بالذكر التذكير والموعظة فقومه على هذا أمته كلهم وكل من بعث إليهم.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي تسئلون عن العمل بالقرآن وعن شكر الله عليه.

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ إن قيل: كيف أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الرسل المتقدمين وهو لم يدركهم ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه رآهم ليلة الإسراء.

الثاني: أن المعنى اسأل أمة من أرسلنا قبلك.

الثالث: أنه لم يرد سؤالهم حقيقة وإنما المعنى أن شرائعهم متفقة على توحيد الله بحيث لو سئلوا أهل مع الله آلهة يعبدون لأنكروا ذلك ودانوا بالتوحيد.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ الآيات هنا المعجزات كقلب العصا حية وإخراج اليد بيضاء وقيل:البراهين والحجج العقلية والأول أظهر ومعنى أكبر من أختها أنها في غاية الكبر والظهور ولم يرد تفضيلها على غيرها من الآيات إنما المعنى: أنها إذا نظرتها وجدتها كبيرة وإذا نظرت غيرها وجدتها كبيرة فهو كقول الشاعر :

من تلق منهم فقل لاقيت سيدهم.

هكذا قال الزمخشري: ويحتمل عندي أن يريد ما نريهم من آية إلا هي أكبر مما تقدمها فالمراد أكبر من أختها المتقدمة عليها.

﴿ وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ظاهر كلامهم هذا التناقض فإن قولهم يا أيها الساحر يقتضي تكذيبهم له وقولهم ادع لنا ربك يقتضي تصديقه، والجواب من وجهين:

أحدهما: أن القائلين لذلك كانوا مكذبين وقولهم ادع لنا ربك يريدون على قولك وزعمك وقولهم إننا لمهتدون وعد نووا خلافه.

والآخر: أنهم كانوا مصدقين وقولهم يا أيها الساحر إما أن يكون عندهم غير مذموم لأن السحر كان علم أهل زمانهم وكأنهم قالوا يا أيها العالم، وإما أن يكون ذلك اسما قد ألفوا تسمية موسى به من أول ما جاءهم فنطقوا به بعد ذلك من غير اعتقاد معناه.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ يحتمل أنه ناداهم بنفسه أو أمـر مناديـا ينـادي فيهم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ قـصد بـذلك الافتخـار علـى موسـى، ومصر هي البلد المعروف وما يرجع إليه ومنتهى ذلك من نهر إسكندرية إلى أسوان بطول النيل.

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ يعني الخلجان الكبار الخارجة من النيـل كانت تجري تحت قصره وأعظمها أربعة أنهار: نهر الإسـكندرية، وتنـيس، ودمياط، ونهر طولون.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مـذهب سـيبويه أن أم هنـا متـصلة معادلـة والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون ثم وضع قوله أنـا خـير موضـع تبـصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير فإنهم عنده بصراء وهذا من وضع السبب موضع المسبب وكان الأصل أن يقول أفلا تبصرون أم تبـصرون ثم اقتـصر علـى أم وحذف الفعل الذي بعدها واستأنف قوله أنا خير على وجه الإخبار ويوقـف على هذا القول على أم وهذا ضعيف، وقيل:أم بمعنى بل فهي منقطعة.

﴿مَهِينٌ﴾ أي ضعيف حقير قاله الزمخشري وغيره.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إشارة إلى ما بقـي في لـسان موسـى مـن أثـر الجمـرة وذلك أنها كانت قد أحدثت في لسانه عقدة فلما دعا أن تحل أجيبت دعوته وبقي منها أثر كان معه لكنة، وقيل: يعني العي في الكـلام وقولـه ولا يكـاد يبين يقتضي أنه كان يبين لأن كاد إذا نفيت تقتضي الإثبات.

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ يريد لولا ألقاها الله إليه كرامة له ودلالة على نبوته والأسورة جمع سوار وأسوار وهو ما يجعل في الذراع من الحلي وكان الرجال حينئذ يجعلونه.

﴿مُقْتَرِنِينَ ﴾ أي مقترنين به لا يفارقونه أو متقارنين بعضهم مع بعض ليشهدوا له ويقيموا الحجة.

* * * *

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ أي طلب خفتهم بهذه المقالة واستهوى عقولهم.

﴿ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ السلف بفتح السين واللام جمع سالف وقرىء بضمها جمع سليف ومعناه متقدم أي تقدم قبل الكفار ليكون موعظة لهم ومثلا يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ روي عن ابن عباس وغيره في تفسيره هذه الآية: أنه لما نزل في القرآن ذكر عيسى ابن مريم والثناء عليه، قالت قريش: ما يريد محمد إلا أن نعبده نحن كما عبدت النصارى عيسى، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلا، حكى ذلك ابن عطية، والذي ضرب المثل على هذا هو الله في القرآن، ويصدون بمعنى يعرضون، وقال الزمخشري: لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ امتعضوا من ذلك وقال عبد الله بن الزبعرى: أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال

صلى الله عليه وسلم: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة! ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرا؛ وقد علمت أن النصارى عبدوه فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ففرحت قريش بذلك وضحكوا وسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ ونزلت هذه الآية، فالمعنى على هذا لما ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلا وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه إذا قريش من هذا المثل يصدون أي يضحكون ويصيحون من الفرح، وهذا المعنى إنما يجري على قراءة يصدون بكسر الصاد بمعنى الضجيج والصياح.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ يعنون بهو عيسى، والمعنى أنهم قالوا ءآلهتنا خير أم عيسى فإن كان عيسى يدخل النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه لأنه خير من آلهتنا، وهذا الكلام من تمام ما قبله على ما ذكره الزمخشري في تفسير الآية التي قبله، وأما على ما ذكر ابن عطية فهذا ابتداء معنى آخر وحكى الزمخشري في معنى هذه الآية قولا آخر وهو أنهم لما سمعوا ذكر عيسى قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن عبدنا الملائكة، وقالوا: آلهتنا وهم الملائكة خير أم عيسى؟ فمقصدهم تفضيل آلهتهم على عيسى، وقيل: إن قولهم أم هو يعنون به محمدا صلى الله عليه وسلم فإنهم لما قالوا إنما يريد محمد أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى قالوا ءآلهتنا خير أم هو يريدون تفضيل آلهتهم على محمد، والأظهر أن المراد بهو عيسى وهو قول الجمهور ويدل على ذلك تقدم ذكره.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا على وجه الجدل وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره سواء غلبه بحق أو بباطل فإن ابن الزبعرى وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم: ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني عيسى والإنعام عليه بالنبوة والمعجزات وغير ذلك.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ في معناها قولان:

أحدهما: لو نشاء لجعلنا بدلا منكم ملائكة يسكنون الأرض ويخلفون فيها بني آدم فقوله منكم يتعلق ببدل المحذوف أو بيخلفون.

والآخر: لو نشاء لجعلنا منكم أي لولدنا منكم أولادا ملائكة يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم فإنا قادرون على أن نخلق من أولاد الناس ملائكة فلا تنكروا أن خلقنا عيسى من غير والد حكى ذلك الزمخشري.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الضمير لعيسى وقيل: لمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: للقرآن فأما على القول بأنه لعيسى أو لمحمد فالمعنى أنه شرط من أشراط الساعة يوجب العلم بها فسمى الشرط علما لحصول العلم به ولذلك قرئ لعلم بفتح العين واللام أي علامة وأما على القول بأنه للقرآن فالمعنى أنه يعلمكم بالساعة.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ إنما بين البعض دون الكل لأن الأنبياء إنما يبينون أمور الدين لا أمور الدنيا، وقيل: بعض بمعنى كل وهذا ضعيف.

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ
مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ ذكر في مريم.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ أي ينتظرون والضمير لقريش أو للأحزاب.

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الأخلاء جمع خليل وهو الصديق وإنما يعادي الخليل خليله يوم القيامة لأن الضرر دخل عليه من صحبته ولذلك استثنى المتقين لأن النفع دخل على بعضهم من بعض.

﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ الآية تقديره يقول الله يوم القيامة للمتقين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون.

﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي تنعمون وتسرون.

﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أي يائسون من الخير.

* * * *

وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ الْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ المعنى أنهم طلبوا الموت ليستريحوا من العذاب وروي أن مالكا يبقى بعد ذلك ألف سنة وحينئذ يقول لهم إنكم ماكثون أي دائمون في النار.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِالْحَقِّ﴾ الآية من كلام الله تعالى لأهل النار أو من كلام الله لقريش في الدنيا.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ الضمير لكفار قريش والمعنى أنهم إن أحكموا كيد النبي صلى الله عليه وسلم فإنا محكمون نصره وحمايته.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ الآية، روي: أنها نزلت في الأخنس بن شريق والأسود بن عبد يغوث اجتمعا وقال الأخنس: أترى الله يسمع سرنا؟ فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا.

﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ السر: ما يحدث الإنسان به نفسه أو غيره في خفية، والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم.

﴿ بَلَىٰ﴾ أي نسمع ورسلنا مع ذلك تكتب ما يقولون والرسل هنا الملائكة الحافظون للأعمال.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ في تأويل الآية أربعة أقوال:

الأول: أنها احتجاج ورد على الكفار على تقدير قولهم ومعناها لو كان للرحمن ولد كما يقول الكفار لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد كما يعظم خدم الملك ولد الملك لتعظيم والده، ولكن ليس للرحمن ولد فلست بعابد إلا الله وحده وهذا نوع من الأدلة يسمى دليل التلازم لأنه علق عبادة الولد بوجوده ووجوده محال فعبادته محال، ونظير هذا أن يقول المالكي إذا قصد الرد على الحنفي في تحريم النبيذ إن كان النبيذ غير مسكر فهو حلال، لكنه مسكر فهو حرام.

القول الثاني: أن المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم في قولكم أن له ولدا والعابدين على هذين القولين بمعنى العبادة.

القول الثالث: أن العابدين بمعنى المنكرين يقال عبد الرجل إذا أنف وتكبر وأنكر الشيء والمعنى إن زعمتم أن للرحمن ولدا فأنا أول المنكرين لذلك، وإن على هذه الأقوال الثلاثة شرطية.

القول الرابع: قال قتادة وابن زيد إن هنا نافية بمعنى ما كان للرحمن ولد وتم الكلام، ثم ابتدأ قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ والقول الأول هو الصحيح لأنه طريقة معروفة في البراهين والأدلة وهو الذي عول عليه الزمخشري، وقال الطبري: هو ملاطفة في الخطاب ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وقال ابن عطية: منه قوله تعالى في مخاطبة الكفار: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ يعني شركائي على قولكم.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ الآية موادعة منسوخة بالسيف.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي هو الإله لأهل الأرض وأهل السماء والمجرور يتعلق بإله لأن فيه معنى الوصفية.

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم زمان وقوعها.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي لا يملك كل من عبد من دون الله أن يشفع عند الله لأن الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه فهو المالك للشفاعة وحده.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ اختلف هل يعني بمن شهد بالحق الشافع أو المشفوع فيه فإن أراد المشفوع فيه فالاستثناء منقطع والمعنى لا يملك المعبودون شفاعة لكن من شهد بالحق وهو عالم به فهو الذي يشفع فيه ويحتمل على هذا أن يكون من شهد مفعولا بالشفاعة على إسقاط حرف الجر تقديره الشفاعة فيمن شهد بالحق وإن أراد بمن شهد بالحق الشافع فيحتمل أن يكون الاستثناء منقطعا وأن يكون متصلا إلا فيمن عبد عيسى والملائكة والمعنى على هذا لا يملك المعبودون شفاعة إلا من شهد منهم بالحق.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ القيل مصدر كالقول والضمير يعود على النبي صلى الله عليه وسلم وقرئ: قيله بالنصب والخفض وقرئ في غير السبع بالرفع فأما النصب فقيل هو معطوف على: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ وقيل: هو معطوف على موضع الساعة لأنها مفعول أضيف إلى المصدر، وقيل: معطوف على مفعول وهو محذوف تقديره يكتبون أقوالهم وقيله،

وأما الخفض فقيل: إنه معطوف على لفظ الساعة ويحتمل أن يكون معطوفا على قوله بالحق، وأما على الرفع فقيل إنه مبتدأ وخبره ما بعده وضعف الزمخشري ذلك كله، وقال إنه من باب القسم، فالنصب والخفض على إضمار حرف القسم كقولك الله لأضربن زيدا والرفع كقولهم أيمن الله ولعمرك وجواب القسم قوله إن هؤلاء قوم لا يؤمنون كأنه قال: أقسم بقيله أن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ منسوخ بالسيف.

﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ تقديره أمري سلام أي مسالمة، وقيل: سلام عليكم على جهة الموادعة وهو منسوخ على الوجهين.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ تهديد.

* * * *

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ذكر في الزخرف وهو قسم جوابه إنا أنزلناه وقيل: إنا كنا منذرين وهو بعيد.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ يعني ليلة القدر من رمضان وكيفية إنزاله فيها أنه أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم نزل به جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم شيئا بعد شيء، وقيل: معناه أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر، وقيل: يعني بالليلة المباركة ليلة النصف من شعبان وذلك باطل لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ مع قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ معنى يفرق يفصل ويخلص والأمر الحكيم أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم في ذلك العام نسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر ليتمثل الملائكة ذلك بطول السنة القابلة، وقيل: إن هذا يكون ليلة النصف من شعبان وهذا باطل لما قدمنا.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ مفعول بفعل مضمر على الاختصاص قاله الزمخشري، وقال ابن عطية: نصب على المصدر، وقيل: على الحال.

﴿مُرْسِلِينَ﴾ إرسال الرسل عليهم السلام، وقيل: من إرسال الرحمة والأول أظهر.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ في هذا قولان:

أحدهما: قول علي بن أبي طالب وابن عباس أن الدخان يكون قبل يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين وهو من أشراط الساعة، وروى حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إن أول أشراط الساعة الدخان"[1].

والثاني: قول ابن مسعود إن الدخان عبارة عما أصاب قريشا حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجدب فكان الرجل يرى دخانا بينه وبين السماء من شدة الجوع، قال ابن مسعود: خمس قد مضين الدخان و اللزام والبطشة والقمر والروم.

﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون من قول الله تعالى أو من قول الناس لما أصابهم الدخان وهذا أظهر لأن ما بعده من كلامهم باتفاق فيكون الكلام متناسقا.

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ هذا من كلام الله تعالى ومعناه استبعاد تذكير الكفار مع تكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم والواو في قوله: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ واو الحال.

﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم.

---

(١) وانظر تفسير أبي السعود ٢/٤٥٤. والحديث لم أقف عليه مرفوعاً.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ
الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ
أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾
وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ
مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾
كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ
وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾

﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ﴾ أي يعلمه بشر.

﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ قال ابن عباس: هي يوم القيامة، وقال ابن مسعود: هي يوم بدر.

﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني موسى عليه السلام.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أن هنا مفسرة نائب مناب القول وأدوا فعل أمر من الأداء وعباد الله مفعول به وهم بنو إسرائيل، والمعنى: أرسلوا بني إسرائيل كما قال في طه: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وقيل: عباد الله منادى والمعنى أدوا إلي الطاعة والإيمان يا عباد الله والأول أظهر.

﴿لَا تَعْلُوا﴾ أي لا تتكبروا.

﴿بِسُلْطَانٍ﴾ أي حجة وبرهان.

﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ اختلف هل معناه الرجم بالحجارة أو السب والأول أظهر.

﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي اتركون وخلوا سبيلي.

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ هذا أمر من الله لموسى عليه السلام والعباد هنا بنو إسرائيل أي اخرج بهم بالليل.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ إخبار أن فرعون وجنوده يتبعونهم.

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أي ساكنا على هيئته، وقيل: يابسا وروي أن موسى لما جاوز البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق فقال الله له اتركه كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه، وقيل: معنى رهوا: سهلا، وقيل: منفرجا.

﴿وَعُيُونٍ﴾ يحتمل أن يريد الخلجان الخارجة من النيل وكانت ثم عيون في ذلك الزمان، وقيل: يعني الذهب والفضة وهو بعيد.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ فيه قولان؛ المنابر والمساكن الحسان.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ من التنعم بالأرزاق وغيرها.

﴿فَٰكِهِينَ ﴾ أي متنعمين، وقيل: فرحين، وقيل: أصحاب فاكهة.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ في موضع نصب أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم أو في موضع رفع تقديره الأمر كذلك.

﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني بني إسرائيل حكاه الزمخشري والماوردي، وضعفه ابن عطية قال: لأنه لم يرو في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في ذلك الزمان، وقد قال الحسن: إنهم رجعوا إليها، ويدل على أن المراد بنو إسرائيل قوله في الشعراء: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ
﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾
وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ
وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا
خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه عبارة عن تحقيرهم وذلك أنه إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيمه بكت عليه السماء والأرض على وجه المجاز والمبالغة فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهم أحقر من أن يبالي بهم.

الثاني: قيل إذا مات المؤمن بكى عليه من الأرض موضع عبادته ومن السماء موضع صعود عمله، فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهم كفار أو ليس لهم عمل صالح.

الثالث: أن المعنى ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض والأول أفصح وهو منزع معروف في كلام العرب.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي مؤخرين.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب.

﴿عَالِيًا﴾ أي متكبرا.

﴿ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ أي كنا عالمين بأنهم مستحقون لذلك.

﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي على أهل زمانهم.

﴿بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ﴾ أي اختبار.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني كفار قريش.

﴿ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خاطبت قريش بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على وجه التعجيز، روي أنهم طلبوا أن يحيي لهم قصي بن كلاب يسألوه عن أحوال الآخرة.

﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ كان تبع ملك من حمير وكان مؤمنا، وقومه كفارا فذم الله قومه ولم يذمه، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:"ما أدري أكان تبع نبيا أو غير نبي". ومعنى الآية أقريش أشد وأقوى أم قوم تبع والذين من قبلهم من الكفار وقد أهلكنا قوم تبع وغيرهم لما كفروا فكذلك نهلك هؤلاء فمقصود الكلام تهديد.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ عطف على قوم تبع وقيل: هو مبتدأ فيوقف على ما قبله والأول أصح.

﴿لَٰعِبِينَ﴾ حال منفية ذكرت في الأنبياء.

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى ﴾ المولى هنا يعم الولي والقريب وغير ذلك من الموالي.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ استثناء منقطع إن أراد بقوله ولا هم ينصرون الكفار، ومتصل إن أراد بذلك جميع الناس.

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ
عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ
ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا
يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي الفاجر وهو من الإثم وقيل: يعني أبا جهل فالألف واللام للعهد والأظهر أنها للجنس فتعم أبا جهل وغيره.

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ هو دردي الزيت وقيل: ما يذاب من الرصاص وغيره.

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي سوقوه بتعنيف.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ المصبوب في الحقيقة إنما هو الحميم وهو الماء الحار ولكن جعل المصبوب هنا العذاب المضاف إلى الحميم مجازا لأن ذلك أبلغ وأشد تهويلا وقد جاء الأصل في قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ يقال هذا للكافر على وجه التوبيخ والتهكم به أي كنت العزيز الكريم عند نفسك، وروي أن أبا جهل قال ما بين جبليها أعز مني ولا أكرم فنزلت الآية.

﴿تَمْتَرُونَ﴾ تفتعلون من المرية وهي الشك.

﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ قرئ بضم الميم أي موضع إقامة وفتحها أي موضع قيام والمراد به الجنة، والأمين من الأمن أي مأمون فيه، وقيل: من الآمنة وصف به المكان مجازا.

﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس: الرقيق من الديباج، والإستبرق: الغليظ منه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع أي الأمر كذلك أو في موضع نصب أي مثل ذلك زوجناهم.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي يدعون خدامهم.

﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع والمعنى لا يذوقون فيها الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى خاصة قبل ذلك، ولولا قوله فيها لكان متصلا لعموم لفظ الموت، وقيل: إلا هنا بمعنى بعد وذلك ضعيف.

﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي سهلناه والضمير للقرآن.

﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي بلغتك وهي لسان العرب.

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي ارتقب نصرنا لك وإهلاكهم فإنهم مرتقبون ضد ذلك ففيه وعد له ووعيد لهم.

* * * *

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾

﴿تَنزِيلُ﴾ ذكر في الزمر، وما بعد ذلك تنبيه على الاعتبار بالموجودات وقد ذكر معناه في مواضع.

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ الأفاك: مبالغة من الإفك وهو الكذب والأثيم من الإثم، وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث، ولفظها على العموم.

﴿يُصِرُّ﴾ أي يدوم على حاله من الكفر وإنما عطفه بثم لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله واستبعاد ذلك في العقل والطبع.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي إذا بلغه منها شيء، ولم يرد العلم الحقيقي.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ كقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ وقد ذكر في إبراهيم.

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني الشمس والقمر والملائكة وبني آدم والحيوانات والنبات وغير ذلك.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي كل نعمة فمن الله تعالى والمجرور في موضع الحال أو خبر ابتداء مضمر وقرأ ابن عباس منةً.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أمر الله المؤمنين أن يتجاوزوا عن الكفار ولا يؤاخذوهم إذا آذوهم وكان ذلك في صدر الإسلام، قيل: إنها منسوخة بالسيف، وقيل: ليست بمنسوخة لأن احتمال الأذى مندوب إليه على كل حال، وأما القتال على الإسلام فليس من ذلك، وروي: أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب شتمه رجل من الكفار فأراد عمر أن يبطش به. وأيام الله هي نعمه فيرجون على أصله، وقيل: أيام الله عبارة عن عقابه فالرجاء بمعنى الخوف ويغفروا مجزوم في جواب شرط

مقدر دل عليه قل، قال الزمخشري: حذف معمول القول. والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فاعل يجزي ضمير يعود على الله وقرئ بنون المتكلم، وقال ابن عطية: إن الآية وعيد فالقوم على هذا هم الذين لا يرجون أيام الله ويكسبون يعني السيئات، وقال الزمخشري: القوم هم الذين آمنوا وجزاؤهم الثواب بما كانوا يكسبون بكظم الغيظ واحتمال المكروه.

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذكر في البقرة.

﴿بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي معجزات من أمر الدين.

﴿جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي ملة ودين.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أم هنا للإنكار، واجترحوا اكتسبوا والمراد بالذين اجترحوا السيئات الكفار لمقابلته بالذين آمنوا ولأن الآية مكية وقد يتناول لفظها المذنبين من المؤمنين، ولذلك يذكر أن الفضيل بن عياض قرأها بالليل فما زال يرددها ويبكي طول الليل ويقول لنفسه: من أي الفريقين أنت؟! ومعناها إنكار ما حسبه الكفار من أن يكونوا هم والمؤمنون سواء في المحيا والممات وفي تأويلها مع ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد ليس المؤمنون سواء مع الكفار لا في المحيا ولا في الممات فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة والكفار عاشوا على الكفر والمعصية وكذلك ملتهم ليست سواء.

والقول الآخر: أنهم استووا في المحيا في أمور الدنيا من الصحة والرزق فلا يستوون في الممات بل يسعد المؤمنون ويشقى الكافرون فالمراد بها

إثبات الجزاء في الآخرة وتفضيل المؤمنين على الكافرين في الآخرة وهذا المعنى هو الأظهر والأرجح فيكون معنى الآية كقوله: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ وكقوله: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾.

﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ هذه الجملة بدل من الكاف في قوله كالذين آمنوا وهي مفسرة للتشبيه وهي داخلة فيما أنكره الله مما حسبه الكفار، وقيل: هي كلام مستأنف والمعنى على هذا أن محيا المؤمنين ومماتهم سواء وأن محيا الكفار ومماتهم سواء لأن كل واحد يموت على ما عاش عليه وهذا المعنى بعيد والصحيح أنها من تمام ما قبلها على المعنى الذي اخترناه، وأما إعرابها فمن قرأ سواء بالرفع فهو مبتدأ وخبره محياهم ومماتهم والجملة بدل من الجار والمجرور الواقع مفعولا ثانيا لنجعل ومن قرأ سواء بالنصب فهو حال أو مفعول ثان لنجعل ومحياهم فاعل بسواء لأنه في معنى مستوى.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ معطوف على قوله بالحق لأن فيه معنى التعليل أو على تعليل محذوف تقديره خلق الله السموات والأرض ليدل بهما على قدرته ولتجزى كل نفس بما كسبت.

* * * *

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً
فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا
ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ
أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا
رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ
يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾

﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي أطاعه حتى صار له كالإله.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم من الله سابق، وقيل: على علم من هذا الضال بأنه على ضلال ولكنه يتبع الضلال معاندة.

﴿وَخَتَمَ﴾ ذكر في البقرة.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عطية: فيه حذف مضاف تقديره من بعد إضلال الله إياه، ويحتمل أن يريد فمن يهديه غير الله.

﴿وَقَالُوا۟﴾ الضمير لمن اتخذ إلهه هواه أو لقريش.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فيه أربع تأويلات:

أحدها: أنهم أرادوا يموت قوم ويحيا قوم.

والآخر: نموت نحن ويحيا أولادنا.

الثالث: نموت حين كنا عدما أو نطفا ونحيا في الدنيا.

والرابع: نموت الموت المعروف ونحيا قبله في الدنيا فوقع في اللفظ تقديم وتأخير ومقصودهم على كل وجه إنكار الآخرة ويظهر أنهم كانوا على مذهب الدهرية بقولهم وما يهلكنا إلا الدهر فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ الآية.

﴿قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ ذكر في الدخان.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ الآية رد على المنكرين للحشر والاستدلال على وقوعه بقدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي تجثو على الركب وتلك هيئة الخائف الذليل.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي إلى صحائف أعمالها، وقيل: الكتاب المنزل عليها والأول أرجح لقوله: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ الآية فإن قيل: كيف أضاف الكتاب تارة إليهم وتارة إلى الله تعالى؟ فالجواب: أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتة فيه وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نأمر الملائكة الحافظين بكتب أعمالكم، وقيل: إن الله يأمر الحفظة أن تنسخ أعمال العباد من اللوح المحفوظ ثم يمسكونه عندهم فتأتي أفعال العباد على ذلك فتكتبها الملائكة فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عباس يحتج على ذلك بأن يقول: لا يكون الاستنساخ إلا من أصل.

* * * *

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ تقديره يقال لهم ذلك.

﴿وَحَاقَ﴾ ذكر مرارا.

﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ النسيان هنا بمعنى الترك وأما في قوله: ﴿نَسِيتُمْ﴾ فيحتمل أن يكون بمعنى الترك أو الذهول.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من العتبى وهي الرضا.

* * * *

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

﴿تَنزِيلُ﴾ ذكر في الزمر.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ذكر مرارا.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني يوم القيامة.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟﴾ احتجاج على التوحيد ورد على المشركين فالأمر بمعنى التعجيز.

﴿شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي نصيب.

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ تعجيز لأنهم ليس لهم كتاب يدل على الإشراك بالله بل الكتب كلها ناطقة بالتوحيد.

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من علم قديم يدل على ما يقولون، وقيل: معناه من علم تثيرونه أي تستخرجونه، وقيل: هو الإسناد، وقيل: هو الخط

في الرمل، وكانت العرب تتكهن به، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كان نبي من الأنبياء يخط في الرمل فمن وافق خطه فذاك"[1].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ الآية معناها لا أحد أضل ممن يدعو إلها لا يستجيب له وهي الأصنام فإنها لا تسمع ولا تعقل ولذلك وصفها بالغفلة عن دعائهم لأنها لا تسمعه.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي كان الأصنام أعداء للذين عبدوها.

﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ الضمير في كانوا للأصنام أي تتبرأ الأصنام من الذين عبدوها وإنما ذكر الأصنام بضمائر مثل ضمائر العقلاء لأنه أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء من الاستجابة والغفلة والعداوة.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لو افتريته لعاقبني الله على الافتراء عقوبة لا تقدرون على دفعها ولا تملكون شيئا من ردها عليه فكيف أفتريه وأتعرض لعقاب الله.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي بما تتكلمون به يقال أفاض الرجل في الحديث إذا خاض فيه واستمر.

* * * *

---

(١) رواه مسلم الحديث رقم ٨٣٦ وانظر تفسير الرازي ١٤/٤٢ وتفسير اللباب ١٤/٢٠٥.

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ البدع والبديع من الأشياء ما لم ير مثله أي ما كنت أول رسول ولا جئت بأمر لم يجيء به أحد قبلي بل جئت بما جاء به ناس كثيرون قبلي فلأي شيء تنكرون ذلك.

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فيها أربعة أقوال:

الأول: أنها في أمر الآخرة وكان ذلك قبل أن يعلم أنه في الجنة وقبل أن يعلم أن المؤمنين في الجنة وأن الكفار في النار وهذا بعيد لأنه لم يزل يعلم ذلك من أول ما بعثه الله.

والثاني: أنها في أمر الدنيا أي لا أدري بما يقضي الله علي وعليكم فإن مقادير الله مغيبة وهذا هو الأظهر.

الثالث: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما تلزمه الشريعة.

الرابع: أن هذا كان في الهجرة إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض بها نخل فقلق المسلمون لتأخير ذلك فنزلت هذه الآية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ معنى الآية أرأيتم إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ثم حذف قوله ألستم ظالمين وهو الجواب لأنه دل على أن الله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها فالمعنى أرأيتم إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع شهادة شاهد من بني إسرائيل على مثله ثم آمن به هذا الشاهد وكفرتم أنتم ألستم أضل الناس وأظلم الناس واختلف في الشاهد المذكور على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عبد الله بن سلام فقيل:على هذا إن الآية مدنية لأنه إنما أسلم بالمدينة، وقيل: إنها مكية وأخبر بشهادته قبل وقوعها ثم وقعت على حسب ما أخبر وكان عبد الله بن سلام يقول: في نزلت الآية.

الثاني: أنه رجل من بني إسرائيل كان بمكة.

الثالث: أنه موسى عليه السلام ورجح ذلك الطبري والضمير في مثله للقرآن أي يشهد على مثله فيما جاء به من التوحيد والوعد والوعيد والضمير في آمن للشاهد فإن كان عبد الله بن سلام أو الرجل الآخر فإيمانه بين، وإن كان موسى عليه السلام فإيمانه هو تصديقه بأمر محمد صلى الله عليه وسلم وتبشيره به.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي لو كان الإسلام خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء والقائلون لهذه المقالة هم أكابر قريش لما أسلم الضعفاء كبلال وعمار وصهيب، وقيل: بل قالها كنانة وقبائل من العرب لما أسلمت غفار ومزينة وجهينة، وقيل: بل قالها اليهود لما أسلم عبد الله ابن سلام والأول أرجح؛ لأن الآية مكية وكانت مقالة قريش بمكة

وأما مقالة الآخرين فإنما كانت بعد الهجرة، ومعنى الذين آمنوا من أجل الذين آمنوا أي قالوا ذلك عنهم في غيبتهم وليس المعنى أنهم خاطبوهم بهذا الكلام لأنه لو كان خطابا لقالوا ما سبقتمونا.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي لما لم يهتدوا قالوا هذا إفك قديم ونحو هذا ما جاء في المثل: "من جهل شيئا عاداه" ووصفوه بالقدم لأنه قد قيل: قديما، فإن قيل:كيف تعمل فسيقولون في إذ وهي للماضي والعامل مستقبل؟ فالجواب: أن العامل في إذ محذوف تقديره إذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون، قال ذلك الزمخشري، ويظهر لي أن إذ هنا بمعنى التعليل لا ظرفية بمعنى الماضي فلا يلزم السؤال والمعنى أنهم قالوا هذا إفك بسبب أنهم لم يهتدوا به وقد جاءت إذ بمعنى التعليل في القرآن وفي كلام العرب ومنه: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أي بسبب ظلمكم.

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ الضمير في قبله للقرآن وكتاب موسى هو التوراة وإماماً حال، ومعناه يقتدى به.

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارة بهذا إلى القرآن ومعنى: ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ مصدق بما قبله من الكتب، وقد ذكرنا ذلك في البقرة ولساناً حال من الضمير في مصدق وقيل: مفعول بمصدق أي صدق ذا لسانٍ عربي وهو محمد صلى الله عليه وسلم واختار هذا ابن عطية.

﴿ٱسْتَقَٰمُوا﴾ ذكر في حم السجدة.

* * * *

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِحْسَٰنًا﴾ ذكر في العنكبوت.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي حملته بمشقة ووضعته بمشقة ويقال كره بفتح الكاف وضمها بمعنى واحد.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي مدة حمله ورضاعه ثلاثون شهرا وهذا لا يكون إلا بأنه ينقص من أحد الطرفين، وذلك إما أن تكون مدة الحمل ستة أشهر ومدة الرضاع حولين كاملين، أو تكون مدة الحمل تسعة أشهر ومدة الرضاع حولين غير ثلاثة أشهر ومن هذا أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه والعلماء أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وإنما عبر عن مدة الرضاع بالفصال وهو الفطام لأنه منتهى الرضاع.

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ذكر في يوسف.

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ هذا حد كمال العقل والقوة ويقال إن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقيل: إنها عامة.

﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أي في جملة أصحاب الجنة كما تقول رأيت فلانا في الناس أي مع الناس.

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ قال مروان بن الحكم: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين كفره، كان أبوه وأمه يدعوانه إلى الإسلام فيأبى ويقول لهما: أف، وأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك وقالت: " والله ما نزل في آل أبي بكر شيء من القرآن إلا براءتي"[1] ويبطل ذلك قطعا قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أسلم وكان من خيار المسلمين وكان له في الجهاد غنى عظيم، وقال السدي: ما رأيت أعبد منه، وقال ابن عباس: نزلت في ابن لأبي بكر ولم يسمه ويرد ذلك ما ذكرناه عن عائشة، وقيل: هي على الإطلاق فيمن كان على هذه الصفة من الكفر والعقوق لوالديه، ويدل على أنها عامة قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بصيغة الجمع ولو أراد واحدا بعينه لقال ذلك حق عليه القول، وقد ذكرنا معنى أف في الإسراء.

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أي أتعدانني أنا أن أخرج من القبر إلى البعث.

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ أي وقد مضت قرون من الناس ولم يبعث منهم أحد.

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ الضمير لوالديه أي يستغيثان بالله من كراهتهما لما يقول إنهما ثم يقولان له: ﴿وَيۡلَكَ﴾ ثم يأمرانه بالإيمان: ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي قد سطره الأولون في كتبهم وذلك تكذيب بالبعث والشريعة.

---

(١) انظر تفسير البحر المحيط ١٧٩/٥.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ
ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ
قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ
رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي للمحسنين والمسيئين درجات في الآخرة بسبب أعمالهم فدرجات أهل الجنة إلى علو، ودرجات أهل النار إلى سفل.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ تعليل بفعل محذوف وبه يتعلق، تقديره: جعل جزاءهم درجات ليوفيهم أعمالهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ العامل فيه محذوف تقديره اذكر.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ تقديره يقال لهم أذهبتم طيباتكم والطيبات هنا الملاذ من المآكل وغيرها وقرىء أذهبتم بهمزة واحدة على الخبر وبهمزتين على التوبيخ والآية في الكفار بدليل قوله يعرض الذين كفروا وهي مع ذلك واعظة لأهل التقوى من المؤمنين ولذلك قال عمر لجابر ابن عبد الله وقد رآه اشترى لحما: أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية.

﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي العذاب الذي يقترن به هوان.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هودا عليه السلام.

﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ جمع حقف وهو الكدس من الرمل، واختلف أين كانت؟ فقيل: بالشام، وقيل: بين عمان ومهرة، وقيل: بين عمان وحضرموت، والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن.

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي تقدمت من قبله ومن بعده والنذر جمع نذير، فإن قيل: كيف يتصور تقدمها من بعده؟ فالجواب: أن هذه الجملة اعتراض وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلا متقدمين قبل هود وبعده، وقيل: معنى من خلفه في زمانه.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قل إن العذاب الذي قلتم ائتنا به ليس لي علم متى يكون وإنما يعلمه الله وما علي إلا أن أبلغكم ما أرسلت به.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ العارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء والضمير في رأوه يعود على ما تعدنا أو على المرئي المبهم الذي فسره قوله: ﴿عَارِضٗا﴾ قال الزمخشري: وهذا أعرب وأفصح [1] وروي: أنهم كانوا قد قحطوا مدة فلما رأوا هذا العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به، فقال لهم هود عليه السلام: بل هو ما استعجلتم به من العذاب، وقوله ريح بدل من ما استعجلتم، أو خبر ابتداء مضمر.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ عموم يراد به الخصوص.

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) الكشاف ٣/٥٢٤.

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ هذا خطاب لقريش على وجه التهديد أي مكنا عادا فيما لم نمكنكم فيه من القوة والأموال وغير ذلك ثم أهلكناهم لما كفروا وإن هنا نافية بمعنى ما وعدل عن ما كراهية لاجتماعها مع التي قبلها، وقيل: إن شرطية وجوابها محذوف تقديره إن مكناكم فيه طغيتم، قال ابن عطية: وهذا تنطع في التأويل.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني بلاد عاد، وثمود، وسبأ، وغيرها والمراد إهلاك أهلها.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ الآية عرض معناه النفي أي لم تنصرهم آلهتهم التي عبدوا من دون الله.

﴿قُرْبَانًا﴾ أي تقربوا بهم إلى الله وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وانتصاب قربانا على الحال ولا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا لاتخذوا وآلهة بدل منه لفساد المعنى قاله الزمخشري وقد أجازه ابن عطية.

﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي تلفوا لهم وغابوا عن نصرهم حين احتاجوا إليهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي أملناهم نحوك والنفر دون العشرة وروي أن الجن كانوا سبعة وكانوا كلهم ذكرانا لأن النفر الرجال دون النساء وكانوا من أهل نصيبين، وقيل: من أهل الجزيرة، واختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم؟ قيل: إنه لم يرهم ولم يعلم باستماعهم حتى أعلمه الله بذلك، وقيل: بل علم بهم واستعد لهم واجتمع معهم، وقد ورد في ذلك عن عبد الله ابن مسعود أحاديث مضطربة، وسبب استماع الجن أنهم لما طردوا من استراق السمع من السماء برجم النجوم قالوا: ما هذا إلا لأمر حدث! فطافوا بالأرض ينظرون ما أوجب ذلك حتى سمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر في سوق عكاظ فاستمعوا إليه وآمنوا به.

﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ في هذا دلالة على أنهم كانوا على دين اليهود، وقيل: كانوا لم يعلموا ببعث عيسى.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ذكر في البقرة.

﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ من هنا للتبعيض على الأصح أي يغفر لكم الذنوب التي فعلتم قبل الإسلام، وأما التي بعد الإسلام فهي في مشيئة الله، وقيل: معنى التبعيض أن المظالم لا تغفر، وقيل: إن من زائدة.

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي من النار واختلف الناس هل للجن ثواب زائد على النجاة من النار أم ليس لهم ثواب إلا النجاة خاصة؟

وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ الآية يحتمل أن يكون من كلام الجن أو من كلام الله تعالى ومعنى ليس بمعجز أي لا يفوت.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الآية احتجاج على بعث الأجساد بخلق السموات والأرض.

﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ يقال عييت بالأمر إذا لم تعرفه فالمعنى أنه تعالى علم كيف خلق السموات والأرض وأحكم خلقتها فلا شك أنه قادر على إحياء الموتى.

﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في موضع رفع لأنه خبر أن وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أول الآية على أن وخبرها.

﴿بَلَىٰٓ﴾ جواب لما تقدم أي هو قادر على أن يحيي الموتى.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي اصبر على تكذيب قومك، وأولوا العزم هم: نوح، وإبراهيم، وعيسى، وموسى، وقيل: هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام لقوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وقيل: كل من لقي من أمته شدة، وقيل:

الرسل كلهم أولوا عزم فمن الرسل على هذا لبيان الجنس وعلى الأقوال المتقدمة للتبعيض.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي لا تستعجل نزول العذاب بهم فإنهم صائرون إليه فإنهم إذا هلكوا كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار لاستقصار أعمارهم.

﴿بَلَٰغٌ﴾ خبر ابتداء مضمر تقديره هذا الذي وعظتم به بلاغ بمعنى كفاية في الموعظة أو بلاغ من الرسول عليه الصلاة والسلام أي بلغ هذا المواعظ والبراهين.

* * * *

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا
نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ
ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا
ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ
أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني كفار قريش وعموم اللفظ يعم كل كافر كما أن قوله بعد هذا والذين آمنوا يعني الصحابة وعموم اللفظ يصلح لكل مؤمن.

﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون صدوا بمعنى أعرضوا فيكون غير متعد أو يكون بمعنى صدوا الناس فيكون متعديا وسبيل الله الإسلام والطاعة.

﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها، وقيل: المراد بأعمالهم هنا ما أنفقوا في غزوة بدر فإن هذه الآية نزلت بعد بدر واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هذا تجريد للاختصاص والاعتناء بعد عموم قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولذلك أكده بالجملة الاعتراضية وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قيل معناه أصلح حالهم وشأنهم وحقيقة البال الخاطر الذي في القلب وإذا صلح القلب صلح الجسد كله فالمعنى إصلاح دينهم بالإيمان والإخلاص والتقوى.

﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضربا ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه والمراد اقتلوهم ولكن عبر عنه بضرب الرقاب لأنه الغالب في صفة القتل.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي هزمتموهم والإثخان أن يكثر فيهم القتل والأسر.

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ عبارة عن الأسر.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ المن: العتق، والفداء: فك الأسير بمال، وهما جائزان، فإن مذهب مالك أن الإمام مخير في الأسارى بين خمسة أشياء وهي: المن، والفداء، والقتل، والاسترقاق، وضرب الجزية، وقيل: لا يجوز المن ولا الفداء لأن الآية منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فلا يجوز على هذا إلا قتلهم، والصحيح أنها محكمة وانتصب منا وفداء على المصدرية والعامل فيهما فعلان مضمران.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الأوزار في اللغة: الأثقال، فالمعنى حتى تذهب وتزول أثقالها وهي آلاتها، وقيل: الأوزار الآثام لأن الحرب لابد أن يكون فيها إثم في أحد الجانبين واختلف في الغاية المرادة هنا فقيل: حتى يسلم الجميع فحينئذ تضع الحرب أوزارها، وقيل: حتى تقتلوهم وتغلبوهم وقيل: حتى ينزل عيسى ابن مريم، قال ابن عطية: ظاهر اللفظ أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبدا كما تقول أنا فاعل ذلك إلى يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ تقديره الأمر ذلك.

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لو شاء الله لأهلك الكفار بعذاب من عنـده ولكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين وأن يبلو بعض الناس ببعض.

* * * *

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٩ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ۝١٤ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾

﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي جعلهم يعرفون منازلهم فيها فهو من المعرفة، وقيل: معناه طيبها لهم فهو من العرف وهو طيب الرائحة، وقيل: معناه شرفها ورفعها فهو من الأعراف التي هي الجبال.

﴿فَتَعْسًا﴾ لهم أي عثارا وهلاكا وانتصابه على المصدرية والعامل فيه فعل مضمر وعلى هذا الفعل عطف وأضل أعمالهم.

﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾ أي لكفار قريش أمثال عاقبة الكفار المتقدمين من الدمار والهلاك.

﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي وليهم وناصرهم وكذلك: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ معناه لا ناصر لهم ولا يصح أن يكون المولى هنا بمعنى السيد لأن الله مولى المؤمنين والكافرين بهذا المعنى ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ لأن معنى المولى مختلف في الموضعين

فمعنى مولاهم الحق ربهم وهذا على العموم في جميع الخلق بخلاف قوله مولى الذين آمنوا فإنه خاص بالمؤمنين لأنه بمعنى الولي والناصر.

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ عبارة عن كثرة أكلهم وعن غفلتهم عن النظر كالبهائم.

﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني مكة وخروجه صلى الله عليه وسلم من وقت الهجرة ونسب الإخراج إلى القرية والمراد أهلها لأنهم آذوه حتى خرج.

﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ الضمير للقرى المتقدمة المذكورة في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وجمعه حملا على المعنى والمراد أهلكنا أهلها.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي على حجة ويعني به النبي صلى الله عليه وسلم كما يعني قريشا بقوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ واللفظ أعم من ذلك.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ ذكر في الرعد.

﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي غير متغير.

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ تقديره أمثل أهل الجنة المذكورة كمن هو خالد في النار فحذف هذا على التقدير والمراد به النفي وإنما حذف لدلالة التقدير المتقدم وهو قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾.

* * * *

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني المنافقين وجاء يستمعون بلفظ الجمع رعيا لمعنى من.

﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ روي أنه عبدالله بن مسعود.

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ كانوا يقولون ذلك على أحد وجهين إما احتقارا لكلامه كأنهم قالوا أي فائدة فيه، وإما جهلا منهم ونسيانا لأنهم كانوا وقت كلامه معرضين عنه، وآنفا معناه الساعة الماضية قريبا وأصله من استأنفت الشيء إذا ابتدأته.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ يعني المؤمنين والضمير في زادهم لله تعالى أو للكلام الذي قال فيه المنافقون ماذا قال آنفا، وقيل: يعني بالذين اهتدوا قوما من النصارى آمنوا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فاهتداؤهم هو إيمانهم بعيسى وزيادة هداهم إسلامهم.

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ الضمير للمنافقين والمعنى هل ينتظــرون إلا الساعة لأنها قريبة.

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي علاماتها والذي كان قـد جـاء مـن ذلـك مبعـث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه قال:" أنا من أشراط الساعة، وبعثت أنا والساعة كهاتين".

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي كيف لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة بغتة فلا يقدرون على عمل ولا تنفعهم التوبة ففاعـل جـاءتهم الـساعة وذكـراهم مبتدأ وخبره الاستفهام المتقدم والمراد به الاستبعاد.

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي دم على العلم بذلك واستدل بعضهم بهذه الآية على أن النظر والعلم قبـل العمـل لأنـه قـدم قولـه فـاعلم علـى قولـه واستغفر.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ قيل: متقلبكم تصرفكم في الدنيا ومثـواكم إقامتكم في القبور، وقيل: متقلبكم تصرفكم في اليقظة ومثواكم منامكم.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ كان المؤمنون يقولون ذلك على وجه الحرص على نزول القرآن والرغبة فيه لأنهم كانوا يفرحون به ويستوحشون من إبطائه.

﴿سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ يحتمل أن يريد بالمحكمة أي ليس فيها منسوخ أو يريد متقنة، وقرأ ابن مسعود سورة محدثة.

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يعني المنافقين ونظرهم ذلـك من شدة الخوف من القتل لأن نظر الخائف قريب من نظر المغشي عليه.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى أحق وخبره على هذا طاعة والمعنى أن الطاعة والقول المعروف أولى لهم وأحق.

والآخر: أن أولى لهم كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم كقولك: ويل لهم، ومنه قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فيوقف على أولى لهم على هذا القول ويكون طاعة ابتداء كلام تقديره طاعة وقول معروف أمثل أو المطلوب منهم طاعة وقول معروف أو قولهم لك يا محمد طاعة وقول معروف بألسنتهم دون قلوبهم.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أسند العزم إلى الأمر مجازا كقولك نهاره صائم وليلة قائم.

﴿صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن يريد صدق اللسان أو صدق العزم والنية وهو أظهر.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ هذا خطاب للمنافقين المذكورين خرج من الغيبة إلى الخطاب ليكون أبلغ في التوبيخ والمعنى هل يتوقع منكم الإفساد في الأرض وقطع الأرحام إن توليتم ومعنى توليتم صرتم ولاة على الناس وصار الأمر لكم وعلى هذا قيل إنها نزلت في بني أمية، وقيل: معناه أعرضتم عن الإسلام.

﴿ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ نزلت في المنافقين الذين نافقوا بعد إسلامهم، وقيل: نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة ثم كفروا به.

﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زين لهم ورجاهم ومناهم.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي مد لهم في الأماني والآمال والفاعل هو الشيطان، وقيل: الله تعالى، والأول أظهر لتناسب الضمير بين الفاعلين في سول وأملى.

* * * *

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم
بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟
ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ قال ذلك اليهود للمنافقين، وبعض الأمر يعنون به مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاربته.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة يعني ملك الموت ومن معه والفاء رابطة للكلام مع ما قبله والمعنى هذا جزعهم من ذكر القتال فكيف يكون حالهم عند الموت.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ ضمير الفاعل للملائكة، وقيل: إنه للكفار أي يضربون وجوه أنفسهم وذلك ضعيف.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الآية معناها ظن المنافقون أن لن يفضحهم الله والضغن الحقد ويراد به هنا النفاق والبغض في الإسلام وأهله.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي لو نشاء لأريناك المنافقين بأعيانهم حتى تعرفهم بعلامتهم ولكن الله ستر عليهم إبقاء عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين وروي أن الله لم يذكر واحدا منهم باسمه.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ معنى لحن القول مقصده وطريقته، وقيل: اللحن هو الخفي المعنى كالكناية والتعريض، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم سيعرفهم من دلائل كلامهم وإن لم يعرفه الله بهم على التعيين.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي نختبركم.

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي نعلمه علما ظاهرا في الوجود تقوم به الحجة عليكم وقد علم الله الأشياء قبل كونها، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: "اللهم لا تبتلينا فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا".

﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أي خالفوه وعادوه ونزلت الآية في المنافقين وقيل: في اليهود.

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يحتمل أربعة معان:

أحدها: لا تبطلوا أعمالكم بالكفر بعد الإيمان.

والثاني: لا تبطلوا حسناتكم بفعل السيئات ذكره الزمخشري وهذا على مذهب المعتزلة، خلافا للأشعرية فإن مذهبهم أن السيئات لا تبطل الحسنات.

والثالث: لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والعجب.

والرابع: لا تبطلوا أعمالكم بأن تقتطعوها قبل تمامها وعلى هذا أخذ الفقهاء الآية وبهذا يستدلون على أن من ابتدأ نافلة لم يجز له قطعها وهذا أبعد هذه المعاني والأول أظهر لقوله قبل ذلك في الكفار أو المنافقين وسيحبط أعمالهم فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا أعمالكم مثل هؤلاء الذين أحبط الله أعمالهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله ومشاقتهم الرسول.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ هذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر الله له، وقد أجمع المسلمون على ذلك.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي لا تضعفوا عن مقاتلة الكفار وتبتدئوهم بالصلح فهو كقوله : ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم أجور أعمالكم يقال وترت الرجل أتراه إذا نقصته شيئا أو أذهبت له متاعا.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي لا يسألكم جميعها إنما يسألكم ما يخف عليكم مثل ربع العشر وذلك خفيف.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ معنى يحفكم: يلح عليكم، والإحفاء أشد السؤال، وتبخلوا جواب الشرط.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ الفاعل الله تعالى أو البخل والمعنى يخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منصوب على التخصيص أو منادى.

﴿لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني الجهاد والزكاة.

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي إنما ضرر بخله على نفسه فكأنه بخل على نفسه بالثواب الذي يستحقه بالإنفاق.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يأت بقوم على خلاف صفتكم بل راغبين في الإنفاق في سبيل الله، فقيل: إن هذا الخطاب لقريش، والقوم غيرهم هم الأنصار وهذا ضعيف لأن الآية مدنية نزلت والأنصار حاضرون، وقيل: الخطاب لكل من كان حينئذ بالمدينة والقوم هم: أهل اليمن، وقيل: فارس.

* * * *

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

نزلت هذه السورة حين انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية لما أراد أن يعتمر بمكة فصده المشركون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر وهما راجعان إلى المدينة: "لقد نزلت علي سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها ".

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ يحتمل هذا الفتح في اللغة أن يكون بمعنى الحكم أي حكمنا لك على أعدائك أو من الفتح بمعنى العطاء كقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ أو من فتح البلاد واختلف في المراد بهذا الفتح على أربعه أقوال:

الأول: أنه فتح مكة وعده الله به قبل أن يكون وذكره بلفظ الماضي لتحققه وهو على هذا بمعنى فتح البلاد.

الثاني: أنه ما جرى في الحديبية من بيعة الرضوان ومن الصلح الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قريش وهو على هذا بمعنى الحكم

أو بمعنى العطاء ويدل على صحة هذا القول أنه لما وقع صلح الحديبية شق ذلك على بعض المسلمين بشروط كانت فيه حتى أنزل الله هذه السورة ويتبين أن ذلك الصلح له عاقبة محمودة وهذا هو الأصح، لأنه روي أنها لما نزلت قال بعض الناس: ما هذا الفتح وقد صدنا المشركون عن البيت؟ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:" بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالروح ورغبوا إليكم في الأمان ".

الثالث: أنه ما أصاب المسلمون بعد الحديبية من الفتوح كفتح خيبر وغيرها.

الرابع: أنه الهداية إلى الإسلام ودليل هذا القول قوله ليغفر لك الله فجعل الفتح علة للمغفرة ولا حجة في ذلك إذ يتصور في الجهاد وغيره أن يكون علة للمغفرة أيضا أو تكون اللام للصيرورة والعاقبة لا للتعليل فيكون المعنى إنا فتحنا لك فتحا مبينا فكان عاقبة أمرك أن جمع الله لك بين سعادة الدنيا والآخرة بأن غفر لك وأتم نعمته عليك وهداك ونصرك.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي السكون والطمأنينة يعني سكونهم في صلح الحديبية وتسليهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: معناه الرحمة.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ معناه أنهم ظنوا أن الله يخذل المؤمنين وقالوا لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا، وقيل: معناه أنهم لا يعرفون الله بصفاته فذلك هو ظن السوء به والأول أظهر بدليل ما بعده.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ يحتمل أن يكون خبرا أو دعاء.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ
وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ
فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١٠
سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم
مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ
ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ۝١١ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ
ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ۝١٢ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ
أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ۝١٣ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٤ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ
ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٥﴾

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ أي تشهد على أمتك.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعظموه، وقيل: تنصرونه وقريء تعززوه بزايين منقوطتين والضمير في تعزروه وتوقروه للنبي صلى الله عليه وسلم وفي تسبحوه لله تعالى، وقيل: الثلاثة لله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ هذا تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وذلك على وجه التخييل والتمثيل، يريد أن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تعلو يد المبايعين له هي يد الله في المعنى وإن لم تكن كذلك في الحقيقة وإنما المراد أن عقد ميثاق البيعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام كعقده مع الله كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ وتأول

المتأولون ذلك بأن يد الله معناها النعمة أو القوة وهذا بعيد هنا ونزلت الآية في بيعة الرضوان تحت الشجرة وسنذكرها بعد.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ يعني أن ضرر نكثه على نفسه ويراد بالنكث هنا نقض البيعة.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية سماهم بالمخلفين لأنهم تخلفوا عن غزوة الحديبية والأعراب هم أهل البوادي من العرب، لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة يعتمر رأوا أنه يستقبل عدوا كثيرا من قريش وغيرهم فقعدوا عن الخروج معه ولم يكن إيمانهم متمكنا فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر ففضحهم الله في هذه السورة وأعلم رسوله صلى الله عليه وسلم بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يحتمل أن يريد قولهم شغلتنا أموالنا وأهلونا لأنهم كذبوا في ذلك أو قولهم فاستغفر لنا لأنهم قالوا ذلك رياء من غير صدق ولا توبة.

﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هالكين من البوار وهو الهلاك ويعني به الهلاك في الدين.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الآية أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن المخلفين عن غزوة الحديبية يريدون الخروج معه إذا خرجوا إلى غزوة أخرى وهي غزوة خيبر فأمر الله بمنعهم من ذلك وأن يقول لهم لن تتبعونا.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يريدون أن يبدلوا وعد الله لأهل الحديبية وذلك أن الله وعدهم أن يعوضهم من غنيمة مكة غنيمة خيبر وفتحها وأن يكون ذلك مختصا بهم دون غيرهم وأراد المخلفون أن يشاركوهم في ذلك فهذا هو ما أرادوا من التبديل وقيل: كلام الله.

﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ وهذا ضعيف لأن هذه الآية نزلت بعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك بعد الحديبية بمدة.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يريد وعده باختصاصه أهل الحديبية بغنائم خيبر.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ معناه يعز عليكم أن نصيب معكم مالا وغنيمة وبل هنا للإضراب عن الكلام المتقدم وهو قوله: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ فمعناها رد أن يكون الله حكم بأن لا يتبعوهم وأما بل في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهي إضراب عن وصف المؤمنين بالحسد، وإثبات لوصف المخلفين بالجهل.

* * * *

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ اختلف في هؤلاء القوم على أربعة أقوال:

الأول: أنهم هوازن ومن حارب النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين.

والثاني: أنهم الروم إذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتالهم في غزوة تبوك.

والثالث: أنهم أهل الردة من بني حنيفة وغيرهم الذين قاتلهم أبو بكر الصديق.

والرابع: أنهم الفرس، ويتقوى الأول والثاني بأن ذلك ظهر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوى المنذر بن سعيد القول الثالث بأن الله جعل حكمهم القتل أو الإسلام ولم يذكر الجزية، قال: وهذا لا يوجد

إلا في أهل الردة، قلت: وكذلك هو موجود في كفار العرب إذ لا تؤخذ منهم الجزية فيقوي ذلك أنهم هوازن، أو يسلمون عطف على تقاتلونهم وقال ابن عطية: هو مستأنف.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يريد في غزوة الحديبية.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية معناها أن الله تعالى عذر الأعمى والأعرج والمريض في تركهم للجهاد لسبب أعذارهم.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يدخل النار إن شاء الله أحد من أهل الشجرة الذين بايعوا تحتها"، وفي الحديث أنهم كانوا ألفا وأربعمائة وقيل: ألفا وخمسمائة وسبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ الحديبية وهي موضع على نحو عشرة أميال من مكة أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسولا إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء ليعتمر وأنه لا يريد حربا فلما وصل إليهم عثمان حبسه أقاربه كرامة له فصرخ صارخ أن عثمان قد قتل فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة على القتال وأن لا يفر أحد، وقيل: بايعوه على الموت ثم جاء عثمان بعد ذلك سالما وانعقد الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة على أن يرجع ذلك العام ويعتمر في العام القابل، والشجرة المذكورة كانت سمرة هنالك ثم ذهبت بعد سنين فمر عمر بن الخطاب بالموضع في خلافته فاختلف الصحابة في موضعها.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني من صدق الإيمان وصدق العزم على ما بايعوا عليه، وقيل: من كراهة البيعة على الموت وهذا باطل لأنه ذم للصحابة وقد ذكرنا السكينة.

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ يعني فتح خيبر، وقيل: فتح مكة والأول أشهر، أي جعل الله ذلك ثوابا لهم على بيعة الرضوان زيادة على ثواب الآخرة وأما المغانم المذكورة أولا فهي غنائم خيبر وهي المعطوفة على الفتح القريب وأما المغانم الكثيرة التي وعدهم الله وهي المذكورة ثانيا فهي كل ما يغنم المسلمون إلى يوم القيامة والإشارة بقوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ إلى خيبر، وقيل: إن المغانم التي وعدهم هي خيبر، والإشارة بهذه إلى صلح الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ أي كف أهل مكة عن قتالكم في الحديبية، وقيل: كف اليهود وغيرهم عن إضرار نسائكم وأولادكم بينما خرجتم إلى الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي تكون هذه الفعلة وهي كف أيدي الناس عنكم آية للمؤمنين يستدلون بها على النصر واللام تتعلق بفعل محذوف تقديره فعل الله ذلك لتكون آية.

﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ يعني فتح مكة، وقيل: فتح بلاد فارس والروم، وقيل: مغانم هوازن في حنين والمعنى لم تقدروا أنتم عليها وقد أحاط الله بها بقدرته ووهبها لكم وإعراب أخرى عطف على عجل لكم هذه، أو مفعول بفعل مضمر تقديره أعطاكم أخرى أو مبتدأ.

﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني أهل مكة.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي عادته والإشارة إلى يوم بدر، وقيل: الإشارة إلى نصر الأنبياء قديما.

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن
يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ روي في سببها أن جماعة من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية ليصيبوا من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في جماعة من المسلمين فهزموهم وأسروا منهم قوما وساقوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلقهم. فكف أيدي الكفار: هو أن هزموا وأسروا، وكف أيدي المؤمنين عن الكفار: هو إطلاقهم من الأسر وسلامتهم من القتل. وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني من بعدما أخذتموهم أسارى.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني أهل مكة.

﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني أنهم منعوهم عن العمرة بالمسجد الحرام عام الحديبية.

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ الهدي ما يهدى إلى البيت من الأنعام، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ساق حينئذ مائة بدنة، وقيل: سبعين ليهديها، والمعكوف: المحبوس، ومحله موضع نحره يعني مكة والبيت، وإعراب الهدي عطف على الضمير المفعول في صدوكم ومعكوفا

حال من الهدي، وأن يبلغ مفعول بالعكف فالمعنى صدوكم عن المسجد الحرام وصدوا الهدي عن أن يبلغ محله والعكف المذكور يعني به منع المشركين للهدي عن بلوغ مكة أو حبس المسلمين بالهدي بينما ينظرون في أمورهم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ الآية تعليل لصرف الله المؤمنين عن استئصال أهل مكة بالقتل وذلك أنه كان بمكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يخفون إيمانهم فلو سلط الله المسلمين على أهل مكة لقتلوا أولئك المؤمنين وهم لا يعرفونهم ولكن كفهم رحمة للمؤمنين الذين كانوا بين أظهرهم وجواب لولا محذوف تقديره لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لسلطناكم عليهم.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ في موضع بدل من رجال ونساء، أو بدل من الضمير المفعول في لم تعلموهم، والوطء هنا الإهلاك بالسيف وغيره.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي تصيبكم من قتلهم مشقة وكراهة، واختلف هل يعني الإثم في قتلهم، أو الدية، أو الكفارة، أو الملامة، أو عيب الكفار لهم بأن يقولوا قتلوا أهل دينهم أو تألم نفوسهم من قتل المؤمنين، وهذا أظهر لأن قتل المؤمن الذي لا يعلم إيمانه وهو بين أهل الحرب لا إثم فيه ولا دية ولا ملامة ولا عيب.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني رحمة للمؤمنين الذين كانوا بين أظهر الكفار بأن كف سيوف المسلمين عن الكفار من أجلهم أو رحمة لمن شاء من الكفار بأن يسلموا بعد ذلك واللام تتعلق بمحذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره كان كف القتل عن أهل مكة ليدخل الله في رحمته من يشاء.

﴿لَوۡ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبۡنَا كَفَرُوا۟﴾ معنى تزيلوا: تميزوا عن الكفار، والضمير للمؤمنين المستوري الإيمان أي لو انفصلوا عن الكفار لعذبنا الكفار، فقوله لعذبنا جواب لو الثانية وجواب الأولى محذوف كما ذكرنا ويحتمل أن يكون لعذبنا جواب لو الأولى وكررت لو الثانية تأكيدا.

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ﴾ يعني أنفة الكفر وهي منعهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين عن العمرة، ومنعهم من أن يكتب في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم، ومنعهم من أن يكتب محمد رسول الله وقولهم لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، والعامل في إذ جعل محذوف تقديره اذكر أو قوله: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾ والسكينة هي سكون المسلمين ووقارهم حين جرى ذلك.

﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ قال الجمهور: هي لا إله إلا الله، وقد روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقيل: لا إله إلا الله والله أكبر، وهذه كلها متقاربة، وقيل: هي بسم الله الرحمن الرحيم التي أبى الكفار أن تكتب.

﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾ أي كانوا كذلك في علم الله وسابق قضائه لهم، وقيل: أحق بها من اليهود والنصارى.

* * * *

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ
رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا
﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى
ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه عند خروجه إلى العمرة أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه بعضهم محلقون وبعضهم مقصرون، وروي أنه أتاه ملك في النوم فقال له لتدخلن المسجد الحرام الآية، فأخبر الناس برؤياه ذلك فظنوا أن ذلك يكون في ذلك العام فلما صده المشركون عن العمرة عام الحديبية قال المنافقون: أين الرؤيا ووقع في نفوس المسلمين شيء من ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي تلك الرؤيا صادقة وسيخرج تأويلها بعد ذلك فاطمأنت قلوب المؤمنين وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل هو وأصحابه فدخلوا مكة واعتمروا وأقاموا بمكة ثلاثة أيام وظهر صدق رؤياه وتلك عمرة القضية، ثم فتح مكة بعد ذلك، ثم حج هو وأصحابه، وصدق في هذا الموضع يتعدى إلى مفعولين وبالحق يتعلق بصدق أو بالرؤيا على أن يكون حالا منها.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لما كان الاستثناء بمشيئة الله يقتضي الشك في الأمر وذلك محال على الله اختلف في هذا الاستثناء على خمسة أقوال:

الأول: أنه استثناء قاله الملك الذي رآه النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فحكى الله مقالته كما وقعت.

والثاني: أنه تأديب من الله لعباده ليقولوا إن شاء الله في كل أمر مستقبل.

والثالث: أنه استثناء بالنظر إلى كل إنسان على حدته لأنه يمكن أن يتم له الأمر أو يموت أو يمرض فلا يتم له.

والرابع: أن الاستثناء راجع إلى قوله آمنين لا لدخول المسجد.

والخامس: أن إن شاء الله بمعنى إذا شاء الله.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ الحلق والتقصير من سنة الحج والعمرة، والحلق أفضل من التقصير لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رحم الله المحلقين ثلاثا ثم قال في المرة الأخيرة والمقصرين"(١).

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يريد ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب ورغب الناس في الإسلام فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية في ألف وخمسمائة وقيل: ألف وأربعمائة، وغزا غزوة الفتح بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني فتح خيبر، وقيل: بيعة الرضوان، وقيل: صلح الحديبية وهذا هو الأصح لأن عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أفتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم. وقيل: هو فتح مكة، وهذا ضعيف لأن معنى قوله: ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ قبل دخول المسجد

---

(١) البخاري الحديث رقم: (١٧٢٧) ومسلم الحديث رقم: (٢٢٩٢) والترمذي الحديث رقم: (٨٣٧) وابن ماجه الحديث رقم: (٣٠٣٥).

الحرام وإنما كان فتح مكة بعد ذلك فإن الحديبية كانت عام ستة من الهجرة وعمرة القضية عام سبعة وفتح مكة عام ثمانية.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ذكر في براءة.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي شاهدا بأن محمدا رسول الله أو شاهدا بإظهار دينه.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني جميع أصحابه، وقيل: من شهد معه الحديبية وإعراب الذين معطوف على محمد رسول الله صفته وأشداء خبر عن الجميع، وقيل: الذين معه مبتدأ وأشداء خبره ورسول الله خبر محمد ورجح ابن عطية هذا، والأول عندي أرجح لأن الوصف بالشدة والرحمة يشمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأما على ما اختاره ابن عطية فيكون الوصف بالشدة والرحمة مختصا بالصحابة دون النبي صلى الله عليه وسلم، وما أحق النبي صلى الله عليه وسلم بالوصف بذلك لأن الله قال فيه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فهذه هي الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ السيما العلامة وفيه ستة أقوال:

الأول: أنه الأثر الذي يحدث في جبهة المصلي من كثرة السجود.

والثاني: أنه أثر التراب في الوجه.

الثالث: أنه صفرة الوجه من السهر والعبادة.

والرابع: حسن الوجه لما ورد في لحديث: "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" وهذا الحديث غير صحيح بل وقع فيه غلط من الراوي فرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو غير مروي عنه.

الخامس: أنه الخشوع.

السادس: أن ذلك يكون في الآخرة يجعل الله لهم نورا من أثر السجود كما يجعل غرة من أثر الوضوء وهذا بعيد؛ لأن قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وصف حالهم في الدنيا، فكيف يكون سيماهم في وجوههم كذلك؟ والأول أظهر، وقد كان بوجه علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب وعلي بن عبدالله بن العباس أثر ظاهر من أثر السجود.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي وصفهم فيها وتم الكلام هنا، ثم ابتدأ قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ وقيل: إن مثلهم في الإنجيل عطف على مثلهم في التوراة ثم ابتدأ قوله كزرع وتقديره هم كزرع والأول أظهر ليكون وصفهم في التوراة بما تقدم من الأوصاف الحسان وتمثيلهم في الإنجيل بالزرع المذكور بعد ذلك وعلى هذا يكون مثلهم في الإنجيل بمعنى التشبيه والتمثيل وعلى القول الآخر يكون المثل بمعنى الوصف كمثلهم في التورية.

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ هذا مثل ضربه الله للإسلام حيث بدأ ضعيفا ثم قوي وظهر، وقيل: الزرع مثل للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه بعث وحده وكان كالزرع حبة واحدة ثم كثر المسلمون فهم كالشطء وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل ويقال بإسكان الطاء وفتحها بمد وبدون مد وهي لغات.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي قواه وهو من المؤازرة بمعنى المعاونة ويحتمل أن يكون الفاعل الزرع والمفعول شطأه أو بالعكس لأن كل واحد منهما يقوي الآخر، وقيل: معناه ساواه طولا فالفاعل على هذا الشطء ووزن آزره فاعله، وقيل: أفعله وقرئ بقصر الهمزة على وزن فعل.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ أي صار غليظا.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق أي قام الزرع على سوقه، وقيل: قوله كزرع يعني النبي صلى الله عليه وسلم أخرج شطأه بأبي بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي بن أبي طالب.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ تعليل لما دل عليه المثل المتقدم من قوة المسلمين فهو يتعلق بفعل يدل عليه الكلام تقديره جعلهم الله كذلك ليغيظ بهم الكفار، وقيل: يتعلق بوعد وهو بعيد.

﴿مِنۡهُم﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض لأنه وعد عم جميعهم رضي الله عنهم.

* * * *

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لا تتكلموا بأمر قبل أن يتكلم هو به ولا تقطعوا في أمر إلا بنظره.

والثاني: لا تقدموا الولاة بمحضره فإنه يقدم من شاء.

والثالث: لا تتقدموا بين يديه إذا مشى وهذا إنما يجري على قراءة يعقوب لا تقدموا بفتح التاء والقاف والدال، والأول هو الأظهر لأن عادة العرب الاشتراك في الرأي، وأن يتكلم كل أحد بما يظهر له فربما فعل ذلك قوم مع النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهم الله عن ذلك ولذلك قال مجاهد: معناه لا تفتاتوا على الله شيئا حتى يذكره على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما قال بين يدي الله لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يتكلم بوحي من الله.

﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أمر الله المؤمنين أن يتأدبوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأدب كرامة له وتعظيما، وسببها: أن بعض جفاة الأعراب كانوا يرفعون أصواتهم.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ مفعول من أجله تقديره مخافة أن تحبط أعمالكم إذا رفعتم أصواتكم فوق صوته أو جهرتم له بالقول صلى الله عليه وسلم فالمفعول من أجله يتعلق بالفعلين معا من طريق المعنى، وأما من طريق الإعراب فيتعلق عند البصريين بالثاني وهو لا تجهر وعند الكوفيين بالأول وهو لا ترفعوا أصواتكم وهذا الإحباط؛ لأن قلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم والتقصير في توقيره يحبط الحسنات وإن فعله مؤمن لعظيم ما وقع فيه من ذلك، وقيل: إن الآية خطاب للمنافقين وهذا ضعيف لقوله في أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فإنه لا يصح أن يقال هذا لمنافق فانه يفعله جرأة وهو يقصده.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فإنه لما نزلت الآية قبلها قال أبو بكر: والله يا رسول الله لا أكلمنك إلا سرا. وكان عمر يخفي كلامه حين يستفهمه النبي صلى الله عليه وسلم، ولفظها مع ذلك على عمومه، ومعنى امتحن اختبر فوجدها كما يجب مثل ما يختبر الذهب بالنار فيوجد طيبا، وقيل: معناها دربها للتقوى حتى صارت قوية على احتمالها بغير تكلف، وقيل: معناه أخلصها الله للتقوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الحجرات: جمع حجرة وهي قطعة من الأرض يحجر عليها بحائط. وكان لكل واحدة من

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حجرة ونزلت الآية في وفد بني تميم قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فدخلوا المسجد ودنوا من حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ووقفوا خارجها ونادوا: يا محمد اخرج إلينا. فكان في فعلهم ذلك جفاء وبداوة وقلة توقير، فتربص رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة ثم خرج إليهم، فقال له واحد منهم وهو الأقرع بن حابس: يا محمد إن مدحي زين وذمي شين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويحك ذلك الله تعالى.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون فيهم قليل ممن يعقل، ونفى العقل عن أكثرهم لا عن جميعهم.

والآخر: أن يكون جميعهم ممن لا يعقل وأوقع القلة موضع النفي والأول أظهر في مقتضى اللفظ والثاني أبلغ في الذم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يعني خيرا في الثواب وفي انبساط نفس النبي صلى الله عليه وسلم وقضائه حوائجهم وإنكار فعلهم فيه تأديب لهم وتعليم لغيرهم.

﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ زكاتهم فروي أنه كان معاديا لهم فأراد إذايتهم فرجع من بعض طريقه فكذب عليهم وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنهم قد منعوني الصدقة وطردوني وارتدوا. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بغزوهم ونظر في ذلك فورد وفدهم منكرين لذلك، وروي أن الوليد بن عقبة لما قرب منهم خرجوا إليه متلقين

له فرآهم على بعد ففزع منهم وظن بهم الشر فانصرف، فقال ما قال، وروي أنه بلغه أنهم قالوا: لا نعطيه صدقة ولا نطيعه فانصرف وقال ما قال. فالفاسق المشار إليه في الآية هو الوليد بن عقبة ولم يزل بعد ذلك يفعل أفعال الفساق حتى صلى بالناس صلاة الصبح أربع ركعات وهو سكران ثم قال لهم أزيدكم إن شئتم. ثم هي باقية في كل من اتصف بهذه الصفة إلى آخر الدهر، وقرئ فتبينوا من التبين وتثبتوا بالثاء من التثبت ويقوي هذه القراءة أنها لما نزلت روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "التثبت من الله والعجلة من الشيطان" واستدل بهذه الآية القائلون بقبول خبر الواحد لأن دليل الخطاب يقتضي أن خبر غير الفاسق مقبول، قال المنذر البلوطي: وهذه الآية ترد على من قال إن المسلمين كلهم عدول لأن الله أمر بالتبين قبل القبول فالمجهول الحال يخشى أن يكون فاسقا.

﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ في موضع المفعول من أجله تقديره مخافة أن تصيبوا قوما بجهالة والإشارة إلى قتال بني المصطلق لما ذكر عنهم الوليد ما ذكر.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لشقيتم والعنت المشقة وإنما قال لو يطيعكم لم يقل لو أطاعكم للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم والحق خلاف ذلك وإنما الواجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم وذلك أن رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم خير وأصوب من رأي غيره ولو أطاع الناس في رأيهم لهلكوا، فالواجب عليهم الانقياد إليه والرجوع إلى أمره وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ الآية.

* * * *

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ اختلف في سبب نزولها، فقال الجمهور: هو ما وقع بين المسلمين وبين المتحزبين منهم لعبد الله بن أبي بن سلول حين مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه فبال حمار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبدالله بن أبي للنبي صلى الله عليه وسلم لقد آذاني من نتن حمارك فرد عليه عبدالله بن رواحة وتلاحا الناس حتى وقع بين الطائفتين ضرب بالجريد، وقيل: بالحديد، وقيل: سببها أن فريقين من الأنصار وقع بينهما قتال فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جهد ثم حكمها باق إلى آخر الدهر، وإنما قال اقتتلوا ولم يقل اقتتلا لأن الطائفة في معنى القوم والناس فهي في معنى الجمع.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ أمر الله في هذه الآية بقتال الفئة الباغية وذلك إذا تبين أنها باغية، فأما الفتن التي تقع بين المسلمين فاختلف العلماء فيها على قولين: أحدهما: أنه لا يجوز النهوض في شيء منها ولا القتال وهو مذهب سعد بن أبي وقاص وأبي ذر وجماعة من

الصحابة رضي الله عنهم وحجتهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قتال المسلم كفر"[1] وأمره عليه الصلاة والسلام بكسر السيوف في الفتن.

والقول الثاني: أن النهوض فيها واجب لتكف الطائفة الباغية، وهذا قول علي وعائشة وطلحة والزبير وأكثر الصحابة وهو مذهب مالك وغيره من الفقهاء وحجتهم هذه الآية فإذا فرعنا على القول الأول فإن دخل داخل على من اعتزل الفريقين منزله يريد نفسه أو ماله فليدفعه عن نفسه وإن أدى ذلك إلى قتله لقوله صلى الله عليه وسلم "من قتل دون نفسه أو ماله فهو شهيد" [2] وإذا فرعنا على القول الثاني فاختلف مع من يكون النهوض في الفتن، فقيل: مع السواد الأعظم، وقيل: مع العلماء، وقيل: مع من يرى أن الحق معه، وحكم القتال في الفتن: أن لا يجهز على جريح، ولا يطلب هارب، ولا يقتل أسير، ولا يقسم فيء.

﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي ترجع إلى الحق.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ إنما ذكره بلفظ التثنية لأن أقل من يقع بينهم البغي اثنان، وقيل: أراد بالأخوين الأوس والخزرج وقرئ بين إخوتكم بالتاء على الجمع وقرئ بين إخوانكم بالنون على الجمع أيضا.

﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ نهي عن السخرية وهي الاستهزاء بالناس.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي لعل المسخور منه خير من الساخر عند الله وهذا تعليل للنهي.

---

(١) النسائي الحديث رقم: (٤٠٣٥) والمسند الحديث رقم: (١٤٥٥).

(٢) في البخاري:" من قتل دون ما له فهو شهيد". البخاري الحديث رقم: (١٤٨٠) و الحديث رقم: (٢٠٢)وأبو داود الحديث رقم: (٤١٤٢) والترمذي الحديث رقم: (١٣٣٨).

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ لما كان القوم لا يقع إلا على الذكور عطف النساء عليهم.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا يطعن بعضكم على بعض واللمز العيب سواء كان بقول أو إشارة أو غير ذلك وسنذكر الفرق بينه وبين الهمز في سورة الهمزة وأنفسكم هنا بمنزلة قوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي لا يدع أحد أحدا بلقب، والتنابز بالألقاب: التداعي بها، وقد أجاز المحدثون أن يقال الأعمش والأعرج ونحوه إذا دعت إليه الضرورة ولم يقصد النقص والاستخفاف.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ يريد بالاسم أن يسمى الإنسان فاسقا بعد أن سمي مؤمنا وفي ذلك ثلاثة أوجه:

أحدها: استقباح الجمع بين الفسق وبين الإيمان فمعنى ذلك أن من فعل شيئا من هذه الأشياء التي نهي عنها فهو فاسق وإن كان مؤمنا.

والآخر: بئس ما يقوله الرجل للآخر يا فاسق بعد إيمانه كقولهم لمن أسلم من اليهود يا يهودي.

الثالث: أن يجعل من فسق غير مؤمن، وهذا على مذهب المعتزلة.

﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يعني ظن السوء بالمسلمين، وأما ظن الخير فهو حسن.

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ قيل في معنى الإثم هنا: الكذب لقوله صلى الله عليه وسلم:" الظن أكذب الحديث ". لأنه قد لا يكون مطابقا للأمر، وقيل:

إنما يكون إثما إذا تكلم به، وأما إذا لم يتكلم بـه فهـو في فـسحة؛ لأنـه لا يقدر على دفع الخواطر واستدل بعضهم بهذه الآية على صحة سـد الـذرائع في الشرع لأنه أمر باجتناب كثير من الظن وأخبر أن بعضه إثم فأمر باجتنـاب الأكثر من الإثم احترازا من الوقوع في البعض الذي هو إثم.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي لا تبحثوا عن مخبآت النـاس وقـرأ الحـسن تحـسـسوا بالحاء والتجسس بالجيم في الشر وبالحاء في الخـير، وقيـل: التجـسس مـا كان من وراء، والتحسس بالحاء الدخول والاستعلام.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ المعنى لا يذكر أحدكم من أخيه المسلم ما يكره لو سمعه والغيبة هي ما يكره الإنسان ذكـره مـن خلقـه أو خلقـه أو دينـه أو أفعاله أو غير ذلك وفي الحديث أنه عليه الصلاة والـسلام قـال: "الغيبـة أن تذكر أخاك المؤمن بما يكره، قيل: يا رسـول الله وإن كـان حقـا؟ قـال: إذا قلت بـاطلا فـذلك بهتـان"[1] وقـد رخـص في الغيبـة في مواضـع منـها في التجريح في الشهادة والرواية والنصيحة في النكاح وشبهه وفي التحذير مـن أهل الضلال.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ شبه الله الغيبـة بأكـل لحم ابن آدم ميتا والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم ثم زاد في تقبيحه أن جعله ميتا لأن الجيفة مستقذرة، ويجوز أن يكون ميتا حال من الأخ أو من لحمه، وقيل: فكرهتموه إخبار عن حالهم بعد التقرير كأنـه لمـا قـررهم قـال: هـل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا؟ أجابوا فقالوا: لا نحـب ذلـك. فقـال

---

(١) انظر صحيح مسلم الحديث رقم: (٤٦٩٠) وسنن أبي داود الحديث رقم: (٤٢٣١) وليس فيهما لفظ المؤمن بل لفظها (ذكر أخاك بما يكـره) وكـذلك في الترمـذي الحـديث رقـم: (١٨٥٧) فكلمة المؤمن في رواية المؤلف لا أدري من أي رواية جاءت.

لهم: فكرهتموه. وبعد هذا محذوف تقديره فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هـي تشبهه وحذف هذا لدلالة الكلام عليه وعلى هـذا المحـذوف يعطـف قولـه واتقوا الله قاله أبو علي الفارسي، وقال الرماني: كراهـة هـذا اللحـم يـدعو إليها الطبع، وكراهة الغيبة يدعو إليها العقل، وهو أحق أن يجاب لأنه بصير عالم، والطبع أعمى جاهل، وقال الزمخشري: في هذه الآية مبالغات كـثيرة منها: الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنـها: جعـل مـا هـو في الغايـة مـن الكراهة موصولا بالمحبة، ومنها: إسناد الفعـل إلى أحـدكم والإشـعار بـأن أحد من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها: أنـه لم يقتـصر علـى تمثيـل الغيبـة بأكل لحم الإنسان حتى جعله ميتا، ومنها: أنه لم يقتصر على تمثيـل الغيبـة بأكل لحم الإنسان حتى جعله أخا له.

* * * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الذكر والأنثى هنا: آدم وزوجه، قال ابن عطية: ويحتمل أن يريد الجنس كأنه قال إنا خلقنا كل واحد منكم من ذكر وأنثى والأول أظهر وأصح لقوله صلى الله عليه وسلم:" الناس من آدم وآدم من التراب "[1]. ومقصود الآية التسوية بين الناس والمنع مما كانت العرب تفعله من التفاخر بالأحساب والطعن في الأنساب، فبين الله أن الكرم والشرف عند الله ليس بالحسب والنسب إنما هو بالتقوى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله"[2]. وروي أن سبب الآية[3] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمر بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا: كيف نزوج بناتنا لموالينا؟

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين وهو أعظم من القبيلة، وتحته القبيلة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، وهم القرابة

(١) أبو داود الحديث رقم (٤٤٥٢) . والترمذي الحديث رقم (٣٨٩٠) .

(٢) لم أعثر على تخريجه.

(٣) أسباب النزول للواحدي هي ٢٢٤.

الأدنون، فمضر وربيعة وأمثالهما شعوبٌ وقريش قبيلة، وبنو عبد مناف بطن، وبنو هاشم فخذ، ويقال بإسكان الخاء فرقا بينه وبين الجارحة، وبنو عبد المطلب فصيلة، وقيل: الشعوب في العجم والقبائل في العرب، والأسباط في بني إسرائيل، ومعنى لتعارفوا ليعرف بعضكم بعضا.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ نزلت في بني أسد بن خزيمة وهي قبيلة كانت تجاور المدينة أظهروا الإسلام وكانوا إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا فأكذبهم الله في قولهم آمنا وصدقهم لو قالوا أسلمنا وهذا على أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والإسلام هو الانقياد بالنطق بالشهادتين والعمل بالجوارح، فالإسلام والإيمان في هذا الموضع متباينان في المعنى وقد يكونان متفقين، وقد يكون الإسلام أعم من الإيمان فيدخل فيه الإيمان حسبما ورد في مواضع أخر.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ معنى لا يلتكم لا ينقصكم شيئا من أجور أعمالكم وفيه لغتان يقال لات وعليه قراءة نافع لا يلتكم بغير همز ويقال ألت وعليه قراءة من قرأ لا يألتكم بهمزة قبل اللام، فإن قيل: كيف يعطيهم أجور أعمالهم وقد قال إنهم لم يؤمنوا ولا يقبل عمل إلا من مؤمن؟ فالجواب: أن طاعة الله ورسوله تجمع صدق الإيمان وصلاح الأعمال فالمعنى إن رجعتم عما أنتم عليه من الإيمان بألسنتكم دون قلوبكم، وعملتم أعمالا صالحة فإن الله لا ينقصكم منها شيئا.

﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ أي لم يشكوا في إيمانهم وفي ذلك تعريض بالأعراب المذكورين بأنهم في شك وكذلك قوله في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ تعريض أيضا بالأعراب إذ كذبوا في قولهم آمنا وإنما عطف ثم لم يرتابوا بثم إشعارا بثبوت إيمانهم في الأزمنة المتراخية المتطاولة.

﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ يريد جهاد الكفار لأنه دليل على صحة الإيمان ويبعد أن يريد جهاد النفس والشيطان لقوله بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ نزلت في بني أسد أيضا فإنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إنا آمنا بك واتبعناك ولم نحاربك كما فعلت هوازن وغطفان وغيرهم.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ أي هداكم للإيمان على زعمكم ولذلك قال إن كنتم صادقين ويمن عليكم يحتمل أن يكون بمعنى ينعم عليكم أو بمعنى يذكر إنعامه وهذا أحسن لأنه في مقابلة يمنون عليك.

* * * *

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا
مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ
كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا
وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ
﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ
ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ
ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾

تكلمنا على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، ويختص ق بأنه قيل: إنه من اسم الله القاهر، أو القدير، وقيل: هو اسم للقرآن، وقيل: هو اسم الجبل الذي يحيط بالدنيا.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ من المجد وهو الشرف والكرم وجواب هذا القسم محذوف تقديره ما ردوا أمرك بحجة وما كذبوك ببرهان وشبه ذلك وعبر عن هذا المحذوف وقع الإضراب ببل، وقيل: الجواب ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ وقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ وقيل: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ وهذه الأقوال ضعيفة متكلفة.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ الضمير في عجبوا لكفار قريش والمنذر هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: الضمير لجميع الناس واختاره ابن عطية قال: ولذلك قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي الكافرون من

الناس، والصحيح أنه لقريش وقوله: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لقصد ذمهم بالكفر، كما تقول جاءني فلان، فقال الفاجر كذا إذا قصدت ذمه وقوله: ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ إن كان الضمير لقريش فمعنى منهم من قبيلتهم يعرفون صدقه وأمانته وحسبه فيهم، وإن كان الضمير لجميع الناس فمعنى منهم إنسان مثلهم وتعجبهم يحتمل أن يكون من أن بعث الله بشرا، أو من الأمر الذي يتضمنه الإنذار وهو الحشر ويؤيد هذا ما يأتي بعد.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ العامل في إذا محذوف تقديره أنبعث إذا متنا.

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الرجع مصدر رجعته والمراد به البعث بعد الموت ومعنى بعيد أي بعيد الوقوع عندهم، وقيل: الرجع الجواب أي جوابهم هذا بعيد عن الحق وعلى هذا يكون قوله ذلك رجع بعيد من كلام الله تعالى، وأما على الأول فهو حكاية كلام الكفار وهو أظهر.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ هذا رد على الكفار في إنكارهم للبعث معناه قد علمنا ما تنقص الأرض منهم من لحومهم وعظامهم فلا يصعب علينا بعثهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل جسد ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب"[(١)] وقيل: المعنى قد علمنا ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم. والأول قول ابن عباس والجمهور وهو أظهر.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٤٩٣٥) ولفظه:" ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة" وكذلك في مسلم الحديث رقم:(٥٢٥٣) أما اللفظ الذي أورده المحقق فهو قريب مما في سنن أبي داود الحديث رقم: (٤١١٨).

﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ يعني اللوح المحفوظ ومعنى حفيظ جامع لا يشذ عنه شيء، وقيل: معناه محفوظ من التغيير والتبديل.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ هـذا الإضـراب أتبـع بـه الإضـراب الأول للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أقبح من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة وما تضمنته من الإخبار بالحشر وغير ذلك، وقال ابن عطية: هـذا الإضراب عن كلام محذوف تقديره ما أجادوا النظر، ونحو ذلك.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مـضطرب لأنهـم تـارة يقولـون شـاعر، وتـارة ساحر، وغير ذلك من أقوالهم، وقيل: معناه منكر، وقيل: ملتبس، وقيـل: مختلط.

﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ يعني بالنجوم.

﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي من شقوق وذلك دليل على إتقان الصنعة.

﴿رَوَٰسِىَ﴾ يعني الجبال.

﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي من كل نوع جميل.

﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ يعني المطر كله، وقيل: الماء المبارك ماء مخصوص ينزلـه الله كل سنة، وليس كل المطر يتصف بالمبارك وهذا ضعيف.

﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ هو القمح والشعير ونحو ذلك مما يحصد.

﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ أي طويلات.

﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ الطلع أول ما يظهر من الثمر وهـو أبـيض منـضد كحـب الرمان، فما دام ملتصقا بعضه ببعض فهو نضيد، فإذا تفرق فليس بنضيد.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ تمثيل لخروج الموتى من القبور بخروج النبات من الأرض.

* * * *

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ
وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ
عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ
ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ
وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا
مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ (27)

﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ قوم كانت لهم بئر عظيم وهي الرس بعث إليهم نبي فجعلوه في الرس وردموا عليه فأهلكهم الله.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ يعني قوم شعيب وقد ذكر.

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ذكر في الدخان.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي حل بهم الهلاك.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ يقال عي بالأمر إذا لم يعرف علمه والخلق الأول خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة، وقيل: يعني خلق آدم، وقيل: خلق السموات والأرض، والأول أظهر ومقصود الآية الاستدلال بالخلقة الأولى على البعث والهمزة للإنكار.

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هم في شك من البعث وإنما نكّر الخلق الجديد لأنه كان غير معروف عند الكفار المخاطبين، وعرّف الخلق الأول لأنه معروف معهود.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني جنس الإنسان ومعنى توسوس به نفسه تحدثه نفسه في فكرتها وذلك أخفى الأشياء، وقيل: يعني آدم ووسوسته عند أكله من الشجرة والأول أظهر وأشهر.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو عرق كبير في العنق وهما وريدان عن يمين وشمال وهذا مثل في فرط القرب والمراد به قرب علم الله واطلاعه على عبده وإضافة الحبل إلى الوريد كقولك مسجد الجامع أو يراد بالحبل العاتق.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني الملكين الحافظين الكاتبين للأعمال والتلقي هو تلقى الكلام بحفظه وكتابته والعامل في إذ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ وقيل: مضمر تقديره اذكر واختاره ابن عطية.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي قاعد، وقيل: مقاعد بمعنى مجالس ورده ابن عطية: بأن المقاعد إنما يكون مع قعود الإنسان والقاعد يكون على جميع هيئة الإنسان، وإنما أفرده وهما اثنان لأن التقدير عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، من المتلقيين فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه، وقال الفراء: لفظ قعيد يدل على الاثنين والجماعة فلا يحتاج إلى حذف.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ العتيد الحاضر وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن مقعد الملكين على الشفتين قلمهما اللسان ومدادهما الريق"[1] وعموم الآية يقتضي أن الملكين يكتبان جميع

---

(١) في المحرر الوجيز بلفظ: "إن مقعد الملكين على الثنيتين بدل الشفتين". ٦/١٨٣ ولم أجده مخرجاً.

أعمال العبد ولذلك قال الحسن وقتادة: يكتبان جميع الكلام فيثبت الله من ذلك الحسنات والسيئات ويمحو غير ذلك، وقال عكرمة: إنما تكتب الحسنات والسيئات لا غير.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بلقاء الله أو فراق الدنيا، وفي مصحف عبدالله ابن مسعود: وجاءت سكرة الحق بالموت، وكذلك قرأها أبو بكر الصديق، وإنما قال جاءت بالماضي لتحقق الأمر وقربه وكذلك ما بعده من الأفعال.

﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تفر وتهرب والخطاب للإنسان.

﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ السائق: ملك يسوقه، وأما الشهيد فقيل: ملك آخر يشهد عليه وهو الأظهر، وقيل: صحائف الأعمال: وقيل: جوارح الإنسان.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ خطاب للإنسان الذي يقتضيه قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يريد أنه كان غافلا عما لقي في الآخرة، وقيل: هو خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أي كنت في غفلة من هذا القصص وهذا في غاية الضعف لأنه خروج عن سياق الكلام.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قيل: كشف الغطاء معاينته أمور الآخرة.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي يبصر ما لم يبصره قبل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا "[(١)].

---

(١) هو في تفسير الألوسي معزو لعلي بن أبي طالب . الألوسي ٢٩٥/٢٠ وفي تفسير الثعالبي مرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم ٤٨٢/٣ ولم أهتد لتخريجه.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ القرين هنا الشيطان الذي كان يغويه، وقيل: الملك الذي يتولى عذابه في جهنم، والأول أرجح لأنه هو القرين المذكور بعد، ولقوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ ومعنى قوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي هذا الإنسان حاضر لدي أعتدته ويسرته لجهنم، وكذلك المعنى إن قلنا إن القرين هو الملك السائق وإن قلنا إنه أحد الزبانية فمعناه هذا العذاب لدي حاضر، ويحتمل أن يكون ما في قوله ما لدي موصوفة أو موصولة فإن كانت موصوفة فعتيد وصف لها وإن كانت موصولة فعتيد بدل منها أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدإ محذوف وما هي خبر المبتدإ على هذه الوجوه، ويحتمل أن يكون عتيد الخبر وتكون ما بدلا من هذا أو منصوبة بفعل مضمر.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ الخطاب للملكين السائق والشهيد، وقيل: إنه خطاب لواحد على أن يكون بالنون المؤكدة الخفيفة ثم أبدل منها ألف، أو على أن يكون معناه ألق ألق مثنى مبالغة وتأكيدا أو على أن يكون على عادة العرب من مخاطبة الاثنين كقولهم: خليلي، وصاحبي، وهذا كله تكلف بعيد، ومما يدل على أن الخطاب لاثنين قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ قيل: مناع للزكاة المفروضة والصحيح العموم.

﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك في الدين فهو من الريب بمعنى الشك.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وخبره فألقياه وأدخل فيه ألفا لتضمنه معنى الشرط، أو يكون بدلا أو صفة ويكون فألقياه تكرارا للتوكيد.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ القرين هنا شيطانه الذي وكل به في الدنيا بلا خلاف، ومعنى ﴿مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ ما أوقعته في الطغيان ولكنه طغى باختياره وإنما حذف الواو هنا لأن هذه جملة مستأنفة بخلاف قوله وقال قرينه قبل هذا فإنه عطف.

* * * *

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ خطاب للناس وقرنائهم من الشياطين.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي قد حكمت بتعذيب الكفار فلا تبديل لذلك، وقيل: معناه لا يكذب أحد لعلمي بجميع الأمور فالإشارة على هذا إلى قول القرين ما أطغيته.

﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ الفعل مسند إلى جهنم، وقيل: إلى خزنتها من الملائكة، والأول أظهر واختلف: هل تتكلم جهنم حقيقة أو مجازا بلسان الحال؟ والأظهر أنه حقيقة وذلك على الله يسير، ومعنى قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ إنما تطلب الزيادة وكانت لم تمتلئ، وقيل: معناه لا مزيد أي ليس عندي موضع للزيادة فهي على هذا قد امتلأت، والأول أظهر وأرجح لما ورد في الحديث:" لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع فيها الجبار قدمه"[1]. وفي الحديث كلام ليس هذا موضعه، والمزيد يحتمل

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٤٨٤٨) ومسلم الحديث رقم: (٥٠٨٥) والمسند الحديث رقم: (٧٣٩٣).

أن يكون مصدرا كالمحيض أو اسم مفعول فإن كان مصدرا فوزنه مفعل وإن كان اسم مفعول فوزنه مفعول.

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أي قربت ثم أكد ذلك بقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي كثير الرجوع إلى الله فهو من آب يؤوب إذا رجع وقيل: هو المسبح لله من قوله: ﴿ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾

﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي حافظ لأوامر الله فيفعلها ولنواهيه فيتركها.

﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي اتقى الله وهو غائب عن الناس فالمجرور في موضع الحال ومن خشي بدل أو مبتدأ، فإن قيل: كيف قرن بالخشية الاسم الدال على الرحمة؟ فالجواب: أن ذلك لقصد المبالغة في الثناء على من يخشى الله لأنه يخشاه مع علمه برحمته وعفوه قال ذلك الزمخشري، ويحتمل أن يكون الجواب عن ذلك: أن الرحمن صار يستعمل استعمال الاسم الذي ليس بصفة كقولنا الله.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قيل: معناه النظر إلى وجه الله كقوله:﴿ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ وقيل: يعني ما لم يخطر على قلوبهم كما ورد في الحديث مما يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال: " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" [١].

﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ الضمير في هم للقرون المتقدمة وفي منهم لكفار قريش.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٧٤٩٨) ومسلم الحديث رقم: (٥٠٥٠) والترمذي الحديث رقم: (٣١٢١) وابن ماجه الحديث رقم: (٤٣١٩) والمسند الحديث رقم: (٧٧٩٦).

﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي طافوا فيها وأصله دخولها من أنقابها أو من التنقب عن الأمر بمعنى البحث عنه.

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي قالوا هل من مهرب من الله أو من العذاب.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي قلب واع يعقل ويفهم.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي استمع وهو حاضر القلب.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ اللغوب: الإعياء والتعب.

❊ ❊ ❊ ❊

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني كفار قريش وغيرهم.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يريد التسبيح باللسان أو يريد الصلاة وقد ذكر الزمخشري فيه الوجهين، وقال ابن عطية: معناه صل بإجماع من المتأولين. وهي على هذا إشارة إلى الصلوات الخمس فقبل طلوع الشمس الصبح، وقبل الغروب الظهر والعصر، ومن الليل المغرب والعشاء، وقيل: هي النوافل.

﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: يعني الركعتين بعد المغرب، وقال ابن عباس: هي النوافل بعد الفرائض، وقيل: الوتر.

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ معناه انتظر فهو عامل في يوم يناد على أنه مفعول به صريح وقيل: المعنى استمع لما نقص عليك من أهوال القيامة فعلى هذا لا يكون عاملا في يوم يناد فيوقف على استمع والأول أظهر.

﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ المنادي هنا إسرافيل الذي ينفخ في الصور، وقيل: إنما وصفه بالقرب لأنه يسمعه جميع الخلق، وقيل: المكان صخرة بيت المقدس وإنما وصفها بالقرب لقربها من مكة، وقيل: لقربها

من السماء لأنها أقرب إلى الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا وهذا ضعيف.

﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ يعني خروج الناس من القبور.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ العامل في هذا الظرف معنى قوله: ﴿حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أو هو بدل مما قبله.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي بقهار تقهرهم على الإيمان كقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ وقيل: إخبار بأنه صلى الله عليه وسلم رءوف بهم، غير جبار عليهم وهذا أظهر.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ لأنه لا ينفع التذكير إلا فيمن يخاف.

* * * *

سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ هي الرياح تذرو التراب وغيره ومنه قوله تعالى: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ وانتصب ذروا على المصدرية.

﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ هي السحاب تحمل المطر والوقر الحمل وهـو مفعـول به.

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ هي السفن تجري في البحر وإعراب يسرا صفة لمـصدر محذوف ومعناه بسهولة.

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ هـي الملائكـة تقـسم أمـور الملكـوت مـن الأرزاق والآجال وغير ذلك، وأمرا مفعول به، وقيل: إن الحـاملات وقـرا الـسفن، وقيل: جميع الحيوان الحامل وقيل: إن الجاريات يـسرا الـسحاب، وقيـل: الجواري من الكواكب، والأول أشهر وهو قول علي بن أبي طالب.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ هذا جواب القسم، ويحتمل توعـدون أن يكـون مـن الوعد أو من الوعيد والأظهر أنه يراد به البعث في الآخرة وهو يشمل الوعد والوعيد.

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ الدين هنا الجزاء، وقيل: الحساب.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي ذات الطرائق مثل الطرائق التي تكون في الماء إذا هبت عليه الرياح وكذلك حبك الزرع وهي الطرائق التي فيه وقيل: الحبك النجوم، وقيل: زينة السماء، وقيل: حسن خلقتها، وواحد الحبك حباك أو حبيكة.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ يحتمل أن يكون خطابا لجميع الناس لأنهم اختلفوا فمنهم مؤمن ومنهم كافر، ويحتمل أن يكون خطابا للكفار خاصة لأنهم اختلفوا فقال بعضهم ساحر، وقال بعضهم كاهن، وقال بعضهم شاعر.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ معنى يؤفك يصرف والضمير في عنه يحتمل أربعة أوجه:

أحدها: أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أو للقرآن أو للإسلام والمعنى يصرف عن الإيمان به من صرف أي من سبق في علم الله أنه مصروف.

الثاني: أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين المذكور والمعنى يصرف عن الإيمان به من صرف.

الثالث: أن يكون الضمير للقول المختلف والمعنى يصرف عن ذلك القول إلى الإسلام من قضى الله بسعادته، وهذا القول حسن إلا أن عرف الاستعمال في أفك ويؤفك إنما هو في العرف من خير إلى شر وهذا من شر إلى خير.

الرابع: أن يكون الضمير للقول المختلف وتكون عن سببية والمعنى يصرف بسبب ذلك القول من صرف عن الإيمان.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دعاء عليهم كقولهم قاتلك الله، وقيل: إن قتل بمعنى لعن، قال ابن عطية: واللفظ لا يقتضي ذلك، وقال الزمخشري: أصله الدعاء بالقتل ثم جرى مجرى لعن وقبح، والخراصون الكذابون وأصل الخرص التخمين، والقول بالظن، والإشارة إلى الكفار، وقيل: إلى الكهان، والأول أظهر.

* * * *

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ۝ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ۝ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ۝﴾

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ الغمرة: ما يغطي عقل الإنسان، وأصله من غمرة الماء والمراد به هنا الجهلة والغفلة عن النظر.

﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يقولون متى يوم الدين على وجه الاستبعاد والاستخفاف.

﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ هذا جواب عن سؤالهم، ومعنى يفتنون: يحرقون ويعذبون، ومنه قيل للحَرَّة فتين لأن الشمس أحرقت حجارتها، ويحتمل أن يكون يومهم معربا والعامل فيه مضمر تقديره يقع ذلك يوم هم على النار يفتنون وأن يكون مبنيا لإضافته إلى مبني وعلى هذا يجوز أن يكون في موضع نصب بالفعل المضمر حسبما ذكرنا أو في موضع رفع والتقدير هو يوم هم على النار يفتنون.

﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ أي يقال لهم ذوقوا حرقتكم.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ يعني يأخذون في الجنة ما أعطاهم ربهم من الخيرات والنعيم، وقيل: المعنى آخذين في الدنيا ما آتاهم ربهم من شرعه، والأول أظهر وأرجح لدلالة الكلام عليه.

﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ الهجوع: النوم، وفي معنى الآية قولان:

أحدهما: وهو الصحيح أنهم كانوا ينامون قليلا من الليل ويقطعون أكثر الليل بالسهر في الصلاة والتضرع والدعاء.

والآخر: أنهم كانوا لا ينامون بالليل قليلا ولا كثيرا ويختلف الإعراب باختلاف المعنيين فأما على القول الأول ففي الإعراب أربعة أوجه:

الأول: أن يكون قليلا خبر كانوا وما يهجعون فاعل بقليلا لأن قليلا صفة مشبهة باسم الفاعل وتكون ما مصدرية والتقدير كانوا قليلا هجوعهم من الليل.

والثاني: مثل هذا إلا أن ما موصولة والتقدير كانوا قليلا الذي يهجعون فيه من الليل.

والثالث: أن تكون ما زائدة وقليلا ظرف والعامل فيه يهجعون والتقدير كانوا يهجعون وقتا قليلا من الليل.

والرابع: مثل هذا إلا أن قليلا صفة لمصدر محذوف والتقدير كانوا يهجعون هجوعا قليلا وأما على القول الثاني ففي الإعراب وجهان: أحدهما: أن تكون ما نافية وقليلا ظرف والعامل فيه يهجعون والتقدير كانوا ما يهجعون قليلا من الليل.

والآخر: أن تكون ما نافية وقليلا خبر كان والمعنى كانوا قليلا في الناس ثم ابتدأ بقوله من الليل ما يهجعون وكلا الوجهين باطل عند أهل العربية لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها فظهر ضعف هذا المعنى لبطلان إعرابه.

﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أي يطلبون من الله مغفرة ذنوبهم، والأسحار آخر الليل وقد جاء في الحديث:" أن الله تعالى يقول في الثلث الآخر من الليل

من يستغفرني فأغفر له"[1]. وقيل:معنى يستغفرون يصلون وهذا بعيد من اللفظ.

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ الحق هنا نوافل الصدقات، وقيل: المراد الزكاة وهذا بعيد لأن الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة وقيل: إن الآية منسوخة بالزكاة وهذا لا يحتاج إليه لأن النسخ إنما يكون مع التعارض ولا تعارض بين الزكاة والنوافل وتسمية النوافل بالحق كقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وإن كان غير واجب، وقال بعض العلماء: في المال حق سوى الزكاة، ورجحه ابن عطية، واختلف الناس في المحروم حتى قال الشَّعْبيُّ: أعياني أن أعلم ما المحروم؟[2] وقيل: المحروم الذي ليس له في بيت المال سهم، وقيل: الذي أجيحت ثمرته، وقيل: الذي ماتت ماشيته، وقيل: هو الكلب وهذه الأقوال أمثلة والمعنى الجامع لها أن المحروم الذي حرمه الله المال بأي وجه كان.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ إشارة إلى ما في خلقة الإنسان من الآيات والعبر ولقد قال بعض العلماء: إن فيه خمسة آلاف حكمة، وقال بعضهم: الإنسان نسخة مختصرة من العالم.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ معنى ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ المطر، وقيل: القضاء والقدر، ويحتمل أن يكون ما توعدون من الوعد والوعيد والكل في السماء ولذلك قيل يعني الجنة والنار، وقيل: الخير والشر.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٧٤٩٤) وسنن أبي داود الحديث رقم: (١١٢٠) والمسند والحديث رقم: (٧٢٧٥) والموطأ الحديث رقم: (٤٤٧).

(٢) انظر الطبري ٤١٨/٢٢ وابن كثير ٤١٩/٧.

﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ هذا جواب القسم والضمير لما تقدم من الآيات أو الرزق أو لما توعدون.

﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ أي حق مثل نطقكم لا يمكن الشك فيه وما زائدة وقرئ مثل بالنصب والرفع فالرفع صفة لحق، والنصب على الحال من حق أو من الضمير المستتر فيه أو صفة لحق، وبني لإضافته إلى مبني، أو لتركيبه مع ما فيصير نحو أينما وكلما.

❁ ❁ ❁ ❁

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾
فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟
لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾
قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟
إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً
لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ
وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ المراد بالاستفهام في مثل هذا التفخيم والتهويل وضيف إبراهيم هم الملائكة الذين جاؤوا ليبشروه بالولد وبإهلاك قوم لوط، ووصفهم بالمكرمين لأنهم مكرمون عند الله ولأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم لأنه خدمهم بنفسه وعجل لهم الضيافة والعامل في إذ دخلوا على هذا المكرمين، ويحتمل أن يكون العامل فيه محذوفاً تقديره اذكر.

﴿ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ نصب هذا لأنه في معنى الطلب وهو مفعول بفعل مضمر ورفع الثاني لأنه خبر تقديره أمري سلام وهذا على أن يكون السلام بمعنى السلامة وإن كان بمعنى التحية فإنما رفع الثاني ليدل على إثبات السلام فيكون قد حياهم بأكثر مما حيوه وينتصب السلام الأول على هذا على المصدرية تقديره سلمنا عليك سلاما ويرتفع الثاني بالابتداء تقديره سلام عليكم قوم منكرون أي لم يعرفهم.

﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ يحتمل أن يكون ألا حضا على الأكل أو تكون الهمزة للإنكار دخلت على لا النافية.

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ إنما خاف منهم لما لم يأكلوا.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ هو إسحاق عليه السلام لقوله: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾.

﴿فِي صَرَّةٖ﴾ أي في صيحة وذلك قولها: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ وهو من صر القلم وغيره إذا صوت، وقيل: معناه في جماعة من النساء.

﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ أي ضربته حياء منهم أو تعجبا من ولادتها وهي عجوز.

﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ تقديره قالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ أو تقديره أتلد عجوز عقيم؟

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾ أي ما شأنكم وخبركم؟ والخطب أكثر ما يقال في الشدائد.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ يعني قوم لوط وقد ذكرنا الحجارة ومسومة في هود.

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الضمير المجرور لقرية قوم لوط لأن الكلام يدل عليها وإن لم يتقدم ذكرها، والمراد بالمؤمنين لوط وأهله، أمرهم الله بالخروج من القرية لينجوا من العذاب الذي أصاب أهلها ووصفهم بالمؤمنين وبالمسلمين لأنهم جمعوا الوصفين وقد ذكرنا معنى الإسلام والإيمان في الأحزاب.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أو على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ معنى تولى أعرض عن الإيمان، وركنه سلطانه وقوته.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي قال إن موسى ساحر أو مجنون فأو للشك أو للتقسيم، وقيل: بمعنى الواو وهذا ضعيف ولا يستقيم هنا.

* * * *

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ۝٤٥ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٤٦ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فعل ما يلام عليه يعني فرعون.

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وصفها بالعقم لأنها لا بركة فيها من إنشاء المطر أو إلقاح الشجر.

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي الفاني المنقطع والعموم هنا يراد به الخصوص فيما أذن للريح أن تهلكه.

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الحين هي الثلاثة الأيام بعد عقرهم الناقة.

والآخر: أن الحين من أول بعث صالح عليه السلام إلى حين هلاكهم وعلى هذا يكون ﴿فَعَتَوْا۟﴾ مرتباً بعد تمتعهم وأما على الأول فيكون إخبارا عن حالهم غير مرتب على ما قبله.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يعني الصيحة التي صاحها جبريل.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي يعاينونها لأنها كانت بالنهار.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي بقوة وانتصاب السماء بفعل مضمر.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معناه قادرون فهو من الوسع وهو الطاقة ومنه: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ أي القوي على الإنفاق.

والآخر: جعلنا السماء واسعة أو جعلنا بينها وبين الأرض سعة.

والثالث: أوسعنا الأرزاق بمطر السماء.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ الماهد: الموطئ للموضع.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي نوعين مختلفين كالليل والنهار والسواد والبياض والصحة والمرض وغير ذلك.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أمر بالرجوع إليه بالتوبة والطاعة، وفي اللفظ تحذير وترهيب.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ توقيف وتعجيب، أي هم بمثابة من أوصى بعضهم بعضا أن يقول ذلك.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ منسوخ بالسيف.

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أي قد بلغت الرسالة فلا لوم عليك.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: معناه خلقتهم لكي آمرهم بعبادتي، وقيل: ليتذللوا لي فإن جميع الإنس والجن متذلل.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي لا أريد أن يطعمون لأني منزه عن الأكل وعن صفات البشر وأنا غني عن العالمين، وقيل: المعنى ما أريد أن يطعموا عبيدي فحذف المضاف تجوزا وقيل: معناه ما أريد أن ينفعوني لأني غني عنهم وعبر عن النفع العام بالإطعام والأول أظهر.

﴿ٱلْمَتِينُ﴾ أي الشديد القوة.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ الذَّنوب: النصيب، ويريد به هنا نصيبا من العذاب، وأصل الذنوب: الدلو، والمراد بالذين ظلموا كفار قريش وبأصحابهم من تقدم من الكفار.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة أو يوم هلاكهم ببدر والأول أرجح لقوله في المعارج: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ يعني يوم القيامة.

* * * *

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾
وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾
وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ
يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ
لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾

﴿وَٱلطُّورِ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وقيل: الطور كل جبل، فكأنه أقسم بجنس الجبال .

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ: وقيل: القرآن، وقيل: صحائف الأعمال .

﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ الرق في اللغة: الصحيفة، وخصصت في العرف بما كان من جلد، والمنشور خلاف المطوي .

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ هو بيت في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا وبهذا عمرانه، وهو حيال الكعبة، وقيل: البيت المعمور الكعبة وعمرانها بالحجاج والطائفين، والأول أظهر وهو قول علي وابن عباس .

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماء .

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ هو بحر الدنيا، وقيل: بحر في السماء تحت العرش والأول أظهر وأشهر، ومعنى المسجور: المملوء ماء وقيل: الفارغ من الماء، ويروى: أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة، واللغة تقتضي الوجهين لأن اللفظ من الأضداد، وقيل: معناه الموقد نارا من قولك سجرت التنور واللغة أيضا تقتضي هذا، وروي: أن جهنم في البحر .

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا جواب القسم ويعني عذاب الآخرة .

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرًا﴾ أي تجئ وتذهب، وقيل: تدور، وقيل: تتشقق والعامل في الظرف واقع ودافع أو محذوف .

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٍ يَلۡعَبُونَ﴾ الخوض التخبط في الأباطيل شبه بخوض الماء .

﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ﴾ أي يدفعون بتعنيف ويوم بدل من الظرف المتقدم.

﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ توبيخ للكفار على ما كانوا يقولونه في الدنيا من أن القرآن سحر .

﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ توبيخ أيضا لهم وتهكم بهم أي هل أنتم لا تبصرون هذا العذاب الذي حل بكم كما كنتم في الدنيا لا تبصرون الحقائق.

﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ ليس المراد بذلك الأمر بالصبر ولا النهي عنه وإنما المراد التسوية بين الصبر وعدمه في أن كل واحد من الحالين لا ينفعهم ولا يخفف عنهم شيئا من العذاب .

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ هذا تعليل لما ذكر من عذابهم وليس تعليلا للصبر ولا لعدمه كما قال بعض الناس .

فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ
ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾
وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ
عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا
قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ
نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ
يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾

﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ يحتمل أن يكون معناه أصحاب فاكهة فيكون نحو لابن وتامر، أو يكون من الفكاهة بمعنى السرور .

﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ معطوف على قوله في جنات أو على آتاهم ربهم أو تكون الواو للحال .

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي يقال لهم كلوا .

﴿ هَنِيٓـًٔا ﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره كلوا أكلا هنيئا، ويحتمل أن يكون وقع موقع فعل تقديره هنأكم الأكل والشرب .

﴿ بِحُورٍ عِينٍ﴾ الحور جمع حوراء: وهي الشديدة بياض بياض العين وسواد سوادها، والعين جمع عيناء وهي الكبيرة العينين مع جمالها وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِحُورٍ﴾ لأنه تضمن قوله زوجناهم معنى قرناهم قاله الزمخشري، وقال إن ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ معطوف على بحور عين أي قرناهم

بحور للتلذذ بهن وبالـذين آمنـوا للأنـس معهـم والأظهـر أن الكـلام تم في قوله:﴿ بِحُورٍ عِينٍ﴾ ويكون والذين آمنوا مبتدأ خبره ألحقنا .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ معنى الآية مـا ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته في الجنة [1] وإن كانوا دونه في العمـل لتقـر بهـم عينـه". فذلك كرامة للأبناء بسبب الآبـاء، قيـل: إن ذلـك في الأولاد الـذين مـاتوا صغارا، وقيل: على الإطلاق في الأبناء المؤمنين وبإيمان في موضع الحـال من الذرية والمعنى أنهم اتبعوا آبـاءهم في الإيمـان، وقـال الزمخـشري: إن هذا المجرور يتعلق بألحقنا والمعنى عنده بسبب الإيمان ألحقنا بهم ذريتـهم والأول أظهر، فإن قيـل: لم قـال بإيمـان بـالتنكير؟ فـالجواب: أن المعـنى بشيء من الإيمان لم يكونوا به أهلا لدرجة آبائهم ولكنهم لحقوا بهم كرامـة للآباء فالمراد تقليل إيمان الذرية ولكنه رفع درجتهم فكيـف إذا كـان إيمانـا عظيما .

﴿ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾ أي ما أنقصناهم شيئاً من ثـواب أعمـالهم بل وفينا لهم أجورهم، وقيل: المعنى ألحقنا ذريتهم بهم وما نقصناهم شـيئا من ثواب أعمالهم بـسبب ذلـك بـل فعلنـا ذلـك تفـضلا زيـادة إلى ثـواب أعمالهم والضمير على القولين يعود على الذين آمنوا وقيل: إنه يعـود علـى الذرية .

---

(١) الدر المنثور ٣٠٩/٩ والبغوي ٣٨٩/٧ والبيضاوي ٢٣٤/٥ والحديث خرجه الحـاكم في المستدرك على الصحيحين الحديث رقم ٣٧٠٣.

﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي مرتهن فإما أن تنجيه حسناته، وإما أن تهلكه سيئاته .

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ الإمداد هو الزيادة مرة بعد مرة .

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي يتعاطونها إذ هم جلساء على الشراب .

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ اللغو الكلام الساقط والتأثيم الذنب فهي بخلاف خمر الدنيا .

﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ يعني خدامهم .

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ اللؤلؤ: الجوهر، والمكنون: المصون وذلك لحسنه، وقيل: هو الذي لم يخرج من الصدف .

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي كنا في الدنيا خائفين من الله والإشفاق شدة الخوف .

﴿ٱلسَّمُومِ﴾ أشد الحر، وقيل: هو من أسماء جهنم .

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى نعبده أو من الدعاء بمعنى الرغبة ومن قبل يعنون في الدنيا قبل لقاء الله .

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ البر الذي يبر عباده ويحسن إليهم وقرئ أنه بفتح الهمزة على أن يكون مفعولا من أجله أو يكون هذا اللفظ هو المدعو به وقرئ بكسرها على الاستئناف.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي ذكر الناس ثم نفى عنه ما نسبه إليه الكفار من الكهانة والجنون ومعنى بنعمة ربك بسبب إنعام الله عليك .

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أم في هـذا الموضـع وفيمـا بعـده للاستفهام بمعنى الإنكار والتربص الانتظار وريب المنون حـوادث الـدهر، وقيل: الموت وكانت قريش قد قالت: إنما هو شاعر ننتظر به ريـب المنـون فيهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، كزهير والنابغة .

* * * *

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ
يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ
شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ
ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟﴾ أمر على وجه التهديد .

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ الأحلام العقول أي كيف تأمرهم عقولهم بهذا والإشارة إلى قولهم هو شاعر أو إلى ما هم عليه من الكفر والتكذيب وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز كقوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أم هنا بمعنى بل ويحتمل أن تكون بمعنى بل وهمزة الاستفهام بمعنى الإنكار كما هي في هذه المواضع كلها .

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه وضمير الفاعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول للقرآن .

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ رد عليهم وإقامة حجة عليهم والأمر هنا للتعجيز.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معناه أم خلقوا من غير رب أنشأهم واستعبدهم فهم من أجل ذلك لا يعبدون الله.

الثاني: أم خلقوا من غير أب ولا أم كالجمادات فهم لا يؤمرون ولا ينهون كحال الجمادات.

الثالث: أم خلقوا من غير أن يحاسبوا ولا يجازوا بأعمالهم فهو على هذا كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾

﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ معناه أهم الخالقون لأنفسهم بحيث لا يعبدون الخالق أم هم الخالقون للمخلوقات بحيث يتكبرون.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ المعنى أعندهم خزائن الله بحيث هم يستغنون عن عبادته، وقيل: أعندهم خزائن الله بحيث يعطون من شاءوا ويمنعون من شاءوا ويخصون بالنبوة من شاءوا.

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي الأرباب الغالبون، وقيل: المسيطر المسلط القاهر.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يعني أم لهم سلم يصعدون به إلى السماء فيسمعون ما تقول الملائكة بحيث يعلمون صحة دعواهم ثم عجزهم بقوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة على دعواهم.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ معناه أتسألهم عن الإسلام أجرة فيثقل عليهم غرمها فيشق عليهم اتباعك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ المعنى أعندهم علم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه حتى يقولوا لا نبعث وإن بعثنا لا نعذب، وقيل: المعنى فهم يكتبون للناس سننا وشرائع من عبادة الأصنام وتسييب السوائب وشبه ذلك.

* * * *

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾
وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ
يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ إشارة إلى كيدهم في دار الندوة بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث تشاوروا في قتله أو إخراجه .

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أي المغلوبون في الكيد والذين كفروا يعني من تقدم الكلام فيهم وهم كفار قريش فوضع الظاهر موضع المضمر ويحتمل أن يريد جميع الكفار .

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ المعنى هل لهم إله غير الله يعصمهم من عذاب الله ويمنعهم منه وحصر الله في هذه الآية جميع المعاني التي توجب التكبر والبعد من الدخول في الإسلام ونفاها عنهم ليبين أن تكبرهم من غير موجب وكفرهم من غير حجة .

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ كانوا قد طلبوا أن ينزل عليهم كسفا من السماء فالمعنى أنهم لو رأوا الكسف ساقطا عليهم لبلغ بهم الطغيان والعصيان والجهل والعناد أن يقولوا ليس بكسف وإنما هو سحاب مركوم أي كثيف بعضه فوق بعض .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ منسوخ بالسيف .

﴿ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴾ يعني يوم القيامة والصعقة فيه هي النفخة الأولى، وقيل: غير ذلك، والصحيح ما ذكرنا لقوله في المعارج عن يوم القيامة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

﴿ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ يعني قتلهم يوم بدر، وقيل: الجوع بالقحط، وقيل: عذاب القبر .

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي اصبر على تكذيبهم لك وإمهالنا لهم فإنا نريك.

﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه قول سبحان الله ومعنى حين تقوم من كل مجلس، وقيل: أراد حين تقوم وتقعد وفي كل حال وجعل القيام مثالا.

الثاني : أنه الصلوات النوافل.

والثالث: أنه الصلوات الفرائض فحين تقوم الظهر والعصر أي حين تقوم من نوم القائلة، ومن الليل المغرب والعشاء، وإدبار النجوم الصبح، ومن قال هي النوافل جعل إدبار النجوم ركعتي الفجر.

* * * *

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ
﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ
قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ
مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى
ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الثريا لأنها غلب عليها التسمية بالنجم ومعنى هوى غرب وانتثر يوم القيامة.

الثاني: أنه جنس النجوم ومعنى هوى كما ذكرنا أو انقضت ترجم الشياطين.

الثالث: أنه من نجوم القرآن وهي الجملة التي تنزل وهوى على هذا معناه نزل .

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا جواب القسم والخطاب لقريش، وصاحبكم هو النبي صلى الله عليه وسلم، فنفى عنه الضلال والغي، والفرق بينهما أن الضلال بغير قصد والغي بقصد وتكسب .

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي ليس يتكلم بهواه وشهوته إنما يتكلم بما يوحي الله إليه .

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ يعني القرآن .

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ضمير المفعول للقرآن أو للنبي صلى الله عليه وسلم والشديد القوى: جبريل، وقيل: الله تعالى، والأول أرجح لقوله : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ والقوى جمع قوة .

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو قوة، وقيل: ذو هيئة حسنة والأول هو الصحيح في اللغة .

﴿ فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي استوى جبريل في الجو إذ رآه النبي صلى الله عليه وسلم وهو بحراء، وقيل: معنى استوى ظهر في صورته له على ستمائة جناح، قد سد الأفق بخلاف ما كان يتمثل به من الصور إذا نزل للوحي وكان ينزل في صورة دحية .

﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الضمير لجبريل، وقيل: لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والأول أصح .

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ الضمير لجبريل أي دنا من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فتدلى في الهواء وهو عند بعضهم من المقلوب تقديره: تدلى فدنا .

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ القاب: مقدار المسافة أي كان جبريل من سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام في القرب بمقدار قوسين عربيين ومعناه من طرف العود إلى طرفه الآخر، وقيل: من الوتر إلى العود، وقيل: ليس القوس التي يرمى بها وإنما هي ذراع تقاس بها المقادير ذكره الثعالبي وقال: إنه من لغة أهل الحجاز وتقدير الكلام فكان مقدار مسافة قرب جبريل من سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام مثل مسافة قوسين ثم حذفت هذه

المضافات، ومعنى: ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ أو أقرب وأو هنا مثل قوله ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ وأشبه التأويلات فيها أنه إذا نظر إليه البشر احتمل عنده أن يكون قاب قوسين أو يكون أدنى وهذا الذي ذكرنا أن هذه الضمائر المتقدمة لجبريل هو الصحيح وقد ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح، وقيل: إنها لله تعالى وهذا القول يرد عليه الحديث والعقل إذ يجب تنزيه الله تعالى عن تلك الأوصاف من الدنو والتدلي وغير ذلك .

﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ في هذه الضمائر ثلاثة أقوال:

الأول: أن المعنى أوحى الله إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى.

الثاني: أوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى وعاد الضمير على الله في القولين لأن سياق الكلام يقتضي ذلك وإن لم يتقدم ذكره فهو كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾.

الثالث: أوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى وفي قوله﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ إبهام يقتضي التفخيم والتعظيم .

﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بعينه بل صدق بقلبه أن الذي رآه بعينه حق والذي رأى هو جبريل يعني حين رآه بمقدار ملأ الأفق، وقيل: رأى ملكوت السموات والأرض، والأول أرجح لقوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ وقيل: الذي رآه هو الله تعالى، وقد أنكرت ذلك عائشة، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل رأيت ربك؟ فقال: نور أنى أراه" .

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ هذا خطاب لقريش والمعنى أتجادلونه على ما يرى وكانت قريش قد كذبت لما قال إنه رأى ما رأى .

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ هذا لقد رأى محمد جبريل عليهما الصلاة والسلام مرة أخرى وهو ليلة الإسراء، وقيل: ضمير المفعول لله تعالى وأنكرت ذلك عائشة وقالت: من زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة الإسراء فقد أعظم الفرية على الله تعالى .

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ هي شجرة في السماء السابعة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:: ثمرها[1] كالقلال وورقها كآذان الفيلة". وسميت سدرة المنتهى لأن إليها ينتهي علم كل عالم، ولا يعلم ما وراءها إلا الله تعالى، وقيل: سميت بذلك لأن ما نزل من أمر الله يتلقى عندها فلا يتجاوزها ملائكة العلو إلى أسفل ولا يتجاوزها ملائكة السفل إلى أعلى .

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ يعني أن الجنة التي وعدها الله عباده هي عند سدرة المنتهى، وقيل: هي جنة أخرى تأوي إليها أرواح الشهداء والأول أظهر وأشهر .

﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ فيه إبهام لقصد التعظيم قال ابن مسعود: غشيها فراش من ذهب، وقيل: كثرة الملائكة، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" فغشيها ألوان لا أدري ما هي ". وهذا أولى أن تفسر به الآية .

---

(١) مسلم الحديث رقم ٢٣٤ والمسند الحديث رقم ١٢٠٤٧ ومصنف ابن أبي شيبة ٨/٤٤٤ وتهذيب الآثار للطبري الحديث رقم ٢٧٦٤.

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي ما زاغ بصر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عما رآه من العجائب بل أثبتها وتيقنها وما طغى أي ما تجاوز ما رأى إلى غيره .

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ يعني ما رأى ليلة الإسراء من السموات والجنة والنار والملائكة والأنبياء وغير ذلك، ويحتمل أن تكون الكبرى مفعولا أو نعتا لآيات ربه والمعنى يختلف على ذلك.

* * * *

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ هذه أوثان كانت تعبد من دون الله فخاطب الله من كان يعبدها من العرب على وجه التوبيخ لهم وقال ابن عطية: الرؤيا هنا رؤية العين لأن الأوثان المذكورة أجرام مرئية فأما اللات فصنم كان بالطائف، وقيل: كان بالكعبة، وأما العزى فكانت صخرة بالطائف، وقيل: شجرة فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها تدعو بالويل فضربها بالسيف حتى قتلها، وقيل: كانت بيتا تعظمه العرب، وأصل لفظ العزى مؤنثة الأعز، وأما مناة فصخرة كانت لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة وكانت أعظم هذه الأوثان، قال ابن عطية: ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ فأكدها بهاتين الصفتين، وقال الزمخشري: الأخرى ذم وتحقير أي المتأخرة الوضيعة القدر ومنه: ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ .

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ كانوا يقولون إن الملائكة وهذه الأوثان بنات الله فأنكر الله عليهم ذلك أي كيف تجعلون لأنفسكم الأولاد الذكور وتجعلون لله البنات التي هي عندكم حقيرة بغيضة ؟ وقد ذكر هذا المعنى في النحل

وغيرها، ويحتمل أن يكون أنكر عليهم جعل هذه الأوثان شركاء لله تعالى مع أنهن إناث والإناث حقيرة بغيضة عندهم .

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ أي هذه القسمة التي قسمتم جائرة غير عادلة، يعني جعلهم الذكور لأنفسهم والإناث لله تعالى، ووزن ضيزى فعلى بضم الفاء ولكنها كسرت لأجل الياء التي بعدها .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ الضمير للأوثان وقد ذكر هذا المعنى في الأعراف في قوله: ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ ﴾.

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ يعني أنهم يقولون أقوالا بغير حجة كقولهم: إن الملائكة بنات الله، وقولهم إن الأصنام تشفع لهم وغير ذلك .

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أم هنا للإنكار والإنسان هنا جنس بني آدم أي ليس لأحد ما يتمنى بل الأمر بيد الله، وقيل: إن الإشارة إلى ما طمع فيه الكفار من شفاعة الأصنام، وقيل: إلى قول العاصي بن وائل: لأوتين مالا وولدا، وقيل: هو تمني بعضهم أن يكون نبيا والأحسن حمل اللفظ على إطلاقه .

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الآية رد على الكفار في قولهم إن الأوثان تشفع لهم كأنه يقول الملائكة الكرام لا تغني شفاعتهم شيئا إلا بإذن الله فكيف أوثانكم .

﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ معناه أن الملائكة لا يشفعون لشخص إلا بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة فيه ويرضى عنه .

﴿ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ يعني قولهم إن الملائكة بنات الله ثم رد عليهم بقوله: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾.

ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴿٣٠﴾ ولله ما
في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴿٣١﴾ الذين
يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من
الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴿٣٢﴾ أفرأيت
الذي تولى ﴿٣٣﴾ وأعطى قليلا وأكدى ﴿٣٤﴾ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴿٣٥﴾ أم لم ينبأ بما في صحف
موسى ﴿٣٦﴾ وإبراهيم الذي وفى ﴿٣٧﴾ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴿٣٨﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى
﴿٣٩﴾ وأن سعيه سوف يرى ﴿٤٠﴾ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴿٤١﴾ وأن إلى ربك المنتهى ﴿٤٢﴾ وأنه هو
أضحك وأبكى ﴿٤٣﴾

﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أي إلى ذلك انتهى علمهم لأنهم علموا ما ينفع في الدنيا ولم يعلموا ما ينفع في الآخرة .

﴿ ليجزي ﴾ اللام متعلقة بمعنى ما قبلها والتقدير أن الله ملك أمر السموات والأرض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا، وقيل: يتعلق بضل واهتدى .

﴿ كبائر الإثم ﴾ ذكرنا الكبائر في النساء .

﴿ إلا اللمم ﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: أنه صغائر الذنوب فالاستثناء على هذا منقطع .

الثاني : أنه الإلمام بالذنوب على وجه الفلتة والسقطة دون دوام عليها.

الثالث: أنه ما ألموا به في الجاهلية من الشرك والمعاصي.

الرابع: أنه الهم بالذنب وحديث النفس به دون أن يفعل.

﴿ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جنين .

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا تنسبوا أنفسكم إلى الصلاح والخير، قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون نهيا عن أن يزكي بعض الناس بعضا وهذا بعيد، لأنه تجوز التزكية في الشهادة وغيرها .

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: نزلت في العاصي بن وائل .

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي قطع العطاء وأمسك .

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ قيل: في طاعة الله في ذبح ولده، وقيل: وفى تبليغ الرسالة، وقيل: وفى شرائع الإسلام، وقيل: وفى الكلمات التي ابتلاه الله بهن، وقيل: وفى هذه العشر الآيات .

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ذكر فيما تقدم وهذه الجملة تفسير لما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ السعي هنا بمعنى العمل وظاهرها أنه لا ينتفع أحد بعمل غيره وهي حجة لمالك في قوله لا يصوم أحد عن وليه إذا مات وعليه صيام، واتفق العلماء على أن الأعمال المالية كالصدقة والعتق يجوز أن يفعلها الإنسان عن غيره ويصل نفعها إلى من فعلت عنه، واختلفوا في الأعمال البدنية كالصلاة والصيام، وقيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ والصحيح أنها محكمة لأنها خبر والأخبار لا تنسخ، وفي تأويلها ثلاثة أقوال:

الأول: أنها إخبار عما كان في شريعة غيرنا فلا يلزم في شريعتنا.

الثاني: أن للإنسان ما عمل بحق وله ما عمل له غيره بهبة العامل له، فجاءت الآية في إثبات الحقيقة دون ما زاد عليها.

الثالث: أنها في الذنوب وقد اتفق أنه لا يحمل أحد ذنب أحد، ويدل على هذا قوله بعدها: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وكأنه يقول لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يؤاخذ إلا بذنب نفسه.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ قيل: معناه يراه الخلق يوم القيامة والأظهر أن صاحبه هو الذي يراه لقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه إلى الله المصير في الآخرة.

والآخر: أن معناها أن العلوم تنتهي إلى الله ثم يقف العلماء عند ذلك، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال" "لا فكرة في الرب"[(١)].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ قيل معناه أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار، وهذا تخصيص لا دليل عليه، وقيل: أبكى السماء بالمطر وأضحك الأرض بالنبات وهذا مجاز، وقيل: خلق في بني آدم الضحك والبكاء، والصحيح أنه عبارة عن الفرح والحزن لأن الضحك دليل على السرور والفرح، كما أن البكاء دليل على الحزن فالمعنى أن الله تعالى أحزن من شاء من عباده وأسر من شاء.

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ٤٦٦/٧ والقرطبي ١١٥/١٧ والبغوي ٤١٧/٧ والبحر المحيط ١٦٨/١٠ وتفسير الرازي ٤٤٩/١٤.

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ يعني الحياة المعروفة والموت المعروف، وقيل: أحيا بالإيمان وأمات بالكفر، والأول أرجح لأنه حقيقة .

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني المني .

﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ من قولك أمنى الرجل إذا خرج منه المني .

﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ يعني الإعادة للحشر، وأقنى: يعني أكسب عباده المال، وهو من قنية المال وهو كسبه وادخاره، وقيل: معنى أقنى أفقر وهذا لا تقتضيه اللغة، وقيل: معناه أرضى، وقيل: قنع عبده .

﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾ نجم في السماء وتسمى كلب الجبار وهما شعريان الغميصاء والعبور، وخصها بالذكر دون سائر النجوم لأن بعض العرب كان يعبدها .

﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وصفها بالأولى لأنها كانت في قديم الزمان فهي الأولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة، وقيل: أنما سميت أولى لأن ثم عادا أخرى متأخرة وهذا لا يصح، وقرأ نافع عادا الاولى بإدغام تنوين عاد في لام الأولى بعد حذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام وضعف المازني والمبرد

هذه القراءة وهمز قالون الواو دون ورش، وقـــرأ البـاقون علـى الأصــل بكسر تنوين عادا وإسكان لام الأولى .

﴿وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أي ما أبقى منهم أحدا، وقيل: ما أبقى عليهم .

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ هـي مدينـة قـوم لـوط ومعـنى أهـوى طرحها من علو إلى أسفل وفي قوله ﴿ مَا غَشَّىٰ﴾ تعظيم للأمر .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ هذه مخاطبة للإنسان على الإطلاق ومعنـاه بـأي نعم ربك تشك .

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ يعني القرآن أو النبي صـلى الله عليـه وسـلم، ومعنى من النذر الأولى من نوعها وصفتها .

﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أي قربت القيامة .

﴿كَاشِفَةٌ﴾ يحتمل لفظه ثلاثة أوجه أن يكون مصدرا كالعافية أي ليس لها كشف وأن تكون بمعنى كاشـف والتـاء للمبالغـة كعلامـة وأن تكـون صـفة لمحذوف تقديره: نفس كاشفة أو جماعة كاشفة، ويحتمل معناه وجهين:

أحدهما: أن يكون من الكشف بمعنى الإزالة أي ليس لها من يزيلـها إذا وقعت.

والآخر: أن يكون بمعنى الاطلاع أي ليس لها من يعلم وقتها إلا الله .

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ الإشارة إلى القرآن وتعجبهم منه إنكاره.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي لاعبون لاهون، وقيل: غافلون مفرطون .

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ هذا موضع سجدة عند الشافعي وغيره، وقد قال ابن مسعود قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد وسجد كل من كان معه.

* * * *

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي قربت القيامة ومعنى قربها أنها بقي لها من الزمان قليل بالنسبة إلى ما مضى ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى[(١)] ".

﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ هذا إخبار عما جرى في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن قريشا سألته آية فأراهم انشقاق القمر فقال صلى الله عليه وسلم: اشهدوا، وقال عبد الله ابن مسعود: انشق القمر فرأيته فرقتين فرقة وراء الجبل وأخرى دونه، وقيل: معنى انشق القمر أنه ينشق يوم القيامة وهذا قول باطل ترده الأحاديث الصحيحة الواردة بانشقاق القمر، وقد اتفقت الأمة على وقوع ذلك وعلى تفسير الآية بذلك إلا من لا يعتبر قوله .

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ هذه الضمائر لقريش والآية المشار إليها انشقاق القمر وعند ذلك قالت قريش: سحر محمد القمر،

---

(١) البخاري الحديث رقم ٥٣٠١ ومسلم الحديث رقم ١٤٣٥ وسنن الترمذي الحديث رقم: (٢١٤٠) والنسائي الحديث رقم (١٥٦٠) وابن ماجه الحديث٤٤.

ومعنى ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ دائم وقيل: معناه ذاهب يزول عن قريب، وقيل معناه: شديد وهو على هذا المعنى من المرة وهي القوة .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي كل شيء لا بد له من غاية فالحق يحق والباطل يبطل.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ الأنباء هنا يراد بها ما ورد في القرآن من القصص والبراهين والمواعظ، ومزدجر اسم مصدر بمعنى الازدجار أو اسم موضع بمعنى أنه مظنة أن يزدجر به .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ بدل من ما فيه أو خبر ابتداء مضمر .

﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية لمعنى الاستبعاد والإنكار .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم لعلمك أن الإنذار لا ينفعهم .

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ العامل في يوم مضمر تقديره اذكر أو قوله يخرجون بعد ذلك، وليس العامل فيه ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ لفساد المعنى فقد تم الكلام في قوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فيوقف عليه، وقيل إن: المعنى تول عنهم إلى يوم يدع الداع والأول أظهر وأشهر، والداعي جبريل أو إسرافيل إذ ينفخ في الصور والشيء النكر: الشديد الفظيع، وأصله من الإنكار أي هو منكور لأنه لم يرقط مثله والمراد به يوم القيامة .

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ كناية عن الذلة وانتصب خشعا على الحال من الضمير في يخرجون .

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ أي من القبور .

﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ شبههم بالجراد في خروجهم من الأرض فكأنه استدلال على البعث كالاستدلال بخروج النبات، وقيل: إنما شبههم بالجراد في كثرتهم وأن بعضهم يموج في بعض.

﴿ مُّهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين، وقيل: ناظرين إلى الداع .

* * * *

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾
وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾

﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ يعني نوحا عليه السلام ووصفه هنا بالعبودية تشريفا له واختصاصا .

﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي زجروه بالشتم والتخويف وقالوا له: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أي قد غلبني الكفار فانتصر لي أو انتصر لنفسك وقالت المتصوفة معناه قد غلبتني نفسي حين دعوت على قومي فانتصر مني وهذا بعيد ضعيف .

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ عبارة عن كثرة المطر فكأنه يخرج من أبواب وقيل: فتحت في السماء أبواب يومئذ حقيقة والمنهمر الكثير .

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ ماء السماء وماء الأرض .

﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي قد قضي في الأزل ويحتمل أن يكون المعنى أنه قدر بمقدار معلوم، وروي في ذلك أنه علا فوق الأرض أربعين ذراعا .

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ يعني السفينة، والدسر: هي المسامير، واحدها دسار، وقيل: هي مقادم السفينة، وقيل: أضلاعها والأول أشهر .

﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ عبارة عن حفظ الله ورعيه لها .

﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي جزاء لنوح، وقيل: جزاء لله تعالى والأول أظهر وانتصب جزاء على أنه مفعول من أجله والعامل فيه ما تقدم من فتح أبواب السماء وما بعده من الأفعال، أي جعلنا ذلك كله جزاء لنوح ويحتمل أن يكون قوله كفر من الكفر بالدين والتقدير لمن كفر به فحذف الضمير أو يكون من الكفر بالنعمة لأن نوحا عليه السلام نعمة من الله كفرها قومه فلا يحتاج على هذا إلى ضَميرٍ محذوفٍ .

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾ الضمير للقصة المذكورة أو الفعلة أو السفينة وروي في هذا المعنى أنها بقيت على الجودي حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة .

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ تحضيض على الادكار، فيه ملاطفة جميلة من الله لعباده، ووزن مدكر مفتعل وأصله مدتكر ثم أبدل من التاء دالا وأدغمت فيها الدال .

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ توقيف فيه تهديد لقريش والنذر جمع نذير.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ أي يسرناه للحفظ وهذا معلوم بالمشاهدة فإنه يحفظه الأطفال الأصاغر وغيرهم حفظا بالغا بخلاف غيره من الكتب، وقد روي أنه لم يحفظ شيء من كتب الله عن ظهر قلب إلا القرآن، وقيل: معنى الآية سهلناه للفهم والاتعاظ به لما تضمن من البراهين والحكم البليغة وإنما كرر هذه الآية البليغة وقوله فذوقوا عذابي ونذر لينبه السامع عند كل قصة فيعتبر بها إذ كل قصة من القصص التي ذكرت عبرة وموعظة فختم كل

واحدة بما يوقظ السامع من الوعيد في قولـه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ومـن الملاطفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

* * * *

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠)
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (٢٣)
فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ
أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (٢٧)
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ (٣٣)

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي مصوتة فهو من الصرير يعني الصوت، وقيل: معناه باردة فهو من الصر .

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ روي أنه كان يوم أربعاء حتى رأى بعضهم أن كل يوم أربعاء نحس، وروي:" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: آخر أربعاء من الشهر يوم نحس مستمر "[١].

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي تقلعهم من مواضعهم .

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أعجاز النخل: هي أصولها، والمنقعر: المنقطع، شَبَّهَ الله عادا لما هلكوا بذلك لأنهم طوال عظام الأجسام كالنخل، وقيل: إذا كانت في حفرها الريح تقطع رؤوسهم فتبقى أجسادا بلا رؤوس فشبههم بأعجاز النخل لأنها دون أغصان، وقيل: كانوا حفروا حفرا يمتنعون بها من الريح فهلكوا فيها فشبههم بأعجاز النخل إذا كانت في حفرها .

---

(١) خرجه الألوسي عن ابن مرديه والخطيب البغدادي الألوسي ٢٠/٧٠ ولم أعثر عليه في كتب التخريج المعتمدة.

﴿أَبَشَرًا﴾ هو صالح عليه السلام وانتصب بفعل مضمر، والمعنى: أنهم أنكروا أن يتبعوا بشرا وطلبوا أن يكون الرسول من الملائكة ثم زادوا أن أنكروا أن يتبعوا واحدا وهم جماعة كثيرون .

﴿وَسُعُرٍ﴾ أي عناد، وقيل: معناه جنون، وقيل: معناه هم و غم وأصله من السعير بمعنى النار وكأنه احتراق النفس بالهم .

﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أنكروا أن يخصه الله بالنبوة دونهم وذلك جهل منهم فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

﴿أَشِرٌ﴾ بطر متكبر .

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي لهم يوم وللناقة يوم من غير أن يتعدوا على الناقة فالضمير في نبئهم يعود على ثمود وعلى الناقة تغليبا للعقلاء، وقيل: إن الضمير لثمود والمعنى لا يتعدى بعضهم على بعض.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي محضور مشهود .

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني عاقر الناقة واسمه قدار وهو أحيمر ثمود وأشقاها .

﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أي اجترأ على أمر عظيم وهو عقر الناقة، وقيل: تعاطى السيف.

﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بها جبريل صيحة فماتوا منها .

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ الهشيم: هو ما تكسر وتفتت من الشجر وغيرها، والمحتظر: الرجل الذي يعمل الحظيرة وهي حائط من الأغصان أو القصب أو نحو ذلك، أو يكون تحليقا للمواشي أو السكنى، فشبه الله ثمود لما هلكوا بما يتفتت من الحظيرة من الأوراق وغيرها، وقيل: المحتظر المحترق .

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾

﴿حَاصِبًا﴾ ذكر في العنكبوت .

﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ تشككوا .

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ الضيف هنا هم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى لوط ليهلكوا قومه وكان قومه قد ظنوا أنهم من بني آدم وأرادوا منهم الفاحشة فطمس جبريل على أعينهم فاستوت مع وجوههم، وقيل: إن الطمس عبارة عن عدم رؤيتهم لهم وأنهم دخلوا منزل لوط فلم يروا فيه أحدا .

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ هذا خطاب لقريش على وجه التهديد والهمزة للإنكار ومعناه هل الكفار منكم خير عند الله من الكفار المتقدمين المذكورين بحيث أهلكناهم لما كذبوا الرسل وتنجون أنتم وقد كذبتم رسولكم بل الذي أهلكهم يهلككم .

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ معناه أم لكم في كتاب الله براءة من العذاب.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي نحن نجتمع وننتصر لأنفسنا بالقتال .

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى
ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ
۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ
وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيهزم جمع قريش وقد ظهر ذلك يوم بدر وفتح مكة .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ المراد بالمجرمين هنا الكفار وضلالهم في الدنيا والسعر لهم في الآخرة وهو الاحتراق، وقيل: أراد بالمجرمين القدرية لقوله في الرد عليهم إنا كل شيء خلقناه بقدر والأول أظهر .

﴿يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي يجرون فيها .

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾ المعنى أن الله خلق كل شيء بقدر أي بقضاء معلوم سابق في الأزل ويحتمل أن يكون معنى بقدر بمقدار في هيئته وصفته وغير ذلك والأول أرجح وفيه حجة لأهل السنة على القدرية، وانتصب كل شيء بفعل مضمر يفسره خلقناه .

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ عبارة عن سرعة التكوين ونفوذ أمر الله والواحدة يراد بها الكلمة وهي قوله كن .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يعني أشياعكم من الكفار .

﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي كل ما فعلوه مكتوب في صحائف الأعمال.

﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي مكتوب وهو من السطر تقول سطرت واستطرت بمعـنى واحد والمراد الصغير والكبير من أعمالهم، وقيل: جميع الأشياء .

﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني أنهار الماء والخمر واللبن والعسل واكتفى باسم الجنس.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مكان مرضي .

* * * *

سورة الرحمن عز وجل

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ
بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي
ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هذا تعديد نعمة على من علمه الله القرآن، وقيل: معنى علم القرآن جعله علامة وآية لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والأول أظهر وارتفع الرحمن بالابتداء والأفعال التي بعده أخبار متوالية ويدل على ذلك مجيئها بدون حرف عطف.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ قيل: جنس الناس، وقيل: يعني آدم، وقيل: يعني سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولا دليل على التخصيص والأول أرجح.

﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ يعني النطق والكلام .

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ أي يجريان في الفلك بحسبان معلوم وترتيب مقدر وفي ذلك دليل على الصانع الحكيم المريد القدير .

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ النجم: عند ابن عباس النبات الذي لا ساق له كالبقول والشجر النبات الذي له ساق، وقيل: النجم جنس نجوم السماء والسجود عبارة عن التذلل والانقياد لله تعالى، وقيل: سجود الشمس غروبها وسجود الشجر ظله .

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ يعني الميزان المعروف الذي يوزن به الطعام وغيره وكرر ذكره اهتماما به وقيل: أراد العدل .

﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا إذا وزنتم .

﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي للناس، وقيل: الإنس والجن، وقيل: الحيوان كله، الأكمام: يحتمل أن يكون جمع كم بالضم وهو ما يغطي ويلف النخل من الليف وبه شبه كم القميص، أو يكون جمع كم بكسر الكاف وهو غلاف الثمرة .

﴿ٱلْعَصْفِ﴾ ورق الزرع، وقيل: التين .

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ قيل: هو الريحان المعروف، وقيل: كل مشموم طيب الريح من النبات، وقيل: هو الرزق .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الآلاء: هي النعم واحدها إلى على وزن معى، وقيل: إلى على وزن قضى، وقيل: ألى على وزن أمد أو على وزن حصر والخطاب للثقلين الإنس والجن بدليل قوله سنفرغ لكم أيها الثقلان، روي: أن هذه الآية لما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت أصحابه، فقال:" جواب الجن خير من سكوتكم إني لما قرأتها على الجن قالوا لا نكذب بشيء من آلاء ربنا". وكرر هذه الآية تأكيدا ومبالغة، وقيل: إن كل موضع منها يرجع إلى معنى الآية التي قبله فليس بتأكيد لأن التأكيد لا يزيد على ثلاث مرات .

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ الإنسان هو آدم والصلصال الطين اليابس فإذا طبخ فهو فخار .

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ الجان الجن يعني إبليس والد الجن، والمارج: اللهيب المضطرب من النار .

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ يريد مشرق الشمس والقمر ومغرب الشمس والقمر، وقيل: مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما .

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ ذكر في الفرقان أي يلتقي ماء هذا وماء هذا وذلك إذا نزل المطر في البحر على القول بأن البحر العذب هو المطر وأما على القول بأن البحر العذب هو الأنهار والعيون فالتقاؤهما بانصباب الأنهار في البحر وأما على قول من قال إن البحرين بحر فارس وبحر الروم أو بحر القلزم واليمن فضعيف لقوله في الفرقان : ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وكل واحد من هذه أجاج، والمراد بالبحرين في هذه السورة ما أراد في الفرقان .

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز يعني جرم الأرض أو حاجز من قدرة الله .

﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر بالاختلاط، وقيل: لا يبغيان على الناس بالفيض .

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ اللؤلؤ: كبار الجوهر والمرجان صغاره، وقيل: بالعكس، وقيل: إن المرجان أحجار حمر. قال ابن عطية وهذا هو الصواب، وأما قوله منهما ولا يخرج إلا من أحدهما فقد تكلمنا عليه في فاطر.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ يعني السفن، وسماها منشآت لأن الناس ينشؤونها وقرئ بكسر الشين بمعنى أنها تنشئ السير أو تنشئ الموج، والأعلام: الجبال شبه السفن بها.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الضمير في عليها للأرض يدل على ذلك سياق الكلام وإن لم يتقدم لها ذكر ويعني بمن عليها بني آدم وغيرهم من الحيوان ولكنه غلب العقلاء.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الوجه هنا عبارة عن الذات، وذو الجلال صفة الذات لأن من أسمائه تعالى الجليل ومعناه يقرب من معنى العظيم وأما وصفه بالإكرام فيحتمل أن يكون بمعنى أنه يكرم عباده كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أو بمعنى أن عباده يكرمونه بتوحيده وتسبيحه وعبادته.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المعنى أن كل من في السموات والأرض يسأل حاجته من الله فمنهم من يسأله بلسان المقال وهم المؤمنون ومنهم من يسأله بلسان الحال لافتقار الجميع إليه.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ المعنى أنه تعالى يتصرف في ملكوته تصرفا يظهر في كل يوم من العطاء، والمنع، والإماتة، والإحياء، وغير ذلك، وروي:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها، فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: " من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين"[1].

وسئل بعضهم: كيف قال كل يوم هو في شأن والقلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة؟ فقال: هو في شأن يبديه لا في شأن يبتديه .

* * * *

(١) الدر المنثور للسيوطي ٦/١٩٧ .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن
تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾
فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن
ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ
بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ معناه الوعيد كقولك لمن تهدده سأتفرغ لعقوبتك وليس المعنى التفرغ من شغل، ويحتمل أن يريد انتهاء مدة الدنيا وإنه حينئذ ينقضي شأنها فلا يبقى إلا شأن الآخرة فعبر عن ذلك بالتفرغ، قال جعفر بن محمد: سمى الإنس والجن ثقلين لأنهما ثقلا بالذنوب.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ هذا كلام يقال للجن والإنس يوم القيامة ومعناه إن استطعتم الهروب والخروج من أقطار السموات والأرض فافعلوا، وروي أنهم يفرون يومئذ لما يرون من أهوال القيامة فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض فيرجعون، وقيل: بل خوطبوا بذلك في الدنيا، والمعنى إن استطعتم الخروج عن قهر الله وقضائه عليكم فافعلوا، وقوله فانفذوا أمر يراد به التعجيز.

﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وليس لكم قوة.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ الشواظ: لهيب النار والنحاس: الدخان، وقيل: هو الصفر يذاب ويصب على رؤوسهم، وقرئ شواظ بضم

الشين وكسرها وهما لغتان وقرئ نحاس بالرفع عطف على شواظ وبالخفض عطف على نار .

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ جواب إذا قوله فيومئذ وقال ابن عطية: جوابها محذوف .

﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ معنى وردة حمراء كالوردة، وقيل: هو من الغرس الورد، قال قتادة: السماء اليوم خضراء وهي يوم القيامة حمراء، والدهان جمع دهن كالزيت وشبهه، شبه السماء يوم القيامة به لأنها تذوب من شدة الهول، وقيل: يشبه لمعانها بلمعان الدهن، وقيل: إن الدهان هو الجلد الأحمر .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ السؤال المنفي هنا هو على وجه الاستخبار وطلب المغفرة إذ لا يحتاج إلى ذلك لأن المجرمين يعرفون بسيماهم، ولأن أعمالهم معلومة عند الله مكتوبة في صحائفهم وأما السؤال الثابت في قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وغيره فهو سؤال على وجه الحساب والتوبيخ فلا تعارض بين المنفي والمثبت، وقيل: إن ذلك باختلاف المواطن والأول أحسن .

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ يعني بعلامتهم وهي سواد الوجوه وغير ذلك والمجرمون هنا الكفار بدليل قوله:﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ قيل: معناه يؤخذ بعض الكفار بناصيته وبعضهم بقدميه، وقيل: بل يؤخذ كل واحد بناصيته وقدميه فيطوى ويطرح في النار.

يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ
فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ
ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ
وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣)

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ الحميم: الماء الساخن، والآن: الشديد الحرارة، وقيل: الحاضر من قولك آن الشيء إذا حضر والأول أظهر .

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ مقام ربه القيام بين يديه للحساب ومنه يوم يقوم الناس لرب العالمين، وقيل: قيام الله عليه بأعماله ومنه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، وقيل: معناه لمن خاف ربه وأقحم المقام كقولك خفت جانب فلان، واختلف هل الجنتان لكل خائف على انفراده أو للصنف الخائف وذلك مبني على قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ هل يراد به واحد أو جماعة، وقال الزمخشري: إنما قال جنتان لأنه خاطب الثقلين فكأنه قال جنة للإنس وجنة للجن .

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ ثنى ذات هنا على الأصل لأن أصله ذوات قاله ابن عطية، والأفنان: جمع فنن وهو الغصن أو جمع فن وهو الصنف من الفواكه وغيرها.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي نوعان .

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنا: هو ما يجتنى من الثمار، ودان: قريب، وروي: أن الإنسان يجتني الفاكهة في الجنة على أي حال كان من قيام أو جلوسٍ أو اضطجاع لأنها تتدلى له إذا أرادها وفي قوله جنا الجنتين ضرب من ضروب التجنيس .

﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ذكر في الصافات .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ المعنى أنهن أبكار ولم يطمثهن معناه لم يفتضهن، وقيل: الطمث الجماع سواء كان لبكر أو غيرها، ونفي أن يطمثهن إنس أو جان مبالغة وقصدا للعموم فكأنه قال لم يطمثهن شيء، وقيل: أراد لم يطمث نساء الإنس إنس ولم يطمث نساء الجن جن وهذا على القول بأن الجن يدخلون الجنة ويتلذذون فيها بما يتلذذ البشر .

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ شبه النساء بالياقوت والمرجان في الحمرة والجمال، وقد ذكر معنى المرجان في أول السورة.

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ المعنى أن جزاء من أحسن بطاعة الله أن يحسن الله إليه بالجنة، ويحتمل أن يكون الإحسان هنا هو الذي سأل عنه جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له:" أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". وذلك هو مقام المراقبة والمشاهدة فجعل جزاء ذلك الإحسان بهاتين الجنتين، ويقوي هذا أنه جعل هاتين الجنتين الموصوفتين هنا لأهل المقام العلي وجعل جنتين دونها لمن كان دون ذلك فالجنتان المذكورتان أولا للسابقين والجنتان المذكورتانِ ثانيا بعد ذلك لأصحاب اليمين حسبما ورد في الواقعة، وانظر كيف جعل أوصاف هاتين الجنتين أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما، فقال هنا: ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾

وقال في الآخرتين: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ والجري أشد من النضخ، وقال هنا: ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وقال هناك: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وكذلك صفة الحور هنا أبلغ من صفتها هنالك وكذلك صفات البسط ويفسر ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جنتان من ذهب آنيتهما وكل ما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وكل ما فيهما"[1].

* * * *

(١) الجامع الكبير الحديث رقم: (٣٩٦) ومسند الطاليسي الحديث رقم: (٥٢٥) وشعب الإيمان للبيهقي ٤١٠ والمستدرك على الصحيحين للحاكم رقم: (٣٧٣١).

مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ
(٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣)
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي تضربان إلى السواد من شدة الخضرة .

﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي تفوران بالماء والنضخ بالخاء المعجمة أشد من النضح بالحاء المهملة .

﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ خص النخل والرمان بالذكر بعد دخولهما في الفاكهة تشريفا لهما وبيانا لفضلهما على سائر الفواكه وهذا هو التجريد .

﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ خيرات جمع خيرة، وقال الزمخشري وغيره: أصله خيرات بالتشديد ثم خففت كميت و قد قرئ بالتشديد، قالت أم سلمة: يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ قال:" خيرات الأخلاق حسان الوجوه"[1].

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ الحور جمع حوراء والمقصورات: المحجوبات لأن النساء يمدحن بملازمة البيوت ويذممن بكثرة الخروج، والخيام هي البيوت التي من الخشب والحشيش ونحو ذلك وخيام الجنة من اللؤلؤ .

---

(١) أخرجه أبي جرير والطبراني وابن مردويه والطبري ٢٣/٧٥ والدر المنثور ٩/٣٧٦ وانظر تفسير الثعالبي ٤/٣٤.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ الرفرف البسط، وقيل: الوسائد، وقيل: رياض الجنة.

﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ العبقري: الطنافس، وقيل: الزرابي، وقيل: الديباج الغليظ وهو منسوب إلى عبقري وتزعم العرب أنه بلد الجن فإذا أعجبتها شيء نسبته إليه .

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ ذكر تبارك في الفرقان وغيرها، والاسم هنا يراد به المسمى على الأظهر، وقرأ الجمهور ذي الجلال بالياء صفة لربك وقرأ ابن عامر بالواو صفة للاسم وقد ذكر معنى ذي الجلال والإكرام.

* * * *

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ
ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١)
فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ
عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦)

روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من قرأ سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبدا ". ولما حضرت ابن مسعود الوفاة قيل له: ما تركت لبناتك؟ قال: تركت لهن سورة الواقعة.

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ يعني إذا قامت القيامة فالواقعة اسم من أسماء القيامة تدل على هولها كالطامة والصاخة، وقيل: الواقعة الصيحة وهي النفخة في الصور وقيل: الواقعة صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة وهذا بعيد.

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

الأول: أن تكون الكاذبة مصدر كالعافية، والمعنى ليس لها كذب ولا رد.

الثاني: أن تكون كاذبة صفة محذوف كأنه قال ليس لها حالة كاذبة أي هي صادقة الوقوع ولا بد وهذا المعنى قريب من الأول.

الثالث: أن يكون التقدير ليس لها نفس كاذبة أي تكذيب في إنكار البعث لأن كل نفس تؤمن حينئذ.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ تقديره هي خافضة رافعة فينبغي أن يوقف على ما قبله لبيان المعنى والمراد بالخفض والرفع أنها تخفض أقواما إلى النار وترفع أقواما إلى الجنة، وقيل: ذلك عبارة عن هولها لأن السماء تنشق والأرض تتزلزل وتمور والجبال تنسف فكأنها تخفض بعض هذه الأجرام وترفع بعضها.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي زلزلت وحركت تحريكا شديدا وإذا هنا بدل من إذا وقعت ويحتمل أن يكون العامل فيه خافضة رافعة.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي فتتت، وقيل: سيرت.

﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ الهباء: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ولا تكاد ترى إلا في الشمس إذا دخلت على كوة قاله ابن عباس، وقال علي بن أبي طالب: هو ما تطاير من حوافر الدواب من التراب، وقيل: ما تطاير من شرر النار فإذا طفى لم يوجد شيئا، والمنبث: المتفرق.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ هذا خطاب لجميع الناس لأنهم ينقسمون يوم القيامة إلى هذه الأصناف الثلاثة وهم: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

فأما السابقون فهم أهل الدرجات العلا في الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار.

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ هذا ابتداء خبر فيه معنى التعظيم كقولك زيد ما زيد والميمنة يحتمل أن تكون مشتقة من اليُمْن وهو ضد الشؤم وتكون المشأمة به مشتقة من الشؤم أو تكون الميمنة من ناحية اليمين والمشأمة من ناحية الشمال واليد الشؤمى هي الشمال وذلك لأن العرب تجعل الخير من اليمين والشر من الشمال أو لأن أهل الجنة يحملون إلى جهة اليمين وأهل النار يحملون إلى جهة الشمال أو يكون من أخذ الكتاب باليمين أو الشمال.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ الأول: مبتدأ والثاني خبره على وجه التعظيم كقولك أنت أنت أو على معنى أن السابقين إلى طاعة الله هم السابقون إلى الجنة، وقيل: إن السابقون الثاني صفة للأول أو تأكيد والخبر أولئك المقربون والأرجح أن يكون الثاني خبر الأول لأنه في مقابلة قوله أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة وعلى هذا يوقف على السابقون الثاني ويبتدئ بما بعده.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ الثلة: الجماعة من الناس، فالمعنى أن السابقين من الأولين أكثر من السابقين من الآخرين، والأولون هم أول هذه الأمة، والآخرون المتأخرون من هذه الأمة، والدليل على ذلك ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الفرقتان في أمتي"[1] وذلك لأن صدر هذه الأمة خير ممن بعدهم فكثر السابقون من السلف الصالح وقلوا بعد ذلك ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني ثم الذين

(١) انظر تفسير البحر المحيط ١٠/٢٠٤ والثعالبي ٤/٣٧ والألوسي ٢٠/٢٠٨.

يلونهم ثم الذين يلونهم"[1]. وقيل: إن الفرقتين في أمة كل نبي فالسابقون في كل أمة يكثرون في أولها ويقلون في آخرها، وقيل: إن الأولين هم من كان قبل هذه الأمة والآخرين هم هذه الأمة فيقتضي هذا أن السابقين من الأمم المتقدمة أكثر من السابقين من هذه الأمة وهذا بعيد، وقيل: إن السابقين يراد بهم الأنبياء لأنهم كانوا في أول الزمان أكثر مما كانوا في آخره.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ السرر جمع سرير والموضونة: المنسوجة، وقيل: المشبكة بالدر والياقوت، وقيل: معناه متواصلة قد أدني بعضها من بعض.

﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض.

* * * *

(١) روي بألفاظ منها: "خيركم قرني". "وخير الناس قرني". البخاري الحديث رقم ٢٦٥٢ وفي مسلم:" خير الأمة القرن الذي يلوني". الحديث رقم ٤٥٩٩ وأبو داود الحديث رقم (٤٠٣٨).

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾
وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ
ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ
مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً
﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾

﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ الولدان: صغار الخدم، والمخلدون الذين لا يموتون، وقيل: المقرطون بالخلدات وهي ضرب من الإفراط والأول أظهر.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ الأكواب: جمع كوب وهو الإناء وهو الذي لا أذن له ولا خرطوم يمسك به، والأباريق: جمع إبريق وهو الإناء الذي له خرطوم أو أذن يمسك به.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ذكر في الصافات.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي لا يلحق رؤوسهم الصداع الذي يصيب من خمر الدنيا، وقيل: لا يفرقون عنها فهو من الصدع وهو الفرقة ومعنى لا ينزفون لا يسكرون.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ قيل: يتخيرون ما شاؤوا لكثرتها، وقيل: مخيرة مرضية.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قد ذكر معناه وقرئ بالرفع على تقدير فيها حور أو عطف على الضمير في متكئين أو على ولدان وبالخفض عطف على المعنى كأنه قال ينعمون بهذا كله وبحور عين، وقيل: خفض على الجوار.

﴿كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ شبههن باللؤلؤ في البياض ووصفه بالمكنون لأنه أبعد عن تغيير حسنه، وسألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا التشبيه فقال: "صفاؤهن كصفاء الدر في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي" (١).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ اللغو: الكلام الساقط كالفحش وغيره، والتأثيم مصدر بمعنى لا يؤثم أحد هناك نفسه ولا غيره.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾ انتصب سلاما على أنه بدل من قيلا أو صفة له أو مفعول به لقيلا لأن معناه قولا ومعنا السلام على هذا التحية والمعنى أنهم يفشون السلام فيسلمون سلاما بعد سلام ويحتمل أن يكون معناه السلامة فينتصب بفعل مضمر تقديره أسلموا سلاما.

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ هذا مبتدأ وخبره قصد به التعظيم فيوقف عليه ويبتدأ بما بعده ويحتمل أن يكون الخبر في سدر ويكون ما أصحاب اليمين اعتراضا والأول أحسن وكذلك إعراب أصحاب الشمال.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ السدر: شجر معروف قال ابن عطية: هو الذي يقال له شجر أم غيلان وهو كثير في بلاد المشرق، وهو في بعض بلاد الأندلس دون بعض، والمخضود: الذي لا شوك فيه كأنه خضد شوكه وذلك أن سدر الدنيا له شوك فوصف سدر الجنة بضد ذلك، وقيل: المخضود: هو الموقر الذي انثنت أغصانه من كثرة حمله فهو على هذا من خضد الغصن إذا ثناه.

---

(١) الطبري ٢٣/١٠٨ وابن كثير ٧/٥٣٢.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح: شجر عظيم كثير الشوك قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: الطلح هو شجر الموز، وحكى ابن عطية هذا عن علي بن أبي طالب وابن عباس، وقرأ علي بن أبي طالب "وطلع منضود" بالعين، فقيل له: إنما هو وطلح بالحاء فقال: ما للطلح والجنة! فقيل له: أنصلحها في المصحف؟ فقال: المصحف اليوم لا يغير، والمنضود: الذي تنضد بالثمر من أعلاه إلى أسفله حتى لا يظهر له ساق.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي منبسط لا يزول لأنه لا تنسخه الشمس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤوا إن شئتم وظل ممدود"(١).

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي مصبوب وذلك عبارة عن كثرته، وقيل: المعنى أنه جار في غير أخاديد، وقيل: المعنى أنه يجري من غير ساقية ولا دلو ولا تعب.

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي لا ينقطع إبانها كفاكهة الدنيا فإن شجر الجنة يثمر في كل وقت ولا تمتنع ببعد تناولها ولا بغير ذلك من وجوه المنع.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ هي الأسرة، وقد روي أن ارتفاع السرير منها مسيرة خمسمائة عام وقيل: هي النساء وهذا بعيد.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ الضمير لنساء الجنة فإن سياق الكلام يقتضي ذلك وإن لم يتقدم ذكرهن ولكن تقدم ذكر الفرش وهي تدل على النساء، وأما من قال إن الفرش هي النساء فالضمير عائد عليها، وقيل: يعود على الحور

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٣٢٥٢) والترمذي الحديث رقم: (٣٢١٤) وابن ماجه الحديث رقم: (٤٣٢٦).

العين المذكورة قبل هذا وذلك بعيد فإن ذلـك في وصـف جنـات الـسابقين وهذا في وصف جنات أصحاب اليمين، ومعنى إنشاء النـساء أن الله تعـالى يخلقهن في الجنة خلقا آخر في غاية الحسن بخلاف خلقـة الـدنيا فـالعجوز ترجع شابة والقبيحة ترجع حسنة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ روي: أنهن دائمات البكارة متى عـاود الـوطء وجـدها بكرا.

﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب: وهي المتوددة إلى زوجها بإظهار محبتـه، وعـبر عنهن ابن عباس: بأنهن العواشق لأزواجهن، وقيل: هي الحسنة الكلام.

﴿أَتْرَابًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي مستويات في السن مـع أزواجهـن، وروي أنهم يكونون في سن أبناء ثلاثة وثلاثـين عامـا، ولأصـحاب الـيمين يتعلـق بقوله: أنشأناهن على ما قاله الزمخشري ويحتمل أن يتعلق بأترابا وهـذا هـو الذي يقتضيه المعنى أي أترابا لأزواجهن.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي جماعة من أول هذه الأمة وجماعة من آخرها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الفرقتان مـن أمـتي". وفي ذلك رد على من قال إنهما من غـير هـذه الأمـة، وتأمـل كيـف جعـل أصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخـرين بخـلاف الـسابقين فـإنهم قليل في الآخرين وذلـك لأن الـسابقين في أول هـذه الأمـة أكثـر منـهم في آخرها لفـضيلة الـسلف الـصالح، وأمـا أصـحاب الـيمين فكـثير في أولهـا وآخرها.

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ السموم: الحـر الـشديد، والحمـيم: الماء الحار جدا، واليحموم: هو الأسود، وظل من يحموم: هو الدخان في

قول الجمهور، وقيل: سرادق النار المحيط بأهلها فإنه يرتفع من كـل جهـة حتى يظلهم، وقيل: هو جبل في جهنم.

* * * *

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾
أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ
أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾
أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ
فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ معنى يصرون: يدومون من غير إقلاع، والحنث: هو الإثم، وقيل: هو الشرك، وقيل: هو الحنث في اليمين أو اليمين الغموس.

﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ الآية معناها أنهم أنكروا البعث بعد الموت وقد ذكرنا قراءة الاستفهامين في الرعد وآباؤنا في الصافات.

﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ خطابا لكفار قريش وسائر الكفار.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ الضمير للمأكول.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ وزن الهيم فعل بضم الفاء وكسرت الهاء لأجل الياء وهو: جمع أهيم وهو الجمل الذي أصابه الهيام بضم الهاء وهو داء معطش يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقم، والأنثى هيماء، وقيل: هو جمع هائم وهائمة، وقيل: الهيم الرمال التي لا تروى من الماء، وهو على هذا جمع هيام بفتح الهاء وقرئ شرب بضم الشين، واختلف هل هو مصدر أو اسم المشروب وقرئ بالفتح وهو مصدر، فإن قيل: كيف عطف قوله

فشاربون على شاربون ومعناهما واحد؟ فالجواب: أن المعنى مختلف لأن الأول يقتضي الشرب مطلقا والآخر يقتضي الشرب الكثير المشبه بشرب الهيم.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ النزل: أول ما يأكله الضيف فكأنه يقول هذا أول عذابهم فما ظنك بسائره.

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تحضيض على التصديق إما بالخالق تعالى وإما بالبعث لأن الخلقة الأولى دليل عليه.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هذه الآية وما بعدها تتضمن إقامة براهين على الوحدانية وعلى البعث وتتضمن أيضا وعيدا وتعديد نعم ومعنى تمنون تقذفون المني في رحم المرأة.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ هذا توقيف يقتضي أن يجيبوا عليه بأن الله هو الخالق لا إله إلا هو.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي جعلناه مقدرا بآجال معلومة وأعمار منها طويل وقصير ومتوسط.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ المسبوق على الشيء هو المغلوب عليه بحيث لا يقدر عليه ونبدل أمثالكم معناه نهلككم ونستبدل قوما غيركم، وقيل: نمسخكم قردة وخنازير وننشئكم معناه نبعثكم بعد هلاككم وفيما لا تعلمون معناه ننشئكم في خلقة لا تعلمونها على وجه لا تصل عقولكم إلى فهمه، فمعنى الآية أن الله قادر على أن يهلكهم وعلى أن يبعثهم ففيها تهديد واحتجاج على البعث.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تحضيض على التذكير والاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة وفي هذا دليل على صحة القياس.

* * * *

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المراد بالزراعة هنا إنبات ما يزرع وتمام خلقته، لأن ذلك مما انفرد الله به ولا يدعيه غيره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا يقولن أحدكم زرعت ولكن يقول حرثت" [1] والمراد بالحرث قلب الأرض وإلقاء الزريعة فيها، وقد يقال لهذا زرع، ومنه قوله: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ الحطام: اليابس المفتت، وقيل: معناه تبناً بلا قمح.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تطرحون الفاكهة وهي المسرة يقال رجل فكه إذا كان مسرورا منبسط النفس، ويقال تفكه إذا زالت عنه الفكاهة فصار حزينا لأن صيغة تفعَّل تأتي لزوال الشيء كقولهم تحرج وتأثم إذا زال عنه الحرج والإثم فالمعنى صرتم تحزنون على الزرع لو جعله الله حطاما وقد عبر بعضهم عن تفكهون بأن معناه تتفجعون، وقيل: تندمون، وقيل: تعجبون وهذه معان متقاربة والأصل ما ذكرنا.

---

(١) ابن كثير ٧/٥٤٠ والطبري ٢٣/١٢٩ .

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ تقـديره تقولـون ذلـك لـو جعـل الله زرعكـم حطاما والمغرم المعذب لأن الغرام هو أشد العذاب، ويحتمل أن يكون من الغرم أي مثقلون بما غرمنا من النفقة على الزرع والمحروم الـذي حرمـه الله الخير.

﴿مِنَ الْمُزْنِ﴾ هي السحاب، والأجاج: الشديد الملوحة، فإن قيل: لم ثبتت اللام في قوله لو نشاء لجعلناه حطاما وسـقطت في قولـه لـو نـشاء جعلنـاه أجاجا؟ فالجواب: من وجهين:

أحدهما: أنه أغنى إثباتها أولا عن إثباتها ثانيا مع قرب الموضعين.

والآخر: أن هذه اللام تدخل للتأكيد فأدخلت في آية المطعـوم دون آيـة المشروب للدلالة على أن الطعام أوكد من الشراب لأن الإنـسان لا يـشرب إلا بعد أن يأكل.

﴿النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي تقدحونها من الزناد والزناد قد يكون من حجـرين ومن حجر وحديدة، ومن شجر وهـو المـرخ والعـصار ولمـا كانـت عـادة العرب في زنادهم من شجر قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ أي الشجرة التي تزند النار منها، وقيل: أراد بالشجرة نفس النـار كأنـه يقـول نوعهـا أو جنسها فاستعار الشجرة لذلك وهذا بعيد.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي تذكر بنار جهنم.

﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ المتاع: ما يتمتع به، ويحتمـل المقـوين أن يكـون مـن الأرض القواء وهـي الفيـافي، ومعـنى المقـوين: الـذين دخلـوا في القـواء ولذلك عبر ابن عباس عنه بالمسافرين، ويحتمل أن يكون من قـولهم أقـوى

المنزل إذا خلا، فمعناه: الذين خلت بطونهم أو موائدهم من الطعام ولذلك عبر بعضهم عنه بالجائعين.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ لا في هذا الموضع وأمثاله زئداة وكأنها زيدت لتأكيد القسم أو لاستفتاح الكلام نحو ألا، وقيل:هي نافية لكلام الكفار كأنه يقول لا صحة لما يقول الكفار وهذا ضعيف والأول أحسن لأن زيادة لا كثيرة معروفة في كلام العرب، ومواقع النجوم فيه، قولان:

أحدهما: قول ابن عباس: إنها نجوم القرآن إذ نزل على النبي صلى الله عليه وسلم مقطعا بطول عشرين سنة، فكل قطعة منه نجم.

والآخر: قول كثير من المفسرين أن النجوم الكواكب ومواقعها مغاربها ومساقطها، وقيل: مواضعها من السماء، وقيل: انكدارها يوم القيامة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ هذه جملة اعتراض بين القسم وجوابه وقوله لو تعلمون اعتراض بين الموصوف وصفته فهو اعتراض في اعتراض، والمقصود بذلك تعظيم المقسم به وهو مواقع النجوم وجواب القسم إنه لقرآن كريم وأعاد الضمير على القرآن لأنَّ المعنى يقتضيه أو لأنه مذكور على قول من قال إن مواقع النجوم نزول القرآن.

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ أي مصون والمراد بهذا الكتاب المكنون المصاحف التي كتب فيها القرآن، أو صحف القرآن التي بأيدي الملائكة عليهم السلام.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ الضمير يعود على الكتاب المكنون، ويحتمل أن يعود على القرآن المذكور قبله إلا أن هذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: أن مس الكتاب حقيقة ومس القرآن مجاز والحقيقة أولى من المجاز.

والآخر: أن الكتاب أقرب والضمير يعود على أقرب مذكور.

فإذا قلنا إنه يعود على الكتاب المكنون فإن قلنا إن الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الملائكة فالمطهرون يراد بهم الملائكة لأنهم مطهرون من الذنوب والعيوب والآية إخبار بأنه لا يمسه إلا هم دون غيرهم، وإن قلنا إن الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الناس فيحتمل أن يريد بالمطهرين المسلمين لأنهم مطهرون من الكفر أو يريد المطهرين من الحدث الأكبر وهي الجنابة أو الحيض فالطهارة على هذا الاغتسال أو المطهرين من الحدث الأصغر فالطهارة على هذا الوضوء، ويحتمل أن يكون قوله لا يمسه خبرا أو نهيا على أنه قد أنكر بعض الناس أن يكون نهيا وقال لو كان نهيا لكان بفتح السين، وقال المحققون: إن النهي يصح مع ضم السين لأن الفعل المضاعف إذا كان مجزوما أو اتصل به ضمير المفرد المذكر ضم عند التقاء الساكنين إتباعا لحركة الضمير وإذا جعلناه خبرا فيحتمل أن يقصد به مجرد الإخبار أو يكون خبرا بمعنى النهي وإذا كان لمجرد الإخبار فالمعنى أنه لا ينبغي أن يمسه إلا المطهرون أي هذا حقه وإن وقع خلاف ذلك، واختلف الفقهاء فيمن يجوز له مس المصحف على حسب الاحتمالات في الآية فأجمعوا على أنه لا يجوز أن يمسه كافر، لأنه إن أراد بالمطهرين المسلمين فذلك ظاهر، وإن أراد الطهارة من الحدث فالإسلام حاصل مع ذلك، وأما الحدث ففيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه لا يجوز أن يمسه الجنب ولا الحائض ولا المحدث حدثا أصغر وهو قول مالك وأصحابه ومنعوا أيضا أن يحمله بعلاقة أو وسادة،

وحجتهم الآية على أن يراد بالمطهرين الطهارة من الحدث الأكبر والأصغر وقد احتج مالك في الموطأ بالآية على المسألة، ومن حجتهم أيضا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمرو بن حزم" أن لا يمس القرآن إلا طاهر"[1].

الثاني: أنه يجوز مسه للجنب والحائض والمحدث حدثا أصغر وهو مذهب أحمد بن حنبل والظاهرية وحملوا المطهرون على أنهم المسلمون والملائكة أو جعلوا لا يمسه لمجرد الإخبار.

والقول الثالث: أنه يجوز مسه بالحدث الأصغر دون الأكبر، ورخص مالك في مسه على غير وضوء للمعلم والصبيان لأجل المشقة، واختلفوا في قراءة الجنب للقرآن فمنعه الشافعي وأبو حنيفة مطلقا وأجازه الظاهرية مطلقا، وأجاز مالك قراءة الآية اليسيرة، واختلف في قراءة الحائض والنفساء للقرآن عن ظهر قلب فعن مالك في ذلك روايتان وفرق بعضهم بين اليسير والكثير.

* * * *

---

(١) رواه مالك في الموطأ ١/١٩٩ وكتاب أبي داوود في المراسيل الحديث رقم: (٢٥٧) وانظر تفسير ابن كثير ٧/٥٤٥.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝
وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ
مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ
نَعِيمٍ ۝ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ
بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ هذا خطاب للكفار والحديث المشار إليه هو القرآن، ومدهنون: معناه متهاونون وأصله من المداهنة وهي لين الجانب، والموافقة بالظاهر لا بالباطن وقال ابن عباس: معناه مكذبون.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال ابن عطية: أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر إنه نزل بنوء كذا وكذا، والمعنى: تجعلون شكر رزقكم التكذيب فحذف شكر لدلالة المعنى عليه، وقرأ علي ابن أبي طالب: وتجعلون شكركم أنكم تكذبون، وكذلك قرأ ابن عباس إلا أنه قرأ تكذبون بضم التاء والتشديد كقراءة الجماعة وقراءة علي بفتح التاء وإسكان الكاف من الكذب أي يكذبون في قولهم نزل المطر بنوء كذا، ومن هذا المعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى يقول: أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب، وكافر بي مؤمن بالكوكب، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكوكب كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب"[1]. والمنهي عنه في هذا الباب أن يعتقد أن للكوكب تأثيرا في المطر، وأما مراعاة العوائد

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٨٤٦) ومسلم الحديث رقم: (١٠٤) وسنن أبي داود الحديث رقم: (٣٤٠٧) والمسند الحديث رقم: (١٦٤٤٤).

التي أجراها الله تعالى فلا بأس به لقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة"[1]. وقد قال عمر للعباس وهما في الاستسقاء: كم بقي من نوء الثريا؟ فقال العباس: العلماء يقولون إنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعا. قال ابن المسيب: فما مضت سبع حتى مطروا.

وقيل: إن معنى الآية تجعلون سبب رزقكم تكذيبكم للنبي صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا يقولون إن آمنا به حرمنا الله الرزق كقولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ فأنكر الله عليهم ذلك وإعراب أنكم على هذا القول مفعول بتجعلون على حذف مضاف تقديره تجعلون سبب رزقكم التكذيب، ويحتمل أن يكون مفعولا من أجله تقديره تجعلون رزقكم حاصلا من أجل أنكم تكذبون وأما على القول الأول فإعراب أنكم تكذبون مفعول لا غير.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ لولا هنا عرض والضمير في بلغت للنفس لأن سياق الكلام يقتضي ذلك وبلوغها للحلقوم حين الموت والفعل الذي دخلت عليه لولا هو قوله ترجعونها أي هلا رددتم النفس حين الموت ومعنى الآية احتجاج على البشر وإظهار لعجزهم لأنهم إذا حضر أحدهم الموت لم يقدروا أن يردوا روحه إلى جسده وذلك دليل على أنهم عبيد مقهورون.

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ هذا خطاب لمن يحضر الميت من أقاربه وغيرهم يعني تنظرون إليه ولا تقدرون له على شيء.

---

(١) الموطأ ٢/٩٠.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يحتمل أن يريد قرب نفسه تعالى بعلمه واطلاعه أو قرب الملائكة الذين يقبضون الأرواح فيكون من قرب المسافة.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ إن أراد بقوله نحن أقرب الملائكة فقوله لا تبصرون من رؤية العين، وإن أراد نفسه تعالى فهو من رؤية القلب.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لولا هنا عرض كالأولى وكررت للتأكيد والبيان لما طال الكلام والفعل الذي دخلت عليه لولا الأولى والثانية قوله ترجعونها، أي هلا رددتم النفس إلى الجسد إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين وغير مربوبين ومقهورين فافعلوا ذلك إن كنتم صادقين في كفركم وترتيب الكلام فلولا ترجعون النفس إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين فارجعوا إن كنتم صادقين.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ الضمير في كان للمتوفى وكرر هنا ما ذكره في أول السورة من تقسيم الناس إلى ثلاثة أصناف السابقين وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، فالمراد بالمقربين هنا السابقون المذكورون هناك.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ الروح: الاستراحة، وقيل: الرحمة، وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ فروح بضم الراء ومعناه الرحمة، وقيل: الخلود أي بقاء الروح، وأما الريحان فقيل: إنه الرزق، وقيل: الاستراحة، وقيل: الطيب، وقيل: الريحان المعروف في الدنيا يلقاه في الجنة وفي قوله" ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ ضرب من ضروب التجنيس.

﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ معنى هذا على الجملة نجاة أصحاب اليمين وسعادتهم، والسلام هنا يحتمل أن يكون بمعنى السلامة أو التحية،

والخطاب في ذلك يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أو لأحد من أصحاب اليمين فإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فالسلام بمعنى السلامة والمعنى سلام لك يا محمد منهم، أي لا ترى منهم إلا السلامة من العذاب، وإن كان الخطاب لأحد من أصحاب اليمين فالسلام بمعنى التحية، والمعنى سلام لك أي تحية لك يا صاحب اليمين من إخوانك وهم أصحاب اليمين أي يسلمون عليك فهو كقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ أو يكون السلام بمعنى السلامة والتقدير سلامة لك يا صاحب اليمين ثم يكون قوله من أصحاب اليمين خبر ابتداء مضمر تقديره أنت من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني الكفار وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة.

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ النزل أول شيء يقدم للضيف.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ الإشارة إلى ما تضمنته هذه السورة من أحوال الخلق في الآخرة، وحق اليقين: معناه الثابت من اليقين، وقيل: إن الحق واليقين بمعنى واحد فهو من إضافة الشيء إلى نفسه كقوله: مسجد الجامع واختار ابن عطية أن يكون كقولك في أمر تؤكده: هذا يقين اليقين، أو صواب الصواب، بمعنى أنه نهاية الصواب.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجعلوها في ركوعكم"، فلما نزلت: "سبح اسم ربك الأعلى" قال عليه السلام: اجعلوها في سجودكم"[1]. فلذلك استحب مالك وغيره أن

---

(١) سنن أبي داود الحديث رقم: (٧٣٦) وأبي ماجه الحديث رقم: (٨٧٧) والمسند الحديث رقم: (١٦٧٧٣).

يقول في السجود سبحان ربي الأعلى، وفي الركوع سبحان ربي العظيم، وأوجبه الظاهرية، ويحتمل أن يكون المعنى تسبيح الله بذكر أسمائه والاسم هنا جنس الأسماء والعظيم صفة للرب أو يكون الاسم هنا واحدا والتعظيم صفة له وكأنه أمره أن يسبح بالاسم الأعظم ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال سورة الحديد بها وفي أولها التسبيح وجملة من أسماء الله وصفاته وقد قال ابن عباس: اسم الله العظيم الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد، وروي أن الدعاء عند قراءتها مستجاب.

* * * *

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا التسبيح المذكور هنا وفي أوائل سائر السور، المسبحات يحتمل أن يكون حقيقة أو أن يكون بلسان الحال، لأن كل ما في السموات والأرض دليل على وجود الله وقدرته وحكمته والأول أرجح لقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وذكر التسبيح هنا وفي الحشر والصف بلفظ الماضي وفي الجمعة والتغابن بلفظ المضارع وكل واحد منهما يقتضي الدوام.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ أي ليس لوجوده بداية ولا لبقائه نهاية.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي الظاهر للعقول بالأدلة والبراهين الدالة على الباطن الذي لا تدركه الأبصار، أو الباطن الذي لا تصل العقول إلى معرفة كنه ذاته، وقيل: الظاهر العالي على كل شيء، فهو من قولك ظهرت على الشيء إذا علوت عليه والباطن الذي بطن كل شيء أي علم باطنه والأول

أظهر وأرجح ودخلت الواو بين هذه الصفات لتدل على أنه تعالى جامع لها مع اختلاف معانيها وفي ذلك مطابقة لفظية وهي من أحسن أدوات البيان.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد ذكر وكذلك ما بعده.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يعني أنه حاضر مع كل أحد بعلمه وإحاطته وأجمع العلماء على تأويل هذه الآية بذلك.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ ذكر في الحج ولقمان.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني الإنفاق في سبيل الله وطاعته، وروي أنها نزلت في الإنفاق في غزوة تبوك وعلى هذا روي أن قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾ نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنه جهز جيش العسرة يومئذ، ولفظ الآية مع ذلك عام وحكمها باق لجميع الناس، وقوله: ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله لأنه خلقها ولكنه متعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكها أن تنفقوها فيه، ويحتمل أن يكون جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فورثتم عنه الأموال فأنفقوها قبل أن تخلفوها لمن بعدكم كما خلفها لكم من كان قبلكم، والمقصود على كل وجه تحريض على الإنفاق وتزهيد في الدنيا.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ معناه أي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول يدعوكم إليه بالبراهين القاطعة والمعجزات الظاهرة، فقوله ما لكم استفهام يراد به الإنكار و﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الحال من معنى الفعل الذي يقتضيه مالكم والواو في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ واو الحال.

﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما جعل في العقول من النظر الذي يؤدي إلى الإيمان أو يكون الميثاق الذي أخذه على بني آدم حين أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى.

* * * *

هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ يعني سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم والعبودية هنا للتشريف والاختصاص والآيات هنا القرآن.

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية معناه أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله والله يرث ما في السموات والأرض إذا أفنى أهلها، ففي ذلك تحريض على الإنفاق وتزهيد في الدنيا.

﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَ﴾ الفتح هنا فتح مكة، وقيل: صلح الحديبية، والأول أظهر وأشهر ومعنى الآية التفاوت في الأجر والدرجات بين من أنفق في سبيل الله وقاتل قبل فتح مكة وبين من أنفق وقاتل بعد ذلك فإن الإسلام قبل الفتح كان ضعيفا والحاجة إلى الإنفاق والقتال كانت أشد، ويؤخذ من الآية أن من أنفق في شدة الحاجة أعظم أجرا ممن أنفق في حال الرخاء وفي الآية حذف دل عليه الكلام تقديره لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل ثم حذف هذا لدلالة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ وفي هذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تسبوا أصحابي

فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه"[1]. يعني السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وخاطب بذلك من جاء بعدهم من سائر الصحابة ويدخل في الخطاب كل من يأتي إلى يوم القيامة.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي كل واحدة من الطائفتين الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح وبعده وعدهم الله الجنة.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ذكر في البقرة.

﴿يَوْمَ تَرَى﴾ العامل في الظرف أجر كريم أو تقدير اذكر.

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قيل: إن هذا النور استعارة يراد به الهدى والرضوان، والصحيح هو قول الجمهور أنه حقيقة وقد روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالمعنى على هذا أن المؤمنين يكون لهم يوم القيامة نور يضيء قدامهم وعن يمين كل واحد منهم، وقيل: يكون أصله في أيمانهم يحملونه فينبسط نوره قدامهم، وروي أن نور كل أحد على قدر إيمانه، فمنهم من يكون نوره كالنخلة السحوق[2] ومنهم من يضيء ما قرب من قدميه ومنهم من يضيء مرة ويهم بالإطفاء مرة، قال ابن عطية: ومن هذه الآية أخذ الناس مشي المعتق بالشمعة قدام معتقة إذا مات.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي يقال لهم ذلك.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٣٦٧٣) ومسلم الحديث رقم: (٤٦١٠) وأبو داود الحديث رقم: (٤٠٣٩) والترمذي الحديث رقم: (٣٧٩٦) وابن ماجه الحديث رقم: (١٥٧) والمسند الحديث رقم: (١٠٦٥٧).

(٢) السحوق: أي الطويلة التي بعد ثمرها على المجتني.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ يوم بدل من يوم ترى أو متعلق بالفوز العظيم أو بمحذوف تقديره اذكر، ومعنى الآية أن كل مؤمن مظهر للإيمان يعطى يوم القيامة نورا فيبقى نور المؤمنين وينطفئ نور المنافقين فيقول المنافقون للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم أي نأخذ منه ونستضيء به ومعنى انظرونا انتظرونا وذلك لأن المؤمنين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف والمنافقون ليسوا كذلك، ويحتمل أن يكون من النظر أي انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فاستضاؤوا بنورهم ولكن يضعف هذا، لأن نظر إذا كان بمعنى النظر بالعين يتعدى بإلي، وقرئ أنظرونا بهمزة قطع ومعناه أخرونا أي أمهلونا في مشيكم حتى نلحقكم.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ يحتمل أن يكون هذا من قول المؤمنين أو قول الملائكة ومعناه الطرد للمنافقين والتهكم بهم لأنهم قد علموا أن ليس وراءهم نور ووراءكم ظرف العامل فيه ارجعوا، وقيل: إنه لا موضع له من الإعراب وأنه كما لو قال ارجعوا ومعنى هذا الرجوع ارجعوا إلى الموقف فالتمسوا فيه النور أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل الإيمان أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا فالتمسوا نورا آخر فلا سبيل لكم إلى هذا النور.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ أي ضرب بين المؤمنين والمنافقين بسور يفصل بينهم وفي ذلك السور باب لأهل الجنة يدخلون منه، وقيل: إن هذا السور هو الأعراف وهو سور بين الجنة والنار، وقيل: هو الجدار الشرقي من بيت المقدس وهذا بعيد.

﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ باطنه هو جهة المؤمنين وظاهره هو جهة المنافقين وهي خارجة كقوله ظاهر المدينة أي خارجها والضمير في باطنه وظاهره يحتمل أن يكون للسور أو للباب والأول أظهر.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين فيقولون لهم ألم نكن معكم في الدنيا يريدون إظهارهم الإيمان.

﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أهلكتموها وأضللتموها بالنفاق.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي أبطأتم بإيمانكم، وقيل: تربصتم الدوائر بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين.

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم في الإيمان.

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي طول الأمل والتمني ومن ذلك أنهم كانوا يتمنون أن يهلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون أو يهزمون إلى غير ذلك من الأماني الكاذبة.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي الفتح وظهور الإسلام أو موت المنافقين على الحال الموجبة للعذاب.

﴿ٱلْغَرُورُ﴾ هو الشيطان.

﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي هي أولى بكم وحقيقة المولى الولي الناصر فكأن هـذا استعارة منه أي لا ولي لكم تأوون إليه إلا النار.

* * * *

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ معنى ألم يأن ألم يحن يقال أني الأمر إذا حان وقته وذكر الله يحتمل أن يريد به القرآن أو الذكر أو التذكير بالمواعظ، وهذه آية موعظة وتذكير، قال ابن عباس: عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، وسمع الفضيل بن عياض قارئا يقرأ هذه الآية فقال: قد آن، فكان سبب رجوعه إلى الله، وحكي أن عبد الله بن المبارك أخذ العود في صباه ليضربه فنطق بهذه الآية فكسره ابن المبارك وتاب إلى الله.

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ عطف ولا يكونوا على أن تخشع، ويحتمل أن يكون نهيا والمراد التحذير من أن يكون المؤمنون كأهل الكتب المتقدمة وهم اليهود والنصارى.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي مدة الحياة، وقيل: انتظار القيامة، وقيل: انتظار الفتح والأول أظهر.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يحييها بإنزال المطر وإخراج النبات، وقيل: إنه تمثيل للقلوب أي يحي الله القلوب بالمواعظ كما يحي الأرض بالنبات والمطر، وفي هذا تأنيس للمؤمنين الذين ندبوا إلى أن تخشع قلوبهم والأول أظهر وأرجح لأنه الحقيقة.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بتشديد الصاد من الصدقة وأصله المتصدقين وكذلك قرأ أبي بن كعب وقرئ بالتخفيف من التصديق أي صدقوا الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ﴾ معطوف على المعنى كأنه قال: إن الذين تصدقوا وأقرضوا وقد ذكرنا معنى أقرضوا في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾.

﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ مبالغة من الصدق أو من التصديق وكونه من الصدق أرجح لأن صيغة فعيل لا تبنى إلا من فعل ثلاثي في الأكثر، وقد حكي بناؤها من رباعي كقولهم رجل مسيك من أمسك.

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون الشهداء مبتدأ وخبره ما بعده، أو يكون معطوفا على الصديقين فإن كان مبتدأ ففي المعنى قولان:

أحدهما: أنه جمع شهيد في سبيل الله فأخبر أنهم عند ربهم لهم أجرهم ونورهم.

والآخر: أنه جمع شاهد ويراد به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم يشهدون على قومهم وإن كان معطوفا ففي المعنى قولان:

أحدهما: أنه جمع شهيد فوصف الله المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء أي جمعوا الوصفين، وروي في هذا المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" مؤمنو أمتي شهداء، وتلا هذه الآية".

والآخر: أنه جمع شاهد لأن المؤمنين يشهدون على الناس كقوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ هذا خبر عن الشهداء خاصة إن كان مبتدأ أو خبر عن المؤمنين إن كان الشهداء معطوفا ونورهم هو النور الذي يكون لهم يوم القيامة حسبما ذكر في هذه السورة، وقيل: هو عبارة عن الهدى والإيمان.

* * * *

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝﴾

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الآية معناها تشبيه الدنيا بالزرع الذي ينبته الغيث في سرعة تغيره بعد حسنه وتحطمه بعد ظهوره، والكفار هنا يراد به الزُّرَّاع فهو من قوله كفرت الحب أي سترته تحت الأرض، وخصهم بالذكر لأنهم أهل البصر بالزرع والفلاحة فلا يعجبهم إلا ما هو حقيق أن يعجب، وقيل: أراد الكفار بالله وخصهم بالذكر لأنهم أشد إعجابا بالدنيا وأكثر حرصا عليها.

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي سابقوا إلى الأعمال التي تستحقون بها المغفرة، فقيل: المعنى كونوا في أول صف من القتال، وقيل: احضروا تكبيرة الإحرام مع الإمام، وقيل: كونوا أول داخل إلى المسجد وآخر خارج منه وهذه أمثلة، والمعنى العام المسابقة إلى جميع الأعمال الصالحات وقد استدل بها قوم على أن الصلاة في أول الوقت أفضل.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ السماء هنا يراد به جنس السموات بدليل قوله في آل عمران وقد ذكرنا هناك معنى عرضها.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ المعنى أن الأمور كلها مقدرة مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء"[1].

والمصيبة هنا عبارة عن كل ما يصيب من خير أو شر، وقيل: أراد به المصيبة في العرف وهو ما يصيب من الشر وخص ذلك بالذكر لأنه أهم على الناس.

و﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني القحوط والزلازل وغير ذلك، وفي أنفسكم: يعني الموت والمرض والفقر وغير ذلك، ونبرأها: معناه نخلقها والضمير يعود على المصيبة أو على أنفسكم أو على الأرض، وقيل: يعود على جميعها لأن المعنى صحيح في كلها.

﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ المعنى فعل الله ذلك وأخبركم به لكي تسلموا لقضاء الله ولا تكترثوا بأمور الدنيا ومعنى لا تأسوا لا تحزنوا أي فلا تحزنوا على ما فاتكم منها ولا تفرحوا بها، وقرأ الجمهور بما آتاكم بالمد أي بما أعطاكم الله من الدنيا وقرأ أبو عمرو بما أتاكم بالقصر أي بما جاءكم من الدنيا، فإن قيل: إن الإنسان لا يملك نفسه عن أن يفرح بالخير ويحزن للشر كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما أتي بمال كثير: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا؛ فالجواب: أن النهي إنما هو عن الفرح الذي يقود إلى الكبر والطغيان، وعن الحزن الذي يخرج عن الصبر والتسليم.

﴿كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ المختال: صاحب الخيلاء، والفخور: شديد الفخر على الناس.

---

(١) في صحيح مسلم بلفظ: "الخلائق" بدل "الأشياء". الحديث رقم: (٤٧٩٧) وانظر تفسير الألوسي ٨/١٦٦.

ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا
ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ
عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ
وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بدل من كل مختال فخور أو خبر ابتداء مضمر تقديره هم الذين، أو منصوب بإضمار أعني، أو مبتدأ وخبره محذوف.

﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ الكتاب هنا: جنس الكتب، والميزان: العدل، وقيل: الميزان الذي يوزن به، وروي: أن جبريل نزل بالميزان ودفعه إلى نوح وقال له مر قومك يزنوا به.

﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ عبَّر عن خلقه وإيجاده بالإنزال، وقيل: بل أنزله حقيقة لأن آدم نزل من الجنة ومعه المطرقة والإبرة.

﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ يعني أنه يعمل منه سلاح للقتال ولذلك قال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ والمنافع للناس: سكك الحرث والمسامير وغير ذلك.

﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي من ذرية نوح وإبراهيم مهتدون قليلون وأكثرهم فاسقون لأن منهم اليهود والنصارى وغيرهم.

❊ ❊ ❊ ❊

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى
قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ
ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٧)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا
تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩)﴾

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ ذكر في البقرة.

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ هذا ثناء عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ الرهبانية: هي الانفراد في الجبال والانقطاع عن الناس في الصوامع ورفض النساء وترك الدنيا، ومعنى ابتدعوها أي أحدثوها من غير أن يشرعها الله لهم وإعراب رهبانية معطوف على رأفة ورحمة أي جعل الله في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية وابتدعوها صفة للرهبانية والجعل هنا بمعنى الخلق والمعتزلة يعربون رهبانية مفعولا بفعل مضمر يفسره ابتدعوها لأن مذهبهم أن الإنسان يخلق أفعاله فأعربوها على مذهبهم، وكذلك أعربها أبو علي الفارسي وذكر الزمخشري الوجهين.

﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ كتبنا هنا بمعنى فرضنا وشرعنا وفي هذا قولان:

أحدهما: أن الاستثناء منقطع والمعنى ما كتبنا عليهم الرهبانية ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله.

والآخر: أن الاستثناء متصل والمعنى كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله والأول أرجح لقوله: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ ولقراءة عبد الله بن مسعود: ﴿ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها﴾.

﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي لم يدوموا عليها ولم يحافظوا على الوفاء بها يعني أن جميعهم لم يراعوها وإن رعاها بعضهم والضمير في رعوها للذين ابتدعوا الرهبانية وكان يجب عليهم إتمامها وإن لم يكتبها الله سبحانه وتعالى عليهم لأن من دخل في شيء من النوافل يجب عليه إتمامه، وقيل: الضمير لمن جاء بعد الذين ابتدعوا الرهبانية من أتباعهم.

﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ إن قيل: كيف خاطب الذين آمنوا وأمرهم بالإيمان وتحصيل الحاصل لا ينبغي؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن معنى آمنوا دوموا على الإيمان واثبتوا عليه.

والآخر: أنه خطاب لأهل الكتاب فالمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويؤيد هذا قوله: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي نصيبين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي... الحديث".

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ يحتمل أن يريد النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين يوم القيامة أو يكون عبارة عن الهدى ويؤيد الأول أنه مذكور في هذه السورة ويؤيد الثاني قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾.

لا في قولـــه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ لئلا زائدة والمعنى: ليعلم أهل الكتاب، وكذلك قرأها ابن عباس، وقرأ ابن مسعود: ﴿لكي يعلم﴾ والمعنى، إن كان الخطاب لأهل الكتاب يا أهل الكتاب آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أن لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي وعد من آمن منكم وهو تضعيف الأجر والنور والمغفرة لأنهم لم يسلموا فلا ينالون شيئا من ذلك، وإن كان الخطاب للمسلمين فالمعنى ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أنهم لا يقدرون أن ينالوا شيئا مما أعطى الله المسلمين من تضعيف الأجر والنور والمغفرة، وقد روي في سبب نزول الآية أن اليهود افتخرت على المسلمين فنزلت الآية في الرد عليهم وهو يقوي هذا القول، وروي أيضا أن سببها أن الذين أسلموا من أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المسلمين بأنهم يؤتيهم الله أجرهم مرتين فنزلت الآية معلمة أن المسلمين مثلهم في ذلك.

* * * *

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ نزلت الآية في خولة بنت حكيم، وقيل: خولة بنت ثعلبة، وقيل: خولة بنت خويلد، وقيل: اسمها جميلة، وكانت امرأة أوس بن الصامت الأنصاري أخي عبادة بن الصامت فظاهر منها وكان الظهار في الجاهلية يوجب تحريما مؤبدا فلما فعل أوس ذلك جاءت امرأته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن أوسا أكل شبابي ونشرت له بطني فلما كبرت ومات أهلي ظاهر مني! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أراك إلا قد حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله لا تفعل فإني وحيدة ليس لي أهل سواه، فراجعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل مقالته فراجعته فهذا هو جدالها [1].

---

(١) أحكام القرآن ٤/١٧٤٥ والكشاف ٤/٤٧٢.

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كانت تقول:" اللهم إني أشكو إليك حالي وانفرادي وفقري"، وروي: أنها كانت تقول:" اللهم إن لي منه صبية صغارا إن ضممتهم إلي جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا".

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ المحاورة: هي المراجعة في الكلام، قالت عائشة رضي الله عنها: سبحان من وسع سمعه الأصوات لقد كنت حاضرة وكان بعض كلام خولة يخفى علي وسمع الله كلامهما. ونزل القرآن في ذلك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زوجها وقال له: أتعتق رقبة؟ فقال: والله ما أملكها، فقال: أتصوم شهرين متتابعين؟ فقال: والله ما أقدر، فقال له: أتطعم ستين مسكينا؟ فقال: لا أجد إلا أن يعينني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعونة وصلاة يريد الدعاء فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا وقيل: بثلاثين صاعا ودعا له فكفر بالإطعام وأمسك زوجته.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ قرئ يظاهرون بألف بعد الظاء وبحذفها وبالتشديد والتخفيف والمعنى واحد وهو إيقاع الظهار، والظهار المجمع عليه: هو أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. ويجري مجرى ذلك عند مالك تشبيه الزوجة بكل امرأة محرمة على التأبيد كالبنت والأخت وسائر المحرمات بالنسب والمحرمات بالرضاع والمصاهرة سواء ذكر لفظ الظهر أو لم يذكره كقوله: أنت علي كأمي أو كبطن أمي أو يدها أو رجلها خلافا للشافعي فإن ذلك كله عنده ليس بظهار لأنه وقف عند لفظ الآية، وقاس مالك عليها لأنه رأى أن المقصد تشبيه حلال بحرام.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ رد الله بهذا على من كان يوقع الظهار ويعتقده حقيقة، وأخبر تعالى أن تصير الزوجة أما باطل فإن الأم في الحقيقة إنما هي الوالدة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة، والزور هو الكذب وإنما جعله كذبا لأن المظاهر يصيِّر امرأته كأمه وهي لا تصير كذلك أبدا، والظهار محرم ويدل على تحريمه أربعة أشياء:

أحدها: قوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ فإن ذلك تكذيب للمظاهر.

والثاني: أنه سماه منكرا.

والثالث: أنه سماه زورا.

والرابع: قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب وهو مع ذلك لازم للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ اختلف الناس في معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ على ستة أقوال:

الأول: أنه إيقاع الظهار في الإسلام، فالمعنى أنهم كانوا يظاهرون في الجاهلية فإذا فعلوه في الإسلام فذلك عود إليه، هذا قول ابن قتيبة، فتجب الكفارة عنده بنفس الظهار بخلاف أقوال غيره فإن الكفارة لا تجب إلا بالظهار والعود معا.

الثاني: أن العود هو وطء الزوجة، روي ذلك عن مالك فلا تجب الكفارة على هذا حتى يطأ فإذا وطئ وجبت عليه الكفارة سواء أمسك الزوجة أو طلقها أو ماتت.

الثالث: أن العود هو العزم على الوطء، وروي هذا أيضا عن مالك فإذا عزم على الوطء وجبت الكفارة سواء أمسك المرأة أو طلقها أو ماتت.

الرابع: أن العود هو العزم على الوطء وعلى إمساك الزوجة، وهذا أصح الروايات عن مالك

الخامس: أنه العزم على الإمساك خاصة، وهذا مذهب الشافعي فإذا ظاهر ولم يطلقها بعد الظهار لزمت الكفارة.

السادس: أنه تكرار الظهار مرة أخرى وهذا مذهب الظاهرية وهو ضعيف لأنهم لا يرون الظهار يوجب حكما في أول مرة وإنما يوجب في الثانية وإنما نزلت الآية فيمن ظاهر لأول مرة فذلك يرد عليهم، ويختلف معنى لما قالوا باختلاف هذه الأقوال؛ فأما على قول ابن قتيبة والظاهرية فما مصدرية والمعنى: يعودون لقولهم، وأما على سائر الأقوال فما بمعنى الذي والمعنى: يعودون للوطء الذي حرموه أو للعزم عليه أو للإمساك الذي تركوه أو للعزم عليه.

﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ جعل الله الكفارة في الظهار على ثلاثة أنواع مرتبة لا ينتقل إلى الثاني حتى يعجز عن الأول ولا ينتقل إلى الثالث حتى يعجز عن الثاني فالأول: تحرير رقبة، والثاني: صيام شهرين متتابعين، والثالث: إطعام ستين مسكينا، فأما الرقبة: فاشترط مالك أن تكون مؤمنة لأن مذهبه حمل المطلق على المقيد وجاءت هنا مطلقة وجاءت في كفارة القتل مقيدة بالإيمان، وأما صيام الشهرين فاشترط فيه التتابع فإن أفسد الصائم التتابع

باختياره ابتدأه من أوله باتفاق وإن أفسده بعذر كالمرض والنسيان فقال مالك يبني على ما كان معه، وقال أبو حنيفة: يبتدئ، وروي القولان عن الشافعي، وأما الإطعام: فمشهور مذهب مالك أنه مد لكل مسكين بمد هشام واختلف في مد هشام فقيل: إنه مدان غير ثلث بمد النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: إنه مد وثلث، وقيل: إنه مدان، وقال الشافعي وابن القصار: يطعم مدا بمد النبي صلى الله عليه وسلم لكل مسكين، ولا يجزئه إلا كمال عدد الستين فإن أطعم مسكينا واحدا ستين يوما لم يجزه عند مالك والشافعي خلافا لأبي حنيفة، وكذلك إن أطعم ثلاثين مرتين والطعام يكون من غالب قوت البلد.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ مذهب مالك والجمهور أن المسيس هنا يراد به الوطء وما دونه من اللمس والتقبيل، فلا يجوز للمظاهر أن يفعل شيئا من ذلك حتى يكفر، وقال الحسن والثوري: أراد الوطء خاصة، فأباحا ما دونه قبل الكفارة، وذكر الله قوله من قبل أن يتماسا في التحرير والصوم ولم يذكره في الإطعام فاختلف العلماء في ذلك، فحمل مالك الإطعام على ما قبله ورأى أنه لا يكون إلا قبل المسيس وجعل ذلك من المطلق الذي يحمل على المقيد، وقال أبو حنيفة: يجوز للمظاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأ قبل الكفارة لأن الله لم ينص في الإطعام أنه قبل المسيس.

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾ قال ابن عطية: الإشارة إلى الرخصة في النقل من التحرير إلى الصوم، وقال الزمخشري: المعنى ذلك البيان والتعليم لتؤمنوا وهذا أظهر لأنه أعم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي يخالفون ويعادون.

﴿كُبِتُوا﴾ أي هلكوا، وقيل: لعنوا، وقيل: كبت الرجل إذا بقي خزيانا ونزلت الآية في المنافقين واليهود.

* * * *

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾

﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ يحتمل أن يكون النجوى هنا بمعنى الكلام الخفي فيكون ثلاثة مضافاً إليه[1] بمعنى الجماعة من الناس، أو يكون ثلاثة بدلاً أو صفة، والأول أحسن.

﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعني بعلمه وإحاطته وكذلك سادسهم وهو معهم أينما كانوا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ نزل في قوم من اليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون على المؤمنين فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فعادوا، وقيل: نزلت في المنافقين والأول أرجح لقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ لأن هذا من فعل اليهود والأحسن أن المراد اليهود

(١) انظر الكشاف ٤/٧٣.

والمنافقين معا، لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ فنزلت الآية في الطائفتين.

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ كانت اليهود يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: السام عليك يا محمد، بدلا من السلام عليكم، والسام الموت وهو ما أرادوه بقولهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم: وعليكم، فسمعتهم عائشة يوما فقالت: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا عائشة إن الله يكره الفحش والتفحش فقالت: أما سمعت ما قالوا؟ قال: أما سمعت ما قلت لهم؟ إني قلت: وعليكم"[1]. ويريد بقوله: ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾.

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ كانوا يقولون لو كان نبيا لعذبنا الله بإذايته فقال الله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي يكفيهم ذلك عذابا.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قيل: يعني النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وحذف وصفها بذلك لدلالة الأول عليه، وقيل: أراد نجوى اليهود والمنافقين ويؤيد هذا قوله ليجزي الذين آمنوا.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾ اختلف في سبب نزول الآية، فقيل: نزلت في مقاعد الحرب والقتال، وقيل: نزلت بسبب ازدحام الناس

---

(١) بعض الحديث في البخاري الحديث رقم: (٦٩٢٧) ومسلم الحديث رقم: (٤٠٢٧) والترمذي الحديث رقم: (٢٦٢٥) وقوله:" إن الله يكره الفاحش المتفحش". في تفسير القرطبي ١٧/٢٩٣.

في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصهم على القرب منه، وقيل: أقام النبي صلى الله عليه وسلم قوما ليجلس أشياخا من أهل بدر في مواضعهم فنزلت الآية ثم اختلفوا هل هي مقصورة على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أو هي عامة في جميع المجالس؟ فقال قوم: إنها مخصوصة، ويدل على ذلك قراءة المجلس بالإفراد وذهب الجمهور إلى أنها عامة ويدل على ذلك قراءة المجالس بالجمع وهذا هو الأصح ويكون المجلس بالإفراد على هذا للجنس، والتفسيح المأمور به هو التوسع دون القيام ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا يقم أحد من مجلسه ثم يجلس الرجل فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا "(١). وقد اختلف في هذا النهي عن القيام من المجلس لأحد هل هو على التحريم أو الكراهة.

﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يوسع لكم في جنته ورحمته.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ أي إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك واختلف في هذا النشوز المأمور به، فقيل: إذا دعوا إلى قتال أو صلاة أو فعل طاعة، وقيل: إذا أمروا بالقيام من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يحب الانفراد أحيانا وربما جلس قوم حتى يؤمروا بالقيام، وقيل: المراد القيام في المجلس للتوسع.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ فيها قولان:

أحدهما: يرفع الله المؤمنين العلماء درجات فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ صفة للذين آمنوا كقوله جاءني العاقل الكريم وأنت تريد رجلا واحدا.

(١) في مسند الإمام أحمد بلفظ:" لا يقيم الرجل الرجلَ من مجلسه..الحديث". رقم (٤٤٣٠).

والثاني: يرفع الله المؤمنين والعلماء الصنفين جميعا درجات فالدرجات على الأول للمؤمنين بشرط أن يكونوا علماء، وعلى الثاني للمؤمنين الذين ليسوا علماء وللعلماء أيضا ولكن بين درجات العلماء وغيرهم تفاوت يوجد في موضع آخر كقوله صلى الله عليه وسلم: "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب"[١]. وقوله علية الصلاة والسلام: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلا "[٢]. وقوله عليه السلام: "يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء"[٣]. فإذا كان لهم فضل على العابدين وعلى الشهداء فما ظنك بفضلهم على سائر المؤمنين.

* * * *

(١) أبو داود والحديث رقم ٣١٥٧.

(٢) الترمذي الحديث رقم ٢٦٠٩.

(٣) القرطبي ١٧/٣٠٠ وهو في سنن ابن ماجه الحديث رقم ٤٣٠٤.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ
تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ
عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞أَلَمْ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ
إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾

﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ قال ابن عباس: سببها أن قوما من شبان المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم سمحا لا يرد أحدا فنزلت الآية مشددة في أمر المناجاة، وقيل: سببها أن الأغنياء غلبوا الفقراء على مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الآية منسوخة باتفاق، نسخها قوله بعدها: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ الآية فأباح الله لهم المناجاة دون تقديم صدقة بعد أن كان أوجب تقديم الصدقة قبل مناجاته عليه السلام، واختلف هل كان هذا النسخ بعد أن عمل بالآية أم لا؟ فقال قوم: لم يعمل بها أحد، وقال قوم: عمل بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ روي أنه كان له دينار فصرفه بعشرة دراهم وناجاه عشر مرات تصدق في كل مرة منها بدرهم وقيل: تصدق في كل مرة بدينار، ثم أنزل الله الرخصة لمن كان قادرا على الصدقة وأما من لم يجد فالرخصة لم تزل ثابتة له بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة هنا يراد بها عفو الله عنهم في تركهم للصدقة التي أمروا بها أو تخفيفها بعد وجوبها.

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي دوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم دون ما كنتم قد كلفتم من الصدقة عند المناجاة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوما من اليهود وهم الذين غضب الله عليهم.

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يعني أن المنافقين ليسوا من المسلمين ولا من اليهود فهو كقوله فيهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني أن المنافقين كانوا إذا عوتبوا على سوء أقوالهم وأفعالهم حلفوا أنهم ما قالوا ولا فعلوا وقد صدر ذلك منهم مرارا كثيرة هي مذكورة في السير وغيرها.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أصل الجنة ما يستتر به ويتقي به المحذور كالترس، ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يظهرون الإيمان لتعصم دماؤهم وأموالهم وقرئ اتخذوا بكسر الهمزة.

* * * *

ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي غلب عليهم وتملك نفوسهم.

﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي في جملة الأذلين أي معهم.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ أي قضى وقدر.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ الآية معناها لا تجد مؤمنا يحب كافرا ولو كان أقرب الناس إليه وهذه حال المؤمن الصادق الإيمان ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يقاتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم إذا كانوا كفارا فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه يوم أحد، وقتل مصعب بن عمير أخاه عزيز بن عمير يوم أحد، ودعا أبو بكر الصديق ابنه يوم بدر للبراز فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقعد، وقيل: إن الآية نزلت في حاطب حين كتب إلى المشركين يخبرهم بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأحسن أنها على العموم، وقيل: نزلت فيمن يصحب السلطان وذلك بعيد.

﴿يُوَآدُّونَ﴾ هذه مفاعلة من المودة فتقتضي أن المودة من الجهتين.

﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ أي عاداه وخالفه.

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي أثبته فيها كأنه مكتوب.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي بلطف وهدى وتوفيق، وقيل: بالقرآن، وقيل: بجبريل.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ هذه في مقابلة قوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ والحزب هم الجماعة المتحزبون لمن أضيفوا إليه.

* * * *

سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝

نزلت هذه السورة في يهود بني النضير وكانوا في حصون بمقربة من المدينة وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فأرادوا غدره فأطلعه الله على ذلك فخرج إليهم وحاصرهم إحدى وعشرين ليلة حتى صالحوه على أن يخرجوا من حصونهم فخرجوا منها وتفرقوا في البلاد.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يعني بني النضير.

﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ في معناه أربعة أقوال:

أحدها: أنه حشر القيامة أي خروجهم من حصونهم أول الحشر والقيام من القبور آخره، وروي في هذا المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم:" امضوا هذا أول الحشر وأنا على الأثر".

الثاني: أن المعنى لأول موضع الحشر وهو الشام، وذلك أن أكثر بني النضير خرجوا إلى الشام، وقد جاء في الأثر:" أن حشر القيامة إلى أرض

الشام". وروي في هذا المعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبني النضير: " اخرجوا، قالوا إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر".

الثالث: أن المراد الحشر في الدنيا الذي هو الجلاء والإخراج فإخراجهم من حصونهم أول الحشر وإخراج أهل خيبر آخره.

الرابع: أن معناه إخراجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم لأنه أول قتال قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال الزمخشري اللام في قوله لأول بمعنى عند كقولك جئت لوقت كذا.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ يعني لكثرة عدتهم ومنعة حصونهم.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ عبارة عن أخذ الله لهم.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أما إخراب المؤمنين فهو هدم أسوار الحصون ليدخلوها وأسند ذلك إلى الكفار في قوله يخربون لأنه كان بسبب كفرهم وغدرهم وأما إخراب الكفار لبيوتهم فلثلاثة مقاصد:

أحدها: حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأرقة ويحصنوا ما خربه المسلمون من الأسوار.

والثاني: ليحملوا معهم ما أعجبهم من الخشب والسواري وغير ذلك.

الثالث: أن لا تبقى مساكنهم مبنية للمسلمين فهدموها شحا عليها.

﴿فَٱعْتَبِرُوا يَـٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ استدل الذين أثبتوا القياس في الفقه بهذه الآية واستدلالهم بها ضعيف خارج عن معناها.

﴿ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ الجلاء: هو الخروج عن الوطن. فالمعنى لولا أن كتب الله على بني النضير خروجهم عن أوطانهم لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة ولهم مع ذلك عذاب النار.

﴿شَآقُّواْ﴾ ذكر في الأنفال.

* * * *

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ اللينة: هي النخلة، وقيل: هي الكريمة من النخل وقيل: النخلة التي ليست بعجوة، وقيل: ألوان النخل المختلط، وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل على حصون بني النضير قطع المسلمون بعض نخلهم وأحرقوه، فقال بنو النضير: ما هذا إلا فساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد! فنزلت الآية معلمة أن كل ما جرى من قطع أو إمساك فإن الله أذن للمسلمين في ذلك.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني بني النضير، واستدل بعض الفقهاء بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب فإن الله قد صوب فعل من قطع النخل ومن تركها، واختلف العلماء في قطع شجر المشركين وتخريب بلادهم فأجازه الجمهور لهذه الآية ولإقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم على تحريق

نخل بني النضير وكرهه قوم لوصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه الجيش الذي وجهه إلى الشام أن لا يقطعوا شجرا مثمرا.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ معنى أفاء الله جعله فيئا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوجفتم من الوجيف: وهو سرعة السير، والركاب: هي الإبل، والمعنى أن ما أعطى الله رسوله من أموال بني النضير لم يمش المسلمون إليه بخيل ولا إبل ولا تعبوا فيه ولا حصلوه بقتال ولكن حصل بتسليط رسوله صلى الله عليه وسلم على بني النضير فأعلم الله في هذه الآية أن ما أخذه من بني النضير وما أخذه من فدك فهو فيء خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم يفعل فيه ما يشاء لأنه لم يوجف عليها ولا قوتلت كبير قتال، فهي بخلاف الغنيمة التي تؤخذ بالقتال، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من أموال بني النضير قوت عياله، وقسم سائرها في المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئا غير أن أبا دجانة وسهل بن حنيف شكوا فاقة فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منها سهما هذا قول جماعة، وقال عمر بن الخطاب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منها على أهله نفقة سنة وما بقي جعله في السلاح والكراع عدة في سبيل الله، قال قوم من العلماء: وكذلك كل ما فتحه الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة يأخذون منه حاجتهم ويصرفون باقيه في مصالح المسلمين.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية اضطرب الناس في تفسير هذه الآية وحكمها اضطرابا عظيما فإن ظاهرها أن الأموال التي تؤخذ للكفار تكون لله وللرسول ومن ذكر بعد ذلك ولا يخرج منها خمس ولا تقسم على من حضر الوقيعة، وذلك يعارض ما ورد في الأنفال من إخراج

الخمس، وقسمة سائر الغنيمة على من حضر الوقيعة فقال بعضهم إن هذه الآية منسوخة بآية الأنفال وهذا خطأ لأن آية الأنفال نزلت قبل هذه بمدة، وقال بعضهم: إن آية الأنفال في الأموال التي تغنم ما عدا الأرض، وأن هذه الآية في أرض الكفار، قالوا ولذلك لم يقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرض مصر والعراق بل تركها لمصالح المسلمين وهذا التخصيص لا دليل عليه، وقيل غير ذلك، والصحيح أنه لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب فهذا يخرج منه الخمس ويقسم باقيه على الغانمين.

وأما هذه الآية ففي حكم الفيء وهو ما يؤخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب وإذا كان كذلك فكل واحدة من الآيتين في معنى غير معنى الأخرى ولها حكم غير حكم الأخرى فلا تعارض بينهما ولا نسخ، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء وفي الأنفال لفظ الغنيمة، وقد تقرر في الفقه الفرق بين الفيء والغنيمة وأن حكمهما مختلف، قاله أبو محمد بن الفرس وهو قول الجمهور وبه قال مالك وجميع أصحابه وهو أظهر الأقوال، وأما فعل عمر في أرض مصر والعراق فالصحيح أنه فعل ذلك لمصلحة المسلمين بعد استطابة نفوس الغانمين بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يريد بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كما كانت أموال بني النضير، ولكنه حذف هذا لقوله في الآية قبل هذا: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فاستغني بذكر ذلك أولا عن ذكره ثانيا ولذلك لم تدخل الواو العاطفة في هذه الجملة لأنها من تمام الأولى فهي غير أجنبية منها فإنه بين في الآية الأولى حكم أموال بني النضير وبين في هذه الآية حكم ما كان مثلها من أموال غيرهم على العموم ويصرف الفيء

فيما يصرف فيه خمس الغنائم لأن الله سوى بينهما في قوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقد ذكرنا ذلك في الأنفال فأغنى عن إعادته، وقد ذكرنا في الأنفال معنى قوله: لله وللرسول وما بعد ذلك.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي كيلا يكون الفيء الذي أفاء الله على رسوله من أهل القرى دولة ينتفع به الأغنياء دون الفقراء، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حينئذ فقراء ولم يعط الأنصار منها شيئا فإنهم كانوا أغنياء، فقال بعض الأنصار: لنا سهمنا من هذا الفيء، فأنزل الله هذه الآية، والدولة بالضم والفتح ما يدول الإنسان أي يدور عليه من الخير ويحتمل أن يكون من المداولة أي كي لا يتداول ذلك المال الأغنياء بينهم ويبقى الفقراء بلا شيء.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ نزلت بسبب الفيء المذكور، أي: ما أتاكم الرسول من الفيء فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا فكأنها أمر للمهاجرين بأخذ الفيء ونهي للأنصار عنه، ولفظ الآية مع ذلك عام في أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نواهيه، ولذلك استدل بها عبد الله بن مسعود على المنع من لبس المحرم المخيط، ولعن الواشمة والواصلة في القرآن لورود ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ هذا بدل من قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ليبين بذلك أن المراد المهاجرين ووصفهم بأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم لأنهم هاجروا من مكة وتركوا فيها أموالهم وديارهم.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم الأنصار، والدار هي المدينة لأنها كانت بلدهم والضمير في قبلهم للمهاجرين، فإن قيل: كيف قال تبوؤا الدار والإيمان وإنما تتبوأ الدار أي تسكن ولا يتبوأ الإيمان؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أن معناه تبوؤا الدار وأخلصوا الإيمان فهو كقوله:

فعلفتها تبنا وماء باردا

تقديره: علفتها تبنا وسقيتها ماء باردا.

الثاني: أن المعنى أنهم جعلوا الإيمان كأنه موطن لهم لتمكنهم فيه كما جعلوا المدينة كذلك، فإن قيل: قوله من قبلهم يقتضي أن الأنصار سبقوا المهاجرين بنزول المدينة وبالإيمان؟ فأما سبقهم لهم بنزول المدينة فلا شك فيه لأنها كانت بلدهم، وأما سبقهم لهم بالإيمان فمشكل لأن أكثر المهاجرين أسلم قبل الأنصار، فالجواب: من وجهين:

أحدهما: أنه أراد بقوله من قبلهم من قبل هجرتهم.

والآخر: أنه أراد تبوؤا الدار مع الإيمان معا أي جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان لا بتبوئ الدار، فيكون الإيمان على هذا مفعولا معه وهذا الوجه أحسن لأنه جواب عن هذا السؤال وعن السؤال الأول فإنه إذا كان الإيمان مفعولا معه لم يلزم السؤال الأول إذ لا يلزم إلا إذا كان الإيمان معطوفا على الدار.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ قيل: إن الحاجة هنا بمعنى الحسد، ويحتمل أن تكون بمعنى الاحتياج على أصلها والضمير في يجدون للأنصار وفي أوتوا للمهاجرين، والمعنى أن الأنصار تطيب نفوسهم بما

يعطاه المهاجرون من الفيء وغيره فلا يجدون في صدورهم شيئا بسبب ذلك.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي يؤثرون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الاحتياج، والخصاصة: هي الفاقة، وروي أن سبب هذه الآية:" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قسم هذه القرى على المهاجرين دون الأنصار قال للأنصار: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه، فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة". وروي أيضا أن سببها: أن رجلا من الأنصار أضاف رجلا من المهاجرين فذهب الأنصاري بالضيف إلى منزله فقالت له امرأته: والله ما عندنا إلا قوت الصبيان، فقال لها: نومي صبيانك وأطفئي السراج وقدمي ما عندك للضيف ونوهمه نحن أنا نأكل ولا نأكل ففعلا ذلك، فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: عجب الله من فعلكما البارحة". ونزلت الآية.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ شح النفس: هو البخل والطمع، وفي هذا إشارة إلى أن الأنصار وقاهم الله شح أنفسهم فمدحهم الله بذلك وبأنهم يؤثرون على أنفسهم، وبأنهم لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتي المهاجرون، وأنهم يحبون المهاجرين.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هذا معطوف على المهاجرين والأنصار المذكورين قبل، فالمعنى أن الفيء للمهاجرين والأنصار ولهؤلاء الذين جاءوا من بعدهم، ويعني بهم الفرقة الثالثة من الصحابة وهم من عدا المهاجرين والأنصار كالذين أسلموا يوم فتح مكة، وقيل: يعني من جاء بعد الصحابة وهم التابعون ومن تبعهم إلى يوم القيامة، وعلى هذا حملها مالك

فقال: إن من قال في أحد من الصحابة قول سوء فلاحظ له في الغنيمة والفيء، لأن الله وصف الذين جاؤوا بعد الصحابة بأنهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فمن قال ضد ذلك فقد خرج عن الذين وصفهم الله.

* * * *

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ الآية نزلت في عبد الله ابن أبي بن سلول وقوم من المنافقين بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم: أثبتوا في حصونكم فإنا معكم كيف ما تقلبت حالكم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي لا نسمع فيكم قول قائل ولا نطيع من يأمرنا بخذلانكم ثم كذبهم الله في هذه المواعيد التي وعدوا بها، فإن قيل: كيف قال: لئن نصروهم ليولن الأدبار، بعد قوله: لا ينصرونهم؟ فالجواب: أن المعنى على الفرض والتقدير أي لو فرضنا أن ينصروهم لولوا الأدبار.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ الرهبة: هي الخوف، والمعنى أن المنافقين واليهود يخافون الناس أكثر مما يخافون الله.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي لا يقدرون على قتالكم مجتمعين إلا وهم في قرى محصنة بالأسوار والخنادق أو من وراء الحيطان دون أن يخرجوا إليكم.

﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞ﴾ يعني عداوة بعضهم لبعض.

﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ أي تظن أنهم مجتمعون بالألفة والمودة وقلوبهم متفرقة بالمخالفة والشحناء.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗا﴾ أي هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير فكانوا أمثالهم، وقيل: يعني أهل بدر الكفار فإنهم قبلهم ومثلا لهم في أن غلبوا وقهروا، والأول: أرجح لأن قوله قريبا يقتضي أنهم كانوا قبلهم بمدة يسيرة وذلك أوقع على بني قينقاع وأيضا فإن تمثيل بني النضير ببني قينقاع أليق لأنهم يهود مثلهم وأخرجوا من ديارهم كما فعل بهم وذلك هو المراد بقوله: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ وقريبا ظرف زمان.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾ مثل الله المنافقين الذين أغووا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك بالشيطان فإنه يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه والمراد بالشيطان والإنسان هنا الجنس، وقيل: أراد الشيطان الذي أغوى قريشا يوم بدر وقال لهم إني جار لكم، وقيل: المراد بالإنسان برصيص العابد فإنه استودع امرأة فزين له الشيطان الوقوع عليها فحملت فخاف الفضيحة فزين له الشيطان قتلها فلما وجدت مقتولة تبين ما فعل فتعرض له الشيطان قال له اسجد لي أنجيك فسجد له فتركه الشيطان وقال له إني بريء منك وهذا ضعيف في النقل، والأول أرجح.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ الضميران يعودان على الشيطان والإنسان وفي ذلك تمثيل للمنافقين واليهود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝﴾

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ هذا أمر بأن تنظر كل نفس ما قدمت من أعمالها ليوم القيامة، ومعنى ذلك محاسبة النفس لتكف عن السيئات وتزيد من الحسنات وإنما عبر عن يوم القيامة بغد تقريبا له لأن كل ما هو آت قريب، فإن قيل: لم كرر الأمر بالتقوى؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه تأكيد.

والآخر وهو الأحسن: أنه أمر أولا بالتقوى استعدادا ليوم القيامة ثم أمر به ثانيا لأن الله خبير بما يعملون فلما اختلف الموجبان كرره مع كل واحد منهما.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ يعني الكفار والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الترك أو الغفلة أي نسوا حق الله فأنساهم حقوق أنفسهم والنظر لها.

﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ ﴾ الآية توبيخ لابن آدم على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن فإنه إذا كان الجبل يخشع ويتصدع لو سمع القرآن فما ظنك بابن آدم.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ أي يعلم ما غاب عن المخلوقين وما شاهدوه، وقيل: الغيب الآخرة والشهادة الدنيا والعموم أحسن.

﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ مشتق من التقديس وهو التنزه عن صفات المخلوقين وعن كل نقص وعيب وصيغة فعول للمبالغة كالسبوح.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: الذي سلم عباده من الجور.

والآخر: السليم من النقائص وأصله مصدر بمعنى السلامة وصف به مبالغة أو على حذف مضاف تقديره ذو السلام.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه من الأمن أي الذي أمن عباده.

والآخر: أنه من الإيمان أي المصدق لعباده في إيمانهم أو في شهادتهم على الناس يوم القيامة، أو المصدق نفسه في أقواله.

﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ في معناه ثلاثة أقوال: الرقيب، والشاهد، والأمين، قال الزمخشري: أصله مؤيمن بالهمزة ثم أبدلت هاء.

﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أنه من الإجبار بمعنى القهر.

والآخر: أنه من الجبر أي يجبر عباده برحمته والأول: أظهر.

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ أي الذي له التكبر حقا.

﴿ٱلْبَارِئُ﴾ أي الخالق يقال أبرأ الله الخلق أي خلقهم ولكن البارئ والفاطر يراد بهما الذي برأ الخلق واخترعه.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي خالق الصور.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة"[1]، قال المؤلف: قرأت القرآن على الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن الكماد فلما بلغت إلى آخر سورة الحشر قال لي: ضع يدك على رأسك فقلت له ولم ذلك؟ قال: لأني قرأت على القاضي أبي علي بن أبي الأحوص فلما انتهيت إلى خاتمة الحشر قال لي: ضع يدك على رأسك وأسند الحديث إلى عبد الله بن مسعود، قال: قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم فلما انتهيت إلى خاتمة الحشر قال لي: ضع يدك على رأسك، قلت: ولم ذاك يا رسول الله ؟ فداك أبي وأمي، قال: أقرأني جبريل القرآن فلما انتهيت إلى خاتمة الحشر قال لي: ضع يدك على رأسك يا محمد، قلت: ولم ذاك؟ قال: إن الله تبارك وتعالى افتتح القرآن فضرب فيه فلما انتهى إلى خاتمة سورة الحشر أمر الملائكة أن تضع أيديها على رؤوسها فقالت يا ربنا ولم ذاك؟ قال: لأنه شفاء من كل داء إلا السام والسام الموت.

* * * *

(١) أخرجه البخاري الحديث رقم ٢٧٣٦ ومسلم الحديث رقم: (٤٨٣٦) والترمذي الحديث رقم: (٣٤٢٨) وابن ماجه الحديث رقم: (٣٨٥١) والمسند الحديث رقم: (٧١٨٩).

سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ
ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ
مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ
تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ
(٣) قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَـٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ
إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا
وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٥)
لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ
ٱلۡحَمِيدُ (٦)

﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ العدو يطلق على الواحد والجماعة والمراد به هنا كفار قريش، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى مكة عام الحديبية فورَّى عن ذلك بخيبر فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر وأخبر هو جماعة من كبار أصحابه بقصده إلى مكة منهم حاطب فكتب بذلك حاطب إلى قوم من أهل مكة فجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء فبعث علي بن أبي طالب والزبير والمقداد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة فقالوا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، ففتشوا

جميع رحلها فما وجدوا شيئا، فقال بعضهم: ما معها كتاب! فقال علي بن أبي طالب: ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذب الله، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك! قالت: أعرضوا عني فأخرجته من قرون رأسها، وقيل: أخرجته من حجزتها فجاءوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحاطب: من كتب هذا؟ قال: أنا يا رسول الله ولكن لا تعجل علي فوالله ما فعلت ذلك ارتدادا عن ديني ولا رغبة في الكفر ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها فأحببت أن تكون لي عندهم يد يرعونني بها في قرابتي، فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدق حاطب، إنه من أهل بدر، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[1] لا تقولوا لحاطب إلا خيرا. فنزلت الآية عتابا لحاطب وزجرا عن أن يفعل أحد مثل فعله، وفيها مع ذلك تشريف له لأن الله شهد له بالإيمان في قوله يا أيها الذين آمنوا.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ عبارة عن إيصال المودة إليهم وألقى يتعدى بحرف جر وبغير حرف جر كقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ وهذه الجملة في موضع الحال من الضمير في قوله لا تتخذوا أو في موضع الصفة لأولياء أو استئناف.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ﴾ حال من الضمير في لا تتخذوا أو في تلقون.

(١) البخاري الحديث رقم ٣٠٠٧ ومسلم الحديث رقم ٤٥٥٠ وأبو داود الحديث رقم ٢٢٧٩ والترمذي الحديث رقم ٣٢٢٧.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي يخرجــون الرســول ويخرجــونكم يعــني إخراجهم من مكة فإنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهـاجرين إلى المدينة ومنهم من خرج إلى أرض الحبشة.

﴿أَن تُؤْمِنُوا۟﴾ مفعول من أجله أي يخرجونكم من أجل إيمانكم.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى﴾ جواب هذا الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه وهو لا تتخذوا، والتقدير إن كنتم خـرجتم جهـادا في سبيلي وابتغـاء مرضاتي فلا تتخـذوا عـدوي وعـدوكم أوليـاء وجهـادا مـصدر في موضـع الحال، أو مفعول من أجله وكذلك ابتغاء.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ معناه إن يظفروا بكم.

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تمنو أن تكفروا فتكونون مثلهم قال الزمخـشري: وإنما قال ودوا بلفظ الماضي بعد أن ذكـر جـواب الـشرط بلفـظ المـضارع لأنهم أرادوا كفركم قبل كل شيء.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ﴾ إشارة إلى ما قصد حاطب من رعي قرابته.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ يحتمل أن يكون من الفصل بـالحكم بينـهم أو من الفصل بمعنى التفريق أي يفرق بينكم وبين قرابتكم يوم القيامة، وقيـل: إن العامل في يوم القيامة ما قبله وذلك بعيد.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ الإسوة: هو الذي يقتـدى به فأمر، الله المسلمين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالـذين معـه في عداوة الكفار والتبري منهم، ومعنى والذين معه من آمن به من النـاس، وقيل: الأنبياء الذين كانوا في عصره وقريبا من عصره ورجح ابن عطية هـذا

القول بما ورد في الحديث أن إبراهيم عليه السلام قال لزوجته ما على الأرض مؤمن بالله غيري وغيرك.

﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾ جمع بريء.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي كذبناكم في أقوالكم ويحتمل أن يكون عبارة عن إفراط البغض والمقاطعة لهم.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ هذا استثناء من قوله إسوة حسنة فالمعنى اقتدوا بهم في عداوتهم للكفار ولا تقتدوا بهم في هذا لأن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وقيل: الاستثناء من التبري والقطيعة والمعنى تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار إلا أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ هذا من كلام سيدنا إبراهيم عليه السلام والذين معه وهو متصل بما قبل الاستثناء فهو من جملة ما أمروا أن يقتدوا به.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: لا تنصرهم علينا فيكون ذلك لهم فتنة وسبب ضلالهم لأنهم يقولون غلبناهم لأنا على الحق، وهم على الباطل.

والآخر: لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا ورجح ابن عطية هذا لأنه دعاء لأنفسهم وأما على القول الأول فهو دعاء للكفار ولكن مقصدهم ليس الدعاء للكفار وإنما هو دعاء لأنفسهم بالنصر بحيث لا يفتتن الكفار بذلك.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم فامتثلوا ذلك على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة فعلم الله صدقهم فآنسهم بهذه الآية ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذ سائر قريش، وقيل: المودة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قريش، ورد ابن عطية هذا القول بأن تزوج أم حبيبة كان قبل نزول هذه الآية.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ رخص الله للمسلمين في مبرة من لم يقاتلهم من الكفار واختلف فيهم على أربعة أقوال:

الأول: أنهم قبائل من العرب منهم خزاعة وبنو الحارث بن كعب كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه.

الثاني: أنهم كانوا من كفار قريش من لم يقاتلوا المسلمين ولا أخرجوهم من مكة والآية على هذين القولين منسوخة بالقتال.

الثالث: أنهم النساء والصبيان، وفي هذا ورد أن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت:" يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي مشركة أفأصلها ؟ قال: نعم صلي أمك"[1] .

الرابع: أنه أراد من كان بمكة من المؤمنين الذين لم يهاجروا، وأما الذين نهى الله عن مودتهم لأنهم قاتلوا المسلمين وظاهروا على إخراجهم فهم كفار قريش.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ أي اختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن، وإنما سماهن مؤمنات لظاهر حالهن وقد اختلف في هذا الامتحان على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن تستحلف المرأة أنها ما هاجرت بسبب بغض في زوجها ولا لخوف ولا لغير ذلك من أعراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة.

والثاني: أن يعرض عليها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

والثالث: أن تعرض عليها الشروط المذكورة بعد هذا: من ترك الإشراك، والسرقة، وقتل أولادهن، وترك الزنا، والبهتان، والعصيان، فإذا أقرت بذلك فهو امتحانها قالته عائشة رضي الله تعالى عنها.

---

(١) البخاري الحديث رقم ٢٦٢٠ ومسلم الحديث رقم ١٦٧١ والمسند الحديث رقم ٢٥٦٧٨.

﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾ نزلت هذه الآية إثر صلح الحديبية وكان ذلك الصلح قد تضمن أن يرد المسلمون إلى الكفار كل من جاء مسلما من الرجال والنساء، فنسخ الله أمر النساء بهذه الآية ومنع من رد المؤمنة إلى الكفار إذا هاجرت إلى المسلمين وكانت المرأة التي هاجرت حينئذ أميمة بنت بشر امرأة حسان بن الدحداحة، وقيل: سبيعة الأسلمية ولما هاجرت جاء زوجها فقال: يا محمد ردها علينا فإن ذلك في الشرط الذي لنا عليك فنزلت الآية، فامتحنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يردها وأعطى مهرها لزوجها، وقيل: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط هربت من زوجها إلى المسلمين، واختلف في الرجال هل حكمهم في ذلك كالنساء فلا تجوز المهادنة على رد من أسلم منهم أو تجوز حتى الآن على قولين؟ والأظهر الجواز لأنه إنما نسخ ذلك في النساء.

﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ هذا تعليل للمنع من رد المرأة إلى الكفار، وفيه دليل على ارتفاع النكاح بين المشركين والمسلمات.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ يعني أعطوا الكفار ما أعطوا نساءهم من الصدقات إذا هاجرن ثم أباح للمسلمين تزوجهن بالصداق.

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ العصم: جمع عصمة أي النكاح، فأمر الله المسلمين أن يفارقوا نساءهم الكوافر يعني المشركات من عبدة الأوثان، فالآية على هذا محكمة، وقيل: يعني كل كافرة فعلى هذا نسخ منها جواز تزوج الكتابيات لقوله: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وروي أن الآية نزلت في امرأة لعمر بن الخطاب كانت كافرة فطلقها.

﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ أي اطلبوا من الكفار ما أنفقتم من الصدقات على أزواجكم اللاتي فررن إلى الكفار، وليطلب الكفار منكم ما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين.

* * * *

وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ معنى فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار هروب نساء المسلمين إلى الكفار والخطاب في قوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾ للمسلمين وقوله عاقبتم ليس من العقاب على الذنب وإنما هو من العقبى أي أصبتم عقبى وهي الغنيمة أو من التعاقب على الشيء كما يتعاقب الرجلان على الدابة إذا ركبها هذا مرة وهذا مرة أخرى فلما كان نساء المسلمين يَهْرَبنَ إلى الكفار ونساء الكفار يَهْرَبنَ إلى المسلمين جعل ذلك كالتعاقب على النساء، وسبب الآية أنه لما قال الله واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا قالوا الكفار لا نرضى بهذا الحكم ولا نعطي صداق من هربت زوجته إلينا من المسلمين فأنزل الله هذه الآية الأخرى وأمر المسلمين أن يدفعوا الصداق لمن هربت زوجته إلينا من المسلمين إلى الكفار ويكون هذا المدفوع من مال الغنائم على قول من قال إن معنى فعاقبتم غنمتم، وقيل: من مال الفيء، وقيل: من الصدقات التي كانت تدفع للكفار إذا فر أزواجهم إلى المسلمين فأزال الله دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه وهذه الأحكام التي تضمنتها هذه الآية قد ارتفعت لأنها نزلت في قضايا معينة وهي مهادنة النبي صلى الله عليه وسلم مع مشركي العرب، ثم زالت هذه

الأحكام بارتفاع الهدنة إذ لا يجوز لنا مهادنة المشركين من العرب إنما هو في حقهم الإسلام أو السيف وإنما تجوز مهادنة أهل الكتاب والمجوس لأن الله قال في المشركين: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وقال في أهل الكتاب: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم في المجوس: "سنوا بهم سنة أهل الكتاب"[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ هذه البيعة بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصف، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعهن بالكلام ولا تمس يده يد امرأة، ورد هذا في الحديث الصحيح عن عائشة[2]. وروي أنه صلى الله عليه وسلم لف على يده ثوبا كثيفا ثم لمس النساء يده كذلك[3]. وقيل: إنه غمس يده في إناء فيه ماء ثم دفعه إلى النساء فغمسن أيديهن فيه[4].

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ معناه عند الجمهور أن تنسب المرأة إلى زوجها ولدا ليس له، وكانت المرأة تلتقط الولد فتقول لزوجها هذا ولدي منك وإنما قال يفترينه بين أيديهن وأرجلهن لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها وفرجها الذي تلده به بين رجليها، واختار ابن عطية أن يكون البهتان هنا على العموم بأن ينسب للرجل غير ولده، أو تفتري على أحد بالقول، أو

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١١٢/٣ السنن الكبرى للبيهقي ١٧٣/٧.

(٢) البخاري الحديث رقم ٢٧١٣.

(٣) لم أهتدي لتخريجي، وهو معارض بالأحاديث الصحيحة التي تنص على انه صلى الله عليه وسلم قد صافح امرأة وانه لا يصافح النساء وهذا ينفي المصافحة بحائل أو بدونه، وانظر المحرر الوجيز ٣٤٧/٦.

(٤) ذكره القرطبي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ٧١/١٨.

تكذب فيما ائتمنها الله عليه من الحيض والحمل وغير ذلك، وإلى هذا أشار بعض الناس بأن قال بين أيديهن يراد به اللسان والفم وبين الأرجل يراد به الفرج.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي لا يعصينك فيما جاءت به الشريعة من الأوامر والنواهي ومن ذلك النهي عن النياحة وشق الجيوب ووصل الشعر وغير ذلك مما كان نساء الجاهلية يفْعلنه، وورد في الحديث:" أن النساء لما بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المبايعة فقررهن على أن لا يسرقن، قالت هند بنت عتبة وهي امرأة أبي سفيان بن حرب: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح فهل علي إن أخذت من ماله بغير إذنه؟ فقال لها: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف[1]، فلما قررهن على أن لا يزنين، قالت هند: يا رسول الله أتزني الحرة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا تزني الحرة يعني في غالب المرأة، وذلك أن الزنا في قريش إنما كان في الإماء، فلما قال: ولا يقتلن أولادهن، قالت: نحن ربيناهم صغارا وقتلتهم أنت ببدر كبارا، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وقفهن على أن لا يعصينه في معروف، قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك". وهذه المبايعة للنساء غير معمول بها اليوم لأنه أجمع العلماء على أنه ليس على الإمام أن يشترط عليهن هذا فإما أن تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ أو يكون ترك هذه الشروط لأنها قد تقررت وعلمت من الشرع بالضرورة، فلا حاجة إلى اشتراطها.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٧١٨٠) والنسائي الحديث رقم: (٥٣٢٥) وابن ماجه الحديث رقم: (٢٢٨٤) والمسند الحديث رقم: (٢٢٩٨٨).

﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اليهود وكان بعض فقراء المسلمين يتودد إليهم ليصيبوا من أموالهم، وقيل: يعني كفار قريش والأول أظهر لأن الغضب قد صار عرفا لليهود كقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ من قال إن القوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود فمعنى يئسوا من الآخرة يئسوا من خير الآخرة والسعادة فيها، ومن قال إن القوم الذين غضب الله عليهم هم كفار قريش فالمعنى يئسوا من وجود الآخرة وصحتها لأنهم مكذبون بها تكذيبا جزما وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يريد كما يئس الكفار المكذبون بالبعث من بعث أصحاب القبور فقوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ﴾ يتعلق بيئس وهو على حذف مضاف.

والآخر: أن يكون من أصحاب القبور لبيان الجنس، أي كما يئس الكفار الذين في القبور من سعادة الآخرة لأنهم تيقنوا أنهم يعذبون فيها.

* * * *

سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا
هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ في سببها ثلاثة أقوال:

أحدها: قول ابن عباس: أن جماعة قالوا وددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى الله فنعمله ففرض الله الجهاد فكرهه قوم فنزلت الآية.

والآخر: أن قوما من شبان المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا ويقولون فعلنا وصنعنا وذلك كذب فنزلت الآية زجرا لهم.

والثالث: أنها نزلت في المنافقين لأنهم كانوا يقولون للمؤمنين نحن معكم ومنكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك وهذا ضعيف لأنه خاطبهم بقوله يا أيها الذين آمنوا إلا أن يريد أنهم آمنوا بزعمهم وفيما يظهرون ومع ذلك فحكم الآية على العموم في زجر من يقول ما لا يفعل.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كان بعض السلف يستحيي أن يعظ الناس لأجل هذه الآية ويقول: أخاف من مقت الله، والمقت: هو البغض لريبة أو نحوها، وانتصب مقتا على التمييز وأن تقولوا فاعل، وقيل: فاعل كبر محذوف تقديره كبر فعلكم مقتا وأن تقولوا بدل من الفاعل المحذوف أو خبر ابتداء مضمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ ورود هذه الآية هنا دليل على أن الآية التي قبلها في شأن القتال، وقال بعض الناس قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان لأن التراص فيه يتمكن أكثر مما يتمكن للفرسان قاله ابن عطية وهذا ضعيف خفي على قائله مقصد الآية وليس المراد نفس التراص وإنما المراد الثبوت والجد في القتال.

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ المرصوص هو الذي يضم بعضه إلى بعض، وقيل: هو المعقود بالرصاص ولا يبعد أن يكون هذا أصل اللفظ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ كانوا يؤذونه بسوء الكلام وبعصيانه وتنقيصه وانظر في الأحزاب قوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾.

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ هذا إقامة حجة عليهم وتوبيخ لهم وتقبيح لإذايته مع علمهم بأنه رسول الله ولذلك أدخل قد الدالة على التحقيق.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ هذه عقوبة على الذنب بذنب وزيغ القلب هو ميله عن الحق.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إنما قال موسى يا قوم وقال عيسى يا بني إسرائيل لأنه لم يكن له فيهم أب.

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ معناه مذكور في البقرة في قوله مصدقا لما معكم.

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ عن كعب: أن الحواريين قالوا لعيسى يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم أمة أحمد حكماء علماء أتقياء أبرار.

﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الله الناس على قدمي وأنا العاقب فلا نبي بعدي"[1]. وأحمد مشتق من الحمد ويحتمل أن يكون فعلا سمي به أو يكون صفة سمي بها كأحمد ويحتمل أن يكون بمعنى حامد أو بمعنى محمود كمحمد.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يحتمل أن يريد عيسى أو محمد عليهما الصلاة والسلام ويؤيد الأول اتصاله بما قبله ويؤيد الثاني قوله وهو يدعى إلى الإسلام لأن الداعي إلى الإسلام هو محمد صلى الله عليه وسلم.

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) حديث:" لا نبي بعدي". في البخاري الحديث رقم ٣٤٥٥ ومسلم الحديث رقم ٣٤٢٩ وسنن أبي داود الحديث رقم ٣٧١٠ والترمذي الحديث رقم ٢١٤٥.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ ذكر في براءة.

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية تفسير للتجارة المذكورة، قال الأخفش: هو عطف بيان عليها، وقال الزمخشري: هو استئناف.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جزم في جواب تؤمنون لأنه بمعنى الأمر وقد قرأه ابن مسعود آمنوا وجاهدوا على الأمر وقال الغراء: هو جواب هل أدلكم، لأنه يقتضي التحضيض.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ارتفع أخرى على أنه خبر ابتداء مضمر تقديره ولكم نعمة أخرى أو انتصب على أنه مفعول بفعل مضمر تقديره ويمنحكم أخرى وقيل: هو مخفوض بالعطف على تجارة، وهو ضعيف.

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تفسير لأخرى فهو بدل منها، أو خبر ابتداء مضمر تقديره هي نصر.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الزمخشري: عطف على تؤمنون بالله لأنه في معنى الأمر.

﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ جمع ناصر وقد غلب اسم الأنصار على الأوس والخزرج سماهم الله به وليس ذلك المراد هنا.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هذا التشبيه محمول على المعنى لأن ظاهره كونوا أنصار الله كقول عيسى، والمعنى كونوا أنصار الله كما قال الحواريون حين قال لهم عيسى من أنصاري إلى الله وقد ذكر في آل عمران معنى الحواريين وأنصاري إلى الله.

﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ قيل: إنهم ظهروا بالحجة، وقيل: إنهم غلبوا الكفار بالقتال بعد رفع عيسى عليه السلام، وقيل: إن ظهور المؤمنين منهم هو بمحمد صلى الله عليه وسلم.

* * * *

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾

﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ ذكر في الحشر.

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم والأميين هم العرب وقد ذكر معنى الأمي في الأعراف.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطف على الأميين وأراد بهؤلاء فارس، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هؤلاء الآخرون؟ فأخذ بيد سلمان الفارسي وقال: "لو كان العلم بالثريا لناله رجال من هؤلاء"[1]. يعني فارس، وقيل: هم الروم ومنهم على هذين القولين يريد به في البشرية وفي الدين لا في النسب، وقيل: هم أهل اليمن، وقيل: التابعون، وقيل: هم سائر المسلمين والأول أرجح لوروده في الحديث الصحيح.

﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي لم يلحقوا بهم لنفي وسيلحقون وذلك أن لما تنفي الماضي القريب من الحال.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهداية الناس به.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٤٨٩٨) وأغلب روايات الحديث: "لو كان الإيمان". انظر الحديث رقم: (٤٦١٩) والمسند الحديث رقم: (٩٠٣٨).

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ يعني اليهود ومعنى حملوا التوراة كلفوا العمل بها والقيام بأوامرها ونواهيها.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يطيعوا أمرها ولم يعملوا بها فشبههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار على ظهره ولم يدر ما فيها.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني اليهود الذين كذبوا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وهم الذين حملوا التوراة ولم يحملوها لأن التوراة تنطق بنبوته صلى الله عليه وسلم فكل من قرأها ولم يؤمن به فقد خالف التورية.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ ذكر في البقرة.

﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ النداء للصلاة هو الأذان لها و ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ بيان إذا وتفسير له وذكر الله يراد به الخطبة والصلاة ويتعلق بهذه الآية ثمان مسائل:

الأولى: اختلف في الأذان للجمعة: هل هو سنة كالأذان لسائر الصلوات؟ أو واجب لظاهر الآية؛ لأنه شرط في السعي لها أن يكون عند الأذان والسعي واجب فالأذان واجب.

الثانية: كان الأذان للجمعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جدار المسجد، وقيل: على باب المسجد، وقيل: كان بين يديه صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر، وقد كان بنو أمية يأخذون بهذا وبقي بقرطبة زمانا وهو باق في المشرق إلى الآن، قال أبو محمد بن الفرس: قال مالك في المجموعة إن هشام ابن عبد الملك هو الذي أحدث الأذان بين يديه، قال: وهذا دليل على أن الحديث في ذلك ضعيف.

الثالث: كان الأذان للجمعة واحداً ثم زاد عثمان رضي الله عنه النداء على الزوراء ليسمع الناس، واختلف الفقهاء هل المستحب أن يؤذن فيها اثنان أو ثلاثة.

الرابعة: السعي في الآية بمعنى المشي لا بمعنى الجري وقرأ عمر بن الخطاب فامضوا إلى ذكر الله وهذا تفسير للسعي فهو بخلاف السعي في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا نودي للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون"(١).

الخامسة: حضور الجمعة واجب لحمل الأمر الذي في الآية على الوجوب باتفاق، إلا أنها لا تجب على المرأة ولا على الصبي، ولا على المريض باتفاق، ولا على العبد والمسافر عند مالك والجمهور خلافا للظاهرية، وتعلقوا بعموم الآية وحجة الجمهور قول رسول الله صلى الله

---

(١) مسلم الحديث رقم: (٩٤٥) والترمذي الحديث رقم: (٣٠١) والنسائي الحديث رقم: (٨٥٢) وابن ماجة الحديث رقم: (٧٦٧).

عليه وسلم:" الجمعة واجبة على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي، أو مريض". وحجتهم في المسافر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقيم الجمعة في السفر، واختلف هل تسقط الجمعة بسبب المطر أم لا؟ وهل يجوز للعروس التخلف عنها أم لا؟ والمشهور أنها لا تسقط عنهما لعموم الآية.

السادسة: اختلف متى يتعين الإقبال إلى الصلاة فقيل: إذا زالت الشمس، وقيل: إذا أذن المؤذن وهو ظاهر الآية.

السابعة: اختلف في الموضع الذي يجب منه السعي إلى الجمعة فقيل ثلاثة أميال وهو مذهب مالك، وقيل: ستة أميال وقيل: تجب على من كان داخل المصر، وقيل: على من سمع النداء، وقيل: على من آواه الليل إلى أهله.

الثامنة: اختلف في الوالي هل هو من شرط الجمعة أم لا؟ على قولين والمشهور سقوطه؛ لأن الله لم يشترطه في الآية.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أمر بترك البيع يوم الجمعة إذا أخذ المؤذنون في الأذان وذلك على الوجوب فيقتضي تحريم البيع واختلف في البيع الذي يعقد في ذلك الوقت هل يفسخ أم لا؟ واختلف في بيع من لا تلزمهم الجمعة من النساء والعبيد هل يجوز في ذلك الوقت أم لا؟ والأظهر جوازه لأنه إنما منع منه من يدعى إلى الجمعة ويجري النكاح في ذلك الوقت مجرى البيع في المنع.

* * * *

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝﴾

﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذا الأمر للإباحة باتفاق، وحكى الإجماع على ذلك ابن عطية وابن الفرس.

﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ قيل معناه طلب المعاش فالأمر على هذا للإباحة، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" الفضل المبتغى: عيادة مريض، أو صلة صديق، أو اتباع جنازة ". وقيل: هو طلب العلم وإن صح الحديث لم يعدل إلى سواه.

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ سبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائما على المنبر يخطب يوم الجمعة فأقبلت عير من الشام بطعام وصاحب أمرها دحية بن خليفة الكلبي، وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سرورا بها فلما دخلت العير كذلك انفض أهل المسجد إليها وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما على المنبر ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا قال: جابر ابن عبد الله أنا أحدهم، وذكر بعضهم أن منهم العشرة المشهود لهم بالجنة، واختلف في الثاني عشر فقيل: عبد الله مسعود، وقيل، عمار بن ياسر وقيل: إنما بقي معه صلى الله عليه وسلم ثمانية، وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لهؤلاء:" لقد كانت الحجارة سومت في السماء على المنفضين ". وظاهر الآية يقتضي أن الجماعة شرط في الجمعة وهو مذهب مالك والجمهور إلا أنهم اختلفوا في مقدار الجماعة الذين تنعقد بهم الجمعة فقال مالك: ليس في ذلك عدد محدود وإنما هم

جماعة تقوم بهم قرية، وروى ابن الماجشون عن مالك ثلاثون، وقال الشافعي: أربعون، وقال أبو حنيفة: ثلاثة مع الإمام، وقيل: اثني عشر عدد الذين بقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، فإن قيل: لم قال انفضوا إليها بضمير المفرد وقد ذكر التجارة واللهو؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد انفضوا إلى اللهو وانفضوا إلى التجارة ثم حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه قاله الزمخشري.

والآخر: أنه قال ذلك تهمما بالتجارة إذ كانت أهم وكانت هي سبب اللهو ولم يكن سببها قاله ابن عطية.

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ اختلف في القيام في الخطبة هل هو واجب أم لا؟ وإذا قلنا بوجوبه فهل هو شرط فيها أم لا ؟ فمن أوجبه واشترطه أخذ بظاهر الآية من ذكر القيام، ومن لم يوجبه رأى أن ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك لم يكن على الوجوب، ومذهب مالك أن من سنة الخطبة الجلوس قبلها والجلوس بين الخطبتين، وقال أبو حنيفة: لا يجلس بين الخطبتين لظاهر الآية وذكر القيام فيها دون الجلوس، وحجة مالك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ إن قيل: لم قدم اللهو هنا على التجارة، وقدم التجارة قبل هذا على اللهو؟ فالجواب: أن كل واحد من الموضعين جاء على ما ينبغي فيه وذلك أن العرب تارة يبتدئون بالأكثر ثم ينزلون إلى الأقل، كقولك: فلان يخون في الكثير والقليل فبدأت بالكثير ثم أردفت عليه الخيانة فيما دونه، وتارة يبتدئون بالأقل ثم يرتقون إلى الأكثر كقولك: فلان أمين على القليل والكثير فبدأت بالقليل ثم أردفت عليه الأمانة فيما هو أكثر منه، ولو عكس في كل واحد من المثالين لم يكن

حسنا، فإنك لو قدمت في الخيانة ذكر القليل لعلم أنه يخون في الكثير من باب أولى وأحرى، ولو قدمت في الأمانة ذكر الكثير لعلم أنه أمين في القليل من باب أولى وأحرى، فلم يكن لذكره بعد ذلك فائدة، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ قدم التجارة هنا ليبين أنهم ينفضون إليها وأنهم مع ذلك ينفضون إلى اللهو الذي هو دونها وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ قدم اللهو ليبين أن ما عند الله خير من اللهو وأنه أيضا خير من التجارة التي هي أعظم منه ولو عكس كل واحد من الموضعين لم يحسن.

* * * *

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فلذلك كذبهم الله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي كذبوا في دعواهم الشهادة بالرسالة، وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ فليس من كلام المنافقين وإنما هو من كلام الله تعالى ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون إبطال للرسالة فوسطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم ويحقق الرسالة، وعلى هذا ينبغي أن يوقف على قوله: ﴿لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

﴿جُنَّةً﴾ ذكر في المجادلة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ الإشارة إلى سوء عملهم، أو إلى فضيحتهم وتوبيخهم، وأما قوله: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون فيمن آمن منهم أيمانا صحيحا ثم نافق بعد ذلك.

والآخر: أن يريد آمنوا في الظاهر كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ يعني أنهم حسان الصور.

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ يعني أنهم فصحاء الخطاب والضمير في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ﴾ وفي قوله: ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل مخاطب.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ شبههم بالخشب في قلة أفهامهم فكان لهم منظر بلا مخبر، وقال الزمخشري: إنما شبههم بالخشب المسندة إلى حائط لأن الخشب إذا كانت كذلك لم يكن فيها منفعة بخلاف الخشب التي تكون في سقف أو مغروسة في جدار فإن فيها حينئذ منفعة فالتشبيه على هذا في عدم المنفعة، وقيل: كانوا يستندون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فشبههم في استنادهم بالخشب المسندة إلى الحائط.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ عبارة عن شدة خوفهم من المسلمين وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا صياحا ظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بقتلهم.

﴿قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم يتضمن ذمهم وتقبيح أحوالهم.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الإيمان مع ظهوره؟

* * * *

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ
يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ
إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن
ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن
يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ أي أمالوها إعراضا واستكبارا، وقصص هذه الآية وما بعدها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في غزوة بني المصطلق فبلغ الناس إلى ماء ازدحموا عليه فكان ممن ازدحم عليه جهجاه بن سعيد أجير لعمر بن الخطاب، وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، فلطم الجهجاه سنان فغضب سنان ودعا بالأنصار ودعا الجهجاه بالمهاجرين فقال عبد الله بن أبي: والله ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك، ثم قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعز نفسه وأتباعه ويعني بالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه، ثم قال لقومه: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم ولو قطعتم ذلك عنهم لفروا عن مدينتكم، فسمعه زيد بن أرقم فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول فحلف أنه ما قال من ذلك شيئا وكذب زيدا، فنزلت السورة

عند ذلك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زيد وقال: لقد صدقك الله يا زيد، فخزي عبد الله بن أبي ابن سلول ومقته الناس، فقيل له: امض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك فلوى رأسه إنكارا لهذا الرأي، وقال: أمرتموني بالإسلام فأسلمت وأمرتموني بأداء زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني أن أسجد لمحمد. ثم مات عبد الله بن أبي بعد ذلك بقليل وأسندت هذه الأقوال التي قالها عبد الله بن أبي إلى ضمير الجماعة لأنه كان له أتباع من المنافقين يوافقونه عليها.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ روي أنه لما نزلت: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأزيدن على السبعين، فلما فعل عبد الله بن أبي وأصحابه ما فعلوا شدد الله عليهم في هذه السورة وأخبر أنه لا يغفر لهم بوجه، وفي هذا نظر لأن هذه السورة نزلت في غزوة بني المصطلق قبل الآية الأخرى بمدة.

﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تشغلكم وذكر الله هنا على العموم في الصلاة والدعاء والعبادة، وقيل: يعني الصلاة المكتوبة والعموم أولى.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ عموم في الزكاة وصدقة التطوع والنفقة في الجهاد وغير ذلك، وقيل: يعني الزكاة المفروضة والعموم أولى.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالجزم عطف على موضع جواب الشرط، وقرأ أبو عمرو فأكون بالنصب عطف علي فأصدق.

* * * *

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ
ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟
وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ
وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ في تأويل الآية وجهان:

أحدهما: هو الذي خلقكم فكان يجب على كل واحد منكم الإيمان به ولكن منكم من كفر ومنكم من آمن فالكفر والإيمان على هذا هو من اكتساب العبد.

والآخر: أن المعنى هو الذي خلقكم على صنفين فمنكم من خلقه مؤمنا ومنكم من خلقه كافرا، فالإيمان والكفر على هذا هو ما قضى الله على كل أحد، والأول أظهر لأن عطفه على خلقكم بالفاء يقتضي أن الكفر والإيمان واقعان بعد الخلقة لا في أصل الخلقة.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ذكر معناه في مواضع.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ تعديد نعمه في حسن خلقة بني آدم لأنهم أحسن صورة من جميع أنواع الحيوان وإن وجد بعض الناس قبيح المنظر فلا يخرجه ذلك عن حسن الصورة الإنسانية، وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه من الناس، وقيل: يعني العقل والإدراك الذي خص به الإنسان والأول أرجح لأن الصورة إنما تطلق على الشكل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ خطاب لقريش وسائر الكفار.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ معناه أنهم استبعدوا أن يرسل الله بشرا أو تكبروا عن اتباع بشر، والبشر يقع على الواحد والجماعة.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ قال عبد الله بن عمر: زعم كناية عن كذب.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ العامل في يوم: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أو خبر محذوف تقديره اذكر، ويحتمل أن يكون مبتدأ وخبره ذلك يوم التغابن يعني يوم القيامة، والتغابن مستعار من تغابن الناس في التجارة وذلك إذا فاز السعداء بالجنة فكأنهم غبنوا الأشقياء في منازلهم التي كانوا ينزلون منها لو كانوا سعداء فالتغابن على هذا بمعنى الغبن وليس على المتعارف في صيغة تفاعل من كونه بين اثنين كقولك: تضارب وتقاتل، إنما هي فعل واحد كقولك تواضع قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: يعني نزول السعداء منازل الأشقياء ونزول الأشقياء منازل السعداء والتغابن على هذا بين اثنين، قال: وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم في جهنم ليس في الحقيقة بغبن للسعداء.

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد بالمصيبة الرزايا وخصها بالذكر لأنها أهم على الناس أو يريد جميع الحوادث من خير أو شر وبإذن الله عبارة عن قضائه وإرادته تعالى.

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ قيل: معناه من يؤمن بأن كل شيء بإذن الله يهد الله قلبه للتسليم والرضا بقضاء الله وهذا أحسن إلا أن العموم أحسن منه.

﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ سببها أن قوما أسلموا وأرادوا الهجرة فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة فحذرهم الله من طاعتهم في ذلك، وقيل: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وذلك أنه أراد الجهاد فاجتمع أهله وأولاده فشكوا من فراقه فرق لهم ورجع ثم إنه ندم وهم بمعاقبتهم فنزلت الآية محذرة من فتنة الأولاد ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ﴾ الآية، ولفظ الآية مع ذلك على عمومه في التحذير ممن يكون للإنسان عدوا من أهله وأولاده سواء كانت عداوتهم بسبب الدين أو الدنيا.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ ترغيب في الآخرة وتزهيد في الأموال والأولاد التي فتن الناس بها.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ قيل: إن هذا ناسخ لقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ وروي أنه لما نزل حق تقاته شق ذلك على الناس حتى نزل ما استطعتم، وقيل: لا نسخ بينهما لأن حق تقاته معناه فيما استطعتم إذ لا يمكن أن يفعل أحد إلا ما يستطيع، وهذه الآية على هذا مبينة لتلك وتحرز بالاستطاعة من الإكراه والنسيان وما لا يؤاخذ به العبد، وإعراب ما في قوله ما استطعتم ظرفية.

﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ منصوب بإضمار فعل لا يظهر عند سيبويه، وقيل: هو مفعول بأنفقوا لأن الخير بمعنى المال، وقيل: هو نعت لمصدر محذوف تقديره أنفقوا إنفاقا خيرا لأنفسكم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ ذكر في الحشر.

﴿إِن تُقۡرِضُواْ﴾ ذكر في البقرة.

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ذكر في اللغات.

* * * *

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ۝ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إن قيل: لم نودي النبي صلى الله عليه وسلم وحده ثم جاء بعد ذلك خطاب الجماعة؟

فالجواب: أنه لما كان حكم الطلاق يشترك فيه النبي صلى الله عليه وسلم وأمته قيل: إذا طلقتم خطابا له ولهم وخص هو عليه الصلاة والسلام بالنداء أولاً تعظيما له كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم يا فلان افعلوا أي افعل أنت وقومك، ولأنه عليه الصلاة والسلام هو المبلغ لأمته فكأنه قال يأيها النبي إذا طلقت أنت وأمتك، وقيل: تقديره يأيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم وهذا ضعيف لأنه يقتضي أن هذا الحكم مختص بأمته دونه، وقيل: إنه خوطب النبي صلى الله عليه وسلم بطلقتم تعظيما له كما تقول للرجل المعظم أنتم فعلتم وهذا أيضا ضعيف لأنه يقتضي اختصاصه عليه الصلاة والسلام بالحكم دون أمته، ومعنى إذا طلقتم هنا إذا أردتم الطلاق واختلف

في الطلاق هل هو مباح أو مكروه فأما إن كان على غير وجه السنة فهو ممنوع ولكن يلزم وأما اليمين بالطلاق فممنوع.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ تقديره طلقوهن مستقبلات لعدتهن ولذلك قرأ عثمان وابن عباس وأبي بن كعب فطلقوهن في قبل عدتهن وقرأ ابن عمر لقبل عدتهن ورويت القراءتان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى ذلك كله لا يطلقها وهي حائض فهو منهي عنه بإجماع لأنه إذا فعل ذلك لم يقع طلاقه في الحال التي أمر الله بها وهو استقبال العدة، واختلف في النهي عن الطلاق في الحيض هل هو معلل بتطويل العدة أو هو تعبد؟ والصحيح أنه معلل بذلك، وينبني على هذا الخلاف فروع منها: هل يجوز إذا رضيت به المرأة أم لا؟ ومنها: هل يجوز طلاقها في الحيض وهي حامل أم لا؟ ومنها: هل يجوز طلاقها قبل الدخول وهي حائض أم لا؟ فالتعليل بتطويل العدة يقتضي جواز هذه الفروع والتعبد يقتضي المنع ومن طلق في الحيض لزمه الطلاق ثم يؤمر بالرجعة على وجه الإجبار عند مالك، وبدون إجبار عند الشافعي حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء طلق وإن شاء أمسك حسبما ورد في حديث ابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له: "مره فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فإن شاء طلق وإن شاء أمسك"[1]. واشترط مالك أن يطلقها في طهر لم يمسها فيه لتعتد بذلك الطهر فإنه إن طلقها في طهر بعد أن جامعها فيه فلا تدري هل تعتد بالوضع أو بالإقراء؟ فليس طلاقا لعدتها كما أمر الله.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أمر بذلك لما ينبني عليها من الأحكام في الرجعة والسكنى والميراث وغير ذلك.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٥٢٥١) ومسلم الحديث رقم: (٢٦٧٥) وسنن أبي داود، الحديث رقم: (١٨٦٤) والترمذي الحديث رقم: (١٠٩٦).

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ نهى الله سبحانه وتعالى أن يخرج الرجل المرأة المطلقة من المسكن الذي طلقها فيه ونهاها هي أن تخرج باختيارها فلا يجوز لها المبيت خارجا عن بيتها ولا أن تغيب عنه نهارا إلا لضرورة التصرف وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة فإن كان المسكن ملكا للزوج أو مكترى عنده لزمه إسكانها فيه، وإن كان المسكن لها فعليه كراؤه مدة العدة، وإن كانت قد أمتعته فيه مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب والصحيح لزومه لأن الإمتاع قد انقطع بالطلاق.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ اختلف في هذه الفاحشة التي أباحت خروج المعتدة ما هي على خمسة أقوال:

الأول: أنها الزنا فتخرج لإقامة الحد قاله الليث بن سعد والشعبي.

الثاني: أنه سوء الكلام مع الأصهار فتخرج ويسقط حقها من السكنى ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظا للنسب قاله ابن عباس ويؤيده قراءة أبي بن كعب إلا أن يفحشن عليكم.

الثالث: أنه جميع المعاصي من القذف والزنا والسرقة وغير ذلك فمتى فعلت شيئا من ذلك سقط حقها في السكنى قاله ابن عباس أيضا وإليه مال الطبري.

الرابع: أنه الخروج عن بيتها خروج انتقال فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكنى قاله ابن الفرس، وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في العدة.

الخامس: أنه النشوز قبل الطلاق فإذا طلقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكنى قاله قتادة.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ المراد به الرجعة عند الجمهور أي أحصوا العدة وامتثلوا ما أمرتم به لعل الله يحدث الرجعة لنسائكم، وقيل المعنى: لعل الله يحدث أمراً من نسخ هذه الأحكام وهذا بعيد، وقيل: إن سبب الرجعة المذكورة في الآية تطليق النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة بنت عمر فأمره الله بمراجعتها.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يريد آخر العدة، والإمساك بمعروف: هو تحسين العشرة وتوفية النفقة، والفراق بالمعروف: هو أداء الصداق والإمتاع حين الطلاق والوفاء بالشروط ونحو ذلك.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ هذا خطاب للأزواج، والمأمور به هو الإشهاد على الرجعة عند الجمهور وقد اختلف فيه هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين في المذهب، وقال ابن عباس: هو الشهادة على الطلاق وعلى الرجعة، وهذا أظهر لأن الإشهاد به يرفع الإشكال والنزاع ولا فرق في هذا بين الرجعة والطلاق وقد ذكرنا العدالة في البقرة وقوله: ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾يدل على أنه إنما يشهد في الطلاق والنكاح الرجال دون النساء وهو مذهب مالك خلافا لمن أجاز شهادة النساء في ذلك، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعني من المسلمين، وقيل: من الأحرار فيؤخذ من ذلك رد شهادة العبيد وهو مذهب مالك.

﴿وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ هذا خطاب للشهود وإقامة الشهادة يحتمل أن يريد بها القيام بها فإذا استشهد وجب عليه أن يشهد وهو فرض كفاية وإلى هذا المعنى أشار ابن الفرس، ويحتمل أن يريد إقامتها بالحق دون ميل ولا

غرض وبهذا فسره الزمخشري وهو أظهر لقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ وهو كقولـه: ﴿كُونُوا قَوَّمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأحكام.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ قيل: إنها في الطلاق ومعناهـا مـن يتـق الله فيطلق طلقة واحدة حسبما تقتضيه السنة يجعل له مخرجا بجواز الرجعة متى قدم على الطلاق، وفي هذا المعنى روي عن ابن عباس أنه قـال لمـن طلـق ثلاثا: إنك لم تتق الله فبانت منك امرأتك ولا أرى لك مخرجا. أي لا رجعة لك، وقيل: إنها على العموم أي من يتـق الله في أقوالـه وأفعالـه يجعـل لـه مخرجا من كرب الدنيا والآخرة وقد روي هذا أيضا عـن ابـن عبـاس وهـذا أرجح لخمسة أوجه:

أحدها: حمل اللفظ على عمومه فيدخل في ذلك الطلاق وغيره.

الثاني: أنه روي أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وذلك أنـه أسـر ولده وضيق عليه رزقه فشكى ذلـك إلى رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم فأمره بالتقوى فلم يلبث إلا يسيرا وانطلق ولده ووسع الله رزقه.

والثالث: أنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأهـا فقـال:" مخرجا من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة".

والرابع: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إني لأعلم آية لـو أخذ الناس بها لكفتـهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ الآيـة فمـا زال يقرؤهـا ويعيدها".

الخامس: قوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فإن هذا لا يناسب الطلاق وإنما يناسب التقوى على العموم، قال بعض العلماء: الرزق على نوعين رزق مضمون لكل حي طول عمره وهو الغذاء الذي تقوم به الحياة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ورزق موعود للمتقين خاصة وهو المذكور في هذه الآية.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي كافيه بحيث لا يحتاج معه إلى غيره وقد تكلمنا على التوكل في آل عمران.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء هذا حض على التوكل وتأكيد له لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله توكل عليه وحده ولم يعول على سواه.

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي مقدارا معلوما ووقتا محدودا.

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ روي أنه لما نزل قوله والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء قالوا: يا رسول الله فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر؟ فنزلت هذه الآية معلمة أن المطلقة إذا كانت ممن لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر فقوله: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾ يعني التي انقطعت حيضتها لكبر سنها وقوله: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يعني الصغيرة التي لم تبلغ المحيض وهو معطوف على اللائي يئسن أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره واللائي لم يحضن كذلك وقوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ هو من الريب بمعنى الشك وفي معناه قولان:

أحدهما: إن ارتبتم في حكم عدتها فاعلموا أنها ثلاثة أشهر.

والآخر: إن ارتبتم في حيضها هل انقطع أو لم ينقطع فهي على التأويل الأول في التي انقطعت حيضتها لكبر سنها حسبما ذكرنا وهو الصحيح وهي على التأويل الثاني في المرتابة وهي التي غابت عنها الحيضة وهي في سن من تحيض وقد اختلف العلماء في عدتها على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ثلاثة أشهر خاصة حسبما تقتضيه الآية على هذا التأويل.

والآخر: أنها ثلاثة أشهر بعد تسعة أشهر تستبرئ بها أمد الحمل وهذا مذهب مالك وقدوته في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والثالث: أنها تعتد بالإقراء ولو بقيت ثلاثين سنة حتى تبلغ سن من لا تحيض وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ هذه الآية عند مالك والشافعي وأبي حنيفة وسائر العلماء عامة في المطلقات والمتوفى عنهن فمتى كانت إحداهن حاملا فعدتها وضع حملها، وقال علي بن أبي طالب وابن عباس: إنما هذه الآية في المطلقات الحوامل فهن اللاتي عدتهن وضع حملهن، وأما المتوفى عنها، إذا كانت حاملا فعدتها عندهما أبعد الأجلين إما الوضع أو انقضاء الأربعة الأشهر وعشرا، فحجة الجمهور حديث سبيعة الأسلمية أنها كانت زوجا لسعد بن خولة فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حبلى، فلما وضعت خطبها أبو السنابل بن بعكك، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: " انكحي من شئت "[1].

وقد ذكر أن ابن عباس رجع إلى هذا الحديث لما بلغه، ولو بلغ عليا رضي الله عنه لرجع إليه، وقال عبد الله بن مسعود: إن هذه الآية التي نزلت

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٣٩٠٩) والنسائي الحديث رقم: (٣٤٥٣).

في سورة النساء القصرى، يعني سـورة الطـلاق نزلـت بعـد الآيـة الـتي في البقــرة: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فهي مخصصة لها حسبما قاله جمهور العلماء.

* * * *

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أمر الله بإسكان المطلقة طول العدة، فأما المطلقة غير المبتوتة فيجب لها على زوجها السكنى والنفقة باتفاق، وأما المبتوتة ففيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يجب لها السكنى دون النفقة وهو مذهب مالك والشافعي.

والثاني: يجب لها السكنى والنفقة وهو مذهب أبي حنيفة.

والثالث: أنها ليس لها سكنى ولا نفقة، فحجة مالك حديث فاطمة بنت قيس وهو أن زوجها طلقها البتة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس لك عليه نفقة". فيؤخذ من هذا أن لها السكنى دون النفقة، وحجة من أوجب لها السكنى والنفقة قول عمر بن الخطاب: لا ندع آية من كتاب ربنا لقول امرأة، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول:" لها السكنى والنفقة ". وحجة من لم يجعل لها لا سكنى ولا نفقة أن في بعض

الروايات عنها أنها قالت:" لم يجعل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سكنى". وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ معناه أسكنوهن مكانا من بعض مساكنكم فمن للتبعيض ويفسر ذلك قول قتادة: لو لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه.

﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ الوجد: هو الطاقة والسعة في المال، فالمعنى أسكنوهن مسكنا مما تقدرون عليه وإعرابه عطف بيان لقوله: ﴿حَيْثُ سَكَنتُم﴾ ويجوز في الوجد ضم الواو وفتحها وكسرها وهو بمعنى واحد والضم أكثر وأشهر.

﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ اتفق العلماء على وجوب النفقة في العدة للمطلقة الحامل عملا بهذه الآية سواء كان الطلاق رجعيا أو بائنا واتفقوا على أن للمطلقة غير الحامل النفقة في العدة إذا كان الطلاق رجعيا فإن كان بائنا فاختلفوا في نفقتها حسبما ذكرناه، وأما المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملا فلا نفقة لها عند مالك والجمهور، لأنهم رأوا أن هذه الآية إنما هي في المطلقات، وقال قوم: لها النفقة في التركة.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المعنى إن أرضع هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم فآتوهن أجرة الرضاع وهي النفقة وسائر المؤن حسبما ذكر في كتب الفقه.

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ هذا خطاب للرجال والنساء والمعنى أن يأمر كل واحد صاحبه بخير من المسامحة والرفق والإحسان، وقيل: معنى ائتمروا تشاوروا ومنه إن الملأ يأتمرون بك.

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ المعنى إن تشططت الأم على الأب في أجرة الرضاع وطلبت منه كثيرا فللأب أن يسترضع لولده امرأة أخرى بما هو أرفق له إلا أن لا يقبل الطفل غير ثدي أمه فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثلها ومثل الزوج.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أمر بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله ولا يكلف الزوج ما لا يطيق ولا تضيع الزوجة بل يكون الحال معتدلا وفي الآية دليل على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس وهو مذهب مالك خلافا لأبي حنيفة فإنه اعتبر الكفاية، ومن عجز عن نفقة امرأته فمذهب مالك والشافعي أنها تطلق عليه خلافا لأبي حنيفة وإن عجز عن الكسوة دون النفقة ففي التطليق عليه قولان في المذهب.

﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي حاسبنا أهلها، قيل: يعني الحساب في الآخرة وكذلك العذاب المذكور بعده، وقيل: يعني في الدنيا وهذا أرجح لأنه ذكر عذاب الآخرة بعد ذلك في قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أو لأن قوله حاسبناها وعذبناها بلفظ الماضي فهو حقيقة فيما وقع مجاز فيما لم يقع فمعنى حاسبناها أي آخذناهم بجميع ذنوبهم ولم يغتفر لهم شيء من صغائرها والعذاب هو عقابهم في الدنيا والنكر هو الشديد الذي لم يعهد مثله.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا﴾ الذكر هنا هو القرآن والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم وإعراب رسولا مفعول بفعل مضمر تقديره أرسل رسولا وهذا الذي اختاره ابن عطية وهو أظهر الأقوال، وقيل: إن الذكر والرسول معا يراد بهما القرآن والرسول على هذا بمعنى الرسالة، وقيل:

إنهما يراد بهما القرآن على حذف مضاف تقديره ذكرا ذا رسول، وقيل: يراد بهما النبي صلى الله عليه وسلم والذكر من أسمائه وهذا ضعيف، وقيل: رسولا مفعول بالمصدر الذي هو الذكر، وقال الزمخشري: الرسول هو جبريل بدل من الذكر لأنه نزل به أو سمي ذكرا لكثرة ذكره لله وهذا كله بعيد.

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لا خلاف أن السموات سبع وأما الأرض فاختلف فيها فقيل: إنها سبع أرضين لظاهر هذه الآية ولقوله صلى الله عليه وسلم:" من غصب شبرا من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين" [1] وقيل: إنما هي واحدة فقوله مثلهن على القول الأول يعني به المماثلة في العدد وعلى القول الثاني يعني به المماثلة في عظم الجرم وكثرة العمار وغير ذلك والأول أرجح.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يحتمل أن يريد بالأمر الوحي أو أحكام الله وتقديره لخلقه.

❊ ❊ ❊ ❊

(١) لفظ الحديث (من ظلم) البخاري الحديث رقم: (٢٤٥٣) ومسلم الحديث رقم: (٣٠٢٥) والمسند الحديث رقم: (٢٣٢١٧).

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ في سبب نزولها روايتان:

أحدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يوما إلى بيت زوجه حفصة بنت عمر بن الخطاب فوجدها قد مرت لزيارة أبيها فبعث إلى جاريته مارية فجامعها في البيت فجاءت حفصة فقالت: يا رسول الله ما كان في نسائك أهون عليك مني أتفعل هذا في بيتي وعلى فراشي؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مترضيا لها: أيرضيك أن أحرمها؟ قالت: نعم، فقال: إني قد حرمتها.

والرواية الأخرى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا فاتفقت عائشة وحفصة وسودة بنت زمعة على أن تقول له من دنا منها أكلت مغافير، والمغافير: صمغ العرفط وهو حلو كريه الريح، ففعلن ذلك فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: لا ولكني شربت عسلا، فقلن له: جرست نحله العرفط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أشربه أبدا. ـ وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة ـ فدخل بعد ذلك على زينب فقالت: ألا أسقيك من ذلك العسل؟ فقال: لا حاجة لي به. فنزلت الآية عتابا له على أن يضيق على نفسه بتحريم الجارية أو تحريم العسل، والرواية الأولى أشهر وعليها تكلم الناس في فقه السورة، وقد خرج الرواية الثانية البخاري وغيره ولنتكلم على فقه التحريم، فأما تحريم الطعام والمال وسائر الأشياء ما عدا النساء فلا يلزم ولا شيء عليه فيه عند مالك وأوجب عليه أبو حنيفة الكفارة، وأما تحريم الأمة فإن نوى به العتق لزم وإن لم ينو به ذلك لم يلزم وكان حكمه ما ذكرنا في الطعام، وأما تحريم الزوجة فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة فقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وغيرهم: إنما يلزم فيه كفارة يمين، وقال مالك في المشهور عنه: ثلاث تطليقات في المدخول بها وينوي في غير المدخول بها فيحكم بما نوى من طلقه أو اثنتين أو ثلاث، وقال ابن الماجشون: هي ثلاث في الوجهين، وروي عن مالك أنها طلقة بائنة، وقيل:طلقة رجعية.

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية، وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في هذا إشارة إلى أن الله غفر له ما عاتبه عليه من التحريم على أن عتابه في ذلك إنما كان كرامة له وإنما وقع العتاب على تضييقه عليه السلام على نفسه وامتناعه مما كان له فيه أرب، وبئس ما قال

الزمخشري في أن هذا كان منه زلة لأنه حرم ما أحل الله وذلك قلة أدب على منصب النبوة.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ التحلة: هي الكفارة وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورة المائدة من صفتها، واختلف في المراد بها هنا فأما على قول من قال إن الآية نزلت في تحريم الجارية فاختلف في ذلك فمن قال إن التحريم يلزم فيه كفارة يمين استدل بها ومن قال إن التحريم يلزم فيه طلاق قال إن الكفارة هنا إنما هي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف وقال: "والله لا أطؤها أبدا ". وأما على القول بأن الآية نزلت في تحريم العسل فاختلف أيضا فمن أوجب في تحريم الطعام كفارة قال هذه الكفارة للتحريم، ومن قال: لا كفارة فيه قال إنما هذه الكفارة لأنه حلف ألا يشربه، وقيل: هي في يمينه عليه السلام أن لا يدخل على نسائه شهرا.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يحتمل أن يكون المولى بمعنى الناصر أو بمعنى السيد الأعظم.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ اختلف في هذا الحديث على ثلاثة أقوال:

أحدها:أنه تحريم الجارية فإنه لما حرمها قال لحفصة: لا تخبري بذلك أحدا.

والآخر:أنه قال إن أبا بكر وعمر يليان الأمر من بعده.

والثالث:أنه قوله شربت عسلا. والأول أشهر، وبعض أزواجه هي حفصة.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ كانت حفصة قد أخبرت عائشة بما أسر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم الجارية فأخبر الله رسوله عليه السلام بذلك فعاقب حفصة على إفشائها لسره فطلقها ثم أمره الله بمراجعتها فراجعها، وقيل: لم يطلقها فقوله فلما نبأت به حذف المفعول وهو عائشة وقوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أطلعه على إخبارها به، وقيل: معناه أظهره الله عليه الحديث من الظهور، وقوله عرف بعضه أي عاتب حفصة على بعضه وأعرض عن بعض حياء وتكريما فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات والتقصير في العتاب وقرئ عرف بالتخفيف من المعرفة.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بأنها قد أفشت سره ظنت بأن عائشة هي التي أخبرته، فقالت له من أنبأك هذا؟ فلما أخبرها أن الله هو الذي أنبأه سكتت وسلمت.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ هذا خطاب لعائشة وحفصة وتوبتهما مما جرى منهما في قصة تحريم الجارية أو العسل، ومعنى صغت أي مالت عن الصواب وقرأ ابن مسعود: ﴿ زاغت﴾ والمعنى إن تتوبا إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ المعنى إن تعاونتما عليه صلى الله عليه وسلم بما يسوؤه من إفراط الغيرة وإفشاء سره ونحو ذلك فإن له من ينصره ومولاه هنا يحتمل أن يكون بمعنى السيد الأعظم فيوقف على مولاه ويكون جبريل مبتدأ وظهير خبره وخبر ما عطف عليه، ويحتمل أن يكون المولى هنا بمعنى الولي الناصر فيكون جبريل معطوف فيوصل مع ما قبله

ويوقف على صالح المؤمنين ويكون الملائكة مبتدأ أو ظهير خبره وهذا أظهر وأرجح لوجهين:

أحدهما: أن معنى الناصر أليق بهذا الموضع فإن ذلك كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم وتشريفا له وأما إذا كان بمعنى السيد فذلك يشترك فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع غيره لأن الله تعالى مولى جميع خلقه بهذا المعنى فليس في ذلك إظهار مزية له.

الوجه الثاني: أنه ورد في الحديث الصحيح: أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل معك وأبو بكر معك وأنا معك فنزلت الآية موافقة لقول عمر فقوله يقتضي معنى النصرة.

﴿وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اختلف في صالح هل هو مفرد أو جمع محذوف النون للإضافة فعلى القول بأنه مفرد هو أبو بكر الصديق وقيل: علي بن أبي طالب، وعلى القول بأنه جمع فهو على العموم في كل صالح.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية نصرة للنبي صلى الله عليه وسلم، وروي أن عمر قال ذلك ونزل القرآن بموافقته، ولقد قال عمر حينئذ للنبي صلى الله عليه وسلم: والله يا رسول الله لئن أمرتني بضرب عنق حفصة لضربت عنقها. وقد ذكرنا معنى الإسلام والإيمان والقنوت، والسائحات معناه الصائمات، قاله ابن عباس وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: معناه مهاجرات، وقيل: ذاهبات إلى الله، لأن أصل السياحة الذهاب في الأرض، وقوله: ﴿ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ قال بعضهم المراد بالأبكار هنا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون فإن الله يزوج النبي صلى الله عليه وسلم إياهما في الجنة وهذا يفتقر إلى نقل صحيح، ودخلت الواو هنا للتقسيم ولو

سقطت لاختل المعنى لأن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان وقال الكوفيون: هي واو الثمانية وذلك ضعيف.

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي أطيعوا الله وأمروا أهلكم بطاعته لتقوا أنفسكم وأهليكم بطاعته من النار، فعبر بالمسبب وهو وقاية النار عن السبب وهو الطاعة.

﴿وَقُودُهَا﴾ ذكر في البقرة.

﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ يعني زبانية النار وغلظهم وشدتهم يحتمل أن يريد في أجرامهم وفي قساوة قلوبهم.

﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ قيل: إن هذا تأكيد لقوله لا يعصون الله، وقيل: إن معنى لا يعصون امتثال الأمر ومعنى يفعلون ما يؤمرون جدهم ونشاطهم فيما يؤمرون به من عذاب الناس.

* * * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝﴾

﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني يوم القيامة ويحتمل أن يكون هذا خطاب من الله للكفار أو خطاب من الملائكة.

﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ قال عمر بن الخطاب: التوبة النصوح هي أن تتوب من الذنب ثم لا تعود إليه أبدا ولا تريد أن تعود، وقيل: معناه توبة خالصة فهو من قولهم عسل ناصح إذا خلص من الشمع، وقيل: هو أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت كتوبة الثلاثة الذين خلفوا، قال الزمخشري: وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي والنصح في الحقيقة صفة التائبين وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم وقد تكلمنا على التوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ في النور.

﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ العامل في يوم يحتمل أن يكون ما قبله أو ما بعده أو محذوف تقديره اذكر، والوقف والابتداء يختلف على ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحتمل أن يكون معطوفا على النبيء، أو مبتدأ وخبره بعده.

﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ﴾ ذكر في الحديد.

﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ ذكر في براءة.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ
﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى
ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ
أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ
ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ قيل: اسم امرأة نوح والعة، واسم امرأة لوط والهة، وهذا يفتقر إلى صحة نقل.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال ابن عباس: خيانة امرأة نوح في أنها كانت تقول إنه مجنون، وخيانة امرأة لوط بأنها كانت تخبر قومه بأضيافه إذا قدموا عليه وكانتا مع ذلك كافرتين، وقيل:خانتا بالزنا، وأنكر ابن عباس ذلك وقال: ما زنت امرأة نبي قط. تنزيها من الله لهم عن هذا النقص، وضرب الله المثل بهاتين المرأتين للكفار الذين بينهم وبين الأنبياء وسائل كأنه يقول: لا يغني أحد عن أحد ولو كان أقرب الناس إليه كقرب امرأة نوح وامرأة لوط من أزواجهما، وقيل: هذا مثال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكر في أول السورة وهذا باطل لأن الله إنما ضربه للذين كفروا وامرأة فرعون اسمها آسية وكانت قد آمنت بموسى عليه السلام فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها فدعت بهذا الدعاء فقبض الله روحها، وروي في قصصها غير هذا مما يطول وهو غير صحيح.

﴿مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ تعني كفره وظلمه، وقيل: مضاجعته لها وهذا ضعيف.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني الفرج الذي هو الجارحة، وإحصانها له هو صيانتها وعفتها عن كل مكروه، وقيل: يعني فرج درعها وهذا ضعيف.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ عبارة عن نفخ جبريل في فرجها فخلق الله فيه عيسى عليه السلام وأضاف الله الروح إلى نفسه إضافة مخلوق إلى خالقه وفي ذلك تشريف له.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ كلمات ربها يحتمل أن يريد بها الكتب التي أنزل الله أو كلامه مع الملائكة وغيرهم وكتابه بالإفراد يحتمل أن يريد به التوراة أو الإنجيل أو جنس الكتب وقرئ بالجمع يعني كتب الله.

﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي من العابدين فإن قيل: لم قال من القانتين بجمع المذكر وهي أنثى؟ فالجواب: أن القنوت صفة تجمع الرجال والنساء فغلب الذكور.

* * * *

سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝﴾

ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان يقرأ هذه السورة كل ليلة إذا أخذ مضجعه". وأنه عليه الصلاة والسلام قال: "إنها تنجي من عذاب القبر" (1).

﴿تَبَٰرَكَ﴾ فعل مشتق من البركة، وقيل: معناه تعاظم، وهو مختص بالله تعالى ولم ينطق له بمضارع .

﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ يعني ملك السموات والأرض والدنيا والآخرة، وقيل: يعني ملك الملوك في الدنيا فهو كقوله مالك الملك والأول أعم وأعظم.

﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ يعني موت الخلق وحياتهم، وقيل: الموت الدنيا لأن أهلها يموتون، والحياة الآخرة لأنها باقية فهو كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ وهو على هذا وصف بالمصدر والأول أظهر .

---

(1) المستدرك على الصحيحين (٢٥٤) وانظر ابن كثير ١٧٤/٨ وسنن الترمذي الحديث رقم: (٢٨٩٢).

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليختبركم واختبار الله لعباده إنما هو لتقوم عليهم الحجة بما يصدر منهم وقد كان الله علم ما يفعلون قبل كونه، والمعنى ليبلوكم فيجازيكم بما ظهر منكم.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها فقال: أيكم أحسن عملا وأشدكم لله خوفا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله.

﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي بعضها فوق بعض، والطباق مصدر وصفت به السموات أو على حذف مضاف تقديره ذوات طباق، وقيل: إنه جمع طبقة.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي من قلة تناسب وخروج عن الإتقان والمعنى أن خلقة السموات في غاية الإتقان بحيث ليس فيها ما يعيبها من الزيادة والنقصان والاختلاف، وقيل: أراد خلقه جميع المخلوقات ولا شك أن جميع المخلوقات متقنة ولكن تخصيص الآية بخلقة السموات أظهر لورودها بعد قوله: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ فكأن قوله ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت بيان وتكميل لِما قبله، والخطاب في قوله ما ترى وارجع البصر وما بعده للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب ليعتبر.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ الفطور: الشقوق جمع فطر وهو الشق، وإرجاع البصر: ترديده في النظر، ومعنى الآية: الأمر بالنظر إلى السماء فلا يرى فيها شقاق ولا خلل بل هي ملتئمة مستوية.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي انظر نظرا بعد نظر للتثبت والتحقق وقال الزمخشري: معنى التثنية في كرتين التكثير لا مرتين خاصة كقولهم لبيك فإن معناه إجابات كثيرة.

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الخاسئ: هو المبعد عن الشيء الذي طلبه، والحسير: هو الكليل الذي أدركه التعب، فمعنى الآية أنك إذا نظرت إلى السماء مرة بعد مرة لترى فيها شقاقا أو خللا رجع بصرك ولم تر شيئا من ذلك فكأنه خاسئ لأنه لم يحصل له ما طلب من رؤية الشقاق والخلل وهو مع ذلك كليل من شدة النظر وكثرة التأمل.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ السماء الدنيا هي القريبة منا، والمصابيح يراد بها النجوم فإن كانت النجوم كلها في السماء الدنيا فلا إشكال وإن كانت في غيرها من السموات فقد زينت السماء الدنيا لأنها ظاهرة فيها لنا ويحتمل أن يريد أنه زين السماء الدنيا بالنجوم التي فيها دون التي في غيرها، على أن القول بموضع الكواكب وفي أي سماء هي لم يرد في الشريعة .

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي جعلنا منها رجوما لأن الكواكب الثابتة ليست ترجم الشياطين فهو كقولك أكرمت بني فلان إذا أكرمت بعضهم والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمي به ما يرجم به قال الزمخشري: معنى كون النجوم رجوما للشياطين والشهب تنقض من النجوم لرجم الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء فالشهب الراجمة منفصلة من نار الكواكب لا أن الراجمة هي الكواكب أنفسها لأنها ثابتة في الفلك، قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: زينة السماء، ورجوم الشياطين، وليهتدى بها في ظلمات البر والبحر .

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني للشياطين .

❁ ❁ ❁ ❁

إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ
أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ
كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا
لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ
قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي
ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ
حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى
ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾ الشهيق: أقبح ما يكون من صوت الحمار، ويعني به هنا ما يسمع من صوت جهنم لشدة غليانها وهولها أو شهيق أهلها والأول أظهر.

﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي تغلي بأهلها غليان القدر بما فيها.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ أي تكاد جهنم ينفصل بعضها من بعض لشدة غيظها على الكفار فيحتمل أن تكون هي المغتاظة بنفسها ويحتمل أن يريد غيظ الزبانية والأول أظهر لأن حال الزبانية يذكر بعد هذا وغيظ النار يحتمل أن يكون حقيقة بإدراك يخلقه الله لها أو يكون عبارة عن شدتها.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾ أي كلما ألقي في جهنم جماعة من الكفار سألتهم الزبانية هل جاءكم من نذير أي رسول، وهذا السؤال على وجه التوبيخ وإقامة الحجة عليهم، ولذلك اعترفوا فقالوا بلى قد جاءنا نذير وقوله: ﴿كُلَّمَآ﴾ يقتضي أن يقال ذلك لكل جماعة تلقى في النار .

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول ملائكة النار للكفار، أو من قول الكفار للرسل في الدنيا.

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير للكفار أي لو كنا نسمع كلام الرسل ونعقل الصواب ما كنا في أصحاب السعير .

﴿فَٱعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ﴾ اعترافهم هذا في وقت لا ينفعهم الاعتراف وذنبهم هنا يراد به تكذيب الرسل .

﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ انتصب فسحقا بفعل مضمر على معنى الدعاء عليهم .

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه وهم غائبون عن الناس ففي ذلك وصف لهم بالإخلاص.

والآخر: أن الغيب ما غاب عنهم من أمور الآخرة وغيرها على أن هذا القول إنما يحسن في قوله يؤمنون بالغيب.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦ﴾ المعنى سواء جهرتم أو أسررتم فإن الله يعلم الجهر والسر.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ هذا برهان على أن الله تعالى يعلم كل شيء لأن الخالق يعلم مخلوقاته، ويحتمل أن يكون من خلق فاعلا يراد به الخالق والمفعول محذوف تقديره ألا يعلم الخالق خلقه أو يكون من خلق مفعولا والفاعل مضمر تقديره ألا يعلم الله من خل والأول أرجح لأن من خلق إذا كان مفعولا اختص بمن يعقل والمعنى الأول يعم من يعقل ومن لا يعقل .

﴿ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ فعول هنا بمعنى مفعول أي مذلولة، فهي كركوب وحلوب.

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ قال ابن عباس: هي الجبال، وقيل: الجوانب والنواحي، وقيل: الطرق، والمعنى تعديد النعمة في تسهيل المشي على الأرض، فاستعار لها الذل والمناكب تشبيها بالدواب .

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يعني البعث يوم القيامة .

﴿ءَأَمِنتُم﴾ الآية: مقصودها التهديد والتخويف للكفار وكذلك الآية التي بعدها.

﴿تَمُورُ﴾ ذكر في الطور.

﴿حَاصِبًا﴾ يحتمل أن يريد حجارة أو ريحا شديدة.

﴿نَذِيرِ﴾ بمعنى الإنذار وكذلك النكير بمعنى الإنكار.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ تنبيه على الاعتبار بطيران الطيور في الهواء من غير شيء يمسكها، وصافات جمع صافة: وهي التي تبسط جناحها للطيران، والقبض ضم الجناحين إلى الجنب، وعطف يقبض على صافات لأن الفعل في معنى الاسم تقديره قابضات، فإن قيل: لم لم يقل قابضات على طريقة صافات؟ فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران كما أن مد الأطراف هو الأصل في السباحة فذكر بصيغة اسم الفاعل لدوامه وكثرته وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلا للاستراحة والاستعانة فذكر بلفظ الفعل لقلته .

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ خطاب للكفار على وجه التوبيخ والتهديد وإقامة الحجة عليهم ودخلت أم التي يراد بها الإنكار على من فأدغمت فيها، وكذلك أمن هذا الذي يرزقكم، والضمير في أمسك لله أي من يرزقكم إن منع الله رزقه .

﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي تمادوا في العتو والنفور عن الإيمان .

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ الآية توقيف على الحالتين أيهما أهدى والمراد بها توبيخ الكفار وفي معناها قولان:

أحدهما: أن المشي هنا استعارة في سلوك طريق الهدى والضلال في الدنيا.

والآخر: أنه حقيقة في المشي في الآخرة لأن الكافر يحمل على المشي إلى جهنم على وجهه فأما على القول الأول فقيل: إن الذي يمشي مكبا أبو جهل والذي يمشي سويا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: حمزة

وقيل: هي على العموم في كل مؤمن وكافر، وقد تمشي هذه الأقوال أيضا على الثاني، والمكب: هو الذي يقع على وجهه يقال أكب الرجل وكبه غيره فالمعدى دون همزة والقاصر بالهمزة بخلاف سائر الأفعال .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الضمير للكفار والوعد يراد به البعث أو عذابهم في الدنيا .

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ ضمير الفاعل للكفار وضمير المفعول للعذاب الذي يتضمنه الوعد.

﴿زُلْفَةً﴾ أي قريبا، وقيل: عيانا .

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ظهر فيها السوء لما حل بها .

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء أي تطلبون وتستعجلون به والقائلون لذلك الملائكة أو يقال لهم بلسان الحال .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ الآية سببها أن الكفار كانوا يتمنون هلاك النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فأمره الله أن يقول لهم إن أهلكني الله وأهلك من معي أو رحمنا فإنكم لا تنجون من العذاب الأليم على كل حال والهلاك هنا يحتمل أن يراد به الموت أو غيره، ومعنى من يجير الكافرين من عذاب أليم من يمنعهم من العذاب .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ الآية احتجاج على المشركين والغور مصدر وصف به فهو بمعنى غاير أي ذاهب في الأرض والمعين الكثير، واختلف هل وزنه فعيل أو مفعول، فالمعنى إن غار ماؤكم الذي تشربون هل يأتيكم غير الله بماء معين .

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

﴿نٓ﴾ حرف من حروف الهجاء وقد تقدم الكلام عليها في البقرة ويختص بأنه قيل: إنه حرف من الرحمن، فإن حروف الرحمن ألف ولام وراء وحاء وميم ون، وقيل: إن نون هنا يراد به الحوت وزعموا أنه الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع وهذا لا يصح، على أن نون بمعنى الحوت معروف في اللغة ومنه ذو النون، وقيل: إن نون هنا يراد به الدواة وهذا غير معروف في اللغة، ويبطل قول من قال إنه الحوت أو الدواة بأنه لو كان كذلك لكان معربا بالرفع أو النصب أو الخفض ولكان في آخره تنوين فكونه موقوفا دليل على أنه حرف هجاء نحو ألم وغيره من حروف الهجاء الموقوفة.

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ اختلف فيه على قولين.

أحدهما: أنه القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ فالضمير في يسطرون للملائكة.

والآخر: أنه القلم المعروف عند الناس أقسم الله به لما فيه من المنافع والحكم والضمير في يسطرون على هذا لبني آدم.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ هذا جواب القسم وهو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم معناه نفي ما نسبه الكفار له من الجنون، و﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ اعتراض بين ما وخبرها كما تقول أنت بحول الله أفضل والمجرور في موضع الحال وقال الزمخشري: إن العامل فيه بمجنون.

﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ ذكر في فصلت.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ هذا ثناء على خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: "كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن"[1]. تعني التأدب بآدابه وامتثال أوامره، وعبر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع وذلك رأس الخلق وتفصيل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع كل فضيلة وحاز كل خصلة جميلة، فمن ذلك: شرف النسب، ووفور العقل، وصحة الفهم، وكثرة العلم، وشدة الحياء، وكثرة العبادة، والسخاء، والصدق، والشجاعة، والصبر، والشكر، والمروءة، والتودد، والاقتصاد، والزهد، والتواضع، والشفقة، والعدل، والعفو، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، وحسن المعاشرة، وحسن التدبير، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس، وحسن الصورة، وغير ذلك حسبما ورد في أخباره وسيره صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[2].

---

(١) تفسير الطبري ٥٢٩/٢٣ وتفسير البغوي ١٨٧/٨ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٤٥/٧ والجامع الكبير للسيوطي الحديث رقم: (٣٠٠٠) ونسبه للبيهقي عن أبي هريرة .

وقال الجنيد: سمي خلقه عظيما لأنه لم تكن له همة سوى الله عز وجل.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ قيل: إن المفتون هنا بمعنى المجنون ويحتمل غير ذلك من معاني الفتنة والخطاب في قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم وفي قوله: ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ لكفار قريش، واختلف في الباء في قوله بأيكم على أربعةِ أقوال:

الأول: أنها زائدة.

الثاني: أنها غير زائدة والمعنى بأيكم الفتنة فأوقع المفتون موقع الفتنة كقولهم ماله معقول أي عقل.

الثالث: أن الباء بمعنى في والمعنى في أي فريق منكم المفتون واستحسن ابن عطية هذا.

الرابع: أن المعنى بأيكم فتنة المفتون ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ المداهنة هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي، وروي: أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت الآية، ولم ينتصب فيدهنون في جواب التمني بل رفعه بالعطف على تدهن قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: هو خبر مبتدإ محذوف تقديره فهم يدهنون.

﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل.

﴿مَّهِينٍ﴾ هو الضعيف الرأي والعقل قال ابن عطية: هو من مهن إذا ضعف فالميم فاء الفعل وقال الزمخشري: هو من المهانة وهي الذلة والحقارة، وقال ابن عباس: المهين الكذاب.

﴿هَمَّازٍ﴾ هو الذي يعيب الناس.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي كثير المشي بالنميمة، يقال نميم ونميمة بمعنى واحد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة نمام"[1].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي شحيح لأن الخير هنا هو المال، وقيل: معناه مناع من الخير أي يمنع الناس من الإسلام والعمل الصالح.

﴿مُعْتَدٍ﴾ هو من العدوان وهو الظلم.

﴿أَثِيمٍ﴾ من الإثم وهو ارتكاب المحرمات.

﴿عُتُلٍّ﴾ أي غليظ الجسم قاسي القلب بعيد الفهم كثير الجهل.

﴿زَنِيمٍ﴾ أي ولد زنا، وقيل: هو الذي في عنقه زنمة كزنمة الشاة التي تعلق في حلقها. وقيل: معناه مريب قبيح الأفعال. وقيل: ظلوم. وقيل: لئيم وقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد ما ذكرنا من عيوبه فهذا الترتيب في الوصف لا في الزمان، واختلف في الموصوف بهذه الأوصاف الذميمة، فقيل: لم يقصد بها شخص معين بل كل من اتصف بها، وقيل: المقصود بها الوليد بن المغيرة لأنه وصفه بأنه ذو مال وبنين وكذلك كان، وقيل: أبو جهل، وقيل: الأخنس بن شريق، ويؤيد هذا أنه كانت له زنمة في عنقه قال ابن عباس: عرفناه بزنمته، وكان أيضا من ثقيف ويعد في بني زهرة فيصح وصفه بزنيم على القولين، وقيل: الأسود بن عبد يغوث.

---

(١) مسلم الحديث رقم: (١٥١) والمسند الحديث رقم: (٢٢٢٣٦).

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ في موضع مفعول من أجله يتعلق بقولـه لا تطـع أي لا تطعه بسبب كثرة ماله وبنيه ويجوز أن يتعلق بما بعـده والمعـنى علـى هذا أنه قال في القرآن أساطير الأولين لأنه ذو مال وبنين يتكـبر بمالـه وبنيـه والعامل في أن كان على هذا فعل من المعنى ولا يجـوز أن يعمـل فيـه قـال الذي هو جواب إذا لأن ما بعد الشرط لا يعمـل فيمـا قبلـه، والأول أظهـر وقد تقدم معنى أساطير الأولين.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ أصـل الخرطـوم أنـف الـسبع ثم اسـتعير للإنـسان استخفافا به وتقبيحا له والمعنى نجعل له سمة وهي العلامة علـى خرطومـه واختلف في هذه السمة، فقيل: هي الضربة بالسيف يوم بدر، وقيل: علامـة من نار تجعل على أنفه في جهنم، وقيل: علامة تجعل على أنفه يوم القيامـة ليعرف بها.

* * * *

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن
رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ
﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ
إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن
يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي بلونا قريشا كما بلونا أصحاب الجنة وكانوا إخوة من بني إسرائيل لهم جنة، روي: أنها بمقربة من صنعاء فحلفوا أن لا يعطوا مسكينا منها شيئا وباتوا عازمين على ذلك فأرسل الله على جنتهم طائفا من نار فأحرقتها فلما أصبحوا إلى جنتهم لم يروها فحسبوا أنهم أخطئوا الطريق ثم تبينوها فعرفوها وعلموا أن الله عاقبهم فيها بما قالوا فندموا وتابوا إلى الله، ووجه تشبيه قريش بأصحاب الجنة أن الله أنعم على قريش ببعث محمد صلى الله عليه وسلم كما أنعم على أصحاب الجنة بالجنة فكفر هؤلاء بهذه النعمة كما فعل أولئك فعاقبهم الله كما عاقبهم، وقيل: شبه قريشا لما أصابهم الجوع بشدة القحط حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحاب الجنة لما هلكت جنتهم.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي حلفوا أن يقطعوا غلة جنتهم عند الصباح وكانت الغلة ثمرا.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: لم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ليصرمُنَّها.

والآخر: لا يستثنون شيئا من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم.

والثالث: لا يتوقفون في رأيهم ولا ينتهون عنه أي لا يرجعون عنه.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾ قال الفراء: الطائف الأمر الذي يأتي بالليل.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: أصبحت كالليل لأنها اسودت لما أصابها، والصريم في اللغة: الليل.

الثاني: أصبحت كالنهار لأنها ابيضت كالحصيد ويقال صريم الليل والنهار.

الثالث: أن الصريم الرماد الأسود بلغة بعض العرب.

الرابع: أصبحت كالمصرومة أي المقطوعة.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي نادى بعضهم بعضا حين أصبحوا وقال بعضهم لبعض: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي جنتكم.

﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ لها أي حاصدين لثمرتها.

﴿يَتَخَافَتُونَ﴾ يكلم بعضهم بعضا في السر ويقولون: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ وأن في قوله أن اغدوا وأن لا يدخلنها حرف عبارة وتفسير.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ في الحرد أربعة أقوال:

الأول: أنه المنع.

الثاني: أنه القصد.

الثالث: أنه الغضب.

الرابع: أن الحرد اسم للجنة وقادرين يحتمل أن يكون من القدرة أي قادرين في زعمهم أو من التقدير بمعنى التضييق أي ضيقوا على المساكين.

﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي أخطأنا طريق الجنة قالوا ذلك لما لم يعرفوها فلما عرفوها ورأوا ما أصابها قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي حرمنا الله خيرها.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي خيرهم وأفضلهم ومنه أمة وسطا أي خيارا.

﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي تقولون سبحان الله، وقيل: هو عبارة عن طاعة الله وتعظيمه، وقيل: أراد الاستثناء في اليمين كقولهم إن شاء الله والأول أظهر لقولهم بعد ذلك سبحان الله ربنا، والمعنى أن هذا الذي هو أفضلهم كان قد حضهم على التسبيح.

﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا عزموا عليه من منع المساكين أو على غفلتهم عن التسبيح بدليل قوله ألم أقل لكم لولا تسبحون.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ يحمل أنهم طلبوا البدل في الدنيا أو في الآخرة والأول أرجح، لأنه روي عن ابن مسعود أن الله أبدلهم جنة يحتمل البغل منها عنقودا.

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي مثل هذا العذاب الذي ينزل بأهل الجنة ينزل بقريش.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ الهمزة للإنكار أي كيف يسوي الله بين المسلمين والمجرمين بل يجازي كل أحد بعمله والمراد بالمجرمين هنا الكفار.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا
بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ
إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ
عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ
﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾
وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿مَا لَكُمْ﴾ توبيخ للكفار وما مبتدأ ولكم خبره وتم الكلام هنا فينبغي أن يوقف عليه.

﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ توبيخ آخر أي كيف تحكمون بأهوائكم وتقولون ما ليس لكم به علم.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ هذه الجملة معمول تدرسون وكان أصل إن الفتح وكسرت لأجل اللام التي في خبرها وتخيرون معناه تختارون لأنفسكم ومعنى الآية هل لكم كتاب من عند الله تدرسون فيه أن لكم ما تختارونه لأنفسكم.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ المعنى هل حلفنا لكم أيمانا أن لكم ما تحكمون ومعنى بالغة ثابتة واصلة إلى يوم القيامة وقوله إن لكم هو جواب القسم الذي يقتضيه الأيمان ولذلك أكده بإن واللام وما تحكمون هو اسم إن دخلت عليه اللام المؤكدة.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي يـا محمـد اسـأل قريـشا أيهـم زعـيم بهـذه الأمور، والزعيم: هو الضامن للأمر القائم به.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ هذا تعجيز للكفار ومعناه إن كان لكـم شـركاء يقدرون على شيء فأتوا بهم، واختلف: هل قوله فليأتوا بهـم في الـدنيا أي أحضروهم حتى يرى حالهم أو يقال لهم ذلـك يـوم القيامـة والـشركاء هـم المعبودون من الأصـنام وغيرهـا، وقـال الزمخـشري: معنـاه أم لكـم نـاس يشاركونكم في هذا القول ويوافقونكم عليه فأتوا بهم يعني أنهم لا يـوافقهم أحد عليه والأول أظهر.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال المتأولون: ذلك عبارة عن هـول يـوم القيامـة وشدته، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ينادي مناد يوم القيامة لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبـع الـشمس مـن كـان يعبد الشمس ويتبع القمر من كان يعبد القمر ويتبع كل أحد ما كان يعبـد ثم تبقى هذه الأمة وغبرات من أهل الكتاب معهـم منـافقوهم فيقـال لهـم: مـا شأنكم؟ فيقولـون: ننتظـر ربنـا، قـال: فيجيـئهم الله في غـير الـصورة الـتي عرفوه، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، قال: فيقـول أتعرفونـه بعلامة ترونها؟ فيقولون: نعم، فيكشف لهم عن ساق، فيقولون: نعـم أنـت ربنا ويخرون للسجود فيسجد كل مؤمن، وترجع أصلاب المنـافقين عظمـا واحدا فلا يستطيعون سجودا "[1]. وتأويل الحديث كتأويل الآية.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ تفسيره في الحديث الـذي ذكرنـا فـإن قيـل: كيـف يدعون في الآخرة إلى السجود وليست الآخرة دار تكليف؟ فالجواب: أنهم

---

(١) انظر الطبري ٢٣/٥٥٦.

يدعون إليه على وجه التوبيخ لهم على تركهم السجود في الدنيا لا على وجه التكليف والعبادة.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي قد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود فيمتنعون منه وهم سالمون في أعضائهم قادرون عليه.

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ تهديد للمكذبين بالقرآن وإعراب من يكذب مفعول معه أو معطوف، وقد ذكرنا في الأعراف سنستدرجهم وما بعده.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ معناه أنت لا تسألهم أجرة على الإسلام فتثقل عليهم فلا عذر لهم في تركهم الإسلام وقد فسرنا هذا وما بعده في الطور.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يقتضي مسالمة للكفار نسخت بالسيف.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام وسماه صاحب الحوت لأن الحوت ابتلعه وهو أيضا ذو النون والنون هو الحوت وقد ذكرنا قصته في الأنبياء والصافات فنهى الله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يكون مثله في الضجر والاستعجال حتى ذهب مغاضبا، وروي أن هذه الآية نزلت لما هم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو على الكفار.

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ هذا آخر ما جرى ليونس ونداؤه هو قوله في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.
والمكظوم: الشديد الحزن.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ هنا جواب لولا والمنفي هو الذم لا نبذه بالعراء فإنه قد قال في الصافات فنبذناه بالعراء فالمعنى لولا رحمة الله لنبذ بالعراء وهو مذموم لكنه نبذ وهو غير مذموم وقد ذكرنا العراء في الصافات.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ عبارة عن شدة عـداوتهم وإن مخففـة من الثقيلة بدليل دخول اللام، وليزلقونك معناه يهلكونك كقولك نظر فلان إلى عدوه نظرة كاد يصرعه وأصله من زلق القدم وقرئ بفتح اليـاء وضـمها وهما لغتان، وقيل: إن المعنى يأخذونه بالعين وكان ذلك في بني أسد كـان الرجل منهم يجوع ثلاثة أيام فلا يتكلم على شـيء إلا أصـابه بـالعين فـأراد بعضهم أن يصيب النبي صلى الله عليه وسـلم فعـصمه الله مـن ذلـك وقـال الحسن: دواء من أصيب بالعين قراءة هذه الآية.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني القرآن أو هو موعظة وتذكير للخلق.

* * * *

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ
فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ
لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم
مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ
رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾

﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ هي القيامة ووزنها فاعلة وسميت الحاقة لأنها تحق أي يصح وجودها ولا ريب في وقوعها ولأنها حقت لكل أحد جزاء عمله أو لأنها تبدئ حقائق الأمور.

﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ما استفهامية يراد بها التعظيم وهي مبتدأ وخبرها ما بعده أو الجملة خبر الحاقة وكان الأصل الحاقة ما هي ثم وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التعظيم والتهويل وكذلك وما أدراك ما الحاقة لفظة استفهام والمراد به التعظيم والتهويل.

﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ هي القيامة سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها.

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ يعني الصيحة التي أخذت ثمود وسميت بذلك لأنها جاوزت الحد في الشدة، وقيل: الطاغية مصدر فكأنه قال أهلكوا بطغيانهم فهو كقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ وقيل: هي صفة لمحذوف تقديره أهلكوا بسبب الفعلة الطاغية أو الفئة الطاغية والباء على هذين القولين سببية وعلى القول الأول كقولك قتلت زيدا بالسيف.

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ذكر في فصلت، وعاتيـة: أي شـديدة، وسميت بذلك لأنها عتت على عاد، وقيل: عتت على خزانها فخرجت بغير إذنهم.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ روي أنها بـدت صـبيحة يـوم الأربعـاء لثمـان بقين من شوال وتمادت بهم إلى آخر يوم الأربعاء تكملة الشهر.

﴿حُسُومًا﴾ قال ابن عباس: معناه كاملة متتابعـة لم يتخللـها غـير ذلـك، وقيل: معناه شؤما ونحساً، وقيل: هو جمع حاسم من الحـسم وهـو القطـع أي قطعتهم بالإهلاك، فحسوما على القول الأول والثاني مصدر في موضـع الحال، وعلى الثالث حال أو مفعول من أجله.

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ جمع صريع وهو المطروح بالأرض، والضمير المجرور يعود على منازلهم لأن المعـنى يقتـضيها وإن لم يتقـدم ذكرهـا أو على الأيام والليالي أو على الريح.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تقدم في القمر معنى تشبيهم بأعجـاز النخـل، والخاوية: هي التي خلت من طول بلائها وفسادها.

﴿مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي من بقية، وقيل: من فئة باقية، وقيل: إنه مصدر بمعنى البقاء.

﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ يريد من تقدم قبلـه مـن الأمـم الكـافرة وأقـربهم إليـه قـوم شعيب والظاهر أنهـم المـراد لأن عـادا وثمـود قـد ذكـرا وقـوم لـوط هـم المؤتفكات وقوم نوح قد أشير إليهم في قوله لما طغـى المـاء حملنـاكم في الجارية وقرئ قبله بكسر القاف وفتح الباء ومعناه جنده وأتباعه.

﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ إما أن يكون مصدرا بمعنى الخطيئة أو صفة لمحذوف تقديره بالفعلة الخاطئة.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ إن عاد الضمير على فرعون وقومه فالرسول موسى عليه السلام وإن عاد على المؤتفكات فالرسول لوط عليه السلام وإن عاد على الجميع فالرسول اسم جنس أو بمعنى الرسالة.

﴿رَابِيَةً﴾ أي عظيمة وهي من قولك: ربا الشيء إذا كثر.

﴿طَغَا الْمَاءُ﴾ عبارة عن كثرته فيحتمل أن يريد أنه طغى على أهل الأرض أو على خزانه يعني وقت طوفان نوح عليه السلام.

﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ هي السفينة، فإن أراد سفينة نوح فمعنى حملناكم حملنا آباءكم لأن كل من على الأرض من ذرية نوح وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه في السفينة، وإن أراد جنس السفن فالخطاب على حقيقته.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ الضمير للفعلة وهي الحمل في السفينة، وقيل: للسفينة فإن أراد جنس السفن فالمعنى أنها تذكرة بقدرة الله ونعمته لمن ركب أو سمع بها، وإن أراد سفينة نوح فقد قيل إن الله أبقاها حتى رأى بعض عيدانها أوائل هذه الأمة.

﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ الضمير يعود على ما عاد عليه ضمير لنجعلها وهذا يقوي أن يكون للفعلة، والأذن الواعية: هي التي تفهم ما تسمع وتحفظه، يقال وعيت العلم إذا حصلته ولذلك عبر بعضهم عنها بأنها التي عقلت عن الله، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب:" إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا علي". قال علي: فما نسيت بعد ذلك

شيئا سمعته، قال الزمخشري: إنما قال أذن واعية بالتوحيد والتنكير للدلالة على قلة الوعاة ولتوبيخ الناس بقلة من بقـي منـهم وللدلالـة علـى أن الأذن الواحدة إذا عقلت عن الله تعالى فهي المعتبرة عند الله دون غيرها.

* * * *

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ
الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ
اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ
عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾

﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ يعني نفخة الصعق وهي الأولى.

﴿فَدُكَّتَا﴾ الضمير للأرض والجبال، ومعنى دكتا ضرب بعضها ببعض حتى تندق قال الزمخشري: الدك أبلغ من الدق، وقيل: معناه بسطت حتى تستوي الأرض والجبال.

﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة، وقيل: وقعت صخرة بيت المقدس وهذا ضعيف.

﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي مسترخية ساقطة القوة ومنه قولهم دار واهية أي ضعيفة الجدران.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ الملك هنا اسم جنس والأرجاء الجوانب واحدها رجا مقصور والضمير يعود على السماء والمعنى أن الملائكة يكونون يوم القيامة على جوانب السماء لأنها إ ذا وهت وقفوا على أطرافها، وقيل: يعود على الأرض لأن المعنى يقتضيه وإن لم يتقدم ذكرها. وروي في ذلك أن الله يأمر الملائكة فتقف صفوفا على جوانب الأرض والأول أظهر وأشهر.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ قال ابن عباس: هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أحد عدتهم، وقيل: ثمانية أملاك رؤوسهم عند العرش وأرجلهم تحت الأرض السابعة، ويؤيد هذا ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:" هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة قواهم الله بأربعة سواهم"[1].

﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ﴾ خطاب لجميع العالم، والعرض هنا البعث أو الحساب.

﴿خَافِيَةٞ﴾ أي حال خافية من الأعمال والسرائر ويحتمل المعنى لا يخفي من أجسادهم شيء لأنهم يحشرون حفاة عراة.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الكتاب هنا صحائف الأعمال.

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ هاؤم اسم فعل قال ابن عطية: معناه تعالوا، وقال الزمخشري: هو صوت يفهم منه معنى، خذوا كتابيه مفعول يطلبه هاؤم واقرؤوا من ضمير المعنى تقديره هاؤم كتاب اقرؤوا كتابي ثم حذف لدلالة الآخر عليه وعمل فيه العامل الثاني وهو اقرؤوا عند البصريين، والعامل الأول هو هاؤم عند الكوفيين والدليل على صحة قول البصريين أنه لو عمل الأول لقال اقرؤوه والهاء في كتابيه للوقف وكذلك في حسابيه وماليه وسلطانيه وكان الأصل أن تسقط في الوصل لكنها ثبتت فيه مراعاة لخط المصحف وقد أسقطها في الوصل بعضه، ومعنى الآية أن العبد الذي يعطى كتابه بيمينه يقول للناس اقرؤوا كتابيه على وجه الاستبشار والسرور بكتابه.

---

(١) الكشاف ٤/١٥٢.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين.

﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا كقولهم تامر لصاحب التمر قال ابن عطية: ليست بياء اسم فاعل، وقال الزمخشري: يجوز أن يكون اسم فاعل نسب الفعل إليها مجازا وهو لصاحبها حقيقة.

﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قطف وهو ما يجتني من الثمار ويقطف كالعنقود.

﴿دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة، وروي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها على أي حال كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع.

﴿أَسْلَفْتُمْ﴾ أي قدمتم من الأعمال الصالحة.

﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي الماضية يعني أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ هم الكفار بدليل قوله إنه كان لا يؤمن بالله العظيم فجعل علة إعطائهم كتبهم بشمالهم عدم إيمانهم، وأما المؤمنون فيعطون كتبهم بأيمانهم، لكن اختلف فيمن يدخل النار منهم هل يعطى كتابه قبل دخول النار أو بعد خروجه منها وهذا أرجح لقوله هاؤم اقرأوا كتابيه لأن هذا كلام سرور فيبعد أن يقوله من يحمل إلى النار.

﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي يتمنى أنه لم يعط كتابه، وقال ابن عطية: يتمنى أن يكون معدوما لا يجري عليه شيء والأول أظهر.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي ليت الموتة الأولى كانت القاضية بحيث لا يكون بعدها بعث ولا إحياء.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ يحتمل أن يكون نفيا أو استفهاما يراد به النفي.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي زال عـني ملكـي وقـدرتي، وقيـل: ذهبـت عـني حجتي.

﴿خُذُوهُ﴾ خطاب للزبانية يقوله لهم الله تعالى أو الملائكة بأمر الله.

﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي اجعلوا غلا في عنقه، وروي: أنها نزلت في أبي جهل.

* * * *

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ معنى ذرعها أي مبلغ أذرع كيلها واختلف في هذا الذراع فقيل: إنه الذراع المعروف، وقيل: هو بذراع الملك، وقيل: في الذراع سبعون باعا كل باع ما بين مكة والكوفة، ولله در الحسن البصري في قوله: الله أعلم بأي ذراع هي! وجعلها سبعين ذراعا لإرادة وصفها بالطول فإن السبعين من الأعداد التي تقصد بها العرب التكثير، ويحتمل أن تكون هذه السلسلة لكل واحد من أهل النار أو تكون بين جميعهم وقد حكى الثعلبي ذلك.

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي أدخلوه، وروي: أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج من دبره، فاسلكوه على هذا من المقلوب في المعنى كقولهم أدخلت القلنسوة في رأسي، وروي: أنها تلتوي عليه حتى تعمه وتضغطه، فالكلام على هذا على وجهه وهو المسلوك فيها، وإنما قدم قوله: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾ على: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ لإرادة الحصر أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة وكذلك قدم: ﴿الْجَحِيمَ﴾ على: ﴿صَلُّوهُ﴾ لإرادة الحصر أيضا.

﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يحتمل أنه أراد إطعام مسكين فوضع الاسم موضع المصدر أو يقدر لا يحض على بذل طعام المسكين وأضاف الطعام إلى المسكين لأن له إليه نسبة ووصفه بأنه لا يحض على طعام المسكين يدل على أنه لا يطعمه من باب أولى وأحرى، وهذه الآية تدل على عظم الصدقة وفضلها لأنه قرن منع طعام المسكين بالكفر بالله.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ليس له صديق.

والآخر: ليس له شراب.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ فإن الحميم الماء الحار، والغسلين: صديد أهل النار عند ابن عباس، وقيل: شجر يأكله أهل النار، وقال اللغويون: هو ما يجري من الجراح إذا غسلت، وهو فعلين من الغسل.

﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يفعل ضد الصواب متعمدا، والمخطئ الذي يفعله بغير تعمد.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لا زائدة غير نافية.

﴿بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني جميع الأشياء لأنها تنقسم إلى ما يبصر وما لا يبصر كالدنيا والآخرة والإنس والجن والأجسام والأرواح وغير ذلك.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا جواب القسم والضمير للقرآن والرسول الكريم جبريل، وقيل: لمحمد عليه الصلاة والسلام.

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عطية: يحتمل أن تكون ما نافية فنفى إيمانهم بالجملة، أو تكون مصدرية فوصف إيمانهم بالقلة، وقال الزمخشري: القلة هنا بمعنى العدم أي لا تؤمنون ولا تذكرون البتة.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ التقول هو أن ينسب إلى أحد ما لم يقل ومعنى الآية لو تقول علينا محمد لعاقبناه ففي ذلك برهان على أن القرآن من عند الله.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ قال ابن عباس: اليمين هنا القوة، ومعناه لو تقول علينا لأخذناه بقوتنا، وقيل: هي عبارة عن الهوان كما يقال لمن يسجن أخذ بيده وبيمينه، وقال الزمخشري: معناه لو تقول علينا لقتلناه ثم صور صورة القتل ليكون أهول، وعبر عن ذلك بقوله لأخذنا منه باليمين لأن السياف إذا أراد أن يضرب المقتول في جيده أخذ بيده اليمنى ليكون ذلك أشد عليه لنظره إلى السيف.

﴿ٱلْوَتِينَ﴾ نياط القلب وهو عرق إذا قطع مات صاحبه، فالمعنى لقتلناه.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ الحاجز المانع، والمعنى لو عاقبناه لم يمنعه أحد منكم ولم يدفع عنه عقوبتنا وإنما جمع حاجزين لأن أحد في معنى الجماعة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ الضمير للقرآن، وقيل: لمحمد صلى الله عليه وسلم، والأول أظهر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي حسرة عليهم في الآخرة لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ قال الكوفيون: هذا من إضافة الشيء إلى نفسه كقولك: مسجد الجامع، وقال الزمخشري: المعنى عين اليقين ومحض اليقين، وقال ابن عطية: ذهب الحذاق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من وجوهه.

* * * *

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۢ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴿١٨﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ من قرأ سائل بالهمز احتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون بمعنى الدعاء أي دعا داع بعذاب واقع وتكون الإشارة إلى قول الكفار أمطر علينا حجارة من السماء وكان الذي قالها النضر بن الحرث.

والآخر: أن يكون بمعنى الاستخبار أي سأل سائل عن عذاب واقع والباء على هذا بمعنى عن وتكون الإشارة إلى قوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ وشبيه ذلك، وأما من قرأ سال بغير همز فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون مخففا من المهموز فيكون فيه المعنيان المذكوران.

والثاني: أن يكون من سال السيل إذا جرى ويؤيد ذلك قراءة ابن عباس سال سيل وتكون الباء على هذا كقولك ذهبت بزيد وإذا كان من السيل احتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون شبه العذاب في شدته وسرعة وقوعه بالسيل.

وثانيهما: أن تكون حقيقة قال زيد بن ثابت: في جهنم واد يقال له سائل فتلخص من هذا أن في القراءة بالهمز يحتمل معنيين وفي القراءة بغير همز أربعة معان.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل أن يتعلق بواقع أو تكون اللام بمعنى على أو تكون صفة للعذاب أو يتعلق بسأل إذا كانت بمعنى دعا أي دعا للكافرين بعذاب أو تكون مستأنفا كأنه قال هو للكافرين.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يتعلق بواقع أي واقع من عند الله أو بدافع أي ليس له دافع من عند الله أو يكون صفة للعذاب أو مستأنفا.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ جمع معرج وهو المصعد إلى علو كالسلم والمدارج التي يرتقى بها، قال ابن عطية: هي هنا مستعارة في الفضائل والصفات الحميدة، وقيل: هي المراقي إلى السماء وهذا أظهر لأنه فسرها بما بعدها من عروج الملائكة.

﴿وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى عرشه ومن حيث تهبط أوامره وقضاياه، فالعروج هو من الأرض إلى العرش، والروح هنا جبريل عليه السلام بدليل قوله:﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ وقيل: الروح ملائكة حفظة على الملائكة وهذا ضعيف مفتقر إلى صحة نقل، وقيل: الروح جنس أرواح الناس وغيرهم.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ اختلف في هذا اليوم على قولين:

أحدهما: أنه يوم القيامة.

والآخر: أنه في الدنيا، والصحيح أنه يوم القيامة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث مانع الزكاة: "ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا صفحت له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنباه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد" [1]. يعني يوم القيامة ثم اختلف هل مقداره خمسون ألف سنة حقيقة وهذا هو الأظهر أو هل وصف بذلك لشدة أهواله كما يقال يوم طويل إذا كان فيه مصائب وهموم، وإذا قلنا إنه في الدنيا فالمعنى أن الملائكة والروح يعرجون في يوم لو عرج فيه الناس لعرجوا في خمسين ألف سنة، وقيل: الخمسون ألف سنة هي مدة الدنيا والملائكة تعرج وتنزل في هذه المدة وهذا كله على أن يكون قوله في يوم يتعلق بتعرج ويحتمل أن يكون في يوم صفة للعذاب فيتعين أن يكون اليوم يوم القيامة والمعنى على هذا مستقيم.

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ هذا متصل بما قبله من العذاب وغيره أي اصبر على أقوال الكافرين حتى يأتيهم العذاب ولذلك وصفه بالقرب مبالغة في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ يحتمل أن يعود الضمير على العذاب أو على اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة، والبعيد يحتمل أن يراد به بعد الزمان أو بعد الإمكان، وكذلك القرب يحتمل أن يراد به قرب الزمان لأن كل آت قريب، ولأن الساعة قد قربت أو قرب الإمكان لقدرة الله عليه.

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ يوم هنا بدل من يوم كان مقداره خمسين ألف سنة أو بدل من الضمير المنصوب في نراه أو منصوب بقوله: ﴿قَرِيبٗا﴾ أو

---

(١) مسلم الحديث رقم: (١٦٤٧) وسنن أبي داود الحديث رقم: (١٤١٤) والنسائي الحديث رقم: (٢٣٩٩).

بقوله يود المجرم أو بفعل مضمر تقديره اذكر، والمهل: هو دردي الزيت شبه السماء به في سوادها وانكدار أنوارها يوم القيامة، وقيل: هو ما أذيب من الفضة ونحوها شبه السماء به في تلونه.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ العهن: هو الصوف، شبه الجبال به في انتفاشه وتخلخل أجزائه، وقيل: هو الصوف المصبوغ ألوانا فيكون التشبيه في الانتفاش وفي اختلاف الألوان لأن الجبال منها بيض وسود وحمر.

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ الحميم هنا: الصديق، والمعنى لا يسأل أحد من حميمه نصرة ولا إعانة لعلمه أنه لا يقدر له على شيء وقيل: لا يسأله عن حاله لأن كل أحد مشغول بنفسه.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يقال بصر الرجل بالرجل إذا رآه وبصرته إياه بالتشديد إذا أريته إياه والضميران يعودان على الحميمين لأنهما في معنى الجمع، والمعنى أن كل حميم يبصر حميمه يوم القيامة فيراه ولكنه لا يسأله.

﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ يعني امرأته.

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ يعني القرابة الأقربين.

﴿تُؤْوِيهِ﴾ أي تضمه فيحتمل أن يريد تضمه في الانتماء إليها أو في نصرته وحفظه من المضرات.

﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ الفاعل الافتداء الذي يقتضيه لو يفتدي وهذا الفعل معطوف على لو يفتدي وإنما عطفه بثم إشعارا ببعد النجاة وامتناعها ولذلك زجره عن ذلك بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ الضمير للنار لأن العذاب يدل عليها ويحتمل

أن يكون ضمير القصة وفسره بالخبر ولظى اسم علم لجهنم مشتق من اللظى بمعنى اللهب.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ الشوى: أطراف الجسد، وقيل: جلد الرأس، فالمعنى أن النار تنزعها ثم تعود، ونزاعة بالرفع بدل من لظى أو خبر ابتداء مضمر أو خبر لأنها إن جعلنا لظى منصوبا على التخصيص أو بدل من الضمير أو خبر ثان لأنها إن جعلنا لظى خبر لها ونزاعة بالنصب حال.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يعني الكفار الذين تولوا عن الإسلام ودعاؤها لهم عبارة عن أخذها لهم، وقال ابن عباس: تدعوهم حقيقة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وقيل: معناه تهلك حكاه الخليل عن العرب.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ يقال أوعيت المال وغيره إذا جمعته في وعاء فالمعنى جمع المال وجعله في وعاء وهذه إشارة إلى قوم من أغنياء الكفار جمعوا المال من غير حله ومنعوه من حقه.

* * * *

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ
۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥
وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ
ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ
۝٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ
مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الإنسان هنا اسم جنس بدليل الاستثناء منه، وسئل أحمد بن يحيى ـ مؤلف الفصيح ـ عن الهلوع؟ فقال: قد فسره الله فلا تفسير أبين من تفسيره وهو قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ وذكره الله كذلك على وجه الذم لهذا الخلق، ولذلك استثنى منه المصلين لأن صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ الدوام عليها هو المواظبة بطول العمر والمحافظة عليها المذكورة بعد هذا هي أداؤها في أوقاتها وتوفيه الطهارة لها.

﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ قد ذكرنا في الذاريات معنى حق والسائل والمحروم ووصفه هنا بالمعلوم إن أراد الزكاة فهي معلومة المقدار شرعا وإن أراد غيرها فمعنى المعلوم أن العبد يجعل على نفسه وظيفة معلومة عنده.

﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي لا يكون أحد آمنا منه فإن الأمن من عذاب الله حرام فلا ينبغي للعبد أن يزيل عنه الخوف حتى يدخل الجنة.

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ ذكر في المؤمنين وكذلك لفروجهم حافظون.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وقال الجمهور: يعني الشهادة عند الحكام، ثم اختلف على هذا في معنى القيام بها، فقيل: هو التحقيق لها كقوله صلى الله عليه وسلم: "على مثل الشمس فاشهد" (1). وقيل: هو المبادرة إلى أدائها من غير امتناع فأما إن دعي الشاهد إلى الأداء فهو واجب عليه، وأما إذا لم يدع إلى الأداء فالشهادة على ثلاثة أقسام:

أحدها: حقوق الناس فلا يجوز أداؤها حتى يدعوه صاحب الحق إلى ذلك.

والثاني: حقوق الله التي يستدام فيها التحريم كالطلاق والعتق والأحباس فيجب أداء الشهادة بذلك دعي أو لم يدع.

الثالث: حقوق الله التي لا يستدام فيها التحريم كالحدود فهذا ينبغي ستره حتى يدعى إليه.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين مقبلين إليك بأبصارهم، "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقبل أقبل الكفار ينظرون إليه ويستمعون قراءته". ومعنى قبلك في جهتك وما يليك.

* * * *

(1) في تفسير النيسابوري:" أو فدع " ٢/١٧٦ وتفسير الثعالبي ٤/١٤٣ قال السخاوي في المقاصد الحسنة: ورواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ١/١٥٦.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

﴿عِزِينَ﴾ أي جماعات شتى وهو جمع عزة بتخفيف الزاي وأصله عزوة، قيل: عزهة ثم حذفت لامها وجمعت بالواو والنون عوضا من اللام المحذوفة.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كانوا يقولون إن كان ثم جنة فنحن أهلها.

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عما طمعوا فيه من دخول الجنة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كناية عن المني الذي خلق الإنسان منه وفي المقصود بهذا الكلام ثلاثة أوجه:

أحدها: تحقير الإنسان والرد على المتكبرين، كما قال بعضهم: إن الإنسان خلق من نطفة مذرة، ويصير جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة.

الثاني: الرد على الكفار في طمعهم أن يدخلوا الجنة كأنه يقول إنا خلقناكم مما خلقنا منه الناس فلا يدخل أحد الجنة إلا بالعمل الصالح لأنكم سواء في الخلقة.

الثالث: الاحتجاج على البعث بأن الله خلقهم من ماء مهين فهو قادر على أن يعيدهم كقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ إلى آخر السورة.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ معناه أقسم ولا زائدة.

﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ ذكر في الصافات.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ﴾ تهديد للكفار بإهلاكهم وإبدال خير منهم.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي مغلوبين والمعنى إنا لا نعجز عن التبديل المذكور أو عن البعث.

﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ وعيد لهم وفيه مهادنة منسوخة بالسيف.

﴿يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعني يوم القيامة بدليل أنه أبدل منه.

﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ وهي القبور.

﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ النصب الأصنام وأصله كل ما نصب إلى الإنسان فهو يقصد إليه مسرعا من علم أو بناء أو غير ذلك وفيه لغات فتح النون وإسكان الصاد وضم النون وإسكان الصاد وضمها، ويوفضون معناه: يسرعون، والمعنى أنهم يسرعون الخروج من القبور إلى المحشر كما يسرعون المشي إلى أصنامهم في الدنيا.

* * * *

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾

﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ و ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ يحتمل أن تكون أن مفسرة أو مصدرية على تقدير بأن أنذر وبأن اعبدوا والأول أظهر .

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يريد عذاب الآخرة أو الغرق الذي أصابهم .

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ من هنا للتبعيض أي يغفر لكم ما فعلتم من الذنوب قبل أن تسلموا لأن الإسلام يجب ما قبله ولم يضمن أن يغفر لهم ما بعد إسلامهم لأن ذلك في مشيئة الله تعالى، وقيل: إن من هنا زائدة وذلك باطل لأن من لا تزاد عند سيبويه إلا في غير الواجب، وقيل: هي لبيان الجنس، وقيل: لابتداء الغاية وهذان القولان ضعيفان في المعنى والأول هو الصحيح لأن التبعيض فيه متجه .

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ظاهر هذا يقتضي أنهم إن فعلوا ما أمروا به أخروا إلى أجل مسمى وإن لم يفعلوا لم يؤخروا وذلك يقتضي القول بالأجلين وهو مذهب المعتزلة وعلى هذا حملها الزمخشري، وأما على

مذهب أهل السنة فهي من المشكلات وتأولها ابن عطية فقال: ليس للمعتزلة في الآية مجال، لأن المعنى أن نوحا عليه الصلاة والسلام لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكن قد سبق في الأزل، إما ممن قضي له بالإيمان والتأخير أو ممن قضي عليه بالكفر والمعاجلة، وكان نوح عليه السلام قال لهم آمنوا يظهر في الوجود أنكم ممن قضي له بالإيمان والتأخير وإن بقيتم على كفركم يظهر في الوجود أنكم ممن قضي عليه بالكفر والمعاجلة فكان الاحتمال الذي يقتضيه ظاهر الآية إنما هو فيما يبرزه الغيب من حالهم إذ يمكن أن يبرز إما الإيمان والتأخير، وإما الكفر والمعاجلة، وأما عند الله فالحال الذي يكون منهم معلوم مقدر محتوم وأجلهم كذلك معلوم مقدر محتوم.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ هذا يقتضي أن الأجل محتوم كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وفي هذا حجة لأهل السنة وتقوية للتأويل الذي ذكرنا وفيه أيضا رد على المعتزلة في قولهم بالأجلين ولما كان كذلك قال الزمخشري: إن ظاهر هذا مناقض لما قبله من الوعد بالتأخير إن آمنوا وتأول ذلك على مقتضى مذهبه بأن الأجل الذي لا يؤخر هو الأجل الثاني وذلك أن قوم نوح قضى الله أنهم إن آمنوا عمرهم الله مثلا ألف عام وإن لم يؤمنوا عمرهم تسعمائة عام فالألف عام هي التي لا تؤخر إذا جاءت والتسعمائة عام هي التي وعدوا بالتأخير عنها إلى الألف عام إن آمنوا.

﴿دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم فذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان ليظهر قبح إعراضهم عنه فإنهم أعرضوا عن سعادتهم.

﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ فعلوا ذلك لئلا يسمعوا كلامه فيحتمل أنهم فعلوا ذلك حقيقة أو يكون ذلك عبارة عن إفراط إعراضهم حتى كأنهم فعلوا ذلك.

﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي جعلوها غشاوة عليهم لئلا يسمعوا كلامه أو لئلا يراهم، ويحتمل أنهم فعلوا ذلك حقيقة أو يكون عبارة عن إعراضهم.

﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي داوموا على كفرهم .

﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ إعراب جهارا مصدر من المعنى كقولك قعد القرفصاء أو صفة لمصدر محذوف تقديره دعا جهارا أو مصدر في موضع الحال أي مجاهرا .

﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ذكر أولاً أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهارا، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار، وهذه غاية الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة صلى الله عليه وسلم، قال ابن عطية: الجهار: دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم، والإسرار دعاء كل واحد على حدته .

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ مفعول من الدر وهو كثرة الماء وفي الآية دليل على أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار، ولذلك خرج عمر بن الخطاب إلى الاستسقاء فلم يزد على أن استغفر ثم انصرف، فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: والله لقد استسقيت أبلغ الاستسقاء. ثم نزل المطر، وشكا رجل إلى الحسن البصري الجدب، فقال له: استغفر الله .

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا
وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ
نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ فيه أربع تأويلات:

أحدها: أن الوقار بمعنى التوقير والكرامة، فالمعنى مالكم لا ترجون أن يوقركم الله في دار ثوابه قال ذلك الزمخشري، وقوله لله على هذا بيان للموقر ولو تأخر لكان صفة لوقارا .

والثاني: أن الوقار بمعنى التؤدة والتثبت، والمعنى مالكم لا ترجون لله وقارا متثبتين حتى تتمكنون من النظر بوقاركم، وقوله لله على هذا مفعول دخلت عليه اللام كقولك ضربت لزيد وإعراب وقارا على هذا مصدر في موضع الحال.

الثالث: أن الرجاء هنا بمعنى الخوف، والوقار بمعنى العظمة والسلطان، فالمعنى ما لكم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، ولله على هذا صفة للوقار في المعنى.

الرابع: أن الرجاء بمعنى الخوف، والوقار بمعنى الاستقرار، من قولك وقر بالمكان إذا استقر فيه، والمعنى مالكم لا تخافون الاستقرار في دار القرار إما في الجنة أو النار .

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي طورا بعد طور يعني أن الإنسان كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، إلى سائر أحواله، وقيل: الأطوار الأنواع المختلفة، فالمعنى أن الناس على أنواع في ألوانهم وأخلاقهم وألسنتهم وغير ذلك .

﴿طِبَاقًا﴾ ذكر في الملك .

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ القمر إنما هو في السماء الدنيا، وساغ أن يقول فيهن لأن القمر لما كان في إحداهن فهو في الجميع كقولك: فلان في الأندلس إذا كان في بعضها، والشمس في السماء الرابعة، وقيل: في الخامسة، وجعل القمر نورا والشمس سراجا لأن ضوء السراج أقوى من النور فإن السراج هو الذي يضيء فيبصر به والنور قد يكون أقل من ذلك.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ هذا عبارة عن إنشائهم من تراب الأرض ونباتا مصدر على غير المصدر، أو يكون تقديره أنبتكم فنبتم إنباتا ويحتمل أن يكون منصوبا على الحال .

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ يعني بالدفن .﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ يعني بالبعث من القبور .

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها وأخذ بعضهم من لفظ البساط أن الأرض بسيطة غير كروية خلافا لما ذهب إليه أهل التعديل وفي ذلك نظر .﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ذكر في الأنبياء .

﴿وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني اتبعوا أغنياءهم وكبراءهم وقرئ ولده بفتحتين وولد بضم الواو وسكون اللام وهما بمعنى واحد .
﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ الكبّار بالتشديد أبلغ من الكبار بالتخفيف والكبار بالتخفيف أبلغ من الكبير .

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي وصى بعضهم بعضا بذلك .

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ هذه أسماء أصنامهم كان قوم نوح يعبدونها، وروي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا فلما ماتوا صورهم أهل ذلك العصر من حجارة وقالوا ننظر إليها لنتذكر أعمالهم الصالحة فهلك ذلك الجيل وكثر تعظيم من بعدهم لتلك الصور حتى عبدوها من دون الله، ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها، وقيل: بل الأسماء فقط إلى قبائل العرب، فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع لهذيل، وكان يغوث لمراد، وكان يعوق لهمذان، وكان نسرا لذي الكلاع من حمير، وقرئ ودا بفتح الواو وضمها وهما لغتان .

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ الضمير للرؤساء من قوم نوح، والمعنى أضلوا كثيرا من أتباعهم وهذا من كلام نوح عليه السلام، وكذلك لا تزد الظالمين إلا ضلالا من كلامه وهو دعاء عليهم وقال الزمخشري: إنه معطوف على قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ والتقدير: قال رب إنهم عصوني وقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ هذا من كلام الله إخبارا عن أمرهم وما زائدة للتأكيد وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضا ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار إنما كان بسبب خطاياهم وهي الكفر وسائر المعاصي .

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ يعني جهنم وعبر عن ذلك بالفعل الماضي لأن الأمر محقق، وقيل: أراد عرضهم على النار وعبر عنه بالإدخال .

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ديارا من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال ما في الدار ديار، أي ما فيها أحد، ووزنه فيعال وكان أصله ديوار ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وليس وزنه فعال لأنه لو كان كذلك لقيل دوار لأنه مشتق من الدور أو من الدار، وروي: أن نوحا عليه السلام لم يدع على قومه بهذا الدعاء إلا بعد أن يئس من إيمانهم وبعد أن أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم .

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ يؤخذ من هذا أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره، وكان والدا نوح عليه السلام مؤمنين، قال ابن عباس: لم يكن لنوح أب كافر ما بينه وبين آدم عليهما السلام، واسم والد نوح لمك بن متوشلخ، وأمه شمخا بنت أنوش حكاه الزمخشري .

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ قيل: بيته المسجد، وقيل: السفينة، وقيل: شريعته سماها بيتا استعارة وهذا بعيد، وقيل: داره وهذا أرجح لأنه الحقيقة.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هذا دعاء بالمغفرة لكل مؤمن ومؤمنة على العموم وفيه دليل على جواز ذلك خلافا لمن قال من المتأخرين أنه لا يجوز الدعاء بالمغفرة لجميع المؤمنين على العموم وهذا خطأ وتضييق لرحمة الله الواسعة، قال بعض العلماء: إن الإله الذي استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته جميع أهل الأرض الكفار حقيق أن يستجيب له فيرحم بدعوته جميع المؤمنين والمؤمنات .

﴿تَبَارًا﴾ أي هلاكا والله أعلم .

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ تقدمت في الأحقاف قصة هؤلاء الجن الذين استمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا .

﴿ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ أي قال ذلك بعضهم لبعض وعجبا مصدر وصف به للمبالغة لأن العجب مصدر كقولك عجبت عجبا، وقيل: هو على حذف مضاف تقديره ذا عجب .

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ جد الله: جلاله وعظمته، وقيل: غناه، من قولك فلان مجدود إذا استغنى، وقرئ إنه في هذا الموضع بفتح الهمزة وكسرها وكذلك فيما بعده إلى قوله وإنا منا المسلمون فأما الكسر فاستئناف أو عطف على إنا سمعنا لكنه كسر في معمول القول فيكون ما عطف عليه من قول الجن وأما الفتح، فقيل: إنه عطف على قوله أنه استمع نفر وهذا خطأ من طريق المعنى لأن قوله استمع نفر في موضع معمول أوحى فيلزم أن يكون المعطوف عليه مما أوحي وأن لا يكون من كلام الجن، وقيل: إنه معطوف على الضمير المجرور في قوله آمنا به وهذا ضعيف لأن الضمير المجرور لا يعطف عليه إلا بإعادة الخافض، وقال الزمخشري: هو معطوف على محل

الجار والمجرور في آمنا به كأنه قال صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وكذلك ما بعده ولا خلاف في فتح ثلاث مواضع وهي أنه استمع وأن لو استقاموا وأن المساجد لله لأن ذلك مما أوحي لا من كلام الجن .

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ هذا من كلام الجن، وسفيههم أبوهم إبليس، وقيل: هو اسم جنس لكل سفيه منهم واختار ذلك ابن عطية، والشطط: التعدي ومجاوزة الحد .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي ظننا أن الأقوال التي كان الإنس والجن يقولونها على الله صادقة وليست بكذب لأنا ظننا أنه لا يكذب أحد على الله .

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ تفسير هذا ما روي: أن العرب كانوا إذا حل أحدهم بواد صاح بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك، ويعتقد أن ذلك الجن الذي بالوادي يحميه .

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ضمير الفاعل للجن وضمير المفعول للإنس والمعنى أن الجن زادوا الإنس ضلالا وإثما لما عاذوا بهم أو زادوهم تخويفا لما رأوا ضعف عقولهم، وقيل: ضمير الفاعل للإنس وضمير المفعول للجن والمعنى أن الإنس زادوا الجن تكبرا وطغيانا لما عاذوا بهم حتى كان الجن يقول أنا سيد الجن والإنس .

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ الضمير في ظنوا لكفار الإنس وظننتم خطاب الجن بعضهم لبعض فالمعنى أن كفار الإنس والجن ظنوا أن لن يبعث الله أحدا، والبعث هنا يحتمل أن يريد به بعث الرسل أو البعث من القبور .

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ
فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ
رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ
بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾
وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾
لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ
ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ هذا إخبار عن ما حدث عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من منع الجن من استراق السمع من السماء ورجمهم بالنجوم، واللمس المس واستعير هنا للطلب، والحرس اسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام ولذلك وصف بشديد وهو مفرد ويحتمل أن يريد به الملائكة الحراس أو النجوم الحارسة وكرر الشهب لاختلاف اللفظ .

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ المقاعد جمع مقعد، وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة قعود الجن أنهم كانوا واحدا فوق واحد، فمتى أحرق الأعلى طلع الذي تحته مكانه فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان ويزيدون معها ثم يزيد الكهان للكلمة مائة كذبة .

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ الرصد اسم جمع للراصد كالحراس للحارس، وقال ابن عطية: هو مصدر وصف به ومعناه منتظر، قال بعضهم: إن رمي الجن بالنجوم إنما حدث بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم،

واختار ابن عطية والزمخشري أنه كان قبل المبعث قليلا ثم زاد بعد المبعث وكثر حتى منع الجن من استراق السمع بالكلية، والدليل أنه كان قبل المبعث قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقد رأى كوكبا انقض: ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول ولد ملك أو مات ملك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس الأمر كذلك، ثم وصف استراق الجن للسمع وقد ذكر شعراء الجاهلية ذلك في أشعارهم.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية قال ابن عطية: معناه لا ندري أيؤمن الناس بهذا النبي فيرشدوا أو يكفرون به فينزل بهم الشر، وقال الزمخشري: معناه لا ندري هل أراد الله بأهل الأرض خيرا أو شرا من عذاب أو رحمة أو من خذلان أو من توفيق .

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منا قوم دون ذلك فحذف الموصوف وأراد به الذين ليس صلاحهم كاملا أو الذين ليس لهم صلاح فإن دون قد تكون بمعنى أقل أو بمعنى غير .

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ الطرائق: المذاهب والسير وشبهها، والقدد المختلفة وهو جمع قدة وهذا بيان للقسمة المذكورة قبل وهو على حذف مضاف أي كنا ذوي طرائق أو كنا في طرائق.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الظن هنا بمعنى العلم، وقال ابن عطية: هذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم ويحتمل أن يكونوا اعتقدوا هذا الاعتقاد قبل إسلامهم .

﴿سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعنون القرآن .

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البخس: النقص والظلم، والرهق: تحمل ما لا يطاق، وقال ابن عباس: البخس نقص الحسنات، والرهق الزيادة في السيئات.

﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ يعني الظالمين يقال قسط الرجل إذا جار وأقسط بالألف إذا عدل، وهاهنا انتهى ما حكاه الله من كلام الجن، وأما قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ يحتمل أن يكون من بقية كلامهم أو يكون ابتداء كلام الله تعالى وهو الذي اختاره ابن عطية، وأما قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ فهو من كلام الله باتفاق، وليس من كلامهم.

﴿تَحَرَّوْا۟﴾ أي قصدوا الرشد.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ الماء الغدق: هو الكثير، وذلك استعارة في توسيع الرزق، والطريقة هي طريقة الإسلام وطاعة الله، فالمعنى لو استقاموا على ذلك لوسع الله أرزاقهم فهو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقيل: هي طريقة الكفر، والمعنى على هذا لو استقاموا على الكفر لوسع الله عليهم في الدنيا أملاكهم استدراجا، ويؤيد هذا قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ والأول أظهر والضمير في استقاموا يحتمل أن يكون للمسلمين أو للقاسطين المذكورين أو لجميع الجن أو للجن الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو لجميع الخلق.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ إن كانت الطريقة الإيمان والطاعة؛ فمعنى الفتنة: الاختبار هل يشكرون أم لا؟ وإن كانت الطريقة الكفر؛ فمعنى الفتنة: الإضلال والاستدراج.

﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ معنى نسلكه ندخله والصعد الشديد المشقة وهو مصدر صعد يصعد ووصف بالمصدر للمبالغة يقال فلان في صعد أي في مشقة وقيل: صعدا جبل في النار .

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أراد المساجد على الإطلاق وهي بيوت عبادة الله، وروي: أن الآية نزلت بسبب تغلب قريش على الكعبة، وقيل: أراد الأعضاء التي يسجد عليها واحدها مسجَد بفتح الجيم وهذا بعيد، وعطف أن المساجد لله على: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ وقال الخليل: معنى الآية لأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا أي لهذا السبب لا تعبدوا غير الله .

* * * *

وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ عبد الله هنا محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه بالعبودية اختصاصا له وتقريبا وتشريفا، وقال الزمخشري: أنه سماه هنا عبد الله ولم يقل الرسول أو النبي لأن هذا واقع في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه لأنه مما أوحي إليه فذكر صلى الله عليه وسلم نفسه على ما يقتضيه التواضع والتذلل وهذا الذي قاله بعيد مع أنه إنما يمكن على قراءة أنه لما قام بفتح الهمزة فيكون عطفا على أوحي إلي أنه استمع، وأما على القراءة بالكسر على الاستئناف فيكون إخبارا من الله أو من جملة كلام الجن فيبطل ما قاله .

﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ اللبد: الجماعات واحدها لبدة، والضمير في كادوا يحتمل أن يكون للكفار من الناس أي كادوا يجتمعون على الرد عليه وإبطال أمره أو يكون للجن الذين استمعوا أي كادوا يجتمعون عليه لاستماع القرآن والتبرك به .

﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي ملجئاً .

﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ بدل من ملتحدا أي لا أجد ملجئاً إلا بلاغ الرسالة أو بدل من ﴿ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي لا أملك شيئاً إلا بلاغ الرسالة من، ويحتمل أن يكون استثناء منقطعا.

﴿ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال الزمخشري: هذا الجار والمجرور ليس بصلة البلاغ إنما هو بمعنى بلاغا كائنا من الله، ويحتمل عندي أن يكون متعلقا ببلاغا والمعنى بلاغ من الله .

﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ قال الزمخشري: إنه معطوف على بلاغا كأنه قال إلا التبليغ والرسالة، ويحتمل أن يكون ورسالاته معطوفا على اسم الله .

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ جمع خالدين على معنى من يعص لأنه في معنى الجمع والآية في الكفار وحملها المعتزلة على عصاة المؤمنين لأن مذهبهم خلودهم في النار والدليل على أنها في الكفار وجهان:

أحدهما: أنها مكية والسورة المكية إنما الكلام فيها مع الكفار.

والآخر: دلالة ما قبلها وما بعدها على أن المراد بها الكفار .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ تعلقت حتى بقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ وجعلت غاية لذلك، والمعنى أنهم يكفرون ويتظاهرون عليه حتى إذا رأوا ما يوعدون قال ذلك الزمخشري، وقال أيضا: يجوز أن يتعلق بمحذوف يدل على المعنى، كأنه قيل: لا يزالون على ما هم عليه من الكفر حتى إذا رأوا ما يوعدون وهذا أظهر .

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ إن هنا نافية والمعنى قل لا أدري أقريب ما توعدون أم بعيد، وعبر عن بعده بقوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ ويعني بما توعدون قتلهم يوم بدر أو يوم القيامة.

﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي لا يطلع أحدا على علم الغيب إلا من ارتضى وهم الرسل فإنه يطلعهم على ما شاء من ذلك، ومن في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض والرسول هنا يحتمل أن يراد به الرسل من الملائكة وعلى هذا حملها ابن عطية، أو الرسل من بني آدم وعلى هذا حملها الزمخشري، واستدل بها على نفي كرامات الأولياء الذين يدعون المكاشفةَ بالغيوب فإن الله خص الاطلاع على الغيب بالرسل دون غيرهم، وفيها أيضا دليل على إبطال الكهانة والتنجيم وسائر الوجوه التي يدعي أهلها الاطلاع على الغيب لأنهم ليسوا من الرسل.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ المعنى أن الله يسلك من بين يدي الرسل ومن خلفه ملائكة يكونون رصدا يحفظونه من الشياطين، وقد ذكرنا رصدا في هذه السورة قال بعضهم: ما بعث الله رسولا إلا ومعه ملائكة يحرسونه حتى يبلغ رسالة ربه[(١)].

﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ في الفاعل بيعلم ثلاثة أقوال:

الأول: أي ليعلم الله أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم أي يعلمه موجودا وقد كان علم ذلك قبل كونه.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ في كتب السنة وانظر الزمخشري ٤/١٧٣.

الثاني: ليعلم محمد أن الملائكة الرصد أبلغوا رسالات ربهم.

الثالث: ليعلم من كفر أن الرسل قد بلغوا الرسالة، والأول أظهر وجمع الضمير في أبلغوا وفي ربهم حملا على المعنى لأن من ارتضى من رسول يراد به جماعة .

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط الله بما عند الرسل من العلوم والشرائع وهذه الجملة معطوفة على قوله ليعلم لأن معناه أنه قد علم قال ذلك ابن عطية، ويحتمل أن تكون هذه الجملة في موضع الحال.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ هذا عموم في جميع الأشياء وعددا منصوب على الحال أو تمييز أو مصدر من معنى أحصى.

* * * *

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ نداء للنبي صلى الله عليه وسلم ووزن المزمل متفعل فأصله متزمل ثم سكنت التاء وأدغمت في الزاي وفي تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بالمزمل ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان في وقت نزول الآية متزملا في كساء أو لحاف، والتزمل: الالتفاف في الثياب بضم وتشمير، هذا قول عائشة والجمهور.

والثاني: أنه كان قد تزمل في ثيابه للصلاة.

الثالث: أن معناه المتزمل للنبوة أي المتشمر المجد في أمرها.

والأول هو الصحيح لما ورد في البخاري[1] ومسلم:" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاءه الملك وهو في غار حراء في ابتداء الوحي رجع صلى الله عليه وسلم إلى خديجة ترعد فرائصه، فقال: زملوني زملوني". فنزلت يأيها المدثر، وعلى هذا نزلت يأيها المزمل، فالمزمل على هذا تزمله من أجل الرعب الذي أصابه أول ما جاءه جبريل، وقال الزمخشري: كان نائما في قطيفة فنودي يأيها المزمل ليبين الله الحالة التي كان عليها من التزمل في القطيفة لأنه سبب للنوم الثقيل المانع من قيام

(١) البخاري الحديث رقم: (٣) ومسلم الحديث رقم: (٢٣١) ولفظهما: ترجُف بوادره .

الليل، وهذا القول بعيد غير سديد، وقال السهيلي: في ندائه بالمزمل فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: "قم أبا تراب"[1].

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد بالليل ليتنبه إلى ذكر الله، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب وكل من اتصف بتلك الصفة.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ هذا الأمر بقيام الليل اختلف هل هو واجب، أو مندوب؟ فعلى القول بالندب فهو ثابت غير منسوخ، وأما على القول بالوجوب ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه فرض على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ولم يزل فرضا عليه حتى توفي.

الثاني: أنه فرض عليه وعلى أمته فقاموا حتى انتفخت أقدامهم ثم نسخ بقوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ الآية، وصار تطوعا هذا قول عائشة رضي الله عنها وهو الصحيح، واختلف كم بقي فرضا ؟ فقالت عائشة: عاما، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: عشرة أعوام فالآية الناسخة على هذا مدنية.

---

(١) خرجه مسلم بلفظ: "فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمْسَحُه عنه (أي التراب) ويقول: قم أبا التراب، قم أبا التراب" الحديث رقم: (٤٤٢٦).

الثالث: أنه: فرض عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته وهو ثابت غير منسوخ ولكن ليس الليل كله إلا ما تيسر منه وهو مذهب الحسن وابن سيرين.

﴿إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ في معنى هذا الكلام أربعة أقوال:

الأول: وهو الأشهر والأظهر أن الاستثناء من الليل وقوله: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدل من الليل، أو من: ﴿قَلِيلًا﴾ وجعل النصف قليلا بالنسبة إلى الجميع، والضميران في قوله أو انقص منه أو زد عليه عائدان على النصف، والمعنى: أن الله خيره بين ثلاثة أحوال وهو أن يقوم نصف الليل، أو ينقص من النصف قليلا، أو يزيد عليه.

الثاني: قال الزمخشري: إلا قليلا استثناء من النصف كأنه قال نصف الليل إلا قليلا فخيره على هذا بين حالتين وهما أن يقوم أقل من النصف أو أكثر منه وهذا ضعيف لأن قوله أو انقص منه قليلا تضمن معنى النقص من النصف فلا فائدة زائدة في استثناء القليل من النصف.

القول الثالث: قال الزمخشري أيضا: يجوز أن يريد بقوله أو انقص منه قليلا نصف النصف وهو الربع ويكون الضمير في قوله أو زد عليه يعود على ذلك أي زد على الربع فيكون ثلثا فيكون التخيير على هذا بين قيام النصف أو الثلث أو الربع وهذا أيضا بعيد.

القول الرابع: قال ابن عطية: يحتمل أن يكون معنى إلا قليلا الليالي التي يمنعه العذر من القيام فيها والمراد بالليل على هذا الليالي فهو جنس وهذا بعيد لأنه قد فسر هذا القليل المستثنى بما بعد ذلك من نصف الليل أو

النقص منه أو الزيادة عليه قيل ذلك على أن المراد بالليل المستثنى بعض أجزاء الليل لا بعض الليالي، فإن قيل: لم قيد النقص من النصف بالقلة فقال: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ وأطلق في الزيادة فقال: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ ولم يقل قليلا؟ فالجواب: أن الزيادة تحسن فيها الكثرة فلذلك لم يقيدها بالقلة بخلاف النقص فإنه لو أطلقه لاحتمل أن ينقص من النصف كثيرا .

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ الترتيل: هو التمهل والمد وإشباع الحركات وبيان الحروف، وذلك معين على التفكر في معاني القرآن، بخلاف الهذ الذي لا يفقه صاحبه ما يقول، " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته حرفا حرفا ولا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ "(١).

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هذه الآية اعتراض بين آية قيام الليل والقول الثقيل هو القرآن، واختلف في وصفه بالثقل على خمسة أقوال:

أحدها: أنه سمي ثقيلا لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقاه من الشدة عند نزول الوحي عليه حتى أن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد، وقد كان يثقل جسمه عليه الصلاة والسلام بذلك حتى إنه إذا أوحي إليه وهو على ناقته بركت به، وأوحي إليه وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن ترض فخذ زيد والثقل على هذا حقيقة.

الثاني: أنه ثقيل على الكفار بإعجازه ووعيده.

الثالث: أنه ثقيل في الميزان.

---

(١) انظر القرطبي ١٥/٢٢ .

الرابع: أنه كلام له وزن ورجحان.

الخامس: أنه ثقيل لما تضمن من التكاليف والأوامر والنواهي وهذا اختيار ابن عطية، وعلى هذا يناسب الاعتراض بهذه الآية قيام الليل لمشقته.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ في الناشئة سبعة أقوال:

الأول: أنه النفس الناشئة بالليل أي التي تنشأ من مضجعها وتقوم للصلاة.

الثاني: الجماعة الناشئة الذين يقومون للصلاة.

الثالث: العبادة الناشئة بالليل أي تحدث فيه.

الرابع: الناشئة القيام بعد النوم فمن قام أول الليل قبل أن ينام فلم يقم ناشئة.

الخامس: الناشئة القيام أول الليل بعد العشاء.

السادس: الناشئة المغرب والعشاء.

السابع: ناشئة الليل ساعاته كلها .

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أثقل وأصعب على المصلي، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم اشدد وطأتك على مضر"[1]. والأثقل أعظم أجرا، فالمعنى تحريض على قيام الليل لكثرة الأجر.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٨٠٤) ومسلم الحديث رقم: (١٠٨٢) وسنن أبي داود الحديث رقم: (١٢٣٠).

الثاني: أشد ثبوتا من أجل الخلوة وحضور الذهن والبعد عن الناس، ويقرب هذا من معنى أقوم قيلا وقرئ وطئا بكسر الواو على وزن فعال ومعناه موافقة أي يوافق القلب اللسان بحضور الذهن .

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ السبح هنا: عبارة عن التصرف في الاشتغال، والمعنى يكفيك النهار للتصرف في أشغالك، وتفرغ بالليل لعبادة ربك، وقيل: المعنى إن فاتك شيء من صلاة الليل فأده بالنهار فإنه طويل يسع فيه ذلك .

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ قيل: معناه قل بسم الله الرحمن الرحيم في أول صلاتك، واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ أي انقطع إليه بالعبادة والتوكل عليه وحده، وقيل: التبتل رفض الدنيا وتبتيلا مصدر على غير قياس .

﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ الوكيل: هو القائم بالأمور والذي توكل إليه الأشياء، فهو أمر بالتوكل على الله.

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي على ما يقول الكفار والآية منسوخة بالسيف، وقيل: إنما المنسوخ المهادنة التي يقتضيها قوله: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا﴾ وأما الصبر فمأمور به في كل وقت .

* * * *

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا تهديد لهم وانتصب المكذبين على أنه مفعول معه أو معطوف .

﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي التنعم في الدنيا، وروي: أن الآية نزلت في بني المغيرة وهم قوم من قريش كانوا أغنياء متنعمين في الدنيا .

﴿أَنكَالًا﴾ جمع نكل وهو القيد من الحديد، وروي: أنها قيود سود من نار .

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ يعني شجرة الزقوم، ومعنى ذا غصة أي يغص به أي يختنق وقيل: هو شوك من نار يعترض في حلوقهم لا ينزل ولا يخرج، وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق .

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي تهتز وتتزلزل، والعامل في يوم معنى الكلام المتقدم وهو: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ .

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ الكثيب: كدس الرمل، والمهيل: اللين الرخو الذي تهيله الريح أي تنشره، وزنه مفعول والمعنى أن الجبال تصير إذا نسفت يوم القيامة مثل الكثيب .

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ خطاب لجميع الناس لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة وقال الزمخشري: هو خطاب لأهل مكة .

و﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ أي يشهد بأعمالكم من الكفر والإيمان والطاعة والمعصية وإنما يشهد على من أدركه لقوله صلى الله عليه وسلم:" أقول كما قال أخي عيسى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾".

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ يعني موسى عليه السلام وهو المراد بقوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ فاللام للعهد.

﴿أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ أي عظيما شديدا .

﴿يَوۡمٗا﴾ مفعول به وناصبه تتقون أي كيف تتقون يوم القيامة وأهواله إن كفرتم، وقيل: هو مفعول به على أن يكون كفرتم بمعنى جحدتم، وقيل: هو ظرف أي كيف لكم بالتقوى يوم القيامة، ويحتمل أن يكون العامل فيه محذوفاً تقديره اذكروا قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾.

﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ الولدان جمع وليد: وهو الطفل الصغير، والشيب بكسر الشين جمع أشيب ووزنه فعل بضم الفاء وكسرت لأجل الياء ويجعل يحتمل أن يكون مسندا إلى الله تعالى أو إلى اليوم، والمعنى أن الأطفال يشيبون يوم القيامة، فقيل: إن ذلك حقيقة، وقيل: إنه عبارة عن هول ذلك اليوم، وقيل: إنه عبارة عن طوله .

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ الانفطار: الانشقاق، والضمير المجرور يعـود علـى اليوم أي تتفطر السماء لشدة هوله، ويحتمل أن يعود على الله الـذي تنفطـر بأمره وقدرته، والأول أظهر والسماء مؤنثة وجاء منفطر بالتذكير لأن تأنيثهـا غير حقيقي، أو على الإضافة تقديره ذات انفطار أو لأنه أراد السقف.

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ الضمير في وعده يحتمل أن يعود على اليوم أو علـى الله، والأول أظهر لأنه ملفوظ به.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من المواعظ والوعيد.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ يريـد سـبيل التقـرب إلى الله ومعـنى الكلام حض على ذلك وترغيب فيه.

* * * *

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ هذه الآية نزلت ناسخة لما أمر به في أول السورة من قيام الليل ومعناها أن الله يعلم أنك ومن معك من المسلمين تقومون قياما مختلفا مرة يكثر ومرة يقل لأنكم لا تقدرون على إحصاء أوقات الليل وضبطها فإنه لا يقدر على ذلك إلا الله فخفف عنكم وأمركم أن تقرؤوا ما تيسر من القرآن .

﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ من قرأها بالخفض فهو عطف على ثلثي الليل أي تقوم أقل من ثلثي الليل وأقل من نصفه ومن ثلثه ومن قرأ بالنصب فهو عطف على أدنى أي تقوم أقل من ثلثي الليل وتقوم نصفه تارة وثلثه تارة.

﴿ وَطَآئِفَةٌ﴾ يعني المسلمين وهو معطوف على الضمير الفاعل في تقوم.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ الضمير يعود على ما يفهم من سياق الكلام أي لن تحصوا تقدير الليل، وقيل: معناه لن تطيقوه أي لن تطيقوا قيام الليل كله.

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عبارة عن التخفيف كقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي إذا لم تقدروا على قيام الليل كله فقوموا بعضه واقرؤوا في صلاتكم بالليل ما تيسر من القرآن وهذا الأمر للندب، وقال ابن عطية : هو للإباحة عند الجمهور، وقال قوم منهم

الحسن وابن سيرين: هو فرض لابد منه ولو أقل ما يمكن، حتى قال بعضهم: من صلى الوتر فقد امتثل هذا الأمر، وقيل: كان فرضا ثم نسخ بالصلوات الخمس، وقال بعضهم: هو فرض على أهل القرآن دون غيرهم.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ ذكر الله في هذه الآية الأعذار التي تكون لبني آدم تمنعهم من قيام الليل فمنها: المرض، ومنها السفر للتجارة وهي الضرب في الأرض لابتغاء فضل الله، ومنها: الجهاد، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر تأكيدا للأمر به أو تأكيدا للتخفيف، وهذا أظهر لأنه ذكره بأثر الأعذار.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ يعني المكتوبتين.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ معناه تصدقوا وقد ذكر في البقرة.

﴿هُوَ خَيْرًا﴾ نصب خيرا لأنه مفعول ثان لتجدوه والضمير فصل.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ قال بعض العلماء: إن الاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية. "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا" (١).

* * * *

(١) مسلم الحديث رقم: (٩٣١) وسنن النسائي الحديث رقم: (١٣٢٠) وصحيح ابن خزيمة الحديث رقم: (٧١٥).

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وزنه متفعل، ومعناه الذي تدثر في كساء أو ثياب وتسميته بذلك كتسميته بالمزمل حسبما ذكرنا في موضعه، وقال السهيلي: في ندائه بالمدثر ثلاثة فوائد الاثنتان اللتان ذكرتا في المزمل، وفائدة ثالثة وهي: أن العرب يقولون النذير العريان، للنذير الذي يكون في غاية الجد والتشمير، والنذير بالثياب ضد هذا فكأنه تنبيه على ما يجب من التشمير، وقيل: إن هذه أول سورة نزلت من القرآن، والصحيح أن سورة اقرأ نزلت قبلها .

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي أنذر الناس وهذه بعثة عامة .

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظمه، ويحتمل أن يريد قول الله أكبر، ويؤيد ذلك ما روي عن أبي هريرة: أن المسلمين قالوا بم نفتتح صلاتنا؟ فنزلت: وربك فكبر، وقوله وربك فكبر من المقلوب الذي يقرأ من أوله وآخره .

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه حقيقة في تطهير الثياب من النجاسة، واختلف على هذا هل يحمل على الوجوب؟ فتكون إزالة النجاسة واجبة أو على الندب؟ فتكون سنة.

والآخر: أنه يراد به الطهارة من الذنوب والعيوب فالثياب على هذا مجاز.

الثالث: أن معناه لا تلبس الثياب من مكسب خبيث.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الرجز: الأوثان، روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول عائشة.

والآخر: أن الرجز: السخط والعذاب، وهذا أصله في اللغة فمعناه اهجر ما يؤدي إليه ويوجبه.

الثالث: أنه المعاصي والفجور، قال بعضهم: كل معصية رجز.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ يحتمل قوله تمنن أن يكون بمعنى العطاء أو بمعنى المن وهو ذكر العطاء وشبهه أو بمعنى الضعف فإن كان بمعنى العطاء ففيه وجهان:

أحدهما: أن معناه لا تعط شيئا لتأخذ أكثر منه قال بعضهم هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ومباح لأمته.

والآخر: لا تعط الناس عطاء وتستكثره لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كثيرا وإن كان من المن بالشيء ففيه وجهان:

الأول: لا تمنن على الناس بنبوتك تستكثر بأجر أو مكسب تطلبه.

الثاني: لا تمنن على الله بعملك تستكثر أعمالك ويقع لك بها إعجاب، وإن كان من الضعف فمعناه لا تضعف عن تبليغ الرسالة وتستكثر ما حملناك من ذلك.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي اصبر لوجهه وطلب رضاه ويحتمل أن يريد الصبر على المكاره والمصائب، أو على إذاية الكفار له أو على العبادة .

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ يعني نفخ في الصور، ويحتمل أن يريد النفخة الأولى أو الثانية .

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ هذا وعيد وتهديد ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة باتفاق، وفي معنى وحيدا ثلاثة أقوال:

أحدها: روي أنه كان يلقب الوحيد، أي لا نظير له في ماله وشرفه وكونه وحيدا نعمة عددها الله عليه.

الثاني: أن معناه خلقته منفردا ذليلا.

الثالث: أن معناه خلقته وحدي، فوحيدا على هذا من صفة الله تعالى وإعرابه على هذا حال من الضمير الفاعل في قوله خلقت وهو على القولين الأولين حال من الضمير المفعول .

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي كثيرا، واختلف في مقداره فقيل: ألف دينار، وقيل: عشرة آلاف دينار، وقيل: يعني الأرض لأنها مدت .

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي حضورا، وروي: أنه كان له عشرة من الأولاد، وقيل: ثلاثة عشر لا يفارقونه وأسلم منهم ثلاثة، وهم: خالد، وهشام، وعمار.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي بسطت له في الدنيا بالمال والقوة وطيب العيش.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي يطمع في الزيادة على ما أعطاه الله وهذا غاية الحرص.

﴿كَلَّآ﴾ زجر عما طمع فيه من الزيادة .

﴿عَنِيدًا﴾ أي معاندا مخالفا والآيات هنا يراد بها القرآن لأن الوليد قال فيه: إنه سحر، ويحتمل أن يريد الدلائل .

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ الصعود: العقبة الصعبة، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها: عقبة في جهنم كلما صعدها الإنسان ذاب ثم يعود. فالمعنى سأشق عليه بتكليفه الصعود فيها .

* * * *

إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي فكر فيما يقول وقدر في نفسه ما يقول في القرآن أي هيأ كلامه، روي: أن الوليد سمع القرآن فأعجبه وكاد يسلم ودخل إلى أبى بكر الصديق فعاتبه أبو جهل، وقال له: إن قريشا قد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد وما يخلصك عندهم إلا أن تقول في كلام محمد قولا يرضيهم فافتتن وقال أفعل ذلك، ثم فكر فيما يقول في القرآن فقال: أقول شعر ما هو شعر! أقول كهانة ما هو بكهانة! أقول: إنه سحر وإنه قول البشر ليس منزلا من عند الله .

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاء عليه وذم وكرره تأكيدا لذمه وتقبيح حاله، قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون مقتضاه استحسان منزعه الأول حين أعجبه القرآن فيكون قوله قتل لا يراد به الدعاء عليه وإنما هو كقولهم: قاتل الله فلانا ما أشجعه، يريدون التعجب من حاله واستعظام وصفه، وقال الزمخشري: يحتمل أن يكون ثناء عليه على طريقة الاستهزاء أو حكاية لقول قريش تهكما بهم .

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي نظر في قوله .

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ البسور: هو تقطيب الوجه، وهو أشد من العبوس، وفعل ذلك من حسده للنبي صلى الله عليه وسلم، أي عبس في وجهه عليه الصلاة والسلام أو عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول .

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي أعرض عن الإسلام .

﴿ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي ينقل عمن تقدم .

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تعظيم لها وتهويل .

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ مبالغة في وصف عذابها أي لا تدع غاية من العذاب إلا أذاقته إياها أو لا تبقي شيئا ألقي فيها إلا أهلكته وإذا أهلك لم تذره هالكا بل يعود للعذاب .

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ معنى لواحة مغيِّرة يقال لاحه السفر وغيره: إذا غيَّره، والبشر جمع بشرة وهي الجلدة، فالمعنى أنها تحرق الجلود وتسودها، وقيل: لواحة من لاح إذا ظهر والبشر الناس أي تلوح للناس، وقال الحسن: تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام .

﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ يعني الزبانية خزنة جهنم، فقيل: هم تسعة عشر ملكا، وقيل: تسعة عشر صفا من الملائكة، والأول أشهر .

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ سبب هذه الآية أنه لما نزل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل: أيعجز عشرة منكم عن واحد من هؤلاء التسعة عشر أن يبطشوا به؟ فنزلت الآية، ومعناها أنهم ملائكة لا طاقة لكم بهم، وروي: أن الواحد منهم يرمي بالجبل على الكفار.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي جعلناهم هذا العدد ليفتتن الكفار بذلك ويطمعوا أن يغلبوهم ويقولون ما قالوا .

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليعلم أهل التوراة والإنجيل أن ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم من عدد ملائكة النار حق لأنه موافق لما في كتبهم .

﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ أي لا يشك .

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أن ما قاله محمد صلى الله عليه وسلم حق، فإن قيل: كيف نفى عنهم الشك بعد أن وصفهم باليقين والمعنى واحد وهو تكرار؟ فالجواب: أنه لما وصفهم باليقين نفى عنهم أن يشكوا فيما يستقبل بعد يقينهم الحاصل الآن فكأنه وصفهم باليقين في الحال والاستقبال، وقال الزمخشري: ذلك مبالغة وتأكيد .

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرض عبارة عن الشك وأكثر ما يطلق الذين في قلوبهم مرض على المنافقين، فإن قيل: هذه السورة مكية ولم يكن حينئذ منافقون وإنما حدث المنافقون بالمدينة؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن معناه يقول المنافقون إذا حدثوا ففيه إخبار بالغيب.

والآخر: أن يريد من كان بمكة من أهل الشك، وقولهم ماذا أراد الله بهذا مثلا استبعاد لأن يكون هذا من عند الله .

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ يحتمل القصد بهذا وجهين:

أحدهما: وصف جنود الله بالكثرة أي هم من كثرتهم لا يعلمهم إلا الله.

والآخر: رفع اعتراض الكفار على التسعة عشر أي لا يعلم أعداد جنـود الله إلا هو لأن منهم عددا قليلا ومنهم عددا كثيرا حسبما أراد الله .

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ الضمير لجهنم أو للآيات المتقدمة .

* * * *

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ۝ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ۝ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۝ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۝﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للكفار عن كفرهم، وقال الزمخشري: هي إنكار لأن تكون لهم ذكرى .

﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي ولى وقرئ دبر بغير ألف والمعنى واحد، وقيل: معناه دبر الليل والنهار أي جاء في دبره .

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي أضاء ومنه الإسفار بصلاة الصبح .

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ الضمير لجهنم أو للآيات والنذارة أي هي من الأمور العظام والكبر جمع كبرى وقال ابن عطية: جمع كبيرة، والأول هو الصحيح.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ تمييز أو حال من إحدى الكبر، وقيل: النذير هنا الله، فالعامل فيه على هذا محذوف وهذا ضعيف، وقيل: هو حال من أول السورة أي قم فأنذر نذيرا وهذا بعيد، قال الزمخشري: هو من بدع التفاسير.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ التقديم عبارة عن تقديم سلوك طريق الهدى، والتأخر ضده، ولمن شاء بدل من البشر، أي هم متمكنون من

التقدم والتأخر، وقيل: معناه الوعيد كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وعلى هذا أعرب الزمخشري أن يتقدم مبتدأ ولمن شاء خبره، والأول أظهر.

﴿رَهِينَةٌ﴾ قال ابن عطية: الهاء في رهينة للمبالغة أو على تأنيث النفس، وقال الزمخشري: ليست بتأنيث رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي بمعنى الرهن أي كل نفس رهن عند الله بعملها.

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي أهل السعادة فإنهم فكوا رقابهم بأعمالهم الصالحة كما فك الراهن رهنه بأداء الحق، وقال علي بن أبي طالب: أصحاب اليمين هم الأطفال لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها. وقال ابن عباس: هم الملائكة.

﴿ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضا عن حال المجرمين الذين في النار .

﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ أي ما أدخلكم النار وهذا خطاب للمجرمين يحتمل أن خاطبهم به المسلمون أو الملائكة فأجابوهم بقولهم: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ وما بعده أي هذا الذي أوجب دخولهم النار وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيما له لأنه أكبر جرائمهم .

﴿نَخُوضُ ﴾ الخوض هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه .

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ هو الموت عند المفسرين، وقال ابن عطية: إنما اليقين الذي أرادوا ما كانوا يكذبون به في الدنيا فيتيقنون بعد الموت .

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ إنما ذلك لأنهم كفار وأجمع العلماء على أنه لا يشفع أحد في الكفار، وجمع الشافعين دليل على كثرتهم كما ورد في الآثار: "تشفع الملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء والصالحون"[1].

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ يعني كفار قريش .

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ المستنفرة بفتح الفاء التي استنفرها الفزع وبالكسر بمعنى النافرة شبه الكفار بالحمر النافرة في جهلهم ونفورهم عن الإسلام ويعني حمر الوحش .

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ قال ابن عباس: القسورة الرماة، وقال أيضا: هو الأسد، وقيل: أصوات الناس، وقيل: الرجال الشداد، وقيل: سواد أول الليل .

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ المعنى يطمع كل إنسان منهم أن ينزل عليه كتاباً من الله، ومعنى منشرة: منشورة غير مطوية أي طرية كما كتبت لم تطو بعد وذلك أنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: لا نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء فيه من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر باتباعك .

﴿كَلَّا﴾ ردع عما أرادوه .

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي هذه هي العلة والسبب في إعراضهم .

﴿كَلَّآ﴾ تأكيد الردع الأول أو ردع عن عدم خوفهم الآخرة .

---

(١) انظر تفسير الخازن ٢/ ٣٩١.

﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ الضمير لما تقدم من الكلام أو للقرآن بجملته .

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فاعل شاء ضمير يعود على من، وفي ذلك حض وترغيب، وقيل: الفاعل هو الله ثم قيد فعل العبد بمشيئة الله .

﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي هو أهل لأن يتقى لشدة عقابه وهو أهل لأن يغفر الذنوب لكرمه وسعة رحمته وفضله.

* * * *

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ في الموضعين معناه أقسم ولا زائدة لتأكيد القسم، وقيل: هي استفتاح كلام بمنزلة ألا، وقيل: هي نفي لكلام الكفار .

﴿بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ هي التي تلوم نفسها على فعل الذنوب أو التقصير في الطاعات، فإن النفوس على ثلاثة أنواع: فخيرها النفس المطمئنة، وشرها النفس الأمارة بالسوء، وبينهما النفس اللوامة، وقيل: اللوامة هي المذمومة الفاجرة وهذا بعيد لأن الله لا يقسم إلا بما يعظم من المخلوقات ويستقيم إن كان لا أقسم نفيا للقسم .

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ الإنسان هنا للجنس والإشارة به للكفار المنكرين للبعث ومعناه أيظن أن لن نجمع عظامه للبعث بعد فنائها في التراب وهذه الجملة هي التي تدل على جواب القسم المتقدم .

﴿بَلَىٰ﴾ تقديره نجمعها .

﴿قَٰدِرِينَ﴾ منصوب على الحال من الضمير في نجمع والتقدير نجمعها ونحن قادرون .

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ البنان الأصابع وفي المعنى قولان:

أحدهما: أنه إخبار بالقدرة على البعث، أي قادرين على أن نسوي أصابعه، أي نخلقها بعد فنائها مستوية متقنة، وإنما خص الأصابع دون سائر الأعضاء لدقة عظامها وتفرقها.

والآخر: أنه تهديد في الدنيا، أي قادرين على أن نجعل أصابعه مستوية ملتصقة كيد الحمار وخف الجمل فلا يمكنه تصريف يديه في منافعه، والأول أليق بسياق الكلام .

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ هذه الجملة معطوفة على أيحسب الإنسان، ويجوز أن يكون استفهاما مثلها أو تكون خبرا وليست بل هنا للإضراب عن الكلام الأول بمعنى إبطاله وإنما هي للخروج منه إلى ما بعده، وليفجر معناه: ليفعل أفعال الفجور، وفي معنى أمامه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عبارة عما يستقبل من الزمان أي يفجر بقية عمره.

الثاني: أنه عبارة عن اتباع أغراضه وشهواته يقال مشى فلان قدامه إذا لم يرجع عن شيء يريده، والضمير على هذين القولين يعود على الإنسان.

الثالث: أن الضمير يعود على يوم القيامة، والمعنى يريد الإنسان أن يفجر قبل يوم القيامة .

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيان معناها متى، وهذا السؤال عن يوم القيامة هو على وجه الاستخفاف والاستبعاد .

﴿ بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ هذا إخبار عن يوم القيامة، وقيل: عن حالة الموت، وهذا خطأ لأن القمر لا يخسف عند موت أحد ولا يجمع بينه وبين الشمس،

وبرق بفتح الراء معناه لمع وصار له بريق وقرئ بكسر الراء ومعناه تحير من الفزع، وقيل: معناه شخص فيتقارب معنى الفتح والكسر.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ذهب ضوئه، يقال خسف هو وخسفه الله والخسوف للقمر والكسوف للشمس، وقيل: الكسوف ذهاب بعض الضوء، والخسوف ذهاب جميعه، وقيل: هما بمعنى واحد .

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في جمعهما ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهما يجمعان حيث يطلعهما الله من المغرب.

والآخر: أنهما يجمعان يوم القيامة ثم يقذف بهما في النار، وقيل: في البحر فتكون النار الكبرى.

الثالث: أنهما يجمعان فيذهب ضوئهما .

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي لا ملجأ ولا مغيث .

﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي بجميع أعماله ما قدم منها في أول عمره وما أخر في آخره، وقيل: ما تقدم في حياته وما أخر من سنة أو وصية بعد مماته، وقيل: ما قدم من المعاصي وأخر من الطاعات، وقيل: ما قدم لنفسه من ماله وما أخر منه لورثته .

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أنه شاهد على نفسه بأعماله إذ تشهد عليه جوارحه يوم القيامة.

والآخر: أنه حجة بينة لأن خلقته تدل على خالقه، فوصف بالبصارة مجازا لأن من نظر فيه أبصر الحق، والأول أليق بما قبله وما بعده كأنه قال:

ينبأ الإنسان يومئذ بأعماله بل هو يشهد بأعماله وإن لم ينبأ بها، وكذلك يلتئم مع قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ويكون هو جواب لو حسبما نذكره .

* * * *

وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المعاذير الأعذار أي الإنسان يشهد على نفسه بأعماله ولو اعتذر عن قبائحها.

والآخر: أن المعاذير: الستور، أي أن الإنسان يشهد على نفسه يوم القيامة ولو سدل الستور على نفسه في الدنيا حين يفعل القبائح.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ الضمير في به يعود على القرآن دلت على ذلك قرينة الحال، وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يحرك به شفتيه مخافة أن ينساه لحينه فأمره الله أن ينصت ويستمع". وقيل: كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب عليه ذلك وشق عليه فنزلت الآية، والأول هو الصحيح لأنه ورد في البخاري وغيره .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ ضمن الله له أن يجمعه في صدره فلا يحتاج إلى تحريك شفتيه عند نزوله، ويحتمل قرآنه هنا وجهين:

أحدهما: أن يكون بمعنى القراءة فإن القرآن قد يكون مصدرا من قرأت.

والآخر: أن يكــون معناه تأليفه في صدره فهو مصدر من قولك قــرأت الشيء أي جمعته .

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي إذا قرأه جبريل فاجعل قـراءة جبريـل قـراءة الله لأنها من عنده ومعنى اتبع قرآنه اسمـع قراءتـه واتبعهـا بـذهنك لتحفظهـا، وقيل: اتبع القرآن في الأوامر والنواهي .

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي علينا أن نبينه لك ونجعلك تحفظه، وقيـل: علينـا أن نبين معانيه وأحكامه، فإن قيل: ما مناسبة قوله لا تحرك به لـسانك الآيـة لما قبلها؟ فالجواب: أنه لعله نزل معه في حين واحـد فجعـل علـى ترتيـب النزول .

﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي تحبون الدنيا وهذا الخطاب توبيخ للكفار ومـن كـان على مثل حالهم في حب الدنيا و﴿كَلَّا﴾ ردع عن ذلك .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ بالضاد أي ناعمة ومنه نضرة النعيم .

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ هذا من النظر بالعين وهو نص في نظـر المـؤمنين إلى الله تعالى في الآخرة وهو مذهب أهل السنة، وأنكره المعتزلة وتأولوا ناظرة بأن معناها منتظرة وهذا باطل، لأن نظر بمعنى انتظـر يتعـدى بغـير حـرف جـر تقول نظرتك أي انتظرتك، وأما المتعدي بإلى فهو من نظر العين ومنه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ وقال بعضهم إلى هنا ليست بحرف جر وإنمـا هـي واحد الآلاء بمعنى النعم وهذا تكلف في غاية البعد، وتأوله الزمخشري بأن معناه كقول الناس فلان ناظر إلى فلان إذا كان يرتجيه ويتعلق به وهذا بعيد،

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في النظر إلى الله أحاديث صحيحة مستفيضة صريحة المعنى لا تحتمل التأويل فهي تفسير للآية .

﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي عابسة تظهر عليها الكآبة، والبسور: أشد من العبوس .

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي مصيبة قاصمة الظهر، والظن هنا يحتمل أن يكون على أصله أو بمعنى اليقين .

﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ يعني حالة الموت، والتراقي جمع ترقوة: وهي عظام أعلى الصدر، والفاعل ببلغت نفس الإنسان، دل على ذلك سياق الكلام وهو عبارة عن حال الحشرجة وسياق الموت .

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي قال أهل المريض من يرقيه عسى أن يشفيه، وقيل: معناه أن الملائكة تقول من يرقى بروحه أي يصعد بها إلى السماء، فالأول من الرقية وهو أشهر وأظهر، والثاني من الرقي إلى العلو .

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي تيقن المريض أن ذلك الحال فراق الدنيا وفراق أهله وماله .

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ هذا عبارة عن شدة كرب الموت وسكراته، أي التفت ساقه على ساقه الأخرى عند السياق، وقيل: هو مجاز كقولك: كشفت الحرب عن ساقها إذا اشتدت، وقيل: معناه ماتت ساقه فلا تحمله، وقيل: التفت أي لفها الكافر إذا كفر، وفي قوله الساق والمساق ضرب من ضروب التجنيس .

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ هذا جواب إذا بلغت التراقي، والمساق مصدر من السوق كقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ لا هنا نافية وصدق يحتمل أن يكون من التصديق بـالله ورسله أو من الصدقة ونزلت هذه الآية وما بعدها في أبي جهل .

﴿ يَتَمَطَّىٰ ﴾ أي يتبختر في مشيـته وذلك عبارة عـن التكـبر والخيـلاء وكانت هذه المشية معروفة في بني مخزوم الذين كان أبو جهل منهم .

﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ وعيد وتهديد .

﴿فَأَوْلَىٰ﴾ وعيد ثان ثم كرر ذلك تأكيدا، وروي: أن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم لبب أبا جهل، وقال لـه: إن الله يقـول لـك أولى لـك فـأولى ثم أولى لك فأولى. فنزل القرآن بموافقة ذلك .

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ هذا توبيخ ومعناه أيظن أن يترك من غير بعث ولا حساب ولا جزاء فهو كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ والإنسان هنا جنس، وقيل: نزلت في أبى جهـل، ولا يبعـد أن يكـون سـببها خاصـا ومعناها عاماً .

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ النطفة: النقطة، وتمنى من قولك أمـنى الرجـل، ومعنى الآية الاستدلال بخلقـة الإنـسان علـى بعثـه كقولـه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ والعلقة: الدم، لأن المني يصير في الرحم دما .

﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي خلقه الله بشرا فسوى صورته أي أتقنها .

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هذا تقرير واحتجاج، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم:" كان إذا قرأ آخر هذه السورة قال: بلى". وفي روايـة: " سبحانك اللهم بلى ".

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝﴾

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ هل هنا بمعنى التقرير لا لمجرد الاستفهام، وقيل: هي بمعنى قد والإنسان هنا جنس والحين الذي أتى عليه حين كان معدوما قبل أن يخلق، وقيل: الإنسان هنا آدم والحين الذي أتى عليه حين كان طينا قبل أن ينفخ فيه الروح وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ وهو هنا جنس باتفاق إذ لا يصح هذا في آدم.

والآخر: أن مقصد الآية تحقير الإنسان .

﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي أخلاط واحدها مشج بفتح الميم والشين، وقيل: مشج بوزن عدل، وقال الزمخشري: ليس أمشاج بجمع وإنما هو مفرد كقولهم برمة أعشار ولذلك وقع صفة للمفرد واختلف في معنى الأخلاط هنا فقيل اختلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وقيل: اختلاط ماء الرجل والمرأة، وروي: أن عظام الإنسان وعصبه من ماء الرجل وأن

لحمه وشحمه من ماء المرأة، وقيل: معناه ألوان وأطوار أي يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة .

﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ أي نختبره وهذه الجملة في موضع الحال أي خلقناه مبتلين له، وقيل: معناه نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة .

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ هذا معطوف على خلقنا الإنسان ومن جعل نبتليه بمعنى نصرفه في بطن أمه فهذا عطف عليه، وقيل: أن نبتليه مؤخر في المعنى أي جعلناه سميعا بصيرا لنبتليه وهذا تكلف بعيد .

﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي سبيل الخير والشر، ولذلك قسم الإنسان إلى قسمين شاكرا أو كفورا وهما حالان من الضمير في هديناه، والهدى هنا بمعنى بيان الطريقين وموهبة العقل الذي يميز به بينهما، ويحتمل أن يكون بمعنى الإرشاد أي هدى المؤمن للإيمان والكافر للكفر، قل كل من عند الله.

﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ من قرأه بغير تنوين فهو الأصل إذ هو لا ينصرف لأنه جمع لا نظير له في الآحاد ومن قرأه بالتنوين فله ثلاث توجيهات:

أحدها: أنها لغة لبعض العرب يصرفون كل ما لا ينصرف إلا أفعل.

والآخر: أن النون بدل من حرف الإطلاق وأجرى الوصل مجرى الوقف.

والثالث: أن يكون صاحب هذه القراءة راوية للشعر قد عود لسانه صرف ما لا ينصرف فجرى على ذلك .

﴿ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بار أو بر، ومعناه العاملون بالبر وهو غاية التقوى والعمل الصالح حتى قال بعضهم الأبرار هم الذين لا يؤذون الذر .

﴿مِن كَأْسٍ ﴾ ذكر في الصافات معنى الكاس ومن هنا يحتمل أن تكون للتبعيض أو لابتداء الغاية.

﴿ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ أي تمزج الخمر بالكافور، وقيل: المعنى أنه كافور في طيب رائحته كما تمدح طعاما فتقول هذا مسك .

﴿عَيْنًا﴾ بدل من كافورا على القول بأن الخمر تمزج بالكافور أو بدل من موضع من كأس على القول الآخر كأنه قال: يشربون خمراً خمر عين، وقيل: هو مفعول يشربون، وقيل: منصوب بإضمار فعل.

﴿يَشْرَبُ بِهَا ﴾ قال ابن عطية: الباء زائدة والمعنى يشربها وهذا ضعيف لأن الباء إنما تزاد في مواضع ليس هذا منها وإنما هي كقولك شربت الماء بالعسل لأن العين المذكورة تمزج بها الكأس من الخمر .

﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ وصفهم بالعبودية وفيه معنى التشريف والاختصاص كقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يفجرونها حيث شاؤوا من منازلهم تفجيرا سهلا لا يصعب عليهم، وفي الأثر أن في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة عينا تفجر إلى قصور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين .

﴿ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي منتشرا شائعا ومنه استطار الفجر إذا انشق ضوئه .

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ نزلت هذه الآية وما بعدها في علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فإنهم كانوا صائمين فلما وضعوا فطورهم ليأكلوه جاء مسكين فدفعوه له وباتوا طاوين وأصبحوا صائمين

فلما وضعوا فطورهم جاء يتيم فدفعوه له وباتوا طاوين وأصبحوا صائمين فلما وضعوا فطرهم جاء أسير فدفعوه له وباتوا طاوين والآية على هذا مدنية لأن عليا إنما تزوج فاطمة بالمدينة، وقيل: هي مكية وليست في علي.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ الضمير للطعام أي يطعمونه مع حبه والحاجة إليه فهو كقوله: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وقوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ففي قوله على حبه تتميم وهو من أدوات البيان، وقيل: الضمير لله، وقيل: للإطعام المفهوم من يطعمون والأول أرجح وأظهر.

﴿ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ قد ذكرنا المسكين واليتيم، وأما الأسير ففيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه الأسير الكافر بين المسلمين ففي إطعامه أجر لأنه في كل ذي كبد رطبة أجر، وقيل: نسخ ذلك بالسيف.

والآخر: أنه الأسير المسلم إذا خرج من أرض الحرب لطلب الفدية.

والثالث: أنه المملوك.

والرابع: أنه المسجون.

الخامس: أنه المرأة لقوله صلى الله عليه وسلم: " استوصوا بالنساء خيرا فإنهنَّ عوان عندكم"[1]. وهذا بعيد والأول أرجح، لأنه روي أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان يؤتى بالأسير المشرك فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: أحسن إليه" .

---

(١) مسلم الحديث رقم ٢٦٧١ وسنن أبي داود رقم ١٦٢٨ وشعب الإيمان للبيهقي حديث رقم ٥٠٣٢ وجامع الأصول من أحاديث الرسول ١/ ٥٢ ومسند ابن أبي شيبة الحديث رقم (٥٦٣).

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ عبارة عن الإخلاص لله ولذلك فسروه وأكدوه بقولهم لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، والشكور مصدر كالشكر، ويحتمل أنهم قالوا هذا الكلام بألسنتهم أو قالوه في نفوسهم فهو عبارة عن النية والقصد.

﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ وصف اليوم بالعبوس مجاز على وجهين:

أحدهما: أن يوصف اليوم بصفة أهله كقولهم نهاره صائم وليله قائم، وروي: أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل الدم من عينيه مثل القطران.

والآخر: أن يشبه في شدته بالأسد العبوس .

﴿قَمْطَرِيرًا﴾ قال ابن عباس: معناه طويل، وقيل: شديد .

* * * *

فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا
عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ
عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ
مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ
مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ النضرة التنعم وهذا في مقابلة عبوس الكافر، وقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ من أدوات البيان .

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي بصبرهم على الجوع وإيثار غيرهم على أنفسهم حسبما ذكرنا من قصة علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، وقد ذكرنا الأرائك .

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ عبارة عن اعتدال هوائها أي ليس فيها حر ولا برد، والزمهرير: هو البرد الشديد، وقيل: هو القمر بلغة طيء، والمعنى على هذا أن للجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس ولا قمر.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ معناه أن ظلال الأشجار متدلية عليهم قريبة منهم لأن الشيء المتصل إذا بعدَ اقترب ظله، وإعراب دانية معطوف على متكئين وقال الزمخشري: هو معطوف على الجملة التي قبلها وهي لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا لأن هذه الجملة في حكم المفرد تقديره غير رائين فيها شمسا ولا زمهريرا ودانية ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم أي جامعين بين البعد عن الحر والبرد وبين دنو الظلال، وقيل: هو

صفة لجنة عطفت بالواو كقولك فلان عالم وصالح، وقيل: هو معطوف عليها أي وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها .

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ القطوف جمع قطف: وهو العنقود من النخل والعنب وشبه ذلك، وتذليلها هو أن تتدلى إلى الأرض، وروي: أن أهل الجنة يقطعون الفواكه على أي حال كانوا من قيام أو جلوس أو اضطجاع لأنها تتدلى لهم كما يريدون، وهذه الجملة في موضع الحال من دانية أي دانية في حال تذليل قطوفها أو معطوفة عليها .

﴿بِآنِيَةٍ﴾ هي جمع إناء ووزنها أفعله وقد ذكرنا الأكواب في الواقعة .

﴿قَوَارِيرَا﴾ القوارير: هي الزجاج، فإن قيل: كيف يتفق أنها زجاج مع قوله من فضة؟ فالجواب: أن المراد أنها في أصلها من فضة وهي تشبه الزجاج في صفائها وشفيفها، وقيل: هي من زجاج وجعلها من فضة على وجه التشبيه لشرف الفضة وبياضها، ومن قرأ بغير تنوين فهو على الأصل ومن نونه فعلى ما ذكرنا في سلاسلاً .

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ هذه صفة للقوارير، والمعنى قدروها على قدر الأكف أو على قدر ما يحتاجون من الشراب، قال مجاهد: هي لا تغيض ولا تفيض، وقيل: قدروها على حسب ما يشتهون، والضمير الفاعل في قدروها يحتمل أن يكون للشاربين بها أو للطائفتين بها .

﴿مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ هو كما ذكرنا في مزاجها كافورا .

﴿سَلْسَبِيلًا﴾ معناه أنه سلس منقاد لجريه وقيل: سهل الانحدار في الحلق، يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل بمعنى واحد وزيدت الباء

في التركيب للمبالغة في سلاسته فصارت الكلمة خماسية، وقيل: سل فعل أمر سبيلا مفعول به وهذا في غاية الضعف .

﴿ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ ذكر في الواقعة .

﴿ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ شبههم باللؤلؤ في الحسن والبياض، وبالمنثور منه في كثرتهم وانتشارهم في القصور.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ مفعول رأيت محذوف ليكون الكلام على الإطلاق في كل ما يرى فيها وثم ظرف مكان، وقال الفراء: تقديره إذا رأيت ما ثَم، فما مفعولة ثم حذفت، قال الزمخشري: وهذا خطاب لأن ثم صلة لما ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة .

﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ يعني كثرة ما أعطاهم الله حتى إن أدنى أهل الجنة منزلة له مثل الدنيا وعشرة أمثاله معه حسبما ورد في الحديث، وقيل: أراد أن الملائكة تسلم عليهم وتستأذن عليهم فهم بذلك كالملوك .

﴿ عَالِيَهُمْ ﴾ بسكون الياء مبتدأ خبره: ﴿ ثِيَابُ سُندُسٍ ﴾ أي ما يعلوهم من الثياب ثياب سندس، وقرئ بالنصب على الحال من الضمير في يطوف عليهم أو في حسبتهم، وقال ابن عطية: العامل فيه لقاهم أو جزاهم، وقال أيضا: يجوز أن ينتصب على الظرف لأن معناه فوقاهم. وقد ذكرنا معنى السندس والإستبرق وقرئ: ﴿ خُضْرٌ ﴾ بالخفض صفة لسندس، وبالرفع صفة لثياب .

﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ بالرفع عطف على ثياب وبالخفض عطف على سندس.

﴿ وَحُلُّوا ﴾ وزنه فعلوا معناه جعل لهم حلى .

﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ ذكرنا الأساور في الكهف، فإن قيل: كيف قال هنا أساور من فضة، وفي موضع آخر أساور من ذهب؟ فالجواب: أن ذلك يختلف باختلاف درجات أهل الجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما"[1]. فلعل الذهب للمقربين والفضة لأهل اليمين، ويحتمل أن يكون أهل الجنة لهم أساور من فضة ومن ذهب معا.

﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي ليس بنجس كخمر الدنيا، وقيل: معناه أنه لم تعصره الأقدام، وقيل: معناه لا يصير بولا.

* * * *

(١) البخاري الحديث رقم: (٤٨٧٨) ومسلم الحديث رقم: (٢٦٥).

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي يقال لهم هذا يقوله الله تعالى والملائكة.

﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أو هنا للتنويع، فالمعنى لا تطع النوعين فاعلا للإثم ولا كفورا، وقيل: هي بمعنى الواو أي جامعا للوصفين لأن هذه هي حالة الكفار، وروي: أن الآية نزلت في أبي جهل، وقيل: إن الآثم عتبة بن ربيعة والكفور الوليد بن المغيرة، والأحسن أنها على العموم لأن لفظها عام وإن كان سبب نزولها خاصا .

﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ هذا أمر بذكر الله في كل وقت، وقيل هو: إشارة إلى الصلوات الخمس؛ فالبكرة: صلاة الصبح، والأصيل: الظهر والعصر، ومن الليل: المغرب والعشاء .

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ أي الدنيا والإشارة إلى الكفار، واليوم الثقيل يوم القيامة، ووصفه بالثقل عبارة عن هوله وشدته .

﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ الأسر الخلقة، وقيل: المفاصل والأوصال، وقيل: القوة .

﴿ بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أي أهلكنـاهم وأبـدلنا منـهم غيرهـم، وقيـل: مسخناهم فبدلنا صورهم وهذا تهديد .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ الإشارة إلى الآية أو السورة أو الشريعة بجملتها .

﴿فَمَن شَآءَ ﴾ تحضيض وترغيب ثم قيد مشيئتهم بمشيئة الله .

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره ويعذب الظالمين

* * * *

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾
عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ
نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ
﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ
﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

اختلف في معنى المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات على قولين:

أحدهما: أنها الملائكة.

والآخر: أنها الرياح، فعلى القول بأنها الملائكة سماهم المرسلات لأن الله تعالى يرسلهم بالوحي وغيره، وسماهم العاصفات لأنهم يعصفون كما تعصف الرياح في سرعة مضيهم إلى امتثال أوامر الله تعالى، وسماهم ناشرات لأنهم ينشرون أجنحتهم في الجو وينشرون الشرائع في الأرض أو ينشرون صحائف الأعمال، وسماهم الفارقات لأنهم يفرقون بين الحق والباطل، وعلى القول بأنها الرياح سماها المرسلات لقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وسماها العاصفات من قوله: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي شديدة، وسماها الناشرات لأنها تنشر السحاب في الجو ومنه قوله: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ وسماها الفارقات لأنها تفرق بين السحاب ومنه قوله: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ وأما

الملقيات ذكرا فهم الملائكة لأنهم يلقون الذكر للأنبياء عليهم السلام، والأظهر في المرسلات والعاصفات أنها الرياح لأن وصف الريح بالعصف حقيقة، والأظهر في الناشرات والفارقات أنها الملائكة لأن الوصف بالفارقات أليق بهم من الرياح، ولأن الملقيات المذكورة بعدها هي الملائكة ولم يقل أحد أنها الرياح ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال والمرسلات فالعاصفات، ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال والناشرات ثم عطف عليه المتجانسين بالفاء، وقد قيل في المرسلات والملقيات أنهم الأنبياء عليهم السلام .

﴿عُرْفًا﴾ معناه فضلا وإنعاما، وانتصابه على أنه مفعول من أجله، وقيل: معناه متتابعة وهو مصدر في موضع الحال، وأما عصفا ونشرا وفرقا فمصادر، وأما ذكرا فمفعول به .

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ العذر فسره ابن عطية وغيره: بمعنى إعذار الله إلى عباده لئلا تبقى لهم حجة أو عذر، وفسره الزمخشري: بمعنى الاعتذار، يقال عذر إذا محا الإساءة، وأما نذرا فمن الإنذار وهو التخويف، وقرئ بضم الذال في الموضعين وبإسكانها، ويحتمل أن يكونا مصدرين فيكون نصبهما على البدل من ذكرا أو مفعولا من أجله أو مفعولاً بذكرا، و يحتمل أن يكون عذرا جمع عذير أو عاذر ونذرا جمع نذير فيكون نصبهما على الحال.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني البعث والجزاء وهذا جواب القسم .

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي زال ضوئها وقيل: محيت.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي انشقت .

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي صارت غبارا .

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي جعل لها وقت معلوم فحان ذلك الوقت وجمعت للشهادة على الأمم يوم القيامة وقرئ وقتت بالواو وهو الأصل والهمزة بدل من الواو .

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ هو من الأجل التوقيت من الوقت وفيه توقيف يراد به تعظيم لذلك اليوم، ثم بينه بقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي يفصل فيه بين العباد ثم عظمه بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تكراره في هذه السورة قيل إنه تأكيد، وقيل: بل في كل آية ما يقتضي التصديق فجاء ويل يومئذ للمكذبين راجعا إلى ما قبله في كل موضع منها .

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني الكفار المتقدمين كقوم نوح وغيرهم.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ يعني قريشا وغيرهم من الكفار بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا وعيد لهم ظهر مصداقه يوم بدر وغيره .

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل هذا الفعل نفعل بكل مجرم يعني الكفار .

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ يعني المني، والمهين: الضعيف .

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني رحم المرأة وبطنها .

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني وقت الولادة، وهو معلوم عند الله وهو تسعة أشهر أو أقل منها أو أكثر .

﴿فَقَدَرْنَا﴾ بالتشديد من التقدير وبالتخفيف من القدرة فإذا كان من القدرة اتفق مع قوله فنعم القادرون وإذا كان من التقدير فهو تجنيس .

* * * *

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾
لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ
ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ
بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ الكفات من كفت إذا ضم وجمع فالمعنى: أن الأرض تكفت الأحياء على ظهرها والموتى في بطنها، وانتصب أحياء وأمواتا على أنه مفعول بكفاتا لأن الكفات اسم لما يضم ويجمع، فكأنه قال جامعة أحياء وأمواتا، ويجوز أن يكون المعنى تكفتهم أحياء وأمواتا فيكون نصبهما على الحال من الضمير، وإنما نكر أحياء وأمواتا للتفخيم ودلالة على كثرتهم.

﴿رَوَٰسِىَ﴾ يعني الجبال .

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي مرتفعات .

﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي حلوا .

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ خطاب للمكذبين وقرأ يعقوب بفتح اللام على أنه فعل ماض ثم كرره لبيان المنطلق إليه .

﴿ إِلَىٰ ظِلٍّ ﴾ يعني دخان جهنم ومنه ظل من يحموم .

﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي يتفرع من الدخان ثلاث شعب فتظلهم بينما يكون المؤمنون في ظلال العرش، وقيل: إن هذه الآية في عبدة الصليب لأنهم على ثلاث شعب فيقال لهم انطلقوا إليه .

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ نفى عنه أن يظلهم كما يظل العرش المؤمنين، ونفى أيضا أن يمنع عنهم اللهب .

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ الضمير في إنها لجهنم، والقصر واحد القصور: وهي الديار العظام، شبه الشرر به في عظمته وارتفاعه في الهواء، وقيل: هو الغليظ من الشجر واحده قصرة كجمرة وجمر .

﴿ كَأَنَّهُ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ في الجمالات قولان:

أحدهما: أنها جمع جمال شبه بها الشرر، وصفر على ظاهره لأن لون النار يضرب إلى الصفرة، وقيل : صفر هنا بمعنى سود يقال جمل أصفر أي أسود وهذا أليق بوصف جهنم.

الثاني: أن الجمالات قطع النحاس الكبار فكأنه مشتق من الجملة وقرئ جُمالات بضم الجيم: وهي قلوس السفن وهي حبالها العظام .

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ هذا في مواطن وقد يتكلمون في مواطن أخر لقوله: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾.

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تعجيز لهم وتعريض بكيدهم في الدنيا وتقريع عليه .

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ يقال لهم ذلك في الجنة بلسان الحال أو بلسان المقال.

﴿هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نصب هنيئا على الحال أو على الدعاء.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ خطاب للكفار على وجه التهديد، تقديره قل لهم كلوا وتمتعوا قليلا في الدنيا .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ هذا إخبار عن حال الكفار في الدنيا، وذكر الركوع عبارة عن الصلاة، وقيل: معنى اركعوا اخشعوا وتواضعوا، وقيل: هو إخبار عن حال المنافقين يوم القيامة لأنهم إذا قيل لهم اركعوا لا يقدرون على الركوع كقوله: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ والأول أشهر وأظهر.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ الضمير للقرآن

* * * *

سورة النبا

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾
وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا
وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ
ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾
وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أصل عم عن ما ثم أدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما لأنها استفهامية تقديرها عن أي شيء يتساءلون، وليس المراد بها هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر والضمير في يتساءلون لكفار قريش، أو لجميع الناس، ومعناه يسأل بعضهم بعضا .

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو ما جاءت به الشريعة من التوحيد والبعث والجزاء وغير ذلك، ويتعلق عن النبإ بفعل محذوف يفسره الظاهر تقديره يتساءلون عن النبإ ووقعت هذه الجملة جوابا عن الاستفهام وبيانا للمسؤول عنه، كأنه لما قال عم يتساءلون أجاب فقال يتساءلون عن النبإ العظيم، وقيل: يتعلق عن النبإ بيتساءلون الظاهر والمعنى على هذا لأي شيء يتساءلون عن النبإ العظيم والأول أفصح وأبرع، وينبغي على هذا أن يوقف على قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ .

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ إن كان الضمير في يتساءلون لكفار قريش فاختلافهم أن منهم من يقطع بالتكذيب ومنهم من يشك، أو يكون اختلافهم قول بعضهم سحر وقول بعضهم شعر وكهانة وغير ذلك، وإن كان الضمير لجميع الناس فاختلافهم أن منهم المؤمن والكافر .

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردع وتهديد ثم كرره للتأكيد .

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ أي فراشا وإنما ذكر الله تعالى هنا هذه المخلوقات على جهة التوقيف ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من البعث كأنه يقول إن الإله الذي قدر على خلقة هذه المخلوقات العظام قادر على إحياء الناس بعد موتهم، ويحتمل أنه ذكرها حجة على التوحيد؛ لأن الذي خلق هذه المخلوقات هو الإله وحده لا شريك له .

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ شبهها بالأوتاد لأنها تمسك الأرض أن تميد .

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي من زوجين ذكرا وأنثى، وقيل: معناه أنواعا في ألوانكم وصوركم وألسنتكم .

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة لكم، وقيل: معناه قطعا للأعمال والتصرف، والسبت القطع، وقيل: معناه موتا لأن النوم هو الموت الأصغر ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبهه بالثياب التي تلبس لأنه ستر عن العيون .

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي تطلب فيه المعيشة فهو على حذف مضاف تقديره ذا معاش، وقال الزمخشري: معناه يعاش فيه فجعله بمعنى الحياة في مقابلة السبات الذي بمعنى الموت .

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ يعني السموات .

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ يعني الشمس، والوهاج: الوقاد الشديد الإضاءة، وقيل: الحار الذي يضطرم من شدة لهبه .

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ يعني المطر، والمعصرات: هي السحاب، وهو مأخوذ من العصر لأن السحاب تنعصر فينزل منه الماء، أو من العصرة بمعنى الإغاثة ومنه: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ وقيل: هي السموات، وقيل: الرياح، والثجاج: السريع الاندفاع .

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ الحب: هو القمح والشعير وسائر الحبوب، والنبات: هو العشب .

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أي ملتفة، وهو جمع لف بضم اللام، وقيل: بالكسر، وقيل: لا واحد له .

﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ أي في وقت معلوم .

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يعني نفخة القيام من القبور .

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي جماعات .

﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي تنفتح فتكون فيها شقاق كالأبواب .

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أي حملت .

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ عبارة عن تلاشيها وفنائها، والسراب في اللغة: ما يظهر على البعد أنه ماء، وليس ذلك المراد هنا وإنما هو تشبيه به في أنه لا شيء.

* * * *

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا
﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن
رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ
الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ
فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

﴿مِرْصَادًا﴾ أي موضع المرصد والرصد هو الارتقاب والانتظار أي تنتظر الكفار ليدخلوها، وقيل: معناه طريقا للمؤمنين يمرون عليه إلى الجنة لأن الصراط منصوب على جهنم .

﴿مَآبًا﴾ أي مرجعا .

﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ جمع حقبة أو حقب: وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدودة، وقيل: إنها محدودة، ثم اختلف في مقدارها فروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها ثلاثون ألف سنة، وقال ابن عباس: ثمانون سنة، وقيل: ثلاثمائة سنة، وعلى القول بالتحديد فالمعنى أنهم يبقون فيها أحقابا كلما انقضى حقب جاء آخر إلى غير نهاية وقيل: إنه كان يقتضي أن مدة العذاب تنقضي ثم نسخ بقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وهذا خطأ لأن الأخبار لا تنسخ، وقيل: هي في عصاة المؤمنين الذي يخرجون من النار وهذا خطأ؛ لأنها في الكفار لقوله: ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾، وقيل: معناها أنهم

يقون أحقاباً لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ثم يبدل لهم نوع آخر من العذاب.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي لا يذوقون برودة تخفف عنهم حر النار، وقيل: لا يذوقون ماء باردا، وقيل: البرد هنا النوم والأول أظهر .

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ استثناء من الشراب وهو متصل، والحميم: الماء الحار، والغساق: صديد أهل النار وقد ذكر في سورة داود .

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي موافقا لأعمالهم لأن أعمالهم كفر وجزاؤهم النار ووفاقا مصدر وصف به أو هو على حذف مضاف تقديره ذو وفاق .

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ هذا مثل لا يرجون لقاءنا وقد ذكر .

﴿كِذَّابًا﴾ بالتشديد مصدر بمعنى تكذيب وبالتخفيف بمعنى الكذب أو المكاذبة وهو تكذيب بعضهم لبعض .

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما نزل في أهل النار أشد من هذه الآية ".

﴿مَفَازًا﴾ أي موضع فوز يعني الجنة .

﴿حَدَآئِقَ﴾ أي بساتين .

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها .

﴿أَتْرَابًا﴾ أي على سن واحد .

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي ملأى، وقيل: صافية والأول أشهر .

﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي كافيا من أحسبه الشيء إذا كفاه، وقيل: معناه على حسب أعمالهم.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالرفع مبتدأ أو خبر ابتداء مضمر وبالخفض صفة لربك والرحمن بالخفض صفة وبالرفع خبر المبتدأ أو خبر ابتداء مضمر.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ قال ابن عطية: الضمير للكفار، أي لا يملكون أن يخاطبوه بمقدرة ولا غيرها، ويحتمل أن يكون المعنى لا يقدرون أن يخاطبهم، كقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وقال الزمخشري: الضمير لجميع الخلق أي ليس بأيديهم شيء من خطاب الله.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ قيل: هو جبريل، وقيل: ملك عظيم يكون هو وحده صفا والملائكة صفا، وقيل: يعني أرواح بني آدم فهو اسم جنس ويوم يتعلق بـ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أو ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ لا يتكلمون الضمير للملائكة والروح أي تمنعهم الهيبة من الكلام إلا من بعد أن يأذن الله لهم، وقول الصواب يكون في ذلك الموطن على هذا، وقيل: الضمير للناس خاصة، والصواب المشار إليه قول لا إله إلا الله أي من قالها في الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي الحق وجوده ووقوعه.

﴿فَمَن شَآءَ﴾ تحضيض وترغيب.

﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذاب الآخرة ووصفه بالقرب لأن كل آت قريب أو لأن الدنيا على آخرها.

﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ المرء هنا عموم في المؤمن والكافر، وقيل: هو المؤمن، وقيل: هو الكافر، والعموم أحسن لأن كل أحد يرى ما عمل لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية.

﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ تمنى أن يكون يوم القيامة ترابا فلا يحاسب ولا يجازى، وقيل: تمنى أن يكون في الدنيا ترابا أي لم يخلق، وروي: أن البهائم تحشر ليقتص لبعضهم من بعض ثم ترد ترابا فيتمنى الكافر أن يكون ترابا مثلها وهذا يقوي الأول، وقيل: الكافر هنا إبليس يتمنى أن يكون خلق من تراب مثل آدم وذريته لما رأى ثوابهم، وقد كان احتقر التراب في قوله: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

* * * *

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا
﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾
يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾
فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ
ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ
﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ
ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾

اختلف في معنى النازعات والناشطات والسابقات والسابحات والمدبرات، فقيل: إنها الملائكة، وقيل: النجوم، فعلى القول بأنها الملائكة سماهم نازعات لأنهم ينزعون نفوس بني آدم من أجسادها، وناشطات لأنهم ينشطونها أي يخرجونها فهو من قولك نشطت الدلو من البئر إذا أخرجتها، وسابحات لأنهم يسبحون في سيرهم أي يسرعون فيسبقون فيدبرون أمور العباد والرياح والمطر وغير ذلك حسبما يأمرهم الله، وعلى القول بأنها النجوم سماها نازعات لأنها تنزع من المشرق إلى المغرب، وناشطات لأنها تنشط من برج إلى برج، وسابحات لأنها تسبح في الفلك ومنه: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فتسبق في جريها فتدبر أمرا من علم الحساب، وقال ابن عطية: لا أعلم خلافا أن المدبرات أمرا الملائكة، وحكى الزمخشري فيها ما ذكرنا، وقد قيل في النازعات والناشطات أنها النفوس تنزع من معنى النزع بالموت فتنشط من الأجساد، وقيل في السابحات والسابقات أنها الخيل وأنها السفن.

﴿غَرْقًا﴾ إن قلنا النازعات الملائكة ففي معنى غرقا وجهان:

أحدهما: أنها من الغرق أي تغرق الكفار في جهنم.

والآخر: أنه من الإغراق في الأمر بمعنى المبالغة فيه أي تبالغ في نزع النفوس حتى تخرجها من أقاصي الأجساد، وإن قلنا أن النازعات النجوم فهو من الإغراق بمعنى المبالغة أي تبالغ في نزعها فتقطع الفلك كله، وإن قلنا إنها النفوس فهو أيضا من الإغراق، أي تغرق في الخروج من الجسد، ولإعراب غرقا مصدر في موضع الحال، ونشطا وسبحا وسبقا مصادر، وأمرا مفعول به، وجواب القسم محذوف وهو بعث الموتى لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة، وقيل: الجواب يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة على تقدير حذف لام التأكيد، وقيل هو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ وهذا بعيد لبعده عن القسم، ولأنه إشارة إلى قصة فرعون لا لمعنى القسم.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قيل: الراجفة النفخة الأولى في الصور، والرادفة النفخة الثانية لأنها تتبعها ولذلك سماها رادفة من قولك ردفت الشيء إذا تبعته، وفي الحديث: "أن بينهما أربعون عاما". وقيل: الراجفة الموت والرادفة القيامة وقيل: الراجفة الأرض من قوله: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ والرادفة السماء لأنها تنشق يومئذ، والعامل في يوم ترجف محذوف وهو الجواب المقدر تقديره لتبعثن يوم ترجف الراجفة، وإن جعلنا يوم ترجف الجواب فالعامل في يوم معنى قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ويكون : ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ في موضع الحال، ويحتمل أن يكون العامل فيه تتبعها.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، أي شـديدة الاضـطراب، والوجيـف والوجيـب بمعنى واحد وارتفع قلـوب بالابتـداء وواجفـة خـبره، وقـال الزمخـشري: واجفة صفة والخبر أبصارها خاشعة.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ كنايـة عـن الـذل والخـوف، وإضـافة الأبـصار إلى القلوب على تجوز، والتقدير قلوب أصحابها .

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ هـذا حكايـة قـول الكفار في الدنيا ومعناه على الجملة إنكار البعث فالهمزة في قـولهم: ﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ ﴾ للإنكار ولذلك اتفق العلماء على قراءتـه بـالهمزتين إلا أن منـهم من سـهل الثانيـة ومنـهم مـن حققهـا واختلفـوا في: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ فمنهم من قرأه بهمزة واحدة لأنه ليس بموضع استفهام ولا إنكار ومنهم من قرأه بهمزتين تأكيدا للإنكار المتقدم، ثم اختلفوا في معنى الحافرة على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الحالة الأولى، يقـال رجـع فـلان في حافرتـه إذا رجـع إلى حالته الأولى، فالمعنى أئنا لمردودون إلى الحياة بعد الموت .

والآخر: أن الحافرة: الأرض، بمعنى محفورة، فالمعنى أئنا لمـردودون إلى وجه الأرض بعد الدفن في القبور.

والثالث: أن الحافرة: النار، والعظـام النخـرة: الباليـة المتفتتـة، وقـرئ ناخرة بألف وبحذف الألف وهما بمعنى واحد إلا أن حذف الألف أبلغ لأن فعل أبلغ من فاعل وقيل: معناه العظام المجوفة التي تمر بها الـريح فيـسمع لها نخير، والعامل في إذا كنا محذوف تقديره إذا كنا عظاما نبعث، ويحتمل أن يكون العامل فيه مردودون في الحافرة، ولكن إنما يجوز ذلك على قراءة

إذا كنا بهمزة واحدة على الخبر ولا يجوز على قراءته بهمزتين لأن همزة الاستفهام لا يعمل ما قبلها فيما بعدها .

﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ الكرة: الرجعة، والخاسرة: منسوبة إلى الخسران كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضى، أو معناه خاسر أصحابها، ومعنى هذا الكلام أنهم قالوا إن كان البعث حقا فكرتنا خاسرة لأنا ندخل النار .

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ يعني النفخة في الصور للقيام من القبور، وهذا من كلام الله تعالى ردا على الذين أنكروا البعث كأنه يقول لا تظنوا أنه صعب على الله بل هو عليه يسير فإنما ينفخ نفخة واحدة في الصور فيقوم الناس من قبورهم .

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ إذا هنا فجائية، والساهرة: وجه الأرض، والباء ظرفية، والمعنى إذا نفخ في الصور حصلوا بالأرض أسرع شيء .

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ توقيف وتنبيه وليس المراد به مجرد الاستفهام .

﴿طُوًى﴾ ذكر في طه .

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ تفسير للنداء .

﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تتطهر من الكفر والذنوب والعيوب والرذائل، وقال بعضهم: تزكى: تسلم، وقيل: تقول لا إله إلا الله، والأول أعم .

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ قلب العصا حية وإخراج يده بيضاء وجعلهما واحدة لأن الثانية تتبع الأولى، ويحتمل أن يريد الأولى وحدها .

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ الإدبار كناية عن الإعراض عن الإيمان، ويسعى عبارة عن جده في الكفر وفي إبطال أمر موسى عليه السلام، وقيل: هو حقيقة أي قام من مجلسه يفر من مجالسة موسى أو يهرب من العصا لما صارت ثعبانا.

﴿فَحَشَرَ﴾ أي جمع جنوده وأهل مملكته .

﴿فَنَادَىٰ﴾ أي نادى قومه وقال لهم ما قال، ويحتمل أنه ناداهم بنفسه أو أمر من يناديهم، والأول أظهر، وقد روي: أنه قام فيهم خطيبا فقال فيهم ما قال .

* * * *

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٢٦ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ۝٢٧
رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا
مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝٣٢ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝٣٣ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ
يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨
فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ
۝٤١ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ۝٤٤ إِنَّمَا أَنتَ
مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ۝٤٦﴾

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ النكال مصدر بمعنى التنكيل والعامل فيه أخذه الله لأنه بمعناه، وقيل: العامل محذوف، والآخرة هي دار الآخرة والأولى الدنيا، فالمعنى: نكال الآخرة بالنار ونكال الأولى بالغرق، وقيل: الآخرة قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ والأولى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وقيل: بالعكس، فالمعنى: أخذه الله وعاقبه على كلمة الآخرة وكلمة الأولى .

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ هذا توقيف قصد به الاستدلال على البعث فإن الذي خلق السماء قادر على خلق الأجساد بعد فنائها .

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ السمك: غلظ السماء وهو الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها، ومعنى رفعه أنه جعله مسيرة خمسمائة عام، وقيل السمك: السقف .

﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي أتقن خلقتها، وقيل: جعلها مستوية ليس فيها مرتفع ولا منخفض .

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعله مظلما يقال غطش الليل إذا أظلم وأغطشه الله.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أظهر ضوء الشمس في وقت الضحى، وأضاف الضحى والليل إلى السماء من حيث هما ظاهران منها وفيها.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي بسطها، واستدل بهذا من قال إن الأرض بسيطة غير كروية، وقد ذكرنا في فصلت الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ نسب الماء والمرعى إلى الأرض لأنهما يخرجان منها فإن قيل: لم قال أخرج بغير حرف العطف؟ فالجواب: أن هذه الجملة في موضع الحال وتفسير لما قبلها قاله الزمخشري.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي أثبتها ونصب الجبال بفعل مضمر يدل عليه الظاهر وكذلك الأرض.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ تقديره فعل ذلك كله تمتيعا لكم.

﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ لأن بني آدم والأنعام ينتفعون بكل ما ذكر.

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ هي القيامة، وقيل: النفخة الثانية، واشتقاقها من قولك طَمَّ الأمر: إذا علا وغلب.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي أظهرت لكل من يرى فهي لا تخفى على أحد(١).

---

(١) وانظر الكشاف ٥/٢١٥.

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ ذكر في سورة الرحمن .

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي ردها عن شهواتها وأغراضها الفاسدة قال بعض الحكماء: إذا أردت الصواب فانظر هواك وخالفه، وقال سهل التستري: لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين .

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ذكر في الأعراف .

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي من ذكر زمانها، فالمعنى لست في شيء من ذكر ذلك، قالت عائشة رضي الله عنها:" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة كثيرا فلما نزلت هذه الآية انتهى" .

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي منتهى علمها لا يعلم متى تكون إلا هو وحده.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي إنما بعثت لتنذر بها وليس عليك الإخبار بوقتها، وخص الإنذار بمن يخشاها لأنه هو الذي ينفعه الإنذار .

﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أخبر أنهم إذا رأوا الساعة ظنوا أنهم لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور إلا عشية يوم أو ضحى يوم، وأضاف الضحى إلى العشية لما بينهما من الملابسة إذ هما في يوم واحد.

* * * *

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ
ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ
تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ
﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

سبب نزول صدر هذه السورة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حريصا على إسلام قريش وكان يدعو أشرافهم إلى الله تعالى ليسلموا فيسلم بإسلامهم غيرهم فبينما هو يوماً مع رجل من عظمائهم، قيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة بن ربيعة، وقيل: أمية بن خلف، وقال ابن عباس: كانوا جماعة، إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، فقال يا رسول الله: علمني مما علمك الله وكرر ذلك وهو لا يعلم بتشاغله بالقوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع الأعمى كلامه فعبس وأعرض عنه، وذهب الرجل الذي كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم بعد ذلك يقول: "مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويبسط له رداءه"(١). وقد استخلفه على المدينة مرتين.

---

(١) تفسير الألوسي ٢٢/١٦٧ والبيضاوي ٥/٢٧٠ ولم أهتد إلى تخريج هذا الأثر في كتب السنة.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي عبس في وجه الأعمى وأعرض عنه، قال ابن عطية: في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العتب لأن في ذلك بعض الإعراض، وقال الزمخشري: في الإخبار بالغيبة زيادة في الإنكار، وقال غيرهما: هو إكرام للنبي صلى الله عليه وسلم وتنزيه له عن المخاطبة بالعتاب وهذا أحسن.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ في موضع مفعول من أجله وهو منصوب بتولى أو عبس، وذكر ابن أم مكتوم بلفظ الأعمى ليدل أن عماه هو الذي أوجب احتقاره، وفي هذا دليل على أن ذكر هذه العاهات جائز إذا كانت لمنفعة أو يشهد صاحبها بها، ومنه قول المحدثين سليمان الأعمش، وعبد الرحمن الأعرج وشبه ذلك.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي أيّ شيء يطلعك على حال هذا الأعمى.

﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي يتطهر وينتفع في دينه بما يسمع منك.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي تتعرض للغني رجاء أن يسلم.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي لا حرج عليك أن لا يتزكى هذا الغني.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ إشارة إلى عبد الله بن أم مكتوم، ومعنى يسعى يسرع في مشيه من حرصه في طلب الخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي يخشى الله أو يخاف الكفار وإذايتهم له على اتباعك، وقيل: جاء وليس معه من يقوده، فكان يخشى أن يقع وهذا ضعيف.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي تشتغل عنه بغيره من قولك: لهيت عن الشيء إذا تركته، وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأدب بما أدبه الله في هذه

السورة فلم يعرض بعدها عن فقير ولا تعرض لغني، وكذلك اتبعه فضلاء العلماء فكان الفقراء في مجلس سفيان الثوري كالأمراء، وكان الأغنياء يتمنون أن يكونوا فقراء .

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن معاودة ما وقع العتاب فيه .

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن هذا الكلام المتقدم تذكرة أي موعظة للنبي صلى الله عليه وسلم.

والآخر: أن القرآن تذكرة لجميع الناس فلا ينبغي أن يؤثر فيه أحد على أحد، وهذا أرجح لأنه يناسبه فمن شاء ذكره وما بعده، وأنث الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ على معنى القصة أو الموعظة أو السورة أو القراءة وذكَّره في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ على معنى الوعظ أو الذكر أو القرآن .

﴿فِى صُحُفٍ﴾ صفة لتذكرة أي ثابتة في صحف وهي الصحف المنسوخة من اللوح المحفوظ، وقيل: هي مصاحف المسلمين .

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ إن كانت الصحف المصاحف فمعناه مرفوعة المقدار وإن كانت صحف الملائكة فمعناه كذلك أو مرفوعة في السماء، ومطهرة أي منزهة عن أيدي الشياطين .

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ هي الملائكة، والسفرة جمع سافر: وهو الكاتب، لأنهم يكتبون القرآن في الصحف، وقيل: لأنهم سفراء بين الله وبين عبيده، وقيل: يعني القراء من الناس، والأول أرجح وقد قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: " الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة"[1]. أي أنه يعمل مثل عملهم في كتابة القرآن وتلاوته أوله من الأجر على القرآن مثل أجورهم .

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه على ما جرت به عادة العرب من الدعاء بهذا اللفظ، ومعناه تقبيح حاله وأنه ممن يستحق أن يقال له ذلك، وقيل: معناه لعن وهو بعيد .

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تعجُّب من شدة كفره مع أنه كان يجب عليه خلاف ذلك.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ توقيف وتقرير ثم أجاب عنه بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ يعني المني، ومقصد الكلام تحقير الإنسان وإنه يجب عليه أن يعظم الرب الذي خلقه .

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي هيأه لما يصلح له ومنه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ وقيل: معناه جعله على مقدار معلوم في أعضائه وأجله ورزقه وغير ذلك .

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ نصب السبيل بفعل مضمر فسره يسره، وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: يسر سبيل خروجه من بطن أمه.

والآخر: أنه سبيل الخير والشر لقوله ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ .

الثالث: سبيل النظر السديد المؤدي إلى الإيمان، والأول أرجح لعطفه على قوله من نطفة خلقه فقدره وهو قول ابن عباس .

---

(١) مسلم: الحديث رقم ١٣٢٩ وأبو داود: الحديث رقم: (١٢٤٢) والترمذي: (٢٨٢٩) وابن ماجه: الحديث رقم: (٣٧٦٩).

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي جعله ذا قبر يقال قبرت الميت إذا دفنته، وأقبرته إذا أمرت أن يدفن .

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي بعثه من قبره، يقال نشر الميت إذا قام وأنشره الله، والإشارة بإذا شاء ليوم القيامة أي الوقت الذي قدَّر أن ينشره فيه .

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عما هو فيه .

﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي لم يقض الإنسان على تطاول عمره ما أمره الله، قال بعضهم: لا يقضي أحد أبدا جميع ما افترض الله عليه إذ لا بد للعبد من تفريط .

* * * *

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا
وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢)

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ أمر بالاعتبار في الطعام كيف خلقه الله بقدرته ويسره برحمته، فيجب على العبد طاعته وشكره ويقبح معصيته والكفر به، وقيل: فلينظر إلى طعامه إذا صار رجيعا فيرى حقارة الدنيا وخساسة نفسه، والأول أشهر وأظهر في معنى الآية، على أن القول الثاني صحيح وانظر كيف فسره بقوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ وما بعده ليعدد النعم ويظهر القدرة، وقرئ أنا صببنا الماء بفتح الهمزة على البدل من الطعام .

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يعني بخروج النبات منها .

﴿حَبًّا﴾ يعني القمح والشعير وسائر الحبوب .

﴿وَقَضْبًا﴾ قيل: هي الفصفصة، وقيل: هي علف البهائم واختار ابن عطية أنها البقول وشبهها مما يؤكل رطبا .

﴿غُلْبًا﴾ أي غليظة ناعمة .

﴿وَأَبًّا﴾ الأب: المرعى عند ابن عباس والجمهور، وقيل: التبن، وقد توقف في تفسيره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ من أسماء القيامة، وهي مشتقة من قولك: صخ الأذن إذا أصمها بشدة صياحه، فكأنه إشارة إلى النفخة في الصور، أو إلى شدة الأمر حتى يصخ من يسمعه لصعوبته، وقيل: هي من قولك أصاخ للحديث إذا

استمعه، والأول هو الموافق للاشتقاق .

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآية، ذكر فرار الإنسان من أحبابه ورتبهم على ترتيبهم في الحنو والشفقة فبدأ بالأقل وختم بالأكثر لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره، وإنما يفر منهم لاشتغاله بنفسه، وقيل: إن فراره منهم لئلا يطالبوه بالتبعات، والأول أرجح وأظهر لقوله .

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي هو مشغول بشأنه من الحساب والثواب والعقاب حتى لا يسعه ذكر غيره، وانظر قول الأنبياء عليهم السلام يومئذ: " نفسي نفسي "(١) .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي مضيئة من السرور، وهو من قولك أسفر الصبح إذا أضاء .

﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي غبار، والقترة أيضا الغبار، قال ابن عطية: الغبرة من العبوس والكرب كما يعتري وجه المهموم والمريض، والقترة هي غبار الأرض، وقال الزمخشري: الغبرة غبار يعلوها والقترة سواد فيعظم قبحها باجتماع الغبار والسواد .

* * * *

---

(١) حديث طويل رواه البخاري الحديث رقم: (٣٣٤٠) ومسلم الحديث رقم: (٢٨٧) والترمذي الحديث رقم: (٢٣٥٨) والمسند الحديث رقم: (٩٢٥٠).

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ
﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾

ذكر الله في هذه السورة أهوال القيامة وما يعتري الموجودات حينئذ من التغيير.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال ابن عباس: ذهب ضوءها وأظلمت، وقيل: رمي بها، وقيل: اضمحلت، وأصله من تكوير العمامة لأنها إذا لفت زال انبساطها وصغر جرمها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي تساقطت من مواضعها، وقيل: تغيرت، والأول أرجح لأنه موافق لقوله:﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ وروي: أن الشمس والنجوم تطرح في جهنم ليراها من عبدها كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي حملت وبعد ذلك تفتت فتصير هباء ثم تتلاشى.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار جمع عشراء: وهي الناقة الحامل التي مر لحملها عشرة أشهر، وهي أنفس ما عند العرب وأعزها، فلا تعطل إلا من شدة الهول، وتعطيلها هو تركها سائبة أي ترك حلبها.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي جمعت وفي صفة حشرها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها تحشر أي تبعث يوم القيامة ليقتص لبعضها من بعض ثم تكون ترابا.

والآخر: أنها تحشر بموتها دفعة واحدة عند هول القيامة قاله ابن عباس، وقال: إنها لا تبعث وأنه لا يحضر القيامة إلا الإنس والجن.

والثالث: أنها تجمع في أول أهوال القيامة وتفر في الأرض فذلك حشرها.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرا واحدا.

والآخر: ملئت نيرانا لتعذيب أهل النار.

والثالث: فرغت من مائها ويبست وأصله من سجرت التنور إذا ملأتها.

فالقول الأول والثاني أليق بالأصل، والأول والثالث: موافق لقوله: فجرت.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن التزويج بمعنى التنويع، لأن الأزواج هي الأنواع، فالمعنى جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن.

والثاني: زوجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين.

والثالث: زوجت الأرواح والأجساد أي ردت إليها عند البعث، والأول هو الراجح لأنه مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عمر بن الخطاب وابن عباس.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ الموؤدة: هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حية من كراهته لها ومن غيرته عليها، فتسأل يوم القيامة بأي ذنب قتلت على وجه التوبيخ لقاتلها، وقرأ ابن عباس: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سَأَلَتْ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾؛ بفتح السين والهمزة أي بأي ذنب قتلت بضم القاف وسكون اللام وضم التاء، واستدل ابن عباس بهذه الآية على أن أولاد المشركين في الجنة لأن الله ينتصر لهم ممن ظلمهم.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ هي صحف الأعمال تنشر ليقرأ كل أحد كتابه، وقيل: هي الصحف التي تتطاير بالأيمان والشمائل بالجزاء.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ الكشط: هو التقشير، كما يكشط جلد الشاة حين تسلخ، وكشط السماء هو طيها كطي السجل قاله ابن عطية، وقيل: معناه كشفت وهذا أليق بالكشط.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي أو قدت وأحميت.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي قربت.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ هذا جواب إذا المكررة في المواضع قبل هذا، ومعناه علمت كل نفس ما أحضرت من عمل، فلفظ النفس مفرد يراد به

الجنس والعموم، قال ابن عطية: إنما أفردها ليبين حقارتها وذلتها، وقال الزمخشري: هذا من عكس كلامهم الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه كقوله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ومعناه التكثير، وكذلك هنا معناه أعم الجموع.

و﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ عبارة عن الحسنات والسيئات.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ ذكرت نظائره.

﴿بِٱلْخُنَّسِ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ يعني الدراري السبعة: وهي الشمس والقمر وزحل وعطارد والمريخ والمشتري والزهرة، وذلك أن هذه الكواكب تخنس في جريها أي تتقهقر، فيكون النجم في البرج ثم يكر راجعا، وهي جواري في الفلك، وهي تكنس في أبراجها أي تستتر، وهو مشتق من قولك كنس الوحش إذا دخل كناسه وهو موضعه، وقيل: يعني الدراري الخمسة لأنها تستتر بضوء الشمس، وقيل: يعني النجوم كلها لأنها تخنس في جريها وتكنس بالنهار أي تستتر وتختفي بضوء الشمس، وقيل: يعني بقر الوحش فالخنس على هذا من خنس الأنف والكنس من سكناها في كناسها.

❊ ❊ ❊ ❊

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ يقال عسعس الليل إذا كان غير مستحكم الظلام، فقيل: ذلك في أوله، وقيل: في آخره، وهذا أرجح لأن آخر الليل أفضل ولأنه أعقبه بقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي استطار واتسع ضوؤه.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ الضمير للقرآن والرسول الكريم جبريل وقيل: محمد صلى الله عليه وسلم، قال السهيلي: لا يجوز أن يقال إنه محمد عليه السلام لأن الآية نزلت في الرد على الذين قالوا إن محمدا قال القرآن فكيف يخبر الله أنه قوله؟ وإنما أراد جبريل وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به وهو في الحقيقة قول الله تعالى، وهذا الذي قال السهيلي لا يلزم فإنه قد يضاف إلى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه تلقاه عن جبريل عليه السلام وجاء به إلى الناس، ومع ذلك فالأظهر أنه جبريل لأنه وصفه بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ وقد وصف جبريل بهذا في قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ذُو مِرَّةٖ﴾.

﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ يتعلق بذي قوة، وقيل: بمكين وهذا أظهر، والمكين: الذي له مكانة أي جاه وتقريب.

﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ هذا الظرف إشارة إلى الظرف المذكور قبله وهو قوله: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي مطاع في ملائكة ذي العرش.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم باتفاق.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ ضمير الفاعل لمحمد صلى الله عليه وسلم، وضمير المفعول لجبريل عليه السلام، وهذه الرؤية له بغار حراء على كرسي بين السماء والأرض، وقيل: هي الرؤية التي رآه عند سدرة المنتهى في الإسراء، ووصف هذا الأفق بالمبين لأنه روي أنه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس، وأيضا فكل أفق فهو مبين.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم، ومن قرأ بالضاد فمعناه بخيل أي لا يبخل بأداء ما ألقي إليه من الغيب وهو الوحي، ومن قرأ بالظاء فمعناه متهم أي لا يتهم على الوحي بل هو أمين عليه، ورجح بعضهم هذه القراءة بأن الكفار لم ينسبوا محمدا صلى الله عليه وسلم إلى البخل بالوحي بل اتهموه فنفى عنه ذلك.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ الضمير للقرآن.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ خطاب لكفار قريش أي ليس لكم زوال عن هذه الحقائق وقد تقدم تفسير بقية السورة في نظائره فيما تقدم.

* * * *

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ
فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ
لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى
جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا
يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي انشقت.

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي سقطت من مواضعها.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي فرغت، وقيل: فجر بعضها إلى بعض فاختلطت.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي نبشت عن الموتى الذين فيها، وقال الزمخشري: أصله من البعث والبحث فضمت إليها الراء، والمعنى بحثت وأخرج موتاها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ هذا هو الجواب، ومعناه علمت كل نفس جميع أعمالها، وقيل: ما قدمت في حياتها وما أخرت مما تركته بعد موتها من سنة سنتها أو وصية أوصت بها، وأفردت النفس والمراد به العموم حسبما ذكرنا في التكوير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خطاب لجنس بني آدم.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ هذا توبيخ وعتاب معناه أي شيء غرك بربك حتى كفرت به أو عصيته أو غفلت عنه، فدخل في العتاب الكفار وعصاة المؤمنين ومن يغفل عن الله في بعض الأحيان من الصالحين، وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ما غرك بربك الكريم، فقال:" غره جهله". وقال عمر: "غره جهله وحمقه وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾". وقيل: غره الشيطان المسلط عليه، وقيل: غره ستر الله عليه، وقيل: غره طمعه في عفو الله عنه، ولا تعارض بين هذه الأقوال لأن كل واحد منها مما يغر الإنسان إلا أن بعضها يغر قوما وبعضها يغر قوما آخرين: فإن قيل: ما مناسبة وصفه بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور؟ فالجواب: أن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكرا لإحسانه ومقابلة لكرمه، ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمة وأضاع الشكر الواجب.

﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتشديد والتخفيف أي عدل أعضاءك وجعلها متوازنة فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى ولا إحدى العينين أكبر من الأخرى ولا إحداهما كحلى والأخرى زرقاء ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، وشبه ذلك من الموازنة.

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ المجرور يتعلق بركبك وما زائدة، والمعنى ركبك في أي صورة شاء من الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة وغير ذلك من اختلاف الصور، ويحتمل أن يتعلق المجرور بمحذوف تقديره ركبك حاصلا في أي صورة وقيل: يتعلق بعدلك على أن يكون بمعنى صرفك إلى أي صورة شاء وهذا بعيد، ولا يمكن إلا مع قراءة عدلك بالتخفيف.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الغرور المذكور قبل أو التكذيب المذكور بعد.

﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ هذا خطاب للكفار والدين هنا يحتمل أن يكون بمعنى الشريعة أو الحساب أو الجزاء.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ يعنى الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدم.

﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ يعلمون الأعمال لمشاهدتهم لها، وأما ما لا يرى ولا يسمع من الخواطر والنيات والذكر بالقلب فقيل: إن الله ينفرد بعلم ذلك، وقيل: إن الملك يجد لها ريحا يدركها به.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ في هذه الآية وفيما بعدها من أدوات البيان المطابقة والترصيع.

﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه لا يخرجون منها إذا دخلوها.

والآخر: لا يغيبون عنها في البرزخ قبل دخولها لأنهم يعرضون عليها غدوا وعشيا.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تعظيم له وتهويل، وكرره للتأكيد، والمعنى أنه من شدته بحيث لا يدري أحد مقدار هوله وعظمته.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي لا يقدر أحد على منفعة أحد، وقرئ يوم بالرفع على البدل من يوم الدين، أو على إضمار مبتدإ وبالنصب على الظرفية بإضمار فعل تقديره يجاوزون يوم الدين، أو النصب على المفعولية بإضمار فعل تقديره اذكر، ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو في موضع رفع.

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾
أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ
ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ
بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ
رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ
﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ التطفيف في اللغة: هو البخس والنقص، فسره بذلك الزمخشري واختاره ابن عطية، وقيل: هو تجاوز الحد في زيادة أو نقصان واختاره ابن الفرس، وهو الأظهر لأن المراد به هنا بخس حقوق الناس في المكيال والميزان بأن يزيد الإنسان على حقه أو ينقص من حق غيره، وسبب نزول السورة أنه كان بالمدينة رجل يقال له أبو جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص فالسورة على هذا مدنية، وقيل: إنها مكية لذكر أساطير الأولين، وقيل: نزل بعضها بمكة ونزل أمر التطفيف بالمدينة إذ كانوا أشد الناس فسادا في هذا المعنى فأصلحهم الله بهذه السورة.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ معنى اكتالوا على الناس قبضوا منهم بالكيل، فعلى بمعنى من وإنما أبدلت منها لما تضمن الكلام من معنى التحامل عليهم، ويجوز أن يتعلق على الناس بيستوفون وقدم المفعول لإفادة التخصيص.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ معنى يخسرون ينقصون حقوق الناس وهو من الخسارة يقال: خسر الرجل وأخسره غيره إذا جعله يخسر، وكالوهم معناه كالوا لهم، أو وزنوهم معناه وزنوا لهم ثم حذف حرف الجر فانتصب المفعول لأن هذين الفعلين يتعدى كل واحد منهما تارة بنفسه وتارة بحرف الجر يقال كلتك وكلت لك ووزنتك ووزنت لك بمعنى واحد وحذف المفعول الثاني: وهو المكيل والموزون والواو التي هي ضمير الفاعل للمطففين هم الذي هو ضمير المفعول للناس، فالمعنى إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم طعاما أو غيره مما يكال أو يوزن يخسرونهم حقوقهم، وقيل: إن هم في كالوهم أو وزنوهم تأكيد للضمير الفاعل، وقد روي عن حمزة أنه كان يقف على كالوا ووزنوا ثم يبتدئ هم ليبين هذا المعنى وهو ضعيف من وجهين:

أحدهما: أنه لم يثبت في المصحف ألف بعد الواو في كالوا ووزنوا فدل ذلك على أن هم ضمير المفعول.

والآخر: أن المعنى على هذا أن المطففين إذا تولوا الكيل أو الوزن نقصوا وليس ذلك بمقصود، لأن الكلام واقع في الفعل لا في المباشر، ألا ترى أن اكتالوا على الناس معناه قبضوا منهم وكالوهم ووزنوهم معناه دفعوا لهم فقابل القبض بالدفع، وأما على هذا الوجه الضعيف فهو خروج عن المقصود، قال ابن عطية: ظاهر الآية أن الكيل والوزن على البائعين وليس ذلك بالجلي، قال: صدر الآية في المشترين فهم الذين يستوفون أي يشاحون ويطلبون الزيادة وقوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ في البائعين فهم الذين يخسرون المشتري.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ يعني يوم القيامة وهذا تهديد للمطففين وإنكار لفعلهم، وكان عبد الله بن عمر إذا مر بالبائع يقول له: اتق الله وأوف الكيل فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الظرف منصوب بقوله مبعوثون وقيل: بفعل مضمر أو بدل من يوم عظيم، وقيام الناس يوم القيامة على حسب اختلافهم فمنهم من يقوم خمسين ألف سنة وأقل من ذلك، حتى أن المؤمن يقوم على قدر صلاة مكتوبة.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن التطفيف أو افتتاح كلام.

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ كتاب الفجار هو ما يكتب من أعمالهم، والفجار هنا يحتمل أن يراد به الكفار أو المطففين وإن كانوا مسلمين، والأول أظهر لقوله بعد هذا: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ وسجين اسم علم منقول من صفة على وزن فعيل للمبالغة، وقد عظم أمره بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ ثم فسره بأنه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي مسطور بين الكتابة، وهو كتاب جامع يكتب فيه أعمال الشياطين والكفار والفجار، وهو مشتق من السجن بمعنى الحبس لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم ولأنه مطروح في مكان الهوان والعذاب كالسجن، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم:" أنه في الأرض السفلى"، وروي عنه:" أنه في بئر هناك "، وحكى كعب عن التورية:" أنه في شجرة سوداء هنالك". وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون معنى الآية أن عدد الفجار في سجين أي كتبوا هنالك في الأزل.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قد ذكر.

﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي غطى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي. وفي الحديث: "أن العبد إذا أذنب ذنبا صارت نكتة سوداء في قلبه، فإذا زاد ذنبا آخر زاد السواد فلا يزال كذلك حتى يتغطى وهو الرين"[1].

﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ حجب الكفار عن الله دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عنه وقد استدل بها مالك والشافعي على صحة رؤية المؤمن لله في الآخرة، وتأولها المعتزلة على أن معناها محجوبون عن رحمته.

﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ عليون اسم علم للكتاب الذي تكتب فيه الحسنات، وهو جمع منقول من صفة علي وزن فعيل للمبالغة وقد عظمه بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾وهو مشتق من العلو لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة أو لأنه مرفوع في مكان عليّ، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم:" أنه تحت العرش". وقال ابن عباس: هو الجنة، وارتفع: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ في الموضعين على أنه خبر مبتدإ مضمر تقديره: هو كتاب، وقال ابن عطية: كتاب مرقوم خبر إن والظرف ملغى وهذا تكلف يفسد به المعنى، وقد روي في الأثر ما روي في الآية:" وهو أن الملائكة تصعد بصحيفة فيها عمل العبد فإن رضيه الله قال اجعلوه في عليين وإن لم يرضه قال اجعلوه في سجين".

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني الملائكة المقربين.

---

(١) قال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه أحمد والحاكم والترمذي وصححاه والنسائي وابن ماجه وابن جرير ١٠/٢١٧.

﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ قد ذكر.

﴿يَنظُرُونَ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" ينظرون إلى أعدائهم في النار". وقيل: ينظرون إلى الجنة وما أعطاهم الله فيها.

* * * *

تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي بهجته ورونقه، كما يرى في وجوه أهل الرفاهية والعافية، والخطاب في: ﴿تَعۡرِفُ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم، أو لكل مخاطب من غير تعيين.

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾ الرحيق: الخمر الصافية، والمختوم: قد فسره الله بأن ختامه مسك، وقرئ ختامه بألف بعد التاء وخاتمه بألف بعد الخاء وبفتح التاء وكسرها وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من الختم على الشيء بمعنى جعل الطابع عليه، فالمعنى أنه ختم على فم الإناء الذي هو فيه بالمسك كما يختم على أفواه آنية الدنيا بالطين إذا قصد حفظها وصيانتها.

الثاني: أنه من ختم الشيء أي تمامه، فمعناه خاتم شربه مسك أي يجد الشارب عند آخر شربه رائحة المسك ولذته.

الثالث: أن معناه مزاجه مسك، أي يمزج الشراب بالمسك وهذا خارج عن اشتقاق اللفظ.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ التنافس في الشيء هو الرغبة فيه والمغالاة في طلبه والتزاحم عليه.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ تسنيم: اسم لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفا، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار، فدل ذلك على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار، فالمقربون هم السابقون والأبرار هم أصحاب اليمين.

﴿عَيْنًا﴾ منصوب على المدح بفعل مضمر أو على الحال من تسنيم.

﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ بمعنى يشربها فالباء زائدة ويحتمل أن يكون بمعنى يشرب منها أو كقولك شربت الماء بالعسل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ نزلت هذه الآية في صناديد قريش كأبي جهل وغيره مر بهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من المؤمنين فضحكوا منهم واستخفوا بهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي يغمز بعضهم إلى بعض ويشير بعينيه، والضمير في مروا يحتمل أن يكون للمؤمنين أو للكفار، والضمير في يتغامزون للكفار لا غير.

﴿فَكِهِينَ﴾ من الفكاهة: وهي اللهو، أي يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم قاله الزمخشري، ويحتمل أن يريد يتفكهون بنعيم الدنيا.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي إذا رأي الكفار المؤمنين نسبوهم إلى الضلال، وقيل: إذا رأى المؤمنون الكفار نسبوهم إلى الضلال والأول أظهر وأشهر.

﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي ما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم فكأنه قال: كلامهم بالمؤمنين فضول منهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ يعني باليوم يوم القيامة إذ قد تقدم ذكره فيضحك المؤمنون فيه من الكفار كما ضحك الكفار منهم في الدنيا.

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ معنى ثُوِّب: جوزي، يقال ثوبه وأثابه إذا جازاه، وهذه الجملة يحتمل أن تكون متصلة بما قبلها في موضع معمول ينظرون فتوصل مع ما قبلها، أو تكون توقيفا فيوقف قبلها ويكون معمول ينظرون محذوفا حسبما ذكرنا في ينظرون الذي قبل هذا وهذا أرجح لاتفاق الموضعين.

❋ ❋ ❋ ❋

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ اختلف في هذا الانشقاق هل هو تشققها بالغمام أو انفتاحها أبوابا، وجواب إذا محذوف ليكون أبلغ في التهويل إذ يقدر السامع أقصى ما يتصوره وحذف للعلم به اكتفاء بما في سورة التكوير والانفطار من الجواب، وقيل: الجواب ما دل عليه فملاقيه، أي إذا السماء انشقت لقي الإنسان ربه، وقيل: الجواب أذنت على زيادة الواو وهذا ضعيف.

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ معنى أذنت في اللغة: استمعت، وهو هنا عبارة عن طاعتها لربها وأنها انقادت لله حين أراد انشقاقها، وكذلك طاعة الأرض لما أراد مدها وإلقاء ما فيها.

﴿وَحُقَّتۡ﴾ أي حق لها أن تسمع وتطيع لربها أو حق لها أن تنشق من أهوال القيامة، وهذه الكلمة من قولهم هو حقيق بكذا أو محقوق به أي يجب عليه أن يفعله، فالمعنى يحق على السماء أن تسمع وتطيع لربها، أو يحق عليها أن تتشقق، ويحتمل أن يكون أصله حققت بفتح الحاء وضم القاف على معنى التعجب ثم أدغمت القاف التي بعدها ونقلت حركتها إلى الحاء.

﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ أي زال ما عليها من الجبال حتى صارت مستوية.

﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ أي ألقت ما في جوفها من الموتى للحشر، وقيل: ألقت ما فيها من الكنوز، وهذا ضعيف لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال قبل القيامة والمقصود ذكر يوم القيامة وتخلت أي بقيت خالية مما كان فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ خطاب للجنس.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الكدح في اللغة: هو الجد والاجتهاد والسرعة، فالمعنى أنك في غاية الاجتهاد في السير إلى ربك، لأن الزمان يطير وأنت في كل لحظة تقطع حظا من عمرك القصير، فكأنك سائر مسرع إلى الموت ثم تلاقي ربك، وقيل: المعنى إنك ذو جد فيما تعمل من خير أو شر ثم تلقى ربك فيجازيك به، والأول أظهر لأن كادح يتعدى بإلى لما تضمن معنى السير، ولو كان بمعنى العمل لقال لربك.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ذكر في الحاقة.

﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ يحتمل أن يكون اليسير بمعنى قليل أو بمعنى هين سهل، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من نوقش الحساب عذب، فقالت عائشة: ألم يقل الله: فسوف يحاسب حسابا يسيرا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما ذلك العرض وأما من نوقش الحساب فيهلك"[1]. وفي الحديث أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إن الله يدني العبد يوم القيامة حتى يضع كنفه عليه فيقول: فعلت كذا وكذا ويعدد عليه ذنوبه، ثم يقول: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها

(١) الطبري ٢٤/٢١٤.

لك اليوم". وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من حاسب نفسه في الدنيا هون الله عليه حسابه يوم القيامة "[1].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ أي يرجع إلى أهله في الجنة مسرورا بما أعطاه الله، والأهل زوجاته في الجنة من نساء الدنيا أو من الحور العين، ويحتمل أن يريد قرابته من المؤمنين وبذلك فسره الزمخشري.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ يعني الكافر، وروي أن هاتين الآيتين نزلتا في أبي سلمة ابن عبد الأسد وكان من فضلاء المؤمنين وفي أخيه أسود وكان من عتاة الكافرين ولفظهما أعم من ذلك، فإن قيل: كيف قال في الكافر هنا أن يؤتي كتابه وراء ظهره، وقال في الحاقة بشماله؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن يديه تكونان مغلولتين إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه، وقيل: تدخل يده اليسرى في صدره وتخرج من ظهره فيأخذ بها كتابه.

﴿يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ أي يصيح بالويل والثبور.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ أي كان في الدنيا مسرورا مع أهله متنعما غافلا عن الآخرة، وهذا في مقابلة ما حكى عن المؤمن أنه ينقلب إلى أهله مسرورا في الجنة وهو ضد ما حكى عن المؤمنين في الجنة من قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي لا يرجع إلى الله، والمعنى أنه يكذب بالبعث.

---

(١) لم أجده مرفوعاً وانظر القرطبي ٢/٤٢٥.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

﴿يَحُورَ﴾ أي يحور ويبعث.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ ذكر في نظائره.

﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ هي الحمرة التي تبقى بعد غروب الشمس، وقال أبو حنيفة: هو البياض، وقيل: هو النهار كله، وهذا ضعيف والأول هو المعروف عند الفقهاء وعند أهل اللغة.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي جمع وضم ومنه الوسق، وذلك أن الليل يضم الأشياء ويسترها بظلامه.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي إذا كمل ليلة أربعة عشر، ووزن اتسق افتعل وهو مشتق من الوسق فكأنه امتلأ نورا، وفي الآية من أدوات البيان لزوم ما لا يلزم لالتزام السين قبل القاف في وسق واتسق.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ الطبق في اللغة له معنيان:

أحدهما: ما طابق غيره يقال هذا طبق لهذا إذا طابقه.

والآخر: جمع طبقة فعلى الأول يكون المعنى لتركبن حالا بعد حال كل واحدة منها مطابقة للأخرى، وعلى الثاني يكون المعنى لتركبن أحوالا بعد أحوال هي طبقات بعضها فوق بعض ثم اختلف في تفسير هذه الأحوال وفي قراءة تركبن فأما من قرأ بضم الباء فهو خطاب لجنس الإنسان وفي تفسير الأحوال على هذا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها شدائد الموت ثم البعث ثم الحساب ثم الجزاء.

والآخر: أنها كون الإنسان نطفة ثم علقة إلى أن يخرج إلى الدنيا ثم إلى أن يهرم ثم يموت.

والثالث: لتركبن سنن من كان قبلكم، وأما من قرأ تركبن بفتح الباء فهو خطاب للإنسان على المعاني الثلاثة التي ذكرنا، وقيل: هي خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم اختلف القائلون بهذا على ثلاثة أقوال:

أحدها: لتركبن مكابدة الكفار حالا بعد حال.

والآخر: لتركبن فتح البلاد شيئا بعد شيء.

والثالث: لتركبن السموات في الإسراء سماء بعد سماء، وقوله: ﴿عَن طَبَقٍ﴾ في موضع الصفة لطبقا أو في موضع حال من الضمير في تركبن قاله الزمخشري.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الضمير لكفار قريش والمعنى أي شيء يمنعهم من الإيمان.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ هذا موضع سجدة عند الشافعي وغيره لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها، وليست عند مالك من عزائم السجدات.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المذكورين ووضع الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالكفر.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي بمـا يجمعـون في صـدورهم مـن الكفـر والتكذيب، أو بما يجمعون في صحائفهم، يقال أوعيـت المـال وغـيره إذا جمعته.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وضع البشارة في موضع النذارة تهكما بهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني من قضى له بالإيمان من هؤلاء الكفار فالاستثناء على هذا متصل وإلى هذا أشار ابن عطية، وقال الزمخشري: هو منقطع.

﴿أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ قد ذكر.

* * * *

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ
ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن
يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾
هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ
﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ البروج: هي المنازل المعروفة وهي اثنا عشر تقطعها الشمس في السنة، وقيل: هي النجوم العظام لأنها تتبرج أي تظهر.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة باتفاق، وقد روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ يحتمل الشاهد والمشهود أن يكون من الشهادة على الأمر أو يكون من معنى الحضور وحذف المعمول وتقديره مشهود عليه أو مشهود به أو مشهود فيه، وقد اضطرب الناس في تفسير الشاهد والمشهود اضطرابا عظيما ويتلخص من أقوالهم في الشاهد ستة عشر قولا يقابلها في المشهود اثنان وثلاثون قولا:

الأول: أن الشاهد هو الله تعالى لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ والمشهود على هذا يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون الخلق بمعنى أنه يشهد عليهم.

والآخر: أن تكون الأعمال بمعنى أنه يشهد بها.

والثالث: أن يكون يوم القيامة بمعنى أنه يشهد فيه أي يحضر للحساب والجزاء أو تقع فيه الشهادة على الناس.

القول الثاني: أن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم لقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والمشهود على هذا: يحتمل أن يكون أمته لأنه يشهد عليهم، أو أعمالهم لأنه يشهد بها، أو يوم القيامة لأنه يشهد فيه، أي يحضر أو تقع فيه الشهادة على الأمة.

القول الثالث: أن الشاهد أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لقوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ والمشهود على هذا: سائر الأمم لأنهم يشهدون عليهم، أو أعمالهم، أو يوم القيامة.

القول الرابع: أن الشاهد هو عيسى عليه السلام والمشهود أمته لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أو أعمالهم، أو يوم القيامة.

القول الخامس: أن الشاهد جميع الأنبياء والمشهود أممهم لأن كل نبي يشهد على أمته، أو يشهد بأعمالهم أو يوم القيامة لأنه يشهد فيه.

القول السادس: أن الشاهد الملائكة الحفظة، والمشهود على هذا الناس، لأن الملائكة يشهدون عليهم، أو الأعمال لأن الملائكة يشهدون

بهـا، أو يـوم القيامـة، أو صـلاة الـصبح، لقولـه: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

القول السابع: أن الشاهد جميع الناس لأنهـم يـشهدون يـوم القيامـة أي يحضرونها والمشهود يوم القيامة لقوله: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

والقول الثامن: أن الشاهد الجـوارح والمـشهود عليـه أصـحابها لقولـه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ أو الأعمال لأن الجـوارح تـشهد بهـا يوم القيامة لأن الشهادة تقع فيه.

القول التاسع: أن الشاهد الله والملائكة وأولوا العلم لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ والمشهود به الوحدانية.

القول العاشر: الشاهد جميع المخلوقات والمـشهود بـه وجـود خالقهـا وإثبات صفاته من الحياة والقدرة وغير ذلك.

القول الحادي عشر: أن الشاهد النجم لما ورد في الحـديث:" لا صـلاة بعد العصر حتى يطلع الشاهد"[(١)]. وهو النجم، والمشهود علـى هـذا الليـل والنهار لأن النجم يشهد بانقضاء النهار ودخول الليل.

القول الثاني عشر: أن الشاهد الحجر الأسود، والمشهود النـاس الـذين يحجون.

القول الثالث عشر: روي عن النبي صـلى الله عليـه وسـلم:" أن الـشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة". وذلك أن يوم الجمعـة يـشهد بالأعمـال ويوم عرفة يشهده جمع عظيم من الناس.

---

(١) صحيح مسلم الحديث رقم: (١٣٧٢) والنسائي الحـديث رقـم: (٥١٨) والـسنن الكـبرى للبيهقي ١/٤٤٨.

القول الرابع عشر: أن الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر قاله علي بن أبي طالب.

القول الخامس عشر: أن الشاهد يوم التروية، والمشهود يوم عرفة.

القول السادس عشر: أن الشاهد يوم الاثنين، والمشهود يوم الجمعة.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ الكلام هنا في ثلاثة فصول:

الأول: في جواب القسم وفيه أربعة أقوال:

أحدها: أنه قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

والثاني: أنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وهذان القولان ضعيفان لبعد القسم من الجواب.

وثالثها: أنه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ تقديره: لقد قتل.

ورابعها: أنه محذوف يدل عليه قتل أصحاب الأخدود، تقديره: لقد قتل هؤلاء الكفار كما قتل أصحاب الأخدود؛ وذلك أن الكفار من قريش كانوا يعذبون من أسلم من قومهم ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله قصة أصحاب الأخدود وعيدا للكفار وتأنيسا للمسلمين المعذبين.

الفصل الثاني: في تفسير لفظها فأما قتل فاختلف هل هو دعاء أو خبر، واختلف هل هو بمعنى القتل حقيقة أو بمعنى اللعن، وأما الأخدود فهو الشق في الأرض كالخندق وشبهه.

وأما أصحاب الأخدود فيحتمل أن يريد بهم الكفار الذين كانوا يحرقون المؤمنين في الأخدود، أو يريد المؤمنين الذين حرقوا فيه فيكون القتل حقيقة خبر، والأول أظهر.

الفصل الثالث: في قصة أصحاب الأخدود وفيها أربعة أقوال:

الأول: ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل معناه أن ملكا كافرا أسلم أهل بلده فأمر بالأخدود فخدّ في أفواه السكك وأضرم فيها النيران فقال: من لم يرجع عن دينه فألقوه فيها، ففعلوا ذلك حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق.

الثاني: أن ملكا زنى بأخته ثم أراد أن يُحِلَّ للناس نكاح الأخوات، فأطاعه قوم ومنهم أخذ المجوس ذلك، وعصاه قوم فحفر لهم الأخدود فأحرقهم فيه بالنار.

القول الثالث: أن نبي أصحاب الأخدود كان حبشيا وأن الحبشة بقية أصحاب الأخدود.

القول الرابع: أن أصحاب الأخدود ذو نواس المذكورة في قصة عبدالله بن التامر التي وقعت في السير، ويحتمل أن يكون ذو نواس هو الملك الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فيتفق هذا القول مع الأول، فإن ذا نواس حفر أخدودا فأوقد فيه نيرانا وألقى فيها كل من وحد الله تعالى واتبع العبد الصالح عبد الله بن التامر.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ النار بدل من الأخدود وهو بدل اشتمال والوقود ما توقد به النار والقصد وصف النار بالشدة والعظم.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ الضمير للكفار الذين كانوا يحرقون المؤمنين في الأخدود وهم أصحاب الأخدود على الأظهر، والعامل في إذ قوله قتل، فروي أن النار أحرقت من المؤمنين عشرين ألفا، وقيل: سبعين ألفا، فقتل

على هذا بمعنى لعن أي لعنوا حين قعدوا على النار لتحريق المؤمنين، وروي أن الله بعث على المؤمنين ريحا فقبضت أرواحهم وخرجت النار فأحرقت الكفار الذين كانوا عليها فقتل على هذا بمعنى القتل الحقيقي أي قتلتهم النار، وقيل: الضمير في إذ هم للمؤمنين، والأول أشهر وأظهر لقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى الشهادة أي يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه فعل ما أمره الملك من التحريق، أو يشهدون بذلك على أنفسهم يوم القيامة، أو يكون بمعنى الحضور، أي كانوا حاضرين على ذلك الفعل.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي ما أنكر الكفار على المؤمنين إلا أنهم آمنوا بالله وهذا لا ينبغي أن ينكر.

فإن قيل: لم قال أن يؤمنوا بلفظ المضارع ولم يقل آمنوا بلفظ الماضي لأن القصة قد وقعت؟ فالجواب: أن التعذيب إنما كان على دوامهم على الإيمان ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوهم فلذلك ذكره بلفظ المستقبل فكأنه قال إلا أن يدوموا على الإيمان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إن كانت هذه الآية في أصحاب الأخدود فالفتنة هنا بمعنى الإحراق، وإن كانت في كفار قريش فالفتنة بمعنى المحنة والتعذيب، وهذا أظهر لقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ لأن أصحاب الأخدود لم يتوبوا بل ماتوا على كفرهم، وأما قريش فمنهم من أسلم وتاب، وفي الآية دليل على أن الكافر إذا أسلم يغفر له ما فعل في حال كفره، لقوله صلى الله عليه وسلم:" الإسلام يجب ما قبله"[1].

(١) هو في الصحيح ابن كثير ٤/٥٥ والقرطبي ٨/٨٤.

﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ يحتمل أن يكون في الآخرة فيكون تأكيدا لعذاب جهنم أو نوعا من العذاب زيادة إلى عذاب جهنم، ويحتمل أن يريد في الدنيا وذلك على رواية أن الكفار أصحاب الأخدود أحرقتهم النار.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البطش هو الأخذ بقوة وسرعة.

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي يبدئ الخلق بالنشأة الأولى ويعيدهم بالنشأة الآخرة للبعث، وقيل: يبدئ البطش ويعيده، أي يبطش بهم في الدنيا والآخرة والأول أظهر وأرجح لقوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وقد ذكرنا الودود في اللغات.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أضاف العرش إلى الله وخصه بالذكر لأن العرش أعظم المخلوقات، والمجيد: من المجد وهو الشرف ورفعة القدر، وقرئ المجيد بالرفع صفة لذو العرش وبالخفض صفة للعرش.

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ توقيف يراد به التنبيه وتعظيم الأمر، المقصود بذكر الجنود تهديد الكفار وتأنيس النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ تهديد لهم معناه لا يفوتونه بل يصيبهم عذابه إذا شاء.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ الذي في السماء، وقرئ محفوظ بالخفض صفة للوح، وبالرفع صفة للقرآن أي حفظه الله من التبديل والتغيير، أو حفظه المؤمنون في صدورهم .

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ
ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ
تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ
فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ۝١٧

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ هذه السماء التي أقسم الله بها هي المعروفة، وقيل: أراد المطر لأن العرب قد تسميه سماء وهذا بعيد، والطارق في اللغة: ما يطرق أي يجيء ليلا، وقد فسره الله هنا بأنه النجم الثاقب وهو يطلع ليلا ومعنى الثاقب المضيء أو المرتفع فقيل: أراد جنس النجوم، وقيل: الثريا لأنه الذي تطلق عليه العرب النجم، وقيل: زحل لأنه أرفع النجوم إذ هو في السماء السابعة .

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ هذا جواب القسم ومعناه عند الجمهور أن كل نفس من بني آدم عليها حافظ يكتب أعمالها يعني الملائكة الحفظة، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية أن لكل نفس حفظة من الله يذبون عنها كما يذب عن العسل: ولو وكل المرء إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الآفات والشياطين وإن صح هذا الحديث فهو المعمول عليه، وقرئ لما عليها بتخفيف الميم وعلى هذا تكون إن مخففة من الثقيلة واللام للتأكيد وما زائدة، وقرئ لما بالتشديد وعلى هذا تكون إن نافية ولما بمعنى الإيجاب بعد النفي .

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ حذف ألف ما لأنها استفهامية وجـــوابها خلق من ماء دافق، وسمي المني ماء دافقا من الدفق بمعنى الدفع، فقيل: معناه مدفوق وصاحبه هو الدافق في الحقيقة، قال: سيبويه هو على النسب أي ذو دفق، وقال ابن عطية: يصح أن يكون الماء دافقا لأن بعضه يدفع بعضا، ومقصود الآية إثبات الحشر، فأمر الإنسان أن ينظر أصل خلقته ليعلم أن الذي خلقه من ماء دافق قادر على أن يعيده، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله أنه لما أخبر أن كل نفس عليها حافظ يحفظ أعمالها أعقبه بالتنبيه على الحشر حيث تجازى كل نفس بأعمالها .

﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ الضمير في يخرج للماء وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون للإنسان، وهذا بعيد جدا، والترائب: عظام الصدر واحدها تريبة، وقيل: هي الأطراف كاليدين والرجلين، وقيل: هي عصارة القلب ومنها يكون الولد، وقيل: هي الأضلاع التي أسفل الصلب، والأول هو الصحيح المعروف في اللغة، ولذلك قال ابن عباس: هي موضع القلادة ما بين ثديي المرأة، ويعني صلب الرجل وترائبه وصلب المرأة وترائبها، وقيل: أراد صلب الرجل وترائب المرأة .

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ الضمير في إنه لله تعالى، وفي رجعه للإنسان، والمعنى أن الله قادر على رجع الإنسان حيا بعد موته، والمراد إثبات البعث، وقيل: إن المعنى رده ماء كما كان أول مرة، وقيل: رده من الكبر إلى الشباب، وقيل: الضمير في رجعه للماء الدافق والمعنى رده في الإحليل أو في الصلب، وهذا كله ضعيف بعيد والقول الأول هو الصحيح المشهور .

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ يعني يوم القيامة، والسرائر جمع سريرة: وهي ما أسر العبد في قلبه من العقائد والنيات وما أخفى من الأعمال، وبلاؤها هو تعرفها والاطلاع عليها، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن السرائر الإيمان والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة وهذه معظمها فلذلك خصها بالذكر، والعامل في يوم قوله رجعه أي يرجعه يوم تبلى السرائر، واعترض بالفصل بينهما وأجيب بقوة المصدر في العمل، وقيل: العامل قادر واعترض بتخصيص القدرة بذلك اليوم، وهذا لا يلزم لأن القدرة وإن كانت مطلقة فقد أخبر الله أن البعث إنما يقع في ذلك اليوم، وقال من احترز من الاعتراضين في القولين المتقدمين العامل فعل مضمر من المعنى تقديره يرجعه يوم تبلى السرائر وهذا كله على المعنى الصحيح في رجعه، وأما على الأقوال الأخر فالعامل في يوم مضمر تقديره اذكر .

﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ الضمير للإنسان ولما كان دفع المكاره في الدنيا إما بقوة الإنسان أو بنصرة غيره له أخبره الله أنه يعدمها يوم القيامة.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ المراد بالرجع عند الجمهور: المطر، وسماه رجعا بالمصدر لأنه يرجع كل عام أو لأنه يرجع إلى الأرض، وقيل: الرجع السحاب الذي فيه المطر، وقيل: هو مصدر رجوع الشمس والكواكب من منزلة إلى منزلة .

﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ يعني ما تصدع عنه الأرض من النبات، وقيل: يعني ما في الأرض من الشقاق والخنادق وشبهها .

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ الضمير للقرآن لأن سياق الكلام يقتضيه والفصل معناه الذي فصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان، والهزل اللهو يعني أنه جد كله .

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ الضمير لكفار قريش وكيدهم هو ما دبروه في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإضرار به وإبطال أمره .

﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ هذا تسمية للعقوبة باسم الذنب للمشاكلة بين الفعلين.

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تستعجل عليهم بالعقوبة لهم أو بالدعاء عليهم وهذا منسوخ بالسيف.

﴿ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أي إمهالا يسيرا قليلا يعني إلى قتلهم يوم بدر أو إلى الدار الآخرة، وجعله يسيرا لأن كل آت قريب، ولفظ رويدا هذا صفة لمصدر محذوف، وقد تقع بمعنى الأمر بالتساهل كقولك رويدا يا فلان، وكرر الأمر في قولهم أمهلهم وخالف بينه وبين لفظ مهل لزيادة التسكين والتصبير قاله الزمخشري.

❊ ❊ ❊ ❊

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ
غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ
﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ
﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ التسبيح في اللغة: التنزيه، وذكر الاسم هنا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد المسمى ويكون الاسم صلة كالزائد، ومعنى الكلام سبح ربك أي نزهه عما لا يليق به وقد يتخرج ذلك على قول من قال إن الاسم هو المسمى.

والآخر: أن يكون الاسم مقصودا بالذكر، ويحتمل المعنى على هذا أربعة أوجه:

الأول: تنزيه أسماء الله تعالى عن المعاني الباطلة كالتشبيه والتعطيل.

الثاني: تنزيه أسماء الله عن أن يسمى بها صنم أو وثن.

الثالث: تنزيه أسماء الله عن أن تدرك في حال الغفلة دون خشوع.

الرابع: أن المراد قول سبحان الله ولما كان هذا التسبيح باللسان لا بد فيه من ذكر الاسم أوقع التسبيح على الاسم وهذا القول هو الصحيح ويؤيده ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: سبحان

ربي الأعلى، وأنها لما نزلت قال:" اجعلوها في سجودكم ". فدل ذلك على أن المراد هو التسبيح باللسان مع موافقة القلب، ولا بد في التسبيح باللسان من ذكر اسم الله تعالى فلذلك قال: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ مع أن التسبيح في الحقيقة إنما هو لله تعالى لا لاسمه وإنما ذكر الاسم لأنه هو الذي يوصل به إلى التسبيح باللسان وعلى هذا يكون موافقا في المعنى لقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ لأن معناه نزه الله بذكر اسمه، ويؤيد هذا ما روي عن ابن عباس أن معنى سبح صل باسم ربك: أي صل واذكر في الصلاة اسم ربك، والأعلى يحتمل أن يكون صفة للرب أو للاسم والأول أظهر .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ حذف مفعول خلق وسوى لقصد الإجمال الذي يفيد العموم والمراد خلق كل شيء فسواه أي أتقن خلقته وانظر ما ذكرنا في قوله ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قدر بالتشديد يحتمل أن يكون من القدر والقضاء أو من التقدير والموازنة بين الأشياء، وقرئ بالتخفيف فيحتمل أن يكون من القدرة أو التقدير وحذف المفعول ليفيد العموم فإن كان من التقدير فالمعنى قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به، وقيل: هدى ذكور الحيوان إلى وطء الإناث لبقاء النسل، وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، وقيل: هدى الناس للخير والشر والبهائم للمراتع، وهذه الأقوال أمثلة والأول أعم وأرجح فإن هداية الإنسان وسائر الحيوانات إلى مصالحها باب واسع فيه عجائب وغرائب، وقال الفر: المعنى هدى وأضل واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأخرى وهذا بعيد.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ المرعى: هو النبات الذي ترعاه البهائم، والغثاء: هو النبات اليابس المتحطم، وأحوى معناه: أسود وهو صفة لغثاء، والمعنى أن الله أخرج المرعى أخضر فجعله بعد خضرته غثاء أسود لأن الغثاء إذا قدم تعفن واسود، وقيل: إن أحوى حال من المرعى ومعناه الأخضر الذي يضرب إلى السواد وفي الكلام على هذا تقديم وتأخير تقديره الذي أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء وفي هذا القول تكلف.

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وعده الله أن يقرئه القرآن فلا ينساه وفي ذلك معجزة له عليه الصلاة والسلام لأنه كان أميا لا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام من القرآن، وقيل: معنى الآية كقوله: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ الآية، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يحرك به لسانه إذا أقرأه جبريل خوفا أن ينساه فضمن الله له أن لا ينساه، وقيل: فلا تنسى نهي عن النسيان وقد علم الله أن ترك النسيان ليس في قدرة البشر، فالمراد الأمر بتعاهده حتى لا ينساه وهذا بعيد لإثبات الألف في تنسى.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه لا تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه كقوله: ﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾.

والآخر: أنه لا ينسى شيئا ولكن قال إلا ما شاء الله تعظيما لله بإسناد الأمر إليه كقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ على بعض الأقوال، وعبر الزمخشري عن هذا بأنه من استعمال التقليل في معنى النفي، والأول أظهر فإن النسيان جائز على النبي صلى الله عليه وسلم فيما أراد الله أن يرفعه من القرآن أو فيما قضى الله أن ينساه ثم يذكره، ومن هذا قول النبي صلى الله

عليه وسلم حين سمع قراءة عباد بن بشير رحمه الله:" لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت قد نسيتها ".

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ عطف على سنقرؤك ومعناه نوفقك للأمور المرضية التي توجب له السعادة، وقيل: معناه للشريعة اليسرى من قوله عليه الصلاة والسلام: " دين الله يسر "[١]. أي سهل لا حرج فيه .

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ المراد بهذا الشرط توبيخ الكفار الذين لا تنفعهم الذكرى واستبعاد تأثير الذكرى في قلوبهم كقولك قد أوصيتك لو سمعت، وقيل: المعنى ذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع، واقتصر على أحد القسمين لدلالة الآخر عليه وهذا بعيد وليس عليه الرونق الذي على الأول .

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي من يخاف الله .

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ يعني الكافر، وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة والضمير المفعول للذكرى .

﴿النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ هي نار جهنم وسماها كبرى بالنظر إلى نار الدنيا، وقيل: سماها كبرى بالنظر إلى غيرها من نار جهنم فإنها تتفاضل وبعضها أكبر من بعض وكلا القولين صحيح إلا أن الأول أظهر ويؤيده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ناركم هذه التي توقدون جزءا من سبعين جزءا من نار جهنم "[٢].

---

(١) أورده القرطبي أيضا ٢/٢٠١ و البحر المحيط ٢/٢٠٧ والدر المنثور ١/٣٨٦.

(٢) الطبري ٢٣/١٤٤ وابن كثير٧/٥٤١ والقرطبي ١٧/٢٢١.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة هنيئة، وعطف هذه الجملة بثم لأن هذه الحالة أشد من صلي النار فكأنها بعده في الشدة .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يحتمل أن يكون تزكى بمعنى الطهارة من الشرك والمعاصي، أو بمعنى الطهارة للصلاة، أو بمعنى أداء الزكاة، وعلى هذا قال جماعة: إنها يوم الفطر، والمعنى أدّى زكاة الفطر .

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام وصلى صلاة العيد، وقد روي هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: المراد أدى زكاة ماله وصلى الصلوات الخمس .

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الإشارة إلى ما ذكر من التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة أو إلى ما تضمنته السورة أو إلى القرآن بجملته والمعنى أنه ثابت في كتب الأنبياء المتقدمين كما ثبت في هذا الكتاب

* * * *

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾
تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾
فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى
ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ
كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ
﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ توقيف يراد به التنبيه والتفخيم للأمر، وقيل: هل بمعنى قد، وهذا ضعيف.

﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ هي القيامة لأنها تغشى جميع الخلق، وقيل: هي النار من قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وهذا ضعيف لأنه ذكر بعد ذلك قسمين أهل الشقاوة وأهل السعادة.

﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلة.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ هو من النصب بمعنى التعب وفي المراد بهم ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم الكفار ويحتمل على هذا أن يكون عملهم ونصبهم في الدنيا لأنهم كانوا يعملون أعمال السوء ويتعبون فيها، أو يكون في الآخرة فيعملون فيها عملا يتعبون فيه من جر السلاسل والأغلال وشبه ذلك ويكون زيادة في عذابهم.

الثاني: أنها في الرهبان الذين يجتهدون في العبادة ولا تقبل منهم لأنهم على غير الإسلام، وبهذا تأولها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبكى رحمة لراهب نصراني رآه مجتهدا، فعاملة ناصبة على هذا في الدنيا، وناصبة إشارة إلى اجتهادهم في العمل، أو إلى أنه لا ينفعهم فليس لهم منه إلا النصب.

الثالث: أنها في القدرية، وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر القدرية فبكى وقال:" إن فيهم المجتهد ".

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي شديدة الحر ومنه: ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ووزن آنية هنا فاعلة بخلاف آنية من فضة فإن وزنه أفعله .

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ في الضريع أربعة أقوال:

أحدها: أنه شوك يقال له البشرق وهو سم قاتل، وهذا أرجح الأقوال لأن أرباب اللغة ذكروه ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الضريع شوك في النار.

الثاني: أنه الزقوم لقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾.

الثالث: أنه نبات أخضر منتن ينبت في البحر وهذا ضعيف.

الرابع: أنه واد في جهنم وهذا ضعيف لأن ما يجرى في الوادي ليس بطعام إنما هو شراب، ولله در من قال: الضريع طعام أهل النار، فإنه أعم وأسلم من عهدة التعيين، واشتقاقه عند بعضهم من المضارعة بمعنى المشابهة لأنه يشبه الطعام الطيب وليس به، وقيل: هو بمعنى مضرع للبدن أي مضعف، وقيل: إن العرب لا تعرف هذا اللفظ.

فإن قيل: كيف قال هنا ليس لهم طعام إلا من ضريع وقال في الحاقة ولا طعام إلا من غسلين؟ فالجواب: أن الضريع لقوم، والغسلين لقوم أو يكون أحدهما في حال والآخر في حال .

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ هذه الجملة صفة لضريع أو لطعام نفى عنه منفعة الطعام وهي التسمين وإزالة الجوع .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أي متنعمة في الجنة أو يظهر عليها نضرة النعيم.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي راضية في الآخرة لأجل سعيها وهو عملها في الدنيا.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ يحتمل أن يكون من علو المكان أو من علو المقدار أو الوجهين .

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ هو من لغو الكلام ومعناه الفحش وما يكره، فيحتمل أن يريد كلمة لاغية أو جماعة لاغية .

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يحتمل أن يريد جنس العيون أو واحدة شرفها بالتعيين.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ قد ذكرنا أكواب، ومعنى موضوعة حاضرة معدة بشرابها، وفي قوله مرفوعة وموضوعة مطابقة .

﴿وَنَمَارِقُ﴾ جمع نمرقة وهي: الوسادة .

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ هي بسط فاخرة، وقيل: هي الطنافس واحدها زربية .

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ أي متفرقة وذلك عبارة عن كثرتها، وقيل: مبسوطة .

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ حض على النظر إلي خلقتها لما فيها من العجائب في قوتها وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف وصبرها على العطش وكثرة المنافع التي فيها من الركوب والحمل عليها وأكل لحومها وشرب ألبانها وأبوالها وغير ذلك، وقيل: أراد بالإبل السحاب، وهذا بعيد وإنما حمل قائله عليه مناسبتها للسماء والأرض والجبال، والصحيح أن المراد الحيوان المعروف وإنما ذكره لما فيه من العجائب ولاعتناء العرب به إذ كانت معايشهم في الغالب منه وهو أكثر المواشي في بلادهم .

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي قاهر متسلط وهذا من المنسوخ بالسيف .

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ استثناء منقطع معناه لكن من تولى .

﴿وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾ وقيل: هو استثناء من مفعول فذكر والمعنى ذكر كل أحد إلا من تولى حتى يئست منه فهو على هذا متصل، وقيل: هو استثناء من قوله لست عليهم بمسيطر أي لا تسلط إلا على من تولى وكفر وهو على هذا متصل ولا نسخ فيه إذ لا موادعة فيه وهذا بعيد لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة .

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي رجعوهم والآية تهديد.

❊ ❊ ❊ ❊

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أقسم الله تعالى بالفجر وهو الطالع كل يوم كما أقسم بالصبح، وقيل: أراد صلاة الفجر، وقيل: أراد النهار كله، وقيل: فجر يوم الجمعة، وقيل: فجر يوم النحر، وقيل: فجر ذي الحجة، ولا دليل على هذه التخصيصات، وقيل: أراد انفجار العيون من الحجارة وهذا بعيد والأول أظهر وأشهر.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هي عشر ذي الحجة عند الجمهور، وقيل: العشر الأول من المحرم وفيها يوم عاشوراء، وقيل: العشر الأواخر من رمضان، وقيل: العشر الأول منه.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، وذلك لأن يوم النحر عاشر فعدده شفع ويوم عرفة تاسع فعدده وتر، وروي عنه عليه الصلاة والسلام: أن الشفع يوم عرفة ويوم

الأضحىٰ و الوتر ليلة النحر، وروي عنه صلى الله عليه وسلم: أنها الصلوات منها شفع ووتر، وقيل: الشفع التنفل بالصلاة مثنى مثنى والوتر الركعة الواحدة المعروفة، وقيل: الشفع العالم والوتر الله لأنه واحد، وقيل: الشفع آدم وحواء والوتر الله تعالى، وقيل: الشفع الصفا والمروة والوتر البيت الحرام، وقيل: الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية والوتر أبواب النار لأنها سبعة، وقيل: الشفع قران الحج والوتر إفراده، وقيل: المراد الأعداد منها شفع ووتر فهذه عشرة أقوال، وقرئ الوتر بفتح الواو وكسرها وهما لغتان .

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي إذا يذهب فهو كقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ وقيل: أراد يسري فيه فهو على هذا كقولهم ليلة قائم والمراد على هذا ليلة جمع لأنها التي يسري فيها والأول أشهر وأظهر .

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ هذا توقيف يراد به تعظيم الأشياء التي أقسم بها، والحجر: هنا هو العقل، كأنه يقول إن هذا لقسم عظيم عند ذوي العقول وجواب القسم محذوف وهو ليأخذن الله الكفار ويدل على ذلك ما ذكره بعده من أخذ عاد وثمود وفرعون .

﴿إِرَمَ ﴾ هي قبيلة عاد سميت باسم أحد أجدادها كما، يقال هاشم لبني هاشم، وإعرابه بدل من عاد أو عطف بيان وفائدته أن المراد عاد الأولى فإن عادا الثانية لا يسمون بهذا الاسم، وقيل: إرم اسم مدينتهم فهو على حذف مضاف تقديره بعاد عاد إرم ويدل على هذا قراءة ابن الزبير بعاد إرم على الإضافة من غير تنوين عاد، وامتنع إرم من الصرف على القولين للتعريف والتأنيث .

﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ من قال إرم قبيلة قال العماد أعمدة بنيانهم أو أعمدة بيوتهم من الشعر لأنهم كانوا أهل عمود، وقال ابن عباس: ذلك كناية عن طول أبدانهم. ومن قال إرم مدينة فالعماد الحجارة التي بنيت بها، وقيل: القصور والأبراج.

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ صفة للقبيلة لأنهم كانوا أعظم الناس أجساما، يقال كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع، أو صفة للمدينة وهذا أظهر لقوله في البلاد ولأنها كانت أحسن مدائن الدنيا، وروي: أنها بناها شداد بن عاد في ثلاثمائة عام وكان عمره تسعمائة عام وجعل قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أنواع الشجر والأنهار الجارية، وروي: أنه سمع ذكر الجنة فأراد أن يعمل مثلها فلما أتمها وسار إليها بأهل مملكته أهلكهم الله بصيحة وكانت هذه المدينة باليمن، وروي: أن بعض المسلمين مر بها في خلافة معاوية، وقيل: هي دمشق، وقيل: الإسكندرية وهذا ضعيف .

﴿جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ أي نقبوه ونحتوا فيه بيوتا والوادي ما بين الجبلين وإن لم يكن فيه ماء، وقيل: أراد وادي القرى.

﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ ذكر في سورة داوود .

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ صفة لعاد وثمود وفرعون ويجوز أن يكون منصوبا على الذم أو خبر ابتداء مضمر .

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ استعار السوط للعذاب لأنه يقتضي من التكرار ما لا يقتضيه السيف وغيره قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: ذكر

السوط إشارة إلى عذاب الدنيا إذ هو أهون من عذاب الآخرة كما أن السوط أهون من القتل .

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ عبارة عن أنه تعالى حاضر بعلمه في كل مكان وكل زمان، ورقيب على كل إنسان وأنه لا يفوته أحد من الجبابرة والكفار، وفي ذلك تهديد لكفار قريش وغيرهم والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ الابتلاء هو الاختبار واختبار الله لعبده لتقوم الحجة على العبد بما يبدو منه وقد كان الله عالما بذلك قبل كونه والإنسان هنا جنس، وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة وهي مع ذلك على العموم فيمن كان على هذه الصفة وذكر الله في هذه الآية ابتلاءه للإنسان بالخير ثم ذكر بعده ابتلاءه بالشر كما قال في : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ وأنكر عليه قوله حين الخير: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وقوله حين الشر: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ ويتعلق بالآية سؤالان:

السؤال الأول: لم أنكر الله على الإنسان قوله: ربي أكرمني وربي أهانني؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أن الإنسان يقول ربي أكرمني على وجه الفخر بذلك والكبر لا على وجه الشكر، ويقول ربي أهانني على وجه التشكي من الله وقلة الصبر والتسليم لقضاء الله فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك فإن الواجب عليه أن يشكر على الخير ويصبر على الشر.

والآخر: أن الإنسان اعتبر الدنيا فجعل بسط الرزق فيها كرامة، وتضييقه إهانة وليس الأمر كذلك، فإن الله قد يبسط الرزق لأعدائه ويضيقه على أوليائه فأنكر الله عليه اعتبار الدنيا والغفلة عن الآخرة، وهذا الإنكار من هذا

الوجه على المؤمن وأما الكافر فإنما اعتبر الدنيا لأنه لا يصدق بالآخرة ويرى أن الدنيا هي الغاية فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك.

السؤال الثاني: إن قيل قد قال الله فأكرمه فأثبت إكرامه فكيف أنكر عليه قوله ربي أكرمن؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه لم ينكر عليه ذكره للإكرام وإنما أنكر عليه ما يدل عليه كلامه من الفخر وقلة الشكر أو من اعتبار الدنيا دون الآخرة حسبما ذكرنا في معنى الإنكار.

الثاني: أنه أنكر عليه قوله ربي أكرمن إذا اعتقد أن إكرام الله له باستحقاقه للإكرام على وجه التفضل والإنعام كقول قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

الثالث: أن الإنكار إنما هو لقوله: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ لا لقوله: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ فإن قوله ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ اعتراف بنعمة الله وقوله: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ شكاية من فعل الله .

﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ أي ضيقه وقرئ بتشديد الدال وتخفيفها بمعنى واحد وفي التشديد مبالغة، وقيل: معنى التشديد جعله على قدر معلوم.

﴿كَلَّا﴾ زجر عما أنكر من قول الإنسان .

﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ هذا ذم لما ذكر من الأعمال القبيحة ومعنى هذا الإضراب ببل كأنه أنكر على الإنسان ما تقدم ثم قال بل تفعلون ما هو شر

من ذلك وهو ألا تكرموا اليتيم وما ذكر بعده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم"[1] .

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ الحض على الأمر هو الترغيب فيه ومن لا يحض غيره على أمر فلا يفعله هو كأنه ذم لترك طعام المسكين والطعام هنا بمعنى الإطعام، وقيل: هو على حذف مضاف تقديره لا تحضون على بذل طعام المسكين وقرئ تحاضون بفتح الحاء وألف بعدها بمعنى لا يحض بعضكم بعضا.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ التراث: هو ما يورث عن الميت من المال، والتاء فيه بدل من الواو واللم الجمع واللف، والتقدير أكلا ذا لم وهو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره لأن العرب كانوا لا يعطون من الميراث أنثى ولا صغيرا بل ينفرد به الرجال .

* * * *

(١) العجم الكبير للطبراني الحديث رقم ١٣٢٥٢ وكنز العمال الحديث رقم: ٦٩٢١ وهو حديث ضعيف جداً.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي شديدا كثيرا وهو ذم للحرص على المال وشدة الرغبة فيه .

﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي سويت بذهاب جبالها.

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي دكا بعد دك كما تقول تعلمت العلم بابًا بابًا .

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ تأويله عند المتأولين جاء أمره وسلطانه وقال المنذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك وهذه الآية وأمثالها من المشكلات التي يجب الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ هو اسم جنس، فإنه روي أن الملائكة كلهم يكونون صفوفا حول الأرض .

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي صفا بعد صف قد أحدقوا بالجن والإنس .

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى يومئذ بجهنم معها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها"[1] .

---

(١) الطبري ٤١٩/٢٤ وابن كثير ٢٩٩/٨.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يومئذ بدل من إذا دكت ويتذكر هو العامل وهو جواب إذا دكت، والمعنى: أن الإنسان يتذكر يوم القيامة لأعماله في الدنيا ويندم على تفريطه وعصيانه والإنسان هنا جنس، وقيل: يعني عتبة بن ربيعة وقيل: أمية بن خلف .

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ هذا على حذف تقديره أنى له الانتفاع بالذكرى كما تقول ندم حين لم تنفعه الندامة .

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يريد الحياة في الآخرة فالمعنى يا ليتني قدمت عملا صالحا للآخرة.

والآخر: أنه يريد الحياة الدنيا فالمعنى يا ليتني قدمت عملا صالحا وقت حياتي فاللام على هذا كقوله كتبت لعشر من الشهر .

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ من قرأ بكسر الذال من يعذب والثاء من يوثق فالضمير في عذابه ووثاقه لله تعالى، والمعنى أن الله يتولى عذاب الكفار ولا يكله إلى أحد ومن قرأ بالفتح فالضمير للإنسان أي لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق أحد مثل وثاقه وهذه قراءة الكسائي، وروي أن أبا عمرو رجع إليها وهي قراءة حسنة، وقد رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ أي الموقنة يقينا قد اطمأنت به بحيث لا يتطرق إليها شك في الإيمان وقيل:المطمئنة التي لا تخاف حينئذ ويؤيد هذا قراءة أبي بن كعب: ﴿يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة﴾ ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ هذا الخطاب

والنداء يكون عند الموت، وقيل: عند البعث، وقيل: عند انـصراف النـاس إلى الجنة أو النار، والأول أرجح لما روي أن أبا بكر سأل عن ذلك رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا أبـا بكـر إن الملـك سـيقولها لـك عنـد موتك .

﴿رَاضِيَةً﴾ معناه راضية بما أعطاها الله أو راضية عن الله ومعـنى المرضـية مرضية عند الله أو أرضاها الله بما أعطاها .

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي ادخلي في جملة عبادي الـصالحين وقـرئ فـادخلي في عبدي بالتوحيد معناه ادخلي في جسده وهو خطاب للنفس ونزلت هـذه الآية في حمزة، وقيل: في خبيب بن عدي الذي صلبه الكفار بمكة ولفظهـا يعم كل نفس مطمئنة.

* * * *

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾
أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل
لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا
ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ
﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أراد مكة باتفاق وأقسم بها تشريفا لها ولا زائدة .

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ هذه جملة اعتراض بين القسم وما بعده وفي معناها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المعنى أنت حال بهذا البلد أي ساكن لأن السورة نزلت والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة.

والآخر: أن معنى حل تستحل حرمتك ويؤذيك الكفار مع أن مكة لا يحل فيها قتل صيد ولا بشر ولا قطع شجر وعلى هذا قيل لا أقسم نفي أي لا أقسم بهذا البلد وأنت تلحقك فيه إذاية.

الثالث: أن معنى حل حلال يجوز لك في هذا البلد ما شئت من قتلك الكفار وغير ذلك مما لا يجوز لغيرك وهذا هو الأظهر لقوله صلى الله عليه

وسلم:" إن هذا البلد حرام حرمه الله يوم خلق السموات والأرض لم يحل لأحد قبلي ولا يحل لأحد بعدي وإنما أحل لي ساعة من نهار"[١].

يعني يوم فتح مكة وفي ذلك اليوم أمر عليه الصلاة والسلام بقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة. فإن قيل: إن السورة مكية وفتح مكة كان عام ثمانية من الهجرة؟ فالجواب: أن هذا وعد بفتح مكة كما تقول لمن تعده بالكرامة أنت مكرم يعني فيما يستقبل، وقيل: إن السورة على هذا مدنية نزلت يوم الفتح وهذا ضعيف .

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ فيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه أراد آدم وجميع ولده.

الثاني: نوح وولده.

الثالث: إبراهيم وولده.

الرابع: سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وولده.

الخامس: جنس كل والد ومولود وإنما قال وما ولد ولم يقل ومن ولد إشارة إلى تعظيم المولود كقوله:﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ قاله الزمخشري.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ أي يكابد المشقات من هموم الدنيا والآخرة، قال بعضهم: لا يكابد أحد من المخلوقات ما يكابد ابن آدم، وأصل الكبد من قولك كبد الرجل فهو أكبد إذا وجعت كبده، وقيل: معنى في كبد واقفا منتصب القامة وهذا ضعيف والإنسان على هذين القولين جنس، وقيل:

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٢٤٣٤) ومسلم: (٢٤١٤) وهو مختصر من حديث صحيح طويل انظر الطبري ٤٦/٢ وابن كثير ٤٠٢/٨.

الإنسان آدم عليه السلام ومعنى في كبد على هذا في السماء، وهذا ضعيف والأول هو الصحيح .

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه أيظن أن لن يقدر أحد على بعثه وجزائه.

والآخر: أيظن أن لن يقدر أحد أن يغلبه فعلى الأول نزلت في جنس الإنسان الكافر وعلى الثاني نزلت في رجل معين وهو أبو الأشد رجل من قريش كان شديد القوة، وقيل: عمرو بن عبد ود وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة وقتله علي بن أبي طالب .

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي كثيرا، وقرئ لبدا بضم اللام وكسرها وهو جمع لبدة بالضم والكسر بمعنى الكثرة ونزلت الآية عند قوم في الوليد بن المغيرة فإنه أنفق مالا في إفساد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: في الحرث بن عامر بن نوفل وكان قد أسلم وأنفق في الصدقات والكفارات فقال: لقد أهلكت مالي منذ تبعت محمد .

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ يحتمل أن يكون هذا تكذيبا له في قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أو إشارة إلى أنه أنفقه رياء .

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي طريقي الخير والشر فهو كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد، وقيل: يعني ثديي الأم .

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ الاقتحام الدخول بشدة ومشقة، والعقبة عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بعد، وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل لأنها

تصعب ويشق صعودها على النفوس، وقيل: هو جبل في جهنم له عقبة لا يجاوزها إلا من عمل هذه الأعمال ولا هنا تخصيص بمعنى هلا، وقيل: هي دعاء وقيل: هي نافية واعترض هذا القول بأن لا النافية إذا دخلت على الفعل الماضي لزم تكرارها وأجاب الزمخشري بأنها مكررة في المعنى، والتقدير فلا اقتحم العقبة ولا فك رقبة ولا أطعم مسكينا وقال الزجاج قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدل على التكرار لأن التقدير فلا اقتحم العقبة ولا آمن .

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ تعظيم للعقبة ثم فسرها بفك الرقبة وهو إعتاقها وبالإطعام وقرئ فك رقبة بضم الكاف وخفض الرقبة وهو على هذا تفسير للعقبة، وبفتح الكاف ونصب الرقبة وهو تفسير لاقتحم، وفك الرقبة هو عتقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار"[١].

وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: دلني على عمل أنجو به. فقال: فك الرقبة وأعتق النسمة. فقال الأعرابي: أليسَ هذا واحداً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا، إعتاق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها".

وأما فك أسارى المسلمين من أيدي الكافرين فإنه أعظم أجرا من العتق لأنه واجب ولو استغرقت فيه أموال المسلمين ولكنه لا يجزئ في الكفارات عن عتق رقبة .

---

(١) البخاري ابن كثير ٤٠٦/٨ ومسلم الحديث رقم: (٢٧٧٥) وأبو داود الحديث رقم: (٣٤٥٣) والترمذي الحديث رقم: (١٤٦١).

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ من قرأ فك بالرفع قرأ إطعام بـالعطف مـصدر علـى مـصدر ومن قرأ فك بالفتح قرأ أطعم بفتح الهمزة والميم فعطف فعلا على فعل .

﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي ذي مجاعة يقال سغب الرجل إذا جاع .

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي ذا قرابة ففيه أجر إطعام اليتيم وصلة الرحم .

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي ذا حاجة يقال ترب الرجل إذا افتقر وهو مـأخوذ من الصدقة بالتراب، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه الذي مـأواه المزابل .

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم هنـا للتراخـي في الرتبـة لا في الزمـان وفيهـا إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام، ولا يصح أن يكون للترتيب في الزمان لأنه لا يلزم أن يكون الإيمان بعد العتق والإطعام، ولا يقبل عمل إلا من مؤمن .

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي وصى بعضهم بعضا بالصبر على قضاء الله وكأن هذا إشارة إلى صبر المسلمين بمكة على إذاية الكفار .

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي وصى بعضهم بعضا برحمـة المـساكين وغيرهـم، وقيل: الرحمة كل ما يؤدي إلى رحمة الله .

﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ جهة اليمين و ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ جهة الشمال، وروي: أن الميمنة عن يمين العرش ويحتمل أن يكونا من اليُمن والشؤم .

﴿نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي مطبقة مغلقة يقال أوصدت الباب إذا أغلقته وفيه لغتـان الهمزة وترك الهمزة.

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ الضحى ارتفاع الضوء وكماله، والضحاء بالفتح والمد بعد ذلك إلى الزوال، وقيل: الضحى النهار كله والأول هو المعروف في اللغة.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي تبعها وفي اتباعه لها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يتبعها في كثرة الضوء لأنه أضوء الكواكب بعد الشمس ولا سيما ليلة البدر.

والآخر: أنه يتبعها في طلوعه لأنه يطلع بعد غروبها وذلك في النصف الأول من الشهر.

والثالث: أن تبعه لها أخذه من نورها.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي كشفها وأظهرها، وضمير المفعول للشهر، وضمير الفاعل للنهار؛ لأن الشمس تنجلي بالنهار فكأنه هو الذي جلاها، وقيل: الضمير الفاعل لله وقيل: الضمير المفعول للظلمة أو للأرض أو للدنيا وهذا كله بعيد لأنه لم يتقدم ما يعود الضمير عليه.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ أي يغطيها وضمير المفعول للشمس وضمير الفاعل لليل على الأصح.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ قيل: إن ما في قوله وما بناها وما طحاها وما سواها موصولة بمعنى من والمراد الله تعالى، وقيل: إنها مصدرية كأنه قال والسماء وبنيانها وضعف الزمخشري هذا بقوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾ فإن المراد الله باتفاق فهذا القول يؤدي إلى فساد النظم، وضعف بعضهم كونها موصولة بتقديم ذكر المخلوقات على الخالق.

فإن قيل: لم عدل عن من إلى ما في قول من جعلها موصولة؟ فالجواب: أنه فعل ذلك لإرادة الوصفية كأنه قال: والقادر الذي بناها.

﴿طَحَىٰهَا﴾ أي مدها.

﴿وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ تسوية النفس إكمال عقلها وفهمها، فإن قيل: لم نكر النفس؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد الجنس كقوله: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾.

والآخر: أنه أراد نفس آدم والأول هو المختار.

﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ أي عرفها طريق الفجور والتقوى وجعل لها قوة يصح معها اكتساب أحد الأمرين، ويحتمل أن تكون الواو بمعنى أو كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جواب القسم عند الجمهور، وقال الزمخشري: الجواب محذوف تقديره: ليدمْدِمَّن الله على أهل مكة لتكذيبهم النبي صلى الله

عليه وسلم كما دمدم على قوم ثمود لتكذيبهم صالحا عليه الصلاة والسلام، قال وأما قد أفلح فكلام تابع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ على سبيل الاستطراد وهذا بعيد والفاعل بزكاها ضمير يعود على من، والمعنى قد أفلح من زكى نفسه أي طهرها من الذنوب والعيوب، وقيل: الفاعل ضمير الله تعالى والأول أظهر.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي حقرها بالكفر والمعاصي، وأصله دسس بمعنى أخفى فكأنه أخفى نفسه لما حقرها، وأبدل من السين الأخيرة حرف علة كقولهم قصيت أظفاري وأصله قصصت.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ هو مصدر بمعنى الطغيان قلبت فيه الياء واوا على لغة من يقول طغيت والباء الخافضة كقولك كتبت بالقلم أو سببية، والمعنى بسبب طغيانها وقال ابن عباس: معناه كذبت ثمود بعذابها، ويؤيده قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ العامل في إذ كذبت أو طغواها، ومعنى انبعث: خرج لعقر الناقة بسرعة ونشاط، وأشقاها: هو الذي عقر الناقة وهو أحيمر ثمود واسمه قدار بن سالف، ويحتمل أن يكون أشقاها واقعا على جماعة لأن أفعل التي للتفضيل إذا أضفته يستوي فيه الواحد والجمع، والأول أظهر وأشهر.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يعني صالحا عليه السلام.

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره احفظوا ناقة الله أو احذروا ناقة الله، وسقياها شربها من الماء.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نسب العقر إلى جماعة لأنهم اتفقوا عليه وباشره واحد منهم.

﴿فَدَمْدَمَ﴾ عبارة عن إنزال العذاب بهم وفيه تهويل.

﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنبهم وهو التكذيب أو عقر الناقة.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ قال ابن عطية: معناه فسوى القبيلة في الهلاك لم يفلت أحد منهم، وقال الزمخشري: الضمير للدمدمة أي سواها بينهم.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ ضمير الفاعل لله تعالى، والضمير في عقباها للدمدمة والتسوية وهو الهلاك، أي لا يخاف عاقبة إهلاكهم ولا درك عليه في ذلك كما يخاف الملوك من عاقبة أعمالهم وفي ذلك احتقار لهم، وقيل: إن ضمير الفاعل لصالح وهذا بعيد وقرئ فلا يخاف بالفاء وبالواو، وقيل: في القراءة بالواو أن الفاعل أشقاها والجملة في موضع الحال أي انبعث ولم يخف عقبى فعلته وهذا بعيد.

* * * *

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ
وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣
فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧
الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ
يَرْضَىٰ ۝٢١

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي يغطي وحذف المفعول وهو الشمس لقوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أو النهار لقوله: ﴿يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أو كل شيء يستره الليل .

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي ظهر وتبين والنهار من طلوع الشمس واليوم من طلوع الفجر .

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ما بمعنى من والمراد بها الله تعالى، وعدل عن من لقصد الوصف كأنه قال والقادر الذي خلق الذكر والأنثى، وقيل: هي مصدرية، وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم: قرأ والذكر والأنثى.

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ هذا جواب القسم ومعناه إن عملكم مختلف فمنه حسنات ومنه سيئات وشتى جمع شتيت .

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي أعطى ماله في الزكاة والصدقة وشبه ذلك أو أعطى حقوق الله من طاعته في جميع الأشياء واتقى الله .

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي بالخصلة الحسنة وهي الإسلام ولذلك عبر عنها بعضهم بأنها لا إله إلا الله، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة وقيل: يعني الأجر والثواب على الإطلاق، وقيل: يعني الخلف على المنفق .

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي نهيؤه للطريقة اليسرى وهي فعل الخيرات وترك السيئات وضد ذلك تيسيره للعسرى ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"[1]. أي يهيؤه الله لما قدر له ويسهل عليه فعل الخير أو الشر .

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي بخل بماله أو بطاعة الله على الإطلاق فيحتمل الوجهين لأنه في مقابلة أعطى كما أن استغنى في مقابلة اتقى وكذلك كذب بالحسنى في مقابلة صدق بالحسنى ونيسره للعسرى في مقابلة نيسره لليسرى ومعنى: ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ استغنى عن الله فلم يطعه أو استغنى بالدنيا عن الآخرة، ونزلت آية المدح في أبي بكر الصديق لأنه أنفق ماله في مرضات الله وكان يشتري من أسلم من العبيد فيعتقهم، وقيل: نزلت في أبي الدحداح وهذا ضعيف لأنها مكية وإنما أسلم أبو الدحداح بالمدينة، وقيل: إن آية الذم نزلت في أبي سفيان بن حرب وهذا ضعيف لقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ وقد أسلم أبو سفيان بعد ذلك.

---

(١) البخاري الحديث رقم ٤٩٤٩ ومسلم الحديث رقم ٤٧٨٧ والترمذي الحديث رقم: (٢٠٦٢).

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ هذا نفي أو استفهام بمعنى الإنكار، واختلف في معنى تردى على أربعة أقوال:

الأول: تردى أي هلك فهو مشتق من الردى وهو الموت، أو تردى أي سقط في القبر، أو سقط في جهنم، أو تردى بأكفانه من الرداء .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي بيان الخير والشر وليس المراد الإرشاد عند الأشعرية خلافا للمعتزلة .

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ خطاب من الله أو من النبي صلى الله عليه وسلم على تقدير قل .

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ استدل المرجئة بهذه الآية على أن النار لا يدخلها إلا الكفار لقوله: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وتأولها الناس بثلاثة أوجه:

أحدها: أن المعنى لا يصلاها صلي خلود إلا الأشقى .

والآخر: أنه أراد نارا مخصوصة.

الثالث: أنه أراد بالأشقى كافرا معينا وهو أبو جهل وأمية ابن خلف، وقابل به الأتقى وهو أبو بكر الصديق، فخرج الكلام مخرج المدح والذم على الخصوص، لا مخرج الإخبار على العموم .

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ من أداء الزكاة، أو من الزكاة أي يصير زكيا عند الله، أو يتطهر من ذنوبه، وهذا الفعل بدل من يؤتي ماله أو حال من الضمير .

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي لا يفعل الخير جزاء على نعمة أنعم بها عليه أحد فيما تقدم بل يفعله ابتداء خالصا لوجه الله، وقيل: المعنى لا

يقصد جزاء من أحد في المستقبل على ما يفعل، والأول أظهر ويؤيده ما روي أن سبب الآية أن أبا بكر الصديق لما أعتق بلالا قالت قريش كان لبلال عنده يد متقدمة فنفى الله قولهم.

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ﴾ استثناء منقطع.

﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ وعد بأن يرضيه الله في الآخرة.

* * * *

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ذكر في الشمس وضحاها .

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فيه أربعة أقوال إذا أقبل، وإذا أدبر، وإذا أظلم، وإذا سكن، أي استقر واستوى أو سكن فيه الناس والأصوات ومنه: ليلة ساجية إذا كانت ساكنة الريح، وطرف ساج أي ساكن غير مضطرب النظر، وهذا أقرب في الاشتقاق وهو اختيار ابن عطية .

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ بتشديد الدال من الوداع وقرئ بتخفيفها بمعنى ما تركك والوداع مبالغة في الترك .

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما أبغضبك، وحذف ضمير المفعول من قلى وآوى وهدى وأغنى اختصارا لظهور المعنى ولموافقة رؤوس الآي، وسبب الآية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأ عنه الوحي فقالت قريش: إن محمدا ودعه ربه وقلاه، فنزلت الآية تكذيبا لهم. وقيل: رمي عليه الصلاة والسلام بحجر في أصبعه فدميت فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم، فقالت امرأة: ما أرى شيطان محمد إلا قد تركه فنزلت الآية .

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي الدار الآخرة خير لك من الدنيا، قال ابن عطية: ويحتمل أن يريد بالآخرة حاله بعد نزول هذه السورة، ويريد بالأولى حاله قبل نزولها، وهذا بعيد والأول أظهر وأشهر .

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت: إذاً لا أرضى أن يبقى واحد من أمتي في النار، قال بعضهم: هذه أرجى آية في القرآن، وقال ابن عباس: رضاه أن الله وعده بألف قصر في الجنة بما يحتاج إليه من النعم والخدم، وقيل: رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره، والصحيح أنه وعد يعم كل ما أعطاه الله في الآخرة وكل ما أعطاه في الدنيا من النصر والفتوح وكثرة المسلمين وغير ذلك .

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ عدد الله نعمه عليه فيما مضى من عمره ليقيس على ذلك ما يستقبل فتطيب نفسه ويقوى رجاءه، ووجد في هذه المواضع تتعدى إلى مفعولين وهي بمعنى علم فالمعنى ألم تكن يتيما فآواك، وذلك أن والده عليه السلام توفي وتركه في بطن أمه ثم ماتت أمه وهو ابن خمسة أعوام، وقيل: ثمانية، فكفله جده عبد المطلب ثم مات وتركه ابن اثني عشر عاما فكفله عمه أبو طالب، وقيل: لجعفر الصادق لم نشأ النبي صلى الله عليه وسلم يتيما؟ فقال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق .

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ فيه ستة أقوال:

أحدها: وجدك ضالا عن معرفة الشريعة فهداك إليها، فالضلال عبارة عن التوقف في أمر الدين حتى جاءه الحق من عند الله فهو كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ وهذا هو الأظهر وهو الذي اختاره ابن عطية وغيره، ومعناه أنه لم يكن يعرف تفصيل الشريعة وفروعها حتى بعثه الله

ولكنه ما كفر بالله ولا أشرك به لأنه كان معصوما من ذلك قبل النبوة وبعدها.

والثاني: وجدك في قوم ضلال فكأنك واحد منهم وإن لم تكن تعبد ما يعبدون وهذا قريب من الأول.

والثالث: وجدك ضالا عن الهجرة فهداك إليها وهذا ضعيف لأن السورة نزلت قبل الهجرة.

الرابع: وجدك خامل الذكر لا تعرف فهدى الناس إليك وهداهم بك وهذا بعيد عن المعنى المقصود.

الخامس: أنه من الضلال عن الطريق وذلك أنه صلى الله عليه وسلم ضل في بعض شعب مكة وهو صغير فرده الله إلى جده، وقيل: بل ضل من مرضعته حليمة فرده الله إليها، وقيل: بل ضل في طريق الشام حين خرج إليها مع أبي طالب.

السادس: أنه من الضلال بمعنى المحبة أي وجدك محبا لله فهداك إليه ومنه قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي محبتك ليوسف، وبهذا كان يقول شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير .

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ العائل: الفقير، يقال عال الرجل فهو عائل إذا كان محتاجا، وأعال فهو معيل إذا كثر عياله، وهذا الفقر والغنى هو في المال وغناؤه صلى الله عليه وسلم هو أن أعطاه الله الكفاف، وقيل: هو رضاه بما أعطاه الله، وقيل: المعنى وجدك فقيرا إليه فأغناك به .

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي لا تغلبه على ماله وحقه لأجل ضعفه أو لا تقهره بالمنع من مصالحه، ووجوه القهر كثيرة والنهي يعم جميعها .

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ النهر هو الانتهار والزجر، والنهي عنه أمر بالقول الحسن والدعاء للسائل كما قال تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ ويحتمل السائل أن يريد به سائل الطعام والمال وهذا هو الأظهر، والسائل عن العلم والدين، وفي قوله تقهر وتنهر لزوم ما لا يلزم من التزام الهاء قبل الراء .

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ قيل: معناه بث القرآن وبلغ الرسالة والصحيح أنه عموم في جميع النعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" التحدث بالنعم شكر ". ولذلك كان بعض السلف يقول: لقد أعطاني الله كذا ولقد صليت البارحة كذا وهذا إنما يجوز إذا كان على وجه الشكر أو ليقتدى به، فأما على وجه الفخر والرياء فلا يجوز.

وانظر كيف ذكر الله في هذه السورة ثلاث نعم ثم ذكر في مقابلتها ثلاث وصايا:

فقابل قوله: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا﴾ بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾.

وقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا﴾ بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ على قول من قال إنه السائل عن العلم، وقابله بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ على القول الآخر.

وقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ على القول الأظهر، وقابله بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ على القول الآخر.

* * * *

سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هذا توقيف معناه إثبات شرح صدره صلى الله عليه وسلم وتعديد ما ذكر بعده من النعم وشرح صدره صلى الله عليه وسلم هو اتساعه لتحصيل العلم، وتنويره بالحكمة والمعرفة، وقيل: هو شق جبريل لصدره في صغره، أو في وقت الإسراء حين أخرج قلبه وغسله.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: قول الجمهور أن الوزر الذنوب ووضعها هو غفرانها فهو كقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وهذا على قول من جوز صغائر الذنوب على الأنبياء أو على أن ذنوبه كانت قبل النبوءة.

الثاني: أن الوزر هو أثقال النبوة وتكاليفها ووضعها على هذا هو إعانته عليها وتمهيد عذره بعد ما بلغ الرسالة.

الثالث: أن الوزر هو تحيره قبل النبوة إذ كان يرى أن قومه على ضلال ولم يأته من الله أمر واضح، فوضعه على هذا هو بالنبوة والهدى للشريعة .

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ عبارة عن ثقل الوزر المذكور وشدته عليه قال الحارث المحاسبي: إنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل وهي صغائر مغفورة لهم لهمهم بها وتحسرهم عليها فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله، وهي خفيفة عند الله. وهذا كما جاء في الأثر: إن المؤمن يرى ذنوبه كالجبل

يقع عليه، والمنافق يرى ذنوبه كالذبابة تطير فوق أنفه. واشتقاق أنقض ظهرك من نقض البنيان وغيره، أو من النقيض وهو الصوت فكأنه يسمع لظهره نقيض كنقيض ما يحمل عليه شيء ثقيل .

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي نوهنا باسمك وجعلناه شهيرا في المشارق والمغارب، وقيل: معناه اقتران ذكره بذكر الله في الأذان والخطب والتشهد وفي مواضع من القرآن، وقد روي في هذا حديث: أن الله قال له: " إذا ذكرتُ ذكرتَ معي".

فإن قيل: لم قال: ﴿لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ﴿لَكَ صَدْرَكَ﴾ مع أن المعنى مستقل دون ذلك؟ فالجواب: أن قوله لك يدل على الاعتناء به والاهتمام بأمره .

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ هذا وعد باليسر بعد العسر، وإنما ذكره بلفظ مع التي تقتضي المقاربة، ليدل على قرب اليسر من العسر، فإن قيل: ما وجه ارتباط هذا مع ما قبله؟ فالجواب: أنه صلى الله عليه وسلم كان بمكة هو وأصحابه في عسر من إذاية الكفار ومن ضيق الحال ووعده الله باليسر.

وقد تقدم تعديد النعم تسلية وتأنيسا لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه، كأنه يقول إن الذي أنعم عليك بهذه النعم سينصرك ويظهرك ويبدل لك هذا العسر بيسر قريب ولذلك كرر إن مع العسر يسرا مبالغة، وقال صلى الله عليه وسلم: "لن يغلب عسر يسرين"[1]. وقد روي ذلك عن عمر وابن مسعود، وتأويله: أن العسر المذكور في هذه السورة واحد لأن الألف

---

(١) هذا الحديث ثابت موقوف على عمر بن الخطاب الموطأ الحديث رقم: (٨٥٤) والمستدرك الحديث رقم: (٣٩٠٩).

واللام للعهد كقولك جاءني رجل فأكرمت الرجل، واليسر اثنان لتنكيره، وقيل: إن اليسر الأول في الدنيا والثاني في الآخرة.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ هو من النصب بمعنى التعب، والمعنى إذا فرغت من أمر فاجتهد في آخر، ثم اختلف في تعيين الأمرين، فقيل: إذا فرغت من الفرائض فانصب في النوافل، وقيل: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، وقيل: إذا فرغت من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ قدم الجار والمجرور ليدل على الحصر أي لا ترغب إلا إلى ربك وحده .

* * * *

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾: فيها قولان:

الأول: أنه التين الذي يؤكل والزيتون الذي يعصر، أقسم الله بهما لفضيلتهما على سائر الثمار، روي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل مع أصحابه تينا فقال:" لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوه فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس". وقال صلى الله عليه وسلم: " نعم السواك الزيتون فإنه من الشجرة المباركة هي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي".

القول الثاني : أنهما موضعان ثم اختلف فيهما، فقيل: هما جبلان بالشام أحدهما بدمشق ينبت فيه التين والآخر بإيلياء ينبت فيه الزيتون، فكأنه قال ومنابت التين والزيتون، وقيل: التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس، وقيل: التين مسجد نوح والزيتون مسجد إبراهيم، والأظهر أنهما الموضعان من الشام وهما اللذان كان فيهما مولد عيسى أو مسكنه وذلك أن الله ذكر بعد هذا الطور الذي كلم عليه موسى والبلد الذي بعث منه محمد صلى الله عليه وسلم فتكون الآية نظير ما في التوراة: أن الله تعالى جاء من طور سيناء، وطلع من ساعد وهو موضع عيسى، وظهر من جبال باران

وهي مكة، وأقسم الله بهذه المواضع التي ذكر في التوراة لشرفها بالأنبياء المذكورين .

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بالشام، وأضافه الله إلى سينين ومعنى سينين مبارك فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، وقيل: معناه ذو الشجر واحدها سينه قاله الأخفش، وقال الزمخشري: ويجوز أن يعرب إعراب الجمع المذكر بالواو والياء وأن يلزم الياء وتحريك النون بحركات الإعراب .

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ هو مكة باتفاق، والأمين من الأمانة أو من الأمن لقوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن أحسن التقويم هو حسن الصورة وكمال العقل والشباب والقوة وأسفل سافلين هو الضعف والهرم والخرف فهو كقوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بعد هذا غير متصل بما قبله والاستثناء على هذا القول منقطع بمعنى لكن لأنه خارج عن معنى الكلام الأول.

والآخر: أن حسن التقويم الفطرة على الإيمان وأسفل سافلين الكفر أو تشويه الصورة في النار، والاستثناء على هذا متصل لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يردوا أسفل سافلين .

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قد ذكر .

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والدين شريعته والمعنى أي شيء يكذبك بالدين بعد هذه الدلائل التي تشهد بصحة نبوتك.

والآخر: أنه خطاب للإنسان الكافر، والدين على هذا الشريعة أو الجزاء الأخروي، ومعنى يكذبك على هذا يجعلك كاذبا لأن من أنكر الحق فهو كاذب، والمعنى أي شيء يجعلك كاذبا بسبب كفرك بالدين بعد أن علمت أن الله خلقك في أحسن تقويم ثم ردك أسفل سافلين، ولا شك أنه يقدر على بعثك كما قدر على هذا فلأي شيء تكذب بالبعث والجزاء.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تقرير ووعيد للكفار بأن يحكم عليهم بما يستحقون، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال: "بلى وأنا على ذلك من الشاهدين"[1].

* * * *

(١) الطبري ٢٤/٥١٦.

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ
ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى
يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾
أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾
سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

نزل صدرها بغار حراء، وهو أول ما نـزل مـن القـرآن حـسبما ورد عـن عائشة في الحديث الذي ذكرناه في أول الكتاب .

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه اقرأ القرآن مفتتحا باسم ربـك أو متبركـا باسـم ربـك وموضع باسم ربك نصب على الحال ولذا كان تقـديره مفتتحـا فيحتمـل أن يريد: ابتدئ القراءة بقول بسم الله الرحمن الرحيم، أو يريـد الابتـداء باسـم الله مطلقا.

والوجه الثاني: أن معناه اقرأ هذا اللفظ وهو باسم ربك الذي خلق فيكون باسم ربك مفعولا وهو المقروء .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حذف المفعول لقصد العموم كأنه قال: الذي خلق كل شيء ثم خصص خلقة الإنسان لما فيه مـن العجائـب والعبر، ويحتمـل أنـه أراد الذي خلـق الإنـسان كمـا قـال : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ثم

فسره بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ والعلق: جمع علقة وهي النطفة من الدم، والمراد بالإنسان هنا جنس بني آدم ولذلك جمع العلق لما أراد الجماعة بخلاف قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً﴾؛ لأنه أراد كل واحد على حدته ولم يدخل آدم في الإنسان هنا لأنه لم يخلق من علقة وإنما خلق من طين.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ كرر الأمر بالقراءة تأكيدا والواو للحال والمقصود تأنيس النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يقول: افعل ما أمرت به فإن ربك كريم وصيغة أفعل للمبالغة.

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ هذا تفسير للأكرم، فدل ذلك على أن نعمة التعليم أكبر نعمة وخص من التعليمات الكتابة بالقلم لما فيها من تخليد العلوم ومصالح الدين والدنيا، وقرأ ابن الزبير: "علم الخط بالقلم".

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ يحتمل أن يريد بهذا التعليم الكتابة لأن الإنسان لم يكن يعلمها في أول أمر أو يريد التعليم لكل شيء على الإطلاق، وقيل: إن الإنسان هنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والأظهر أنه جنس الإنسان على العموم.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ نزل هذا وما بعده إلى آخر السورة في أبي جهل بعد نزول صدرها بمدة وذلك أنه كان يطغى بكثرة ماله ويبالغ في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم، وكلا هنا يحتمل أن تكون زجرا لأبي جهل أو بمعنى حقا أو استفتاحا.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ في موضع المفعول من أجله أي يطغى من أجل غناه والرؤية هنا بمعنى العلم بدليل إعمال الفعل في الضمير ولا يكون ذلك إلا في أفعال القلوب، والمعنى رأى نفسه استغنى واستغنى هو المفعول الثاني .

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ هذا تهديد لأبي جهل وأمثاله .

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ اتفق المفسرون على أن العبد الذي صلى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن الذي نهاه أبو جهل لعنه الله، وسبب الآية: أن أبا جهل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في المسجد الحرام فهمَّ بأن يصل إليه ويمنعه من الصلاة، وروي أنه قال: لئن رأيته يصلي لأطأن عنقه، فجاءه وهو يصلي ثم انصرف عنه مرعوبا، فقيل له: ما هذا ؟ فقال: لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار وهول وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا " .

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أرأيت في هذا الموضع وفي الذي قبله وفي الذي بعده بمعنى أخبرني، فكأنه سؤال يفتقر إلى جواب وفيها معنى التعجيب والتوقيف، والخطاب فيها يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب من غير تعيين وهي تتعدى إلى مفعولين، وجاءت بعدها إن الشرطية في موضعين، وهما: قوله ﴿كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وقوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فيحتاج إلى الكلام في مفعول أرأيت في المواضع الثلاثة وفي جواب الشرطين وفي الضمائر المتصلة بهذه الأفعال وهي: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ و﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ على من تعود

هذه الضمائر فقال الزمخشري: إن قوله: ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ هو المفعول الأول لقوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى وأن الجملة الشرطية بعد ذلك في موضع المفعول الثاني وكررت أرأيت بعد ذلك للتأكيد فهي زائدة لا تحتاج إلى مفعول، وإن قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ هو جواب قوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾وجواب قوله: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ محذوف يدل عليه جواب فهو في المعنى جواب للشرطين معا، وأن الضمير في قوله: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ الذي نهى عن الصلاة، وهو أبو جهل، وكذلك الضمير في قوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وتقدير الكلام على هذا: أخبرني عن الذي ينهى عبدا إذا صلى إن كان هذا الناهي على الهدى أو إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى جميع أحواله من هداه وضلاله وتكذيبه ونهيه عن الصلاة وغير ذلك، فمقصود الآية تهديد له وزجر وإعلام بأن الله يراه، وخالفه ابن عطية في الضمائر، فقال: إن الضمير في قوله إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى للعبد الذي صلى، وأن الضمير في قوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ للذي نهى عن الصلاة، وخالفه أيضا في جعله أرأيت الثانية مكررة للتأكيد، وقال: إنها في المواضع الثلاثة توقيف وأن جوابه في المواضع الثلاثة قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ فإنه يصلح مع كل واحد منها ولكنه جاء في آخر الكلام اختصارا، وخالفهما أيضا الغزنوي في الجواب، فقال: إن جواب قوله: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ محذوف فقال إن تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أليس هو على الحق واتباعه واجب، والضمير على هذا يعود على العبد الذي صلى وفاقا لابن عطية .

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أوعد أبا جهل إن لم ينته عن كفره وطغيانه أن يؤخذ بناصيته فيلقى في النار، والناصية مقدم الرأس فهو كقوله: ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ والسفع: هو الجذب والقبض على الشيء، وقيل: هو الإحراق من قولك: سفعته النار، وأكد لنسفعا باللام والنون الخفيفة وكتبت في المصحف بالألف مراعاة للوقف عليها، ويظهر لي أن هذا الوعيد نفذ عليه يوم بدر حين قتل وأخذ بناصيته فجر إلى القليب .

﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أبدل ناصية من الناصية ووصفها بالكذب والخطيئة تجوزا، والكاذب: الخاطئ في الحقيقة صاحبها، والخاطئ الذي يفعل الذنب متعمدا، والمخطئ الذي يفعله بغير قصد .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ النادي والندي: المجلس الذي يجتمع فيه الناس، وكان أبو جهل قد قال: أيتوعدني محمد فوالله ما بالوادي أعظم ناديا مني. فنزلت الآية تهديدا وتعجيزا له، والمعنى: فليدع أهل ناديه لنصرته إن قدروا على ذلك، ثم أوعده بأن يدعو له زبانية جهنم وهم الملائكة الموكلون بالعذاب والزبانية في اللغة الشرط واحدهم زبنية؟ وقيل: زبني، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا"[(1)].

﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ أي تقرب إلى الله بالسجود كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاجتهدوا في الدعاء". وهذا موضع سجدة عند الشافعي وليست عند مالك من عزائم السجود.

---

(1) الطبري ٥٢٦/٢٤ وابن كثير ٤٣٩/٨.

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝﴾

اختلف الناس في ليلة القدر على ستة عشر قولا وهي: أنها ليلة إحدى وعشرين من رمضان، وليلة ثلاث وعشرين، وليلة خمس وعشرين، وليلة سبع وعشرين، وليلة تسع وعشرين، فهذه خمسة أقوال في ليالي الأوتار من العشر الأواخر من رمضان على قول من ابتدأ عدتها من أول العشر، وقد ابتدأ بعضهم عدتها من آخر الشهر فجعل ليالي الأوتار ليلة ثلاثين لأنها الأولى، وليلة ثمان وعشرين لأنها الثانية، وليلة ست وعشرين لأنها الخامسة، وليلة أربع وعشرين لأنها السابعة، وليلة اثنين وعشرين لأنها التاسعة فهذه خمسة أقوال أخر فتلك عشرة أقوال.

والقول الحادي عشر: أنها تدور في العشر الأواخر ولا تثبت في ليلة واحدة منها.

الثاني عشر: أنها مخفية في رمضان كله، وهذا ضعيف لقوله صلى الله عليه وسلم: "التمسوها في العشر الأواخر".

الثالث عشر: أنها مخفية في العام كله.

الرابع عشر: أنها ليلة النصف من شعبان وهذان القولان باطلان؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ فدل ذلك على أن ليلة القدر في رمضان.

القول الخامس عشر: أنها رفعت بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهذا ضعيف.

القول السادس عشر: أنها ليلة سبعة عشر من رمضان لأن وقعة بدر كانت صبيحة هذه الليلة.

وأرجح الأقوال أنها ليلة إحدى وعشرين من رمضان، أو ليلة ثلاث وعشرين، أو ليلة سبع وعشرين فقد جاءت في هذه الليالي الثلاث أحاديث صحيحة خرجها مسلم وغيره والأشهر أنها ليلة سبع وعشرين.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ الضمير في أنزلناه للقرآن دل على ذلك سياق الكلام وفي ذلك تعظيم للقرآن من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ذكر ضميره دون اسمه الظاهر دلالة على شهرته والاستغناء عن تسميته.

والثاني: أنه اختار لإنزاله أفضل الأوقات.

والثالث: أن الله أسند إنزاله إلى نفسه.

وفي كيفية إنزاله في ليلة القدر قولان:

أحدهما: أنه ابتدأ إنزاله فيها.

والآخر: أنه أنزل القرآن فيها جملة واحدة إلى السماء ثم نزل به جبريل إلى الأرض بطول عشرين سنة، وقيل: المعنى أنزلناه في شأن ليلة القدر وذكرها وهذا ضعيف، وسميت ليلة القدر من تقدير الأمور فيها أو من القدر بمعنى الشرف ويترجح الأول بقوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ .

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ هذا تعظيم لها، قال بعضهم: كل ما قال فيه ما أدراك فقد علمه النبي صلى الله عليه وسلم، وما قال فيه ما يدريك فإنه لا يعلمه.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ معناه أن من قامها كتب الله له أجر العبادة في ألف شهر، قال بعضهم: يعني في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفِر له ما تقدم من ذنبه"[1].

وسبب الآية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا ممن تقدم عبد الله ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك ورأوا أن أعمارهم تنقص عن ذلك فأعطاهم الله ليلة القدر وجعلها خيرا من العبادة في تلك المدة الطويلة.

وروي أن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما عوتب حين بايع معاوية فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام بني أمية ينزون على منبره نزو القردة وأعلمه أنهم يملكون أمر الناس ألف شهر، فاهتم لذلك فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من مدة ملك بني أمية ألف شهر، ثم كشف الغيب أنه كان من بيعة الحسن لمعاوية إلى قتل مروان الجعدي آخر ملوك بني أمية بالمشرق ألف شهر .

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ الروح هنا: جبريل عليه السلام، وقيل: صنف من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة وتنزلهم هو إلى

---

(١) البخاري الحديث رقم: (١٩٠١) ومسلم الحديث رقم: (٧٦٠) والنسائي الحديث رقم: (٢١٦٤).

الأرض، وقيل: إلى السماء الدنيا وهو تعظيم لليلة القدر ورحمة للمؤمنين القائمين فيها.

﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ هذا متعلق بما قبله والمعنى: أن الملائكة ينزلون ليلة القدر من أجل كل أمر يقضي الله في ذلك العام، فإنه روي: أن الله يعلم الملائكة بكل ما يكون في ذلك العام من الآجال والأرزاق وغير ذلك ليمتثلوا ذلك في العام كله، وقيل: على هذا المعنى أن من بمعنى الباء أي ينزلون بكل أمر، وهذا ضعيف، وقيل: إن المجرور يتعلق بما بعده، والمعنى أنها سلام من كل أمر أي سلامة من الآفات، قال مجاهد: لا يصيب أحد فيها داء، والأظهر أن الكلام تم عند قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ ثم ابتدأ قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ واختلف في معنى سلام فقيل: إنه من السلامة وقيل: إنه من التحية لأن الملائكة يسلمون على المؤمنين القائمين فيها، وكذلك اختلف في إعرابه فقيل: سلام هي مبتدإ وخبر وهذا يصح سواء جعلناه متصلا مع ما قبله أو منقطعا عنه، وقيل: سلام خبر مبتدأ مضمر تقديره أمرها سلام أو القول فيها سلام وهي مبتدأ خبرها حتى مطلع الفجر أي هي دائمة إلى طلوع الفجر، ويختلف الوقف باختلاف الإعراب، وقال ابن عباس: إن قوله هي إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين لأن هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة .

❊ ❊ ❊ ❊

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ
يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟
ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ
ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨

ذكر الله الكفار ثم قسمهم إلى صنفين: أهل الكتاب، والمشركين، وذكر أن جميعهم لم يكونوا منفكين حتى تأتيهم البينة وتقوم عليهم الحجة ببعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعنى منفكين: منفصلين، ثم اختلف في هذا الانفصال على أربعة أقوال:

أحدها: أن المعنى لم يكونوا منفصلين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة لتقوم عليهم الحجة.

الثاني: لم يكونوا منفصلين عن معرفة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله.

الثالث: اختاره ابن عطية وهو لم يكونوا منفصلين عن نظر الله وقدرته حتى يبعث الله إليهم رسولا يقيم عليهم الحجة.

الرابع: وهو الأظهر عندي أن المعنى لم يكونوا لينفصلوا من الدنيا حتى بعث الله لهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم فقامت عليهم الحجة لأنهم

لو انفصلت الدنيا دون بعثه لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فلما بعثه الله لم يبق لهم عذر ولا حجة، فمنفكين على هذا كقولك لا تبرح أو لا تزول حتى يكون كذا وكذا .

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، وإعرابه بدل من البينة أو خبر ابتداء مضمر .

﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يعني القرآن في صحفه .

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي قائمة بالحق مستقيمة المعانين، ووزن قيمة فيعلة وفيه مبالغة، قال ابن عطية: هذا على حذف مضاف تقديره فيها أحكام كتب ولا يحتاج إلى هذا الحذف لأن الكتب بمعنى المكتوبات .

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا من بعد ما علموا أنه حق، ويحتمل أن يريد تفرقهم في دينهم، كقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ وإنما خص الذين أوتوا الكتاب بالذكر هنا بعد ذكرهم مع غيرهم في أول السورة، لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بما يجدون في كتبهم من ذكره .

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ الآية معناها ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بعبادة الله، ولكنهم حرفوا وبدلوا، ويحتمل أن يكون المعنى ما أمروا في القرآن إلا بعبادة الله فلأي شيء ينكرونه ويكفرون به .

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ استدل المالكية بهذا على وجوب النية في الوضوء وهو بعيد؛ لأن الإخلاص هنا يراد به التوحيد وترك الشرك أو ترك الرياء، وذلك

أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال وهذا الإخلاص في التوحيد هو ترك الشرك الجلي وهذا الإخلاص في الأعمال هو الشرك الخفي وهو الرياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الرياء الشرك الأصغر"[1]. وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه تعالى يقول:" أنا أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه"[2].

واعلم أن الأعمال ثلاثة أنواع: مأمورات، ومنهيات، ومباحات.

فأما المأمورات: فالإخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله بحيث لا يشوبها بنية أخرى، فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول وإن كانت النية لغير وجه الله من طلب منفعة دنيوية أو مدح أو غير ذلك فالعمل رياء محض مردود، وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال، وأما المنهيات فإن تركها دون نية خرج عن عهدتها ولم يكن له أجر في تركها، وإن تركها بنية وجه الله حصل له الخروج عن عهدتها مع الأجر، وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك فإن فعلها بغير نية لم يكن له فيها أجر وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة، ويقصد بالجماع التعفف عن الحرام.

﴿حُنَفَآءَ﴾ جمع حنيف وقد ذكر.

---

(١) المسند للإمام أحمد ٥/٤٢٨ والمستدرك على الصحيحين للحاكم حديث رقم: (٨٠٥٥) والقاصد الحسنة للسخاوي ١/٢٥٢.

(٢) مسلم الحديث رقم : (٢٩٨٥).

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ تقديره الملة القيمة أو الجماعة القيمة وقد فسرنا القيمة ومعناه أن الذي أمروا به من عبادة الله والإخلاص له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هو دين الإسلام فلأي شيء لا يدخلون فيه .

﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الخلق لأن الله برأهم وأوجدهم بعد العدم وقرئ بالهمز وهو الأصل وبالياء وهو تخفيف من المهموز وهو أكثر استعمالا عند العرب .

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ اختلف هل هذا في الدنيا أو في الآخرة، فرضاهم عن الله في الدنيا هو الرضا بقضائه والرضا بدينه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا "[١].

ورضاهم عنه في الآخرة وهو رضاهم بما أعطاهم الله فيها أو رضا به الله عنهم كما ورد في الحديث أن الله يقول:" يا أهل الجنة هل تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا وأي شيء نريد وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين، فيقول: عندي أفضل من ذلك وهو رضواني فلا أسخط عليكم أبدا "[٢].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي لمن خافه، وهذا دليل على فضل الخوف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خوف الله رأس كل حكمة"[٣] .

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/٢٢٦.

(٢) البخاري الحديث رقم: (٦١٨٣) ومسلم الحديث رقم: (٢٨٢٩) والترمذي الحديث رقم: (٢٥٥٥)

(٣) قال أبو العالية: الحكمة خشية الله فإن خشية الله رأس كل حكمة. تفسير ابن كثير ١/٧٠٠ أمّا الأثر الذي عندنا فلم أعثر عليه مرفوعاً.

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي حركت واهتزت .

﴿زِلْزَالَهَا﴾ مصدر وإنما أضيف إليها تهويلا كأنه يقول: الزلزال الذي يليق بها على عِظم جرمها .

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ يعني الموتى الذين في جوفها وذلك عند النفخة الثانية في الصور، وقيل: هي الكنوز، وهذا ضعيف لأن إخراجها للكنوز وقت الدجال .

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ أي يتعجب من شأنها، فيحتمل أن يريد جنس الإنسان، أو الكافر خاصة؛ لأنه الذي يرى حينئذ ما لم يظن .

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ هذه عبارة عما يحدث الله فيها من الأهوال، فهو مجاز وحديثها بلسان الحال، وقيل: هو شهادتها على الناس بما عملوا على ظهرها فهو حقيقة، وتحدث يتعدى إلى مفعولين حذف الأول منهما، والتقدير: تحدث الخلق أخبارها وانتزع بعض المحدثين من قوله تحدث أخبارها أن قول المحدث حدثنا وأخبرنا سواء، وهذه الجملة هي جواب إذا

زلزلت وتحدث هو العامل في إذا ويومئذ بدل من إذا، ويجوز أن يكون العامل في إذا مضمر وتحدث عامل في يومئذ .

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ الباء سببية متعلقة بتحدث أي تحدث بسبب أن الله أوحى لها، ويحتمل أن يكون بأن الله أوحى لها بدلا من أخبارها وهذا كما تقول حدثت كذا وحدثت بكذا، والمعنى على هذا تحدث بحديث الوحي لها، وهذا الوحي يحتمل أن يكون إلهاما أو كلاما بواسطة الملائكة ولها بمعنى إليها، وقيل: معناه أوحى إلى الملائكة من أجلها وهذا بعيد .

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ معنى أشتاتا: مختلفين في أحوالهم، وواحد الأشتات شت، وصدر الناس هو انصرافهم من موضع وردهم، فقيل: الورد هو الدفن في القبور والصدر هو القيام للبعث، وقيل: الورد القيام للحشر والصدر الانصراف إلى الجنة والنار وهذا أظهر وفيه يعظم التفاوت بين أحوال الناس فيظهر كونهم أشتاتا .

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ المثقال: هو الوزن، والذرة: هي النملة الصغيرة، والرؤية هنا ليست برؤية بصر وإنما هي عبارة عن الجزاء، وذكر الله مثقال الذرة تنبيها على ما هو أكثر منه من طريق الأولى كأنه قال من يعمل قليلا أو كثيرا، وهذه الآية هي في المؤمنين لأن الكافر لا يجازى في الآخرة على حسناته إذ لم تقبل منه، واستدل أهل السنة بهذه الآية أنه لا يخلد مؤمن في النار لأنه إذا خلد لم ير ثوابا على إيمانه وعلى ما عمل من الحسنات، وروي عن عائشة: أنها تصدقت بحبة عنب فقيل لها في ذلك، فقالت: كم فيها من مثقال ذرة. وسمع رجل هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: حسبي الله لا أبالي أن أسمع غيرها .

﴿وَمَن يَعْـمَلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَـرَهُۥ﴾ هذا على عمومه في حق الكـافر، وأما المؤمنون فلا يجازون بذنوبهم إلا بستة شروط وهي: أن تكون ذنـوبهم كبائر، وأن يموتوا قبل التوبة منـها، وألا تكـون لهـم حـسنات أرجـح في الميزان منها، وأن لا يشفع فيهم، وأن لا يكونوا ممن استحق المغفرة بعمل كأهل بدر، وأن لا يعفو الله عنهم، فـإن المـؤمن العاصـي في مـشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

* * * *

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

اختلف في العاديات والموريات والمغيرات، هل يراد بها الخيل أو الإبل؟ وعلى القول بأنها الخيل اختلف: هل يعني خيل المجاهدين، أو الخيل على الإطلاق؟ وعلى القول بأنها الإبل اختلف: هل يعني إبل غزوة بدر، أو إبل المجاهدين مطلقا، أو إبل الحجاج، أو الإبل على الإطلاق؟ ومعنى العاديات: التي تعدو في مشيها، والضبح هو: تصويت جهير عند العدو الشديد ليس بصهال، وهو مصدر منصوب على تقدير يضبحن ضبحا، أو هو مصدر في موضع الحال تقديره العاديات في حال ضبحها، والموريات من قولك: أوريت النار إذا أوقدتها، والقدح: هو صك الحجارة فيخرج منه شعلة نار، وذلك عند ضرب الأرض لأرجل الخيل أو الإبل، وإعراب قدحا كإعراب ضبحا والمغيرات من قولك أغارت الخيل إذا خرجت للإغارة على الأعداء، وصبحا ظرف زمان لأن عادة أهل الغارة في الأكثر أن يخرجوا في الصباح.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ هذه الجملة معطوفة على العاديات وما بعده لأنه في تقدير التي تعدو، والنقع: الغبار، والضمير المجرور للوقت المذكور وهو الصبح، فالباء ظرفية أو للمكان الذي يقتضيه المعنى، فالباء أيضا ظرفية أو

للعدو وهو المصدر الذي يقتضيه العاديات فالباء سببية، ومعنى أثرن حركن والضمير الفاعل للإبل أو للخيل أي حركن الغبار عند مشيهن .

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ معنى وسطن توسطن، وجمعا اختلف هل المراد به جمع من الناس أو المزدلفة لأن اسمها جمع، والضمير المجرور للوقت أو للمكان أو للعدو أو للنقع .

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ هذا جواب القسم، والكنود: الكفور للنعمة، فالتقدير إن الإنسان لنعمة ربه لكفور، والإنسان جنس، وقيل: الكنود العاصي، وقال بعض الصوفية: الكنود هو الذي يعبد الله على عوض.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ الضمير للإنسان أي هو شاهد على نفسه بكنوده، وقيل: هو لله تعالى على معنى التهديد، والأول أرجح لأن الضمير الذي بعده للإنسان باتفاق فيجري الكلام على نسق واحد .

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ الخير هنا المال كقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ والمعنى أن الإنسان شديد الحب للمال فهو ذم لحبه والحرص عليه، وقيل: الشديد البخيل والمعنى على هذا أنه بخيل من أجل حب المال، والأول أظهر .

﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي بحث عنه، ذلك عبارة عن البعث .

﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي جمع ما في الصحف وأظهر محصلا أو ميز خيره من شره .

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ الضمير في ربهم وبهم يعود على الإنسان لأنه يراد به الجنس وفي هذه الجملة وجهان :

أحدهما: أن هذه الجملة معمول أفلا يعلم فكان الأصل أن تفتح إن ولكنها كسرت من أجل اللام التي في خبرها.

والثاني: أن تكون هذه الجملة مستأنفة ويكون معمول أفلا يعلم محذوفا ويكون الفاعل ضميرا يعود على الإنسان، والتقدير أفلا يعلم الإنسان حاله وما يكون منه إذا بعثر ما في القبور، وهذا هو الذي قاله ابن عطية ويحتمل عندي أن يكون فاعل أفلا يعلم ضميرا يعود على الله والمفعول محذوف والتقدير أفلا يعلم الله أعمال الإنسان إذا بعثر ما في القبور ثم استأنف قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ على وجه التأكيد أو البيان للمعنى المتقدم والعامل في إذا بعثر على هذا الوجه هو أفلا يعلم والعامل فيه على مقتضى قول ابن عطية هو المفعول المحذوف، وإذا هنا ظرفية بمعنى حين ووقت وليست بشرطية والعامل في يومئذ خبير وإنما خص ذلك بيوم القيامة لأنه يوم الجزاء بقصد التهديد مع أن الله خبير على الإطلاق .

* * * *

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ من أسماء القيامة لأنها تقرع القلوب بهولها، وقيل: هي النفخة في الصور، لأنها تقرع الأسماع .

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ وخبر في موضع خبر القارعة والمراد به تعظيم شأنها وكذلك ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ .

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ العامل في الظرف محذوف دل عليه القارعة تقديره تقرع في يوم، والفراش: هو الطير الصغير الذي يشبه البعوض ويدور حول المصباح، والمبثوث: هو المنتشر المتفرق، شبه الله الخلق يوم القيامة به في كثرتهم وانتشارهم وذلتهم، ويحتمل أنه شبههم به لتساقطهم في جهنم كما يتساقط الفراش في المصباح، قال بعض العلماء: الناس في أول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر فيكونون حينئذ كالجراد المنتشر لأن الجراد يقصد إلى جهة واحدة، وقيل: الفراش هنا الجراد الصغير وهو ضعيف .

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ العهن هو الصوف، وقيل: الصوف الأحمر، وقيل: الصوف الملون ألوانا، شبه الله الجبال يوم القيامة به لأنها تنسف فتصير لينة، وعلى القول بأنه الملون يكون التشبيه أيضا من طريق اختلاف ألوان الجبال لأن منها بيضاء وحمراء وسوداء .

﴿ مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ هو جمع ميزان أو جمع موزون، وميزان الأعمال يوم القيامة له لسان وكفتان عند الجمهور، وقال قوم: هو عبارة عن العدل .

﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ معناه ذات رضى عند سيبويه، وثقل الموازين بكثرة الحسنات وخفتها بقلتها، ولا يخف ميزان مؤمن خفة موبقة لأن الإيمان يوزن فيه .

﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الهاوية جهنم سميت بذلك لأن الناس يهوون فيها أي يسقطون، وأمه معناه مأواه، كقولك المدينة أم فلان أي مسكنه على التشبيه بالأم الوالدة لأنها مأوى الولد ومرجعه.

الثاني: أن الأم هي الوالدة، وهاوية ساقطة، وذلك عبارة عن هلاكه كقولك أمه ثكلى إذا هلك.

الثالث: أن المعنى أم رأسه هاوية في جهنم أي ساقطة فيها لأنه يطرح فيها منكوسا، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل:" لا أم لك، فقال: يا رسول الله تدعوني إلى الهدى وتقول لي لا أم لك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إنما أردت لا نار لك " قال الله تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾". وهذا يؤيد القول الأول .

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴾ الهاء للسكت والضمير لجهنم على القول بأنها هي الهاوية وهو للفعلة والخصلة التي يراد بها العذاب على القول الثاني والثالث والمقصود تعظيمها ثم فسرها بقوله: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ .

* * * *

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ
لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هذا خبر يراد به الوعظ والتوبيخ، ومعنى ألهاكم: شغلكم، والتكاثر: المباهاة بكثرة المال والأولاد وأن يقول هؤلاء نحن أكثر ويقول هؤلاء نحن أكثر، ولما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم قال:" يقول ابن آدم مالي مالي! وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت"[1] .

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معناه حتى متم، فأراد بزيارة المقابر الدفن فيها.

الثاني: أن معناه حتى ذكرتم الموتى الذين في المقابر، فعبر بزيارتها عن التفاخر بمن فيها لأن بعض العرب يفاخر بآبائه الموتى، فالمعنى ألهاكم التكاثر حتى بلغتم فيه إلى ذكر الموتى.

الثالث: أن معناه زيارة المقابر حقيقة لتعظيم أهلها والتفاخر بهم فيقال هذا قبر فلان، ليشهر ذكره ويعظم قدره .

---

(١) روي الحديث بعدة ألفاظ منها في مسلم الحديث رقم: (٢٩٥٨) والترمذي الحديث رقم: (٢٣٤٢) والنسائي الحديث رقم: (٣٦١٣).

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ زجر وتهديد، ثم كرره للتأكيد وعطفه بثم إشارة إلى أن الثاني أعظم من الأول، وقيل: كلا سوف تعلمون في القبور ثم كلا سوف تعلمون يوم القيامة ، وقيل: الأول تهديد للكفار والثاني تهديد للمؤمنين، وحذف معمول تعلمون وتقديره تعلمون ما يحل بكم أو تعلمون أن القرآن حق أو تعلمون أنكم كنتم على خطإ في اشتغالكم بالدنيا وإنما حذفه لقصد التهويل، فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله .

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ جواب لو محذوف تقديره لو تعلمون لازدجرتم واستعددتم للآخرة، فينبغي الوقف على اليقين، ومعمول لو تعلمون محذوف أيضا، وعلم اليقين مصدر، ومعنى علم اليقين: العلم الذي لا يشك فيه، قال بعضهم هو من إضافة الشيء إلى نفسه كقولك: دار الآخرة وقال الزمخشري: معناه علم الأمور التي تتيقنونها بالمشاهدة .

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ هذا جواب قسم محذوف وهو تفسير لمفعول لو تعلمون تقديره لو تعلمون عاقبة أمركم، ثم فسرها بأنها رؤية الجحيم والتفسير بعد الإبهام يدل على التهويل والتعظيم، والخطاب لجميع الناس فهو كقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ وقيل: للكفار خاصة فالرؤية على هذا يراد بها الدخول فيها .

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ هذا تأكيد للرؤية المتقدمة وعطفه بثم للتهويل والتفخيم، والعين هنا من قولك: عين الشيء نفسه وذاته أي لترونها الرؤية التي هي نفس اليقين .

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ هذا إخبار بالسؤال في الآخرة عن نعيم الدنيا، فقيل: النعيم الأمن والصحة، وقيل: الطعام والشراب، وهذه أمثلة

والصواب العموم في كل ما يتلذذ به، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" بيت يكنك، وخرقة تواريك، وكسرة تشد قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم". وقال صلى الله عليه وسلم:" كل نعيم فمسئول عنه إلا نعيم في سبيل الله". وأكل صلى الله عليه وسلم يوما مع أصحابه رطبا وشربوا عليه ماء فقال لهم: "هذا من النعيم الذي تسئلون عنه"[1] .

* * * *

(١) خرجه أحمد والنسائي وابن جرير الدر المنثور ١٠/٣٤٠ والطبري ٢٤/٥٨٣ وابن كثير ٨/٤٧٦.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه صلاة العصر، أقسم الله بها لفضلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله"[1].

الثاني: أنه العشي، أقسم به كما أقسم بالضحى، ويؤيد هذا قول أبي بن كعب سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العصر؟ فقال: أقسم ربكم بآخر النهار.

والثالث: أنه الزمان .

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ الإنسان جنس ولذلك استثنى منه الذين آمنوا فهذا استثناء متصل .

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي وصى بعضهم بعضا بالحق وبالصبر فالحق هو الإسلام وما يتضمنه، وفيه إشارة إلى كذب الكفار وفي الصبر إشارة إلى صبر المؤمنين على إذاية الكفار لهم بمكة.

---

(١) البخاري الحديث رقم: (٥٢٧) ومسلم الحديث رقم: (٦٢٦) وأبو داود الحديث رقم: (٤١٤) والترمذي الحديث رقم: (١٧٥) والنسائي الحديث رقم: (٥١٢).

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا
لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ
﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ هو على الجملة الذي يعيب الناس ويأكل أعراضهم، واشتقاقه من الهمز واللمز وصيغة فعلة للمبالغة، واختلف في الفرق بين الكلمتين، فقيل: الهمز في الحضور واللمز في الغيبة، وقيل: بالعكس، وقيل: الهمز باليد والعين واللمز باللسان، وقيل: هما سواء ونزلت السورة في الأخنس بن شريق لأنه كان كثير الوقيعة في الناس، وقيل: في أمية بن خلف، وقيل: في الوليد بن المغيرة، ولفظها مع ذلك على العموم في كل من اتصف بهذه الصفات.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي أحصاه وحافظ على عدده ألا ينقص فمنعه من الخيرات، وقيل: معناه استعده وادخره عدة لحوادث الدهر.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي يظن بفرط جهله واغتراره أن ماله يخلده في الدنيا، وقيل: يظن أن ماله يوصله إلى دار الخلد.

﴿كَلَّا﴾ رد عليه فيما ظنه.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ هذا جواب قسم محذوف والحطمة هي جهنم وإنما سميت حطمة لأنها تحطم ما يلقى فيها وتلتهبه، وقد عظمها بقوله:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ثم فسرها بأنها: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي تبلغ القلوب بإحراقها، قال ابن عطية: يحتمل أن يكون المعنى أنها تطلع على ما في القلوب من العقائد والنيات بإطلاع الله إياها .

﴿مُّؤۡصَدَةٌ﴾ مغلقة .

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ العمد جمع عمود وهو عند سيبويه اسم جمع، وقرئ عمد بضمتين، والعمود: هو المستطيل من حديد أو خشب، والممددة: الطويلة وفي المعنى قولان:

أحدهما: أن أبواب جهنم أغلقت عليهم ثم مدت على أبوابها عمد تشديدا في الإغلاق والثقاف كما تثقف أبواب البيوت بالعمد وهو على هذا متعلق بمؤصدة.

والآخر: أنهم موثوقون مغلولون في العمد، فالمجرور على هذا في موضع خبر مبتدإ مضمر تقديره هم موثوقون في عمد.

* * * *

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝

نزلت هذه السورة منبهة على العبرة في قصة الفيل التي وقعت عام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنها تدل على كرامة الله للكعبة وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به، وفيها مع ذلك عجائب من قدرة الله وشدة عقابه، وقد ذكرت القصة في كتب السير وغيرها، واختصارها: أن أبرهة ملك الحبشة بني بيتا باليمن وأراد أن يحج الناس إليه كما يحجون إلى الكعبة، فذهب أعرابي وأحدث في البيت، فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة فاحتفل في جموعه، وركب الفيل وقصد مكة فلما وصل قريبا منها فر أهلها إلى الجبال وأسلموا له الكعبة، وأخذ لعبد المطلب مائتي بعير فكلمه فيها، فقال له: كيف تكلمني في الإبل ولا تكلمني في الكعبة؟ وقد جئت لهدمها وهي شرفك وشرف قومك، فقال له: أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه، فبرك الفيل بذي الغميس ولم يتوجه إلى مكة، فكانوا إذا وجهوه إلى غيرها هرول وإذا وجهوه إليها توقف ولو أبضعوه بالحديد، فبينما هم كذلك أرسل الله عليهم طيورا سودا، وقيل: خضرا، عند كل طائر ثلاثة أحجار في منقاره ورجليه فرمتهم الطيور بالحجارة فكان الحجر يقتل من وقع عليه، وروي: أنه كان يدخل في رأسه ويخرج من دبره، ووقع في سائرهم الجدري والأسقام، وانصرفوا فماتوا في الطريق متفرقين في المراحل وتقطع أبرهة أنملة أنملة .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ معناه ألم تعلم، وكيف في موضع نصب بفعل ربك لا بألم تر، والجملة معمول ألم تر.

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي إبطال وتخسير.

﴿أَبَابِيلَ﴾ معناه: جماعات شيئا بعد شيء، قال الزمخشري: واحدها أبلة، وقال جمهور الناس: هو جمع لا واحد له من لفظه.

﴿بِحِجَارَةٍ﴾ روي: أن كل حجر منها كان فوق العدسة ودون الحمصة، قال ابن عباس: إنه أدرك عند أم هانئ نحو قفيز من هذه الحجارة وأنها كانت مخططة بحمرة، وروي: أنه كان على كل حجر اسم من يقع عليه مكتوبا.

﴿سِجِّيلٍ﴾ قد ذكر.

﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ العصف: ورق الزرع وتبنه، والمراد أنهم صاروا رميما، وفي تشبيههم به ثلاثة أوجه:

الأول: أنه شبههم بالتبن إذا أكلته الدواب ثم راثته، فجمع التلف والخسة، ولكن الله كنى عن هذا على حسب أدب القرآن.

الثاني: أنه أراد ورق الزرع إذا أكلته الدود.

الثالث: أنه أراد كعصف مأكول زرعه وبقي هو لا شيء.

* * * *

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ قريش: هم حي من عرب الحجاز الذين هم من ذرية معد بن عدنان إلا أنه لا يقال قريشي إلا لمن كان من ذرية النضر بن كنانة، وهم ينقسمون إلى أفخاذ وبيوت؛ نحو بني هاشم، وبني أمية، وبني مخزوم وغيرهم، وإنما سميت القبيلة قريشا لتقرشهم، والتقرش: التكسب وكانوا تجارا، وعن معاوية أنه سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشا؟ قال: لدابة في البحر تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى، وكانوا ساكنين بمكة، وكان لهم رحلتان في كل عام للتجارة رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، وقيل: كانت الرحلتان جميعا إلى الشام، وقيل: كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل فيقيمون بها ويرحلون في الشتاء إلى مكة لسكناهم بها، والإيلاف مصدر من قولك آلفت المكان إذا ألفته، وقيل: هو منقول منه بالهمزة يقال ألف الرجل الشيء وألفه إياه غيره فالمعنى على القول الأول أن قريشا ألفوا رحلة الشتاء والصيف وعلى الثاني أن الله ألفهم الرحلتين، واختلف في تعلق قوله لإيلاف قريش على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يتعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ والمعنى فليعبدوا الله من أجل إيلافهم الرحلتين فإن ذلك نعمة من الله عليهم.

الثاني: أنه يتعلق بمحذوف تقديره اعجبوا لإيلاف قريش.

الثالث: أنه يتعلق بسورة الفيل، والمعنى: أن الله أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش، فهو يتعلق بقوله: ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ أو بما قبله من الأفعال ويؤيد هذا أن السورتين في مصحف أبي بن كعب سورة واحدة لا فصل بينهما، وقد قرأهما عمر في ركعة واحدة من المغرب، وذكر الله الإيلاف أولا مطلقا ثم أبدل منه الإيلاف المقيد بالرحلتين تعظيما للأمر ونصب رحلة لأنه مفعول بإيلافهم، وقال: ﴿رِحْلَةَ ﴾ وأراد رحلتين فهو كقول الشاعر:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ هذا إقامة حجة عليهم بملاطفة واستدعاء لهم وتذكير بالنعم، والبيت هو المسجد الحرام.

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ يحتمل أن يريد إطعامهم بسبب الرحلتين، فقد روي: أنهم كانوا قبل ذلك في شدة وضيق حال حتى أكلوا الجيف، ويحتمل أن يريد إطعامهم على الإطلاق فقد كان أهل مكة ساكنين بواد غير ذي زرع، ولكن الله أطعمهم مما يجلب إليهم من البلاد بدعوة أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو قوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾.

﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ يحتمل أن يريد آمنهم من خوف أصحاب الفيل، ويحتمل أن يريد آمنهم في بلدهم بدعوة إبراهيم في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وقد فسرناه في موضعه أو يعني آمنهم في أسفارهم لأنهم كانوا في رحلتهم آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء، وكان غيرهم من الناس تؤخذ أموالهم وأنفسهم، وقيل: آمنهم من الجذام فلا يرى بمكة مجذوم، قال الزمخشري: التنكير في جوع وخوف لشدتهما.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ قيل: إن هذا نزل في أبي جهل وأبي سفيان بن حرب، وقيل: هو مطلق، والدين هنا الملة أو الجزاء.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي يدفعه بعنف وهذا الدفع يحتمل أن يكون عن إطعامه والإحسان إليه أو عن ماله وحقوقه وهذا أشد، والذي لا يحض على طعام المسكين لا يطعمه من باب أولى، وهذه الجملة هي جواب أرأيت لأن معناها أخبرني فكأنه سؤال وجواب، والمعنى انظر الذي كذب بالدين تجد فيه هذه الأخلاق القبيحة والأعمال السيئة، وإنما ذلك لأن الدين يحمل صاحبه على فعل الحسنات وترك السيئات، فمقصود الكلام ذم الكفار وأحوالهم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قيل: إن هذا نزل في عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق، والسورة على هذا نصفها مكي ونصفها مدني قاله أبو زيد السهيلي، وذلك أن ذكر أبي جهل وغيره من الكفار أكثر ما جاء في السور المكية، وذكر السهو عن الصلاة والرياء فيها إنما هي من صفات المنافقين الذين كانوا بالمدينة لاسيما على قول من قال إنها في عبد الله بن أبي، وقيل: إنها مكية كلها وهو الأشهر، ونزل آخرها على هذا في

رجل أسلم بمكة ولم يكن صحيح الإيمان، وقيل: مدنية، والسهو عن الصلاة هو تركها أو تأخيرها تهاونا بها، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال:" الذين يؤخرونها عن وقتها "[1]. وقال عطاء بن يسار: الحمد لله الذي قال: عن صلاتهم ساهون ولم يقل في صلاتهم .

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ هو من الرياء أي صلاتهم رياء للناس لا لله .

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ وصف لهم بالبخل وقلة المنفعة للناس، وفي الماعون أربعة أقوال:

الأول: أنه الزكاة.

الثاني: أنه المال بلغة قريش.

الثالث: أنه الماء.

الرابع: أنه ما يتعاطاه الناس بينهم: كالآنية، والفأس، والدلو، والمقص، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ فقال:" الماء، والنار، والملح ". وزاد في بعض الطرق:" الإبرة والخميرة ".

* * * *

(١) روي هذا المعنى عن كثير من السلف. انظر الطبري ٦٢١/٢٤ ولم أهتد لتخريج هذا الحديث المرفوع.

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ هـذا خطـاب للـنبي صـلى الله عليـه وسـلم، والكوثر: بثاء مبالغة من الكثرة، وفي تفسيره سبعة أقوال:

الأول: حوض النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني: أنه الخير الكثير الـذي أعطـاه الله في الـدنيا والآخـرة، قالـه ابـن عباس وتبعه سعيد بن جبير، فإن قيل: إن النهر الـذي في الجنـة مـن الخـير الذي أعطاه الله، فالمعنى أنه على العموم.

الثالث: أن الكوثر القرآن.

الرابع: أنه كثرة الأصحاب والأتباع.

الخامس: أنه التوحيد.

السادس: أنه الشفاعة.

السابع: أنه نور وضعه الله في قلبه، ولا شك أن الله أعطاه هـذه الأشـياء كلها، ولكـن الـصحيح أن المـراد بـالكوثر الحـوض لمـا ورد في الحـديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أتدرون ما الكـوثر؟ هـو نهر أعطانيه الله"(١). وهو الحوض آنيته عدد نجوم السماء .

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ: " فإنه نهر وعدنيه ربي". الحديث رقم: (٤٠٠).

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فيه خمسة أقوال:

الأول: أنه أمره بالصلاة على الإطلاق، وبنحر الهدي والضحايا.

الثاني: أنه صلى الله عليه وسلم كان يضحي قبل صلاة العيد فأمر أن يصلي ثم ينحر، فالمقصود على هذا تأخير نحر الأضاحي عن الصلاة.

الثالث: أن الكفار كانوا يصلون مكاء وتصدية وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم صل لربك وحده، وانحر له أي لوجهه لا لغيره، فهو على هذا أمر بالتوحيد والإخلاص.

الرابع: أن معنى انحر ضع يدك اليمنى على اليسرى عند صدرك في الصلاة فهو على هذا من النحر وهو الصدر.

الخامس: أن معناه ارفع يديك عند نحرك في افتتاح الصلاة .

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الشانئ: هو المبغض، وهو من الشنآن بمعنى العداوة، ونزلت هذه الآية في العاصي بن وائل، وقيل: في أبي جهل على وجه الرد عليه، إذ قال إن محمدا أبتر أي لا ولد له ذكر فإذا مات استرحنا منه وانقطع أمره بموته، فأخبر الله أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد؛ لأنه مبتور من رحمة الله أي مقطوع عنها، ولأنه لا يذكر إذا ذكر إلا باللعنة بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر مرفوع على المنابر والصوامع، مقرونٌ بذكر الله، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهو كوالدهم.

* * * *

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦

سبب هذه السورة: إن قوما من قريش منهم الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاصي بن وائل وأبو جهل ونظراؤهم قالوا: يا محمد اتبع ديننا ونتبع دينك اعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فقال: معاذ الله أن نشرك بالله شيئا، ونزلت السورة في معنى البراءة من آلهتهم، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من قرأها فقد برئ من الشرك "[1].

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا إخبار أنه لا يعبد أصنامهم، فإن قيل: لم كرر هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ ؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: قاله الزمخشري وهو أن قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يريد في الزمان المستقبل وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ يريد به فيما مضى، أي ما كنت قط عابدا ما عبدتم فيما سلف فكيف تطلبون ذلك مني الآن.

الثاني: قاله ابن عطية، وهو أن قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لما كان يحتمل أن يراد به زمان الحال خاصة قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي أبدا ما عشت، وهذا معترض لأن لا النافية إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال بقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ لا يحتمل أن يراد به الحال، ويحتمل عندي

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٥٠٧.

أن يكون فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يراد به في المستقبل، على حسب ما تقتضيه لا من الاستقبال، ويكون قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ يريد به في الحال فيحصل من المجموع نفي عبادته للأصنام في الحال والاستقبال، ومعنى الحال في قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أظهر من معنى المضي الذي قاله الزمخشري ومن معنى الاستقبال، فان قولك ما زيد بقائم بنفي الجملة الاسمية يقتضي الحال.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ هذا إخبار أن هؤلاء الكفار لا يعبدون الله كما قيل لنوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن إلا أن هذا في حق قوم مخصوصين ماتوا على الكفر، وقد روي أن هؤلاء الجماعة المذكورين هم أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف وأبي بن خلف وابن الحجاج وكلهم ماتوا كفارا، فإن قيل: لم قال ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ بما دون من التي هي موضوعة لمن يعقل؟ فالجواب: من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن ذلك لمناسبة قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فإن هذا واقع على الأصنام التي لا تعقل ثم جعل ما أعبد على طريقته لتناسب اللفظ.

الثاني: أنه أراد الصفة، كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق، قاله الزمخشري.

الثالث: أن ما مصدرية والتقدير لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي وهذا ضعيف، فإن قيل: لم كرر هذا المعنى واللفظ؛ فقال بعد ذلك ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ مرة أخرى؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: قول الزمخشري وهو أن الأول في المستقبل والثاني فيما مضى.

والآخر: قاله ابن عطية، وهو أن الأول في الحال والثاني في الاستقبال، فهو حتم عليهم أن لا يؤمنوا أبدا .

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي لكم شرككم ولي توحيدي وهذه براءة منهم، وفيها مسالمة منسوخة بالسيف .

* * * *

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

" سأل عمر بن الخطاب جماعة من الصحابة رضي الله عنهم عن معنى هذا السورة؟ فقالوا: إن الله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والاستغفار عند النصر والفتح، وذلك على ظاهر لفظها، فقال لابن عباس بمحضرهم: يا عبد الله ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله بقربه إذا رأى النصر والفتح، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما علمت"[1]. وقد قال بهذا المعنى ابن مسعود وغيره، ويؤيده قول عائشة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وأسلم العرب جعل يكثر أن يقول:" سبحانك اللهم وبحمدك اللهم إني أستغفرك " يتأول القرآن أي هذه السورة، وقال لها مرة: ما أراه إلا حضور أجلي، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى أيام التشريق في حجة الوداع وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوما أو نحوها، وقال ابن مسعود هذه السورة تسمى "سورة التوديع" .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ يعني بالفتح فتح مكة والطائف وغيرهما من البلاد التي فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عباس: إن النصر صلح الحديبية والفتح فتح مكة، وقيل: النصر إسلام أهل اليمن، والإخبار بذلك كله قبل وقوعه إخبار بغيب فهو من أعلام النبوءة .

---

(١) وهذا الأثر في الصحيح. الطبري ١٧/ ٢٠٠.

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ أي جماعات، وذلك أنه أسلم بعد فتح مكة بشر كثير فقد روي: أن رسول صلى الله عليه وسلم كان معه في فتح مكة عشرة آلاف، وكان معه في غزوة تبوك سبعون ألفا. وقال أبو عمر بن عبد البر: لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب رجل كافر، وقد قيل: إن عدد المسلمين عند موته مائة ألف وأربعة عشر ألفا .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ قد ذكر التسبيح والاستغفار ومعنى بحمد ربك فيما تقدم، فإن قيل: لم أمره الله بالتسبيح والحمد والاستغفار عند رؤية النصر والفتح وعند اقتراب أجله؟ فالجواب: أنه أمر بالتسبيح والحمد ليكون شكرا على النصر والفتح وظهور الإسلام، وأمره بذلك وبالاستغفار عند اقتراب أجله ليكون ذلك زاداً للآخرة وعدة للقاء الله .

* * * *

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝

سببها: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا، فنادى بأعلى صوته: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقال لهم: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، ثم أنذرهم عموما وخصوصا فقال له أبو لهب: تبا لك ألهذا جمعتنا؟ فنزلت السورة.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ معنى تبت: خسرت، والتباب هو الخسران، وأبو لهب هو عبدالعزى بن عبد المطلب بن هاشم وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من أشد الناس عداوة له، فإن قيل: لم ذكره الله بكنيته دون اسمه؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن كنيته كانت أغلب عليه من اسمه كأبي بكر وغيره، ويقال إنه كني بأبي لهب لتلهب وجهه جمالا.

الثاني: أنه لما كان اسمه عبدالعزى عدل عنه إلى الكنية.

الثالث: أنه لما كان من أهل النار واللهب، كناه أبا لهب وليناسب ذلك قوله: سيصلى نارا ذات لهب .

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية يراد بها النفي وماله: هو رأس ماله، وما كسب: الربح، أو ماله ما ورث، وما كسب هو ما اكتسبه لنفسه، وقيل: ماله جميع ماله وما كسب.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ هذا حتم عليه بدخول النار ومات بعد ذلك كافرا .

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ اسم امرأته أم جميل بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان وعمة معاوية، وفي وصفها بحمالة الحطب أربعة أقوال:

أحدهما: أنها كانت تحمل حطبا وشوكا فتلقيه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم لتؤذيه.

الثاني: أن ذلك عبارة عن مشيها بالنميمة، يقال فلان يحمل الحطب بين الناس أي يوقد بينهم نار العداوة بالنمائم .

الثالث: أنه عبارة عن سعيها بالمضرة على المسلمين، يقال فلان يحطب على فلان إذا قصد الإضرار به.

الرابع: أنه عبارة عن ذنوبها وسوء أعمالها .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ الجيد: العنق، والمسد: الليف، وقيل: الحبل المفتول، وفي المراد به ثلاثة أقوال:

الأول: أنه إخبار عن حملها الحطب في الدنيا على القول الأول، وفي ذلك تحقير لها وإظهار لخساسة حالها.

والآخر: أن حالها في جهنم يكون كذلك أي يكون في عنقها حبل.

الثالث: أنها كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقنها على عداوة محمد، فأخبر عن قلادتها بحبل المسد على جهة التفاؤل والذم لها بتبرجها، ويحتمل قوله وامرأته وما بعده وجوها من الإعراب يختلف الوقف

باختلافها، وهي أن يكون: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ مبتدءا أو ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ خبره أو ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ نعت والخبر في ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ أو يكون امرأته معطوفا على الضمير في يصلى، وحمالة الحطب نعت أو خبر ابتـداء مضمر.

* * * *

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

سبب نزول هذه السورة: أن اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه فإنه وصف نفسه في التوراة ونسبها! فارتعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خر مغشيا عليه ونزل عليه جبريل عليه السلام بهذه السورة، وقيل: إن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربك فنزلت، وعلى الرواية الأولى: تكون السورة مدنية، وعلى الرواية الثانية: تكون مكية، واختلف في معنى قوله صلى الله عليه وسلم:" قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن "[1]. فقيل: إن ذلك في الثواب، أي لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن، وقيل: إن ذلك فيما تضمنته من المعاني والعلوم، وذلك أن علوم القرآن ثلاثة: توحيد، وأحكام، وقصص، وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار وهذا أظهر وعليه حمل ابن عطية الحديث، ويؤيده أن في بعض روايات الحديث:" إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءا من أجزاء القرآن ". وخرج النسائي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرؤها فقال:" أما هذا فقد غفر له "[2].

---

(١) أخرجه: مسلم الحديث رقم: (١٣٤٤) والترمذي الحديث رقم: (٢٨١٩) وابن ماجة الحديث رقم (٣٧٧٧) والمسند الحديث رقم (٩١٧٠).

(٢) ورواه الإمام أحمد في المسند الحديث رقم: (١٦٠٢٢).

وفي رواية أنه قال:" وجبت له الجنة "[1]. وخرج مسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية فكان يقرأ لأصحابه في الصلاة قل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أخبروه أن الله يحبه "[2]. وفي رواية خرجها الترمذي: أنه صلى الله عليه وسلم قال للرجل: "حبك إياها أدخلك الجنة "[3]. وخرج الترمذي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من قرأ قل هو الله أحد مائة مرة كل يوم غفرت له ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين ".

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضمير هنا عند البصريين ضمير الأمر والشأن، والذي يراد به التعظيم والتفخيم، وإعرابه مبتدأ وخبره الجملة التي بعده وهي المفسرة له والله مبتدأ وأحد خبره، وقيل: الله هو الخبر وأحد بدل منه، وقيل: الله بدل وأحد هو الخبر، وأحد له معنيان:

أحدهما: أن يكون من أسماء النفي التي لا تقع إلا في غير الواجب كقولك ما جاءني أحد وليس هذا موضع هذا المعنى، وإنما موضعه قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

---

(١) المسند الحديث رقم: (٧٦٦٩).

(٢) البخاري الحديث رقم: (٦٩٤٠) ومسلم الحديث رقم: (٨١٣) وصحيح ابن حبان الحديث رقم: (٧٩٣).

(٣) وانظر المسند الحديث رقم: (١٢٤٥٥) وسنن الدارمي الحديث رقم: (٣٤٣٥) وصحيح ابن حبان الحديث رقم: (١٩٢) .

والآخر: أن يكون بمعنى واحد وأصله وحد بواو ثم أبدل من الواو همزة وهذا هو المراد هنا، واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى:

الأول: أنه واحد لا ثاني معه فهو نفي للعدد.

والثاني: أنه واحد لا نظير له ولا شريك، كما تقول فلان واحد عصره أي لا نظير له.

والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض.

والأظهر أن المراد في السورة نفي الشريك لقصد الرد على المشركين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قال الزمخشري: أحد وصف بالوحدانية ونفي الشركاء.

قلت: وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته وذلك في القرآن كثير جدا وأوضحها أربعة براهين:

الأول: قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ لأنه إذا ثبت أن الله تعالى خالق جميع الموجودات لم يمكن أن يكون واحد منها شريكا له.

والثاني: قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

والثالث: قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

والرابع: قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقد فسرنا هذه الآيات في مواضعها وتكلمنا على حقيقة التوحيد في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ في معنى الصمد ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه السيد الذي يصمد إليه في الأمور، أي يلجأ إليه.

والآخر: أنه الذي لا يأكل ولا يشرب فهو كقوله: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾.

والثالث: أنه الذي لا جوف له، والأول هو المراد هنا على الأظهر ورجحه ابن عطية بأن الله موجد الموجودات وبه قوامها، فهي مفتقرة إليه أي تصمد إليه إذ لا تقوم بأنفسها، ورجحه شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير بورود معناه في القرآن حيثما ورد نفي الولد عن الله تعالى كقوله في مريم: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ ثم أعقبه بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ وقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وكذلك هنا ذكره مع قوله: ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ فيكون برهانا على نفي الولد، قال الزمخشري: صمد فعل بمعنى مفعول لأنه مصمود إليه في الحوائج.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ هذا رد على كل من جعل لله ولدا فمنهم النصارى في قولهم: عيسى ابن الله، واليهود في قولهم: عزير ابن الله، والعرب في قولهم: الملائكة بنات الله، وقد أقام الله البراهين في القرآن على نفي الولد وأوضحها أربعة أقوال:

الأول: أن الولد لا بد أن يكون من جنس والده والله تعالى ليس له جنس، فلا يمكن أن يكون له ولد وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ

ٱلطَّعَامَ﴾ فوصفهما بصفة الحدوث لينفي عنهما صفات القدم فتبطل مقالة الكفار.

والثاني: أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه، والله لا يفتقر إلى شيء فلا يتخذ ولدا وإلى هذا أشار بقوله: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾.

الثالث: أن جميع الخلق عباد الله والعبودية تنافي الربوبية وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾.

الرابع: أنه لا يكون ولد إلا لمن له زوجة، والله تعالى لم يتخذ زوجة فلا يكون له ولد، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ﴾.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا رد على الذين قالوا انسب لنا ربك وذلك أن كل مولود محدث والله تعالى هو الأول الذي لا افتتاح لوجوده القديم الذي كان ولم يكن معه شيء غيره فلا يمكن أن يكون مولودا تعالى عن ذلك.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ الكفؤ: هو النظير والمماثل، قال الزمخشري: يجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح فيكون نفيا للصاحبة وهذا بعيد والأول هو الصحيح، ومعناه أن الله ليس له نظير ولا شبيه ولا مثيل، ويجوز في كفؤا ضم الفاء وإسكانها مع ضم الكاف وقد قرئ بالوجهين ويجوز أيضا كسر الكاف وإسكان الفاء، ويجوز كسر الكاف وفتح الفاء والمد، ويجوز فيه الهمزة والتسهيل وانتصب كفؤا على أنه خبر كان وأحد اسمها قال ابن عطية: ويجوز أن يكون كفوًا حالا لكونه كان صفة

للنكرة فقدم عليها، فإن قيل: لم قدم المجرور وهو: له، على اسم كان وخبرها وشأن الظرف إذا وقع غير خبر أن يؤخر؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه قدم للاعتناء به والتعظيم لأنه ضمير الله تعالى وشأن العرب تقديم ما هو أهم وأولى.

والآخر: أن هذا المجرور به يتم معنى الخبر وتكمل فائدته فإنه ليس المقصود نفي الكفؤ مطلقا، إنما المقصود نفي الكفؤ عن الله تعالى فلذلك اعتنى بهذا المجرور الذي يحرز هذا المعنى فقدم، فإن قيل: إن قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقتضي نفي الولد والكفؤ فلم نص على ذلك بعده؟ فالجواب: أن هذا من التجريد وهو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في عموم ما تقدم كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ ويفعل ذلك لوجهين يصح كل واحد منهما هنا:

أحدهما: الاعتناء ولا شك أن نفي الولد والكفؤ عن الله ينبغي الاعتناء به للرد على من قال خلاف ذلك من الكفار .

والآخر: الإيضاح والبيان فإن دخول الشيء في ضمن العموم ليس كالنص عليه فنص على هذا بيانا وإيضاحا للمعنى ومبالغة في الرد على الكفار وتأكيدا لإقامة الحجة عليهم .

* * * *

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ تقدم معنى أعوذ في التعوذ ومعنى رب في اللغات والفاتحة، وفي الفلق ثلاثة أقوال:

الأول: أنه الصبح ومنه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ قال الزمخشري: هو فعل بمعنى مفعول.

الثاني: أنه كل ما يفلقه الله كفلق الأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك.

الثالث: أنه جب في جهنم وقد روي هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ هذا عموم في جميع المخلوقات، وشرهم على أنواع كثيرة أعاذنا الله منها، وما هنا موصولة أو موصوفة أو مصدرية .

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ فيه ثمانية أقوال:

الأول: أنه الليل إذا أظلم ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ وهذا قول الأكثرين وذلك لأن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن، ولذلك قيل في المثل: "الليل أخفى للويل".

الثاني: أنه القمر، خرج النسائي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى القمر فقال:"يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب"[1]. ووقوبه على هذا كسوفه، لأن وقب في كلام العرب يكون بمعنى الظلمة والسواد، وبمعنى الدخول فالمعنى إذا دخل في الكسوف أو إذا أظلم به.

الثالث: أنه الشمس إذا غربت والوقوب على هذا المعنى الظلمة أو الدخول.

الرابع: أن الغاسق النهار إذا دخل في الليل، وهذا قريب من الذي قبله.

الخامس: أن الغاسق سقوط الثريا وكانت الأسقام والطاعون تهيج عنده، وروي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" النجم هو الغاسق". فيحتمل أن يريد الثريا.

السادس: أنه الذكر إذا قام، حكى النقاش هذا القول عن ابن عباس.

السابع: قال الزمخشري يجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات، ووقبه: ضربه.

الثامن: أنه إبليس حكى ذلك السهيلي .

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ النفث: شبه النفخ دون تفل وريق قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: هو النفخ مع ريق، وهذا النفث ضرب من السحر وهو أن ينفث على عقد تعقد في خيط أو نحوه على اسم مسحور فيضره ذلك، وحكى ابن عطية أنه حدثه ثقة أنه رأى عند بعض الناس بصحراء المغرب خيطا أحمر قد عقدت فيه عقد على فصلان وهي أولاد الإبل فمنعها بذلك رضاع أمهاتها، فكان إذا حل عقدة جرى ذلك

---

(١) رواه الترمذي والنسائي في كتابهما انظر زاد المسير ٦/٢٠٣.

الفصيل إلى أمه فرضع في الحين، قال الزمخشري: إن في الاستعاذة من النفاثات ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يستعاذ من مثل عملهن وهو السحر ومن ائتمن في ذلك.

والثاني: أن يستعاذ من خداعهن للناس وفتنتهن.

والثالث: أن يستعاذ مما يصيب من الشر عند نفثهن.

والنفاثات بناء مبالغة والموصوف محذوف تقديره النساء النفاثات والجماعة النفاثات أو النفوس النفاثات والأول أرجح لأنه روي أنه إشارة إلى بنات لبيد بن الأعصم اليهودي وكن ساحرات سحرن هن وأبوهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقدن له إحدى عشرة عقدة فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية بعدد العقد وشفى الله رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن قيل: لم عرف النفاثات بالألف واللام ونكر ما قبله وهو غاسق وما بعده وهو حاسد مع أن الجميع مستعاذ منه؟ فالجواب: أنه عرف النفاثات ليفيد العموم لأن كل نفاثة شريرة بخلاف الغاسق والحاسد فإن شرهما في بعض دون بعض .

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحسد خلق مذموم طبعا وشرعا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ". وقال بعض العلماء: الحسد أول معصية عصي الله بها في السماء والأرض، أما في السماء فحسد إبليس لآدم وأما في الأرض فقتل قابيل لأخيه هابيل بسبب الحسد، ثم إن الحسد على درجات:

الأولى: أن يحب الإنسان زوال النعمة عن أخيه المسلم وإن كانت لا تنتقل إليه بل يكره إنعام الله على غيره ويتألم به.

الثانية: أن يحب زوال تلك النعمة لرغبته فيها ورجاء انتقالها إليه.

الثالثة: أن يتمنى لنفسه مثل تلك النعمة من غير أن يحب زوالها عن غيره، وهذا جائز وليس بحسد وإنما هو غبطة.

والحاسد يضر نفسه ثلاث مضرات:

أحدها: اكتساب الذنوب لأن الحسد حرام.

الثانية: سوء الأدب مع الله تعالى فإن حقيقة الحسد كراهية إنعام الله على عبده واعتراض على الله في فعله.

الثالثة: تألم قلبه من كثرة همه وغمه.

فنرغب إلى الله أن يجعلنا محسودين لا حاسدين فإن المحسود في نعمة والحاسد في كرب ونقمة، ولله در الشاعر في قوله:

وإني لأرحم حسادي لفرط ما ... ضمت صدورهم من الأوغار
نظروا صنيع الله بي فعيونهم ... في جنة وقلوبهم في نار

وقال آخر:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم ... قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ... ومات أكثرنا غيظا بما يجد

ثم إن الحسود لا تزال عداوته ولا تنفع مداراته وهو ظالم يشاكي كأنه مظلوم ولقد صدق القائل:

كل العداوة قد ترجى إزالتها ... إلا عداوة من عاداك من حسَدِ

وقال حكيم الشعراء:

وأظلم خلق الله من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب

قال ابن عطية: قال بعض الحذاق: هذه السورة خمس آيات وهي مراد الناس بقولهم للحاسد الذي يخاف منه العين: الخمسة على عينك .

فإن قيل: لم قال: ﴿إِذَا وَقَبَ ﴾ و ﴿ إِذَا حَسَدَ﴾ فقيد بإذا التي تقتضى تخصيص بعض الأوقات؟ فالجواب: أن شر الحاسد ومضرته إنما تقع إذا أمضى حسده فحينئذ يضر بقوله أو بفعله أو بإصابته بالعين، فإن عين الحسود قاتلة، وأما إذا لم يمض حسده ولم يتصرف بمقتضاه فشره ضعيف، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ثلاث لا ينجو منهن أحد الحسد والظن والطيرة "(١). فمخرجه من الحسد أن لا يبقى، ومخرجه من الظن أن لا يحقق، ومخرجه من الطيرة ألا يرجع، فلهذا خصه بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ وكذلك الشر المخوف في الليل إنما هو إذا أظلم فلذلك خصه بقوله: ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ فإن قيل: إن قوله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ عموم يدخل تحته كل ما ذكر بعده فلأي شيء ذكر ما بعده؟ فالجواب: أن هذا من التجريد للاعتناء بالمذكور بعد العموم، ولقد تأكد ما ذكر في هذه السورة بعد العموم بسبب السحر الذي سحر اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حسدهم له .

* * * *

(١) كنز العمال الحديث رقم: (٤٣٧٨٩) وتخريج أحاديث الإحياء٣/١٥٥ وكشف الخفاء الحديث رقم: (٢٢٠٨).

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إن قيل: لم أضاف الرب إلى الناس خاصة وهو رب كل شيء؟ فالجواب: أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فخصهم بالذكر لأنهم المعوذون بهذا التعويذ والمقصودون هنا دون غيرهم.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ هذا عطف بيان، فإن قيل: لم قدم وصفه تعالى برب ثم بملك ثم بإله؟

فالجواب: أن هذا على الترتيب في الارتقاء إلى الأعلى وذلك أن الرب قد يطلق على كثير من الناس فيقال فلان رب الدار وشبه ذلك فبدأ به لاشتراك معناه، وأما الملك فلا يوصف به إلا أحد من الناس وهم الملوك ولا شك أنهم أعلى من سائر الناس فلذلك جاء به بعد الرب، وأما الإله فهو أعلى من الملك ولذلك لا يدعي الملوك أنهم آلهة فإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير فلذلك ختم به.

فإن قيل: لِم أظهر المضاف إليه وهو الناس في المرة الثانية والثالثة فهلا أضمره في المرتين لتقديم ذكره في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أو هلا اكتفى بإظهاره في المرة الثانية؟

فالجواب: أنه لما كان هذا عطف بيان حسن فيه البيان وهو الإظهار، دون الإضمار وقصد أيضا الاعتناء بالمكرر ذكره كقول الشاعر :

لا أرى لموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقير

﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو مشتق من الوسوسة: وهي الكلام الخفي، فيحتمل أن يكون الوسواس بمعنى الموسوس فكأنه اسم فاعل وهذا يظهر في قول ابن عطية: والوسواس من أسماء الشيطان، ويحتمل أن يكون مصدرا وصف به الموسوس على وجه المبالغة كعدل وصوم، أو على حذف مضاف تقديره ذي الوسواس، وقال الزمخشري: إنما المصدر وسواس بالكسر .

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ معناه الراجع على عقبه المستمر أحيانا، وذلك متمكن في الشيطان فإنه يوسوس فإذا ذكر العبد الله وتعوذ به منه تباعد عنه ثم رجع إليه عند الغفلة عن الذكر وهو يخنس في تباعده ثم في رجوعه بعد ذلك .

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ وسوسة الشيطان في صدر الإنسان بأنواع كثيرة منها: إفساد الإيمان والتشكيك في العقائد، فإن لم يقدر على ذلك أمره بالمعاصي، فإن لم يقدر على ذلك ثبطه عن الطاعات، فإن لم يقدر على ذلك أدخل عليه الرياء في الطاعات ليحبطها، فإن سلم من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه واستكثار عمله، ومن ذلك أنه يوقد في القلب نار الحسد والحقد والغضب حتى يقود الإنسان إلى شر الأعمال وأقبح الأحوال. وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء:

واحدها: الإكثار من ذكر الله

وثانيها: الإكثار من الاستعاذة بالله منه ومن أنفع شيء في ذلك قراءة هذه السورة.

وثالثها: مخالفته والعزم على عصيانه.

فإن قيل: لم قال: ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل في قلوب الناس؟ فالجواب: أن ذلك إشارة إلى عدم تمكن الوسوسة، وأنها غير حالة في القلب بل هي محومة في الصدر حول القلب.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ هذا بيان لجنس الوسواس وأنه يكون من الجن ومن الناس، ثم إن الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد به من يوسوس بخدعه وأقواله الخبيثة فإنه شيطان كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أو يريد به نفس الإنسان إذ تأمره بالسوء فإنها أمارة بالسوء، والأول أظهر، وقيل: إن الناس معطوف على الوسواس كأنه قال: أعوذ من شر الوسواس من الجنة، ومن شر الناس، وليس الناس على هذا ممن يوسوس، والأول أظهر وأشهر.

فإن قيل: لم ختم القرآن بالمعوذتين وما الحكمة في ذلك؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما كان القرآن من أعظم نعم الله تعالى على عباده، والنعم مظنة الحسد فختم بما يطفئ الحسد من الاستعاذة بالله.

الثاني: يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما: " أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط كما قال في فاتحة الكتاب لم ينزل في التورية ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها ". فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها، واختتم بسورتين لم ير مثلهما ليجمع حسن الافتتاح والاختتام، ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها.

الوجه الثالث: يظهر لي أيضا أنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعن آخر ما يقرأ من القراءة فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء وليكون القارئ محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره. وبالله التوفيق لا رب غيره.

((كمل كتاب التسهيل لعلوم التنزيل بعون الله وتوفيقه، فله الحمد كما هو أهله، فالخير بيده كله، ليس للعبد إلا إحسانه وطوله ورحمته وفضله، وأنا أرغب إليه كما أعانني بفضله على هذا الكتاب أن يجعله موجبا لدخولي الجنة من غير حساب ولا عتاب بحرمة القرآن العظيم وشفاعة محمد رسوله المصطفى الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وكان تمام تقييده في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر ربيع الثاني عام تسعة وثلاثين وسبع مائة، والحمد لله رب العالمين))[1].

* * * *

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعات وهو مثبت في كل النسخ المخطوطة عندنا.

المحتويات

المحتـــــــــــــــوى	الصفحة
سورة ص	٥
سورة الزمر	٣٦
سورة غافر	٦٣
سورة فصلت	٨٤
سورة الشورى	١٠٠
سورة الزخرف	١٢٤
سورة الدخان	١٤٨
سورة الجاثية	١٥٦
سورة الأحقاف	١٦٣
سورة محمد	١٧٦
سورة الفتح	١٨٩
سورة الحجرات	٢٠٥
سورة ق	٢١٧
سورة الذاريات	٢٣١
سورة الطور	٢٤٤
سورة النجم	٢٥٥
سورة القمر	٢٦٨
سورة الرحمن	٢٧٩
سورة الواقعة	٢٩١

المحتـــــــــــــــــوى	الصفحة
سورة الحديد	٣١٣
سورة المجادلة	٣٣٠
سورة الحشر	٣٤٤
سورة الممتحنة	٣٥٩
سورة الصف	٣٧١
سورة الجمعة	٣٧٦
سورة المنافقون	٣٨٣
سورة التغابن	٣٨٧
سورة الطلاق	٣٩١
سورة التحريم	٤٠٣
سورة الملك	٤١٢
سورة القلم	٤٢٠
سورة الحاقة	٤٣٢
سورة المعارج	٤٤٤
سورة نوح	٤٥٣
سورة الجن	٤٦٠
سورة المزمل	٤٧٠
سورة المدثر	٤٨١
سورة القيامة	٤٩٣
سورة الإنسان	٥٠١
سورة المرسلات	٥١٢
سورة النبأ	٥١٩
سورة النازعات	٥٢٦

المحتوى	الصفحة
سورة عبس	٥٣٤
سورة التكوير	٥٤١
سورة الإنفطار	٥٤٧
سورة المطففين	٥٥٠
سورة الإنشقاق	٥٥٨
سورة البروج	٥٦٤
سورة الطارق	٥٧١
سورة الأعلى	٥٧٥
سورة الغاشية	٥٨٠
سورة الفجر	٥٨٤
سورة البلد	٥٩٣
سورة الشمس	٥٩٨
سورة الليل	٦٠٢
سورة الضحى	٦٠٦
سورة الشرح	٦١٠
سورة التين	٦١٣
سورة العلق	٦١٦
سورة القدر	٦٢١
سورة البينة	٦٢٥
سورة الزلزلة	٦٢٩
سورة العاديات	٦٣٢
سورة القارعة	٦٣٥
سورة التكاثر	٦٣٨

المحتـــــــــــــــوى	الصفحة
سورة العصر	٦٤١
سورة الهمزة	٦٤٢
سورة الفيل	٦٤٤
سورة قريش	٦٤٦
سورة الماعون	٦٤٨
سورة الكوثر	٦٥٠
سورة الكافرون	٦٥٢
سورة النصر	٦٥٥
سورة المسد	٦٥٧
سورة الاخلاص	٦٦٠
سورة الفلق	٦٦٦
سورة الناس	٦٧١
المحتوى	٦٧٥